منهج القرآن الكريم

في تثبيت الرسول ﷺ وتكريمه

تأليف

عبد الرحمن بن عبد الجبار صالح هوساوي

دار الذخائر

منهج القرآن الكريم

في تثبيت الرسول ﷺ وتكريمه

أصل هذا الكتاب رسالة ماجستير

نوقشت في صباح يوم الإثنين ١٣ محرم عام ١٤١٣هـ الساعة الثامنة صباحاً من قبل لجنة المناقشة والحكم المكونة من:

فضيلة الشيخ: محمد محمد عبد الرحمن الراوي مشرفاً

فضيلة الدكتور: حسن أحمد جبر عضواً

فضيلة الدكتور: صلاح عبد المقصود الهداوي عضواً

وقد أجيزت الرسالة بتقدير ممتاز

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٦هـ - ١٩٩٥م

دار الذخائر

الدمام: ٣١٤٢١ - ص.ب: ٩٩٩

ت: ٨٣٢١٨٣٤ - فاكس: ٨٣٢٢٥٧٨

سُورَةُ الفُرْقَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ
وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ
بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ
إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾

الإهــداء

إلى والديّ اللذين ربياني على حب القرآن منذ الصغر . . .
أهدي هذا العمل عرفاناً ووفاءً لهما

إلى عمي: محمد صالح ـ رحمه الله وأسكنه فسيح جناته ـ

الذي كان له الفضل بعد الله في حفظي للقرآن الكريم . . .

أهدي هذا العمل شكراً وامتناناً
إلى زوجتي التي تحملت حياة الغربة مع أولادي
في فترة دراستي المنهجية . . .
أهدي هذا العمل اعترافاً بتضحياتها وصبرها

المقدّمة

وفيها..

- أهمية الموضوع وسبب اختياري له
- منهج البحث......
- خطة البحث ......
- شكر وتقدير ....

المقدّمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾[1]. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾[2]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾[3] أما بعد[4]:

فقد بعث الله نبيه محمداً ـ ﷺ ـ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الهداية، ولقد حرص النبي ﷺ ـ منذ أول يوم أرسل فيه وأمر بالتبليغ ـ على هداية قومه وعلى إيصال هذا النور إلى كل بيت من بيوت مكة، بل إلى كل فرد بعينه، خاصة الكبراء منهم، لما كان يرجو من وراء إسلامهم إسلام من خلفهم ـ الذين كانوا تحت سيطرتهم ـ ولقد بلغ حرصه ﷺ على هدايتهم غايته حتى عاتبه الله ـ عز وجل ـ بقوله: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾[5].

---

(١) سورة آل عمران، آية (١٠٢).

(٢) سورة النساء، آية (١).

(٣) سورة الأحزاب: الآيات (٧٠ ـ ٧١).

(٤) تسمى هذه خطبة الحاجة وكان الرسول ـ ﷺ ـ يفتتح بها كلامه.

(٥) سورة الكهف، آية (٦).

ولقد كان دافع هذا الحرص الرحمة الموصوف بها في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[1].

وفي مقابل هذا الحرص النابع من الشفقة والرحمة واجهه المكذبون بالتعنّت والتمادي في التكذيب، وإيذائه حسياً ومعنوياً، حسياً بضربه ومحاولة قتله، ومعنوياً بإثارة الشبهات حوله وحول رسالته، والانتقاص من قَدْره والكذب عليه زوراً وبهتاناً. ولم تكن ـ ولله الحمد ـ هذه التُهم والشبهات وتلك المؤامرات لتوهن من عزم رسول الله ـ ﷺ ـ فتَثْنَيه عن رسالته ودعوته أو تحرفه عن هدفه وقصده، وذلك لثقته بربه وتضرعه إليه لتثبيته، فقد كان ـ ﷺ ـ يكثر اللجوء إلى الله ـ عز وجل ـ في الرخاء فضلاً عن الشدة، ويكثر من قوله: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»[2].

ولقد سلك القرآنُ الكريمُ عدةَ أساليب لتثبيت النبي ـ ﷺ ـ أمام هذه التحديات حتى استطاع تبليغ رسالة ربه كاملة كما شهد الله له بذلك بقوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾[3]. ومضى إلى ربه تاركاً أمته على المحجة البيضاء، ليلهُا كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

وما أشبه الليلة بالبارحة، ففي هذه الأيام وبعد أن لاح فجر الصحوة[4] الإسلامية ورفرفت بيارقها ورسخت أقدامها وأصبحت حقيقة واقعة لا يستطيع أن يتجاهلها صديق ولا عدو، بدأت نواقيس الخطر تدق هنا وهناك، وأخذ أعداء الإسلام

---

(١) سورة الأنبياء، آية (١٠٧).

(٢) رواه الترمذي في سننه، تحقيق أحمد شاكر، كتاب الدعوات، باب (٩٠)، ج ٥/٥٣٨ وقال حديث حسن. (دار إحياء التراث العربي ـ بيروت).
وانظر: صحيح سنن الترمذي، لمحمد ناصر الدين الألباني (مكتب التربية العربي لدول الخليج، إشراف المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨ هـ) ج ٣/١٧١.

(٣) سورة المائدة، آية (٣).

(٤) الصحوة الإسلامية، مصطلح حديث أطلقه بعض المفكرين والدعاة في هذا العصر على البعث الجديد نحو الإسلام واليقظة الشبابية من غفلة ترك الالتزام بالإسلام وأحكامه إلى الالتزام به.
انظر كتاب «الصحوة الإسلامية إلى أين؟» د. عدنان رضا النحوي، ص ١٧ (دار النحوي ـ الرياض، الطبعة الأولى ـ ١٤١١ هـ).

في الشرق والغرب ـ يتداعُون لإجهاض هذه الصحوة المباركة ويحذرون[1] منها ويرصدونها بأجهزتهم المختلفة، ويثيرون حولها الشبهات ويضعون أمامها العراقيل، ويشككون في نوايا أبنائها بقصد زعزعة ثقة المسلمين ـ حكاماً ومحكومين ـ بهذه اليقظة الإسلامية، وفيما تدعو إليه من ضرورة الرجوع إلى المصدرين الكتاب والسنة، وإعادة بناء المجتمع بما يتفق مع المنهج الإسلامي.

لهذا أرى أن معرفة منهج القرآن في تثبيت النبي ـ ﷺ ـ من أهم الموضوعات التي ينبغي أن تُبحث وتنشر في هذا الزمان ـ الذي تتعرض فيه الأمة الإسلامية لأشرس هجمة من أعدائها، الحاقدين عليها والطامعين في خيراتها الطبيعية، والعاملين على زعزعة ثقتها بنفسها ـ حتى يتسنَّى لأبناء هذه الأمة الإسلامية أن يأخذوا دروساً وعبراً من هدي الرسول ـ ﷺ ـ في مواجهة الجاهلية الأولى، ولا سيما أن الله تعالى أمر المؤمنين بالتأسي بالنبي ـ ﷺ ـ في كل شيء: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[2].

ومن هذا المنطلق، وبعد أن جلت ببصري في المكتبة الإسلامية بصفة عامة، وفي مصنفات علوم القرآن بصفة خاصة، فلم أجد من أفرد هذا الجانب من حياة الرسول ـ ﷺ ـ بكتابة علمية مستقلة ـ حَسْب علمي ـ اقتنعت بضرورة الكتابة في هذا الموضوع، وعقدت العزم على أن يكون بحثي للماجستير فيه بعد أن استشرت أهل الاختصاص في القرآن وعلومه من أساتذتي ومشايخي، جزاهم الله خيراً وسميته:

---

(١) في كتاب عداء اليهود للحركة الإسلامية، لزياد محمود علي، (دار الفرقان ـ عمان ـ الطبعة الأولى /١٤٠٢ هـ)، يقول بن غوريون رئيس وزراء إسرائيل الأسبق: «نحن لا نخشى الاشتراكيات، ولا الثوريات، ولا الديمقراطيات في المنطقة، نحن نخشى الإسلام، هذا المارد الذي نام طويلاً، وبدأ يتململ من جديد» (ص ٤٦)، ونقلت إذاعة اسرائيل عن شمعون بيريز تعليقاً على نجاح ريغان في انتخابات الرئاسة الأمريكية: إن سياسة الولايات المتحدة في عهد ريغان ستتسم باتخاذ اجراءات عنيفة ضد الجماعات المتطرفة في المنطقة (ص ٤٧)، ونقل راديو اسرائيل الساعة العاشرة والربع من مساء يوم الخميس من أيلول ١٩٧٨ م عن معلق للشؤون السياسية قوله «إن عودة الروح الدينية للظهور من جديد في المنطقة تشكل تهديداً مباشراً لمستقبل اسرائيل ولمستقبل الحضارة الغربية بأسرها» (ص ٣٦).

(٢) سورة الأحزاب، آية (٢١).

«منهج القرآن الكريم في تثبيت الرسول ﷺ وتكريمه».

وهناك بواعِث أخرى دفعتني للكتابة حول هذا الموضوع، أجملها في النقاط التالية:

١ ـ إن طريقَ العبادة والطاعة والدعوة شاقةٌ ومحفوفة بالمحن والابتلاءات وطويلة لا تنتهي إلا بنهاية الحياة ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾[١] لذلك لا بد من الثبات على الطريق والاستمرار فيها ـ مهما طالت ـ ومقاومة المعوقات وتخطي العقبات مهما كثرت.

٢ ـ إن العبرة عند الله بالخواتيم، فلا يكفي أن يستقيم الإنسان فترة من الزمن ثم ينكص على عقبيه. لذلك جاء التوجيه الرباني للمؤمنين بالثبات على الإسلام حتى الممات، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[٢] وفي الحديث الذي رواه ابن مسعود[٣] ـ رضي الله عنه ـ (... وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبقُ عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها...)[٤].

٣ ـ تذبذب[٥] بعض دعاة الإسلام أو تراجعهم عن طريق الدعوة للإسلام بعد أن

---

(١) سورة الحجر، آية (٩٩).

(٢) سورة آل عمران، آية (١٠٢).

(٣) هو أبو عبد الرحمن، عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي حليف بني زهرة، اسلم قديماً وهو أول من جهر القرآن بمكة، شهد بدراً والمشاهد بعدها، مات بالمدينة سنة اثنين وثلاثين (الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت ـ ج ٤/ ١٢٩).

(٤) صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: د. مطصفى ديب البغا، (دار اليمامة، دمشق وبيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ هـ) كتاب القدر، باب (١) ج ٦/ ٢٤٣٣، ومسلم في كتاب القدر، باب كيفية الخلق الأدمي في بطن أمه، وكتابة رزقه وأجله وعمله، وشقاوته وسعادته، ج ٤/ ٢٠٣٦ (صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج ـ تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي).

(٥) أسباب التذبذب كثيرة أهمها على الإطلاق ضعف الإيمان، ومن هذه الأسباب الخوف على الرزق، الحرص على المنصب، الخوف من الأذى الجسماني، الخوف من الأذى المعنوي (التشهير، الاتهام بالباطل، إثارة الشبهات).

كان بعضهم في يوم من الأيام شعلةً تتوقد حماساً للالتزام بالإسلام والدعوة إليه، وفجأة انطفأت تلك الشمعة واختفت تلك الجذوة، وكلما رأيت أو سمعت عن صورة من هذه الصور دعوت الله ـ بما كان يدعو الرسول ـ ﷺ ـ أن يثبتني على الطريق: «اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»(١).

٤ ـ أحاديث رسول الله ـ ﷺ ـ التي تبين خفة القلب وسرعة تحوله وتقلبه حتى شبهه بالريشة في خفته. فعن أبي موسى الأشعري(٢) رضي الله عنه قال، قال رسول الله ـ ﷺ ـ «إنما سمّي القلب من تقلبه، إنما مثلُ القلب مَثل ريشة بالفلاة، تعلقت في أصل شجرة، يقلبها الريحُ ظهراً لبطن»(٣).

وحديث آخر يجعل القلب يرتجف ويسأل الله الثبات وحسنَ الختام، وهو ما رواه أحمد عن المقداد(٤) بن الأسود ـ رضي الله عنه ـ قال: لا أقول في رجل خيراً ولا شراً حتى أنظر ما يختم له، يعني بعد شيء سمعته من النبي ـ ﷺ ـ يقول: «القلبُ ابن آدم أشد تقلباً من القدر إذا استجمعت غليانها»(٥). ولما كان القلب بهذه الخفة،

---

(١) تقدم تخريج الحديث ص ١٠.

(٢) هو أبو موسى، عبد الله بن قيس بن سليم الأشعري سكن الرملة، أسلم ورجع إلى بلاد قومه وقدم المدينة بعد فتح خيبر، كان حسن الصوت بالقرآن، استعمله الرسول ﷺ على اليمن، وعمر على البصرة، وعثمان على الكوفة، وكان أحد الحكمين بصفين، مات سنة اثنين وأربعين (الإصابة ج ٤/ ١١٩ وما بعدها).

(٣) رواه أحمد في مسنده (دار الباز، مكة المكرمة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨ هـ)، ج ٤/ ٤٠٨، وذكره السيوطي في الجامع الصغير ورمز له بالصحة (انظر فيض القدير لعبد الرؤوف المناوي)، (دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٣٩١ هـ). ج ٣/ ٢.

(٤) هو المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك النهراني الحضرمي، هرب إلى مكة وحالف الأسود بن عبد يغوث الزهري، فتبناه الأسود فاشتهر بالمقداد بن الأسود، أسلم قديماً وهاجر الهجرتين وشهد بدراً والمشاهد بعدها، مات سنة ثلاثة وثلاثين في خلافة عثمان. (الإصابة، ج ٦ / ١٣٣).

(٥) رواه أحمد، ج ٦/ ٤، وأخرجه الحاكم في مستدركه، (دار الكتب العلمية)، وقال هذا حديث على شرط البخاري ولم يخرجه ج ٢/ ٢٨٩، كما ذكره السيوطي في الجامع الصحيح وعزاه إلى أحمد والحاكم، وحكم عليه بالصحة. (انظر فيض القدير للمناوي) ج ٥/ ٢٨١، وذكره الألباني في صحيح الجامع، محمد ناصر الدين الألباني، (المكتب الإسلامي، بيروت ودمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ هـ) ج ٢/ ٩١٥.

وبهذه التقلبات، فقد كان رسول الله ـ ﷺ ـ وهو أعلم الناس بربه وأتقى الناس له وأثبت الناس على دينه يسأل ربه أن يثبته، فعن أنس[١] بن مالك ـ رضي الله عنه ـ، قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ يكثر أن يقول: «اللهم ثبت قلبي على دينك» فقال رجل: يا رسول الله أتخاف علينا؟! وقد آمنا بك وصدقناك بما جئت به، فقال: «إن القلوب بين إِصْبَعَيْن من أصابع الرحمن ـ عز وجل ـ يقلبها»[٢].

وروى الترمذي[٣] عن شهر[٤] بن حوشب قال: قلت لأم سلمة[٥] يا أم المؤمنين ما كان أكثرُ دعاء رسول الله ـ ﷺ ـ إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دعائه: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»، قال: «يا أم سلمة، إنه ليس آدميٌّ إلا وقلبُهُ

---

(١) هو أبو حمزة، أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم من بني عدي بن النجار الأنصاري الخزرجي، خادم رسول الله وأحد المكثرين من الرواية، كان آخر الصحابة موتاً بالبصرة، مات سنة تسعين. (الإصابة، ج ١/ ٧٢).

(٢) صحيح ابن ماجه، محمد ناصر الدين الألباني، (مكتب التربية العربي لدول الخليج، إشراف المكتب الإسلامي ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨ هـ)، ج ٢/ ٣٢٥ كتاب الدعاء.

(٣) هو الإمام الحافظ، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى الضحاك الترمذي، صاحب «الجامع» وكتاب «العلل»، أضر في كبره بعد رحلته وكتابته العلم، من شيوخه البخاري وإسحاق بن راهويه وغيرهم. ولد في حدود سنة عشر ومئتين ومات بترمذ سنة سبعين ومئتين.
(سير أعلام النبلاء، للإمام الذهبي، تحقيق شعيب الأنؤوط، ج ١٣/ ٢٧٠ ـ مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣ هـ).

(٤) هو أبو سعيد، شهر بن حوشب الأشعري الشامي، مولى الصحابية أسماء بنت يزيد الأنصارية، كان من كبار علماء التابعين، وثقه بعض العلماء وجرحه بعضهم من جهة ضبطه وبالإرسال، قال ابن حجر: «صدوق كثير الإرسال والأوهام» وخلص الذهبي إلى القول: «الرجل غير مدفوع عن صدق وعلم، والاحتجاج به مترجح». مات سنة اثنتي عشرة ومئة: (سير أعلام النبلاء، ج ٤/ ٣٧٢ وما بعدها، تقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد عوامة، ص ٢٦٩ ـ دار الرشيد ـ حلب، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ).

(٥) هي أم المؤمنين، أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة بن عمرو بن مخزوم القرشية المخزومية، أسلمت قديماً هي وزوجها وهاجرا إلى الحبشة ثم قدما مكة وهاجرا إلى المدينة، تزوجها النبي ﷺ بعد وفاة زوجها عبد الأسد بن المغيرة، ماتت سنة إحدى وستين وقيل غير ذلك، وكانت آخر أمهات المؤمنين موتاً. (الإصابة، ج ٨/ ٢٤١).

بين إصبعَيْن من أصابع الله، فمن شاء أقامَ، ومن شاء أزاغ». فتلا معاذ[1] ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾[2] [3].

(١) هو معاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي، كان أبيض وضيء الوجه، شهد بدراً وهو ابن إحدى وعشرين سنة. كان أعلم الناس بالحلال والحرام، وهو ممن جمع القرآن على عهد النبي ﷺ. توفي بطاعون عمواس بالشام سنة سبع عشرة وعمره أربع وثلاثين سنة. (الإصابة، ج ٦/ ١٠٦ ـ ١٠٧).

(٢) سورة آل عمران، آية (٨).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب /٩، وقال هذا حديث حسن، ج (٥/ ٥٣٨)، وأخرجه الألباني في صحيح الترمذي، ج ٣/ ١٧١.

منهج البحث

أما المنهج الذي حاولت أن أسير عليه خلال هذا البحث فيتلخص في الآتي:

١ ـ سلكت في كتابة الرسالة المنهج التحليلي للنص القرآني ـ في الغالب ـ مسترشداً في ذلك بفهم المفسرين لتلك الآيات.

٢ ـ إذا توافقت أقوالُ المفسرين في الآية، أقدم عند العزو المتقدَم لاحتمال أن يكون المتأخر نقل عن المتقدم، فالمفسرون ـ كما هو معلوم ـ ينقل بعضهم عن بعض، وقد أشير إلى الآخرين في الهامش بقول: انظر تفسير كذا وكذا.....

٣ ـ غالباً ما أعتمد في روايات أسباب النزول على الكتب المتخصصة في ذلك، ككتاب: (أسباب نزول القرآن) للواحدي، و (لباب النقول في أسباب النزول) للسيوطي، وعلى كتب التفسير التي تُعنى بالرواية: كـ (جامع البيان) للطبري، و (الدر المنثور) للسيوطي، وعلى كتب الحديث عموماً.

٤ ـ عند عزو الحديث إلى مصادره، إذا أحلت إلى أكثر من مصدر فإن اللفظ يكون للمصدر المذكور أولاً، إلا أن أذكر أن اللفظ لفلان تحديداً.

٥ ـ إذا أطلقت عبارة (رواه البخاري) أو (رواه مسلم) فأعني في صحيحيهما، وإذا كان في غيرهما بينت ذلك بتقييده.

٦ ـ عند اتفاق الشيخين على إخراج الحديث، غالباً ما أكتفي برواية البخاري إلا إذا كانت رواية مسلم أنسب للمقام فأقدمها على رواية البخاري.

٧ ـ إذا كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما فلا أعرجُ على سواهما ولا أذكر غيَرهما ـ إلا لأمر ما ـ لأن أحاديثَهما ـ باتفاق العلماء ـ قد تجاوزت القنطرة. وإن لم

يكن فيهما أو في أحدهما بحثت في غيرهما، ناقلاً كلام العلماء ـ المتقدمين أو المتأخرين ـ في الحكم على الحديث تصحيحاً وتحسيناً. وإن لم يكن ثم حكم للعلماء على الحديث اكتفي بعزوه إلى مصادره الأصلية.

٨ ـ حاولت تخريج روايات السيرة من كتب الحديث مع نقل الحكم ما وجدت إلى ذلك سبيلاً، وإلا اكتفيت بعزوها إلى مراجع السيرة الأصيلة، كـ (سيرة ابن هشام) و (دلائل النبوة) للبيهقي وغيرهما.

٩ ـ أثبت أسماء المصادر والمراجع في الهامش بما اشتهرت به. فمثلاً تفسير «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم» اشتهر بـ «تفسير أبي السعود» وتفسير «معالم التنزيل» اشتهر بـ «تفسير البغوي» وهكذا... وإن كنت أثبت الاسم الحقيقي مع اسم الشهرة في فهرس المصادر والمراجع.

١٠ ـ عند ذكر المرجع لأول مرة في الهامش، أسجل بيانات كاملة، تشتمل: اسم المؤلف، والمحقق، وبيانات النشر ـ وبعد ذلك أكتفي بالإحالة إليه بذكر اسم الكتاب. أما المؤلف فأذكره إذا كان الكتاب يشتبه بغيره، ككتاب «دلائل النبوة» مثلاً، فيحتمل أن يكون للبيهقي، أو لأبي نعيم الأصبهاني، أو لاسماعيل الأصبهاني.

١١ ـ لما كنت قد استخدمت طبعتين لتفسير ابن جرير، الأجزاء المحققة للعلامة أحمد شاكر ـ وهي إلى نهاية سورة إبراهيم ـ والباقي اعتمدت على الأجزاء غير المحققة. فرّقت بينهما عند الإحالة، فقلت عن الأجزاء المحققة (جامع البيان / شاكر)، وإذا أطلقت (جامع البيان) فأقصد الأجزاء غير المحققة. وكذلك فعلت مع مسند أحمد، فعزوت إلى الأجزاء المحققة بقولي: (مسند أحمد/ شاكر)، وأطلقت (مسند أحمد) للأجزاء غير المحققة.

١٢ ـ بينت معنى كل كلمة غريبة وردت في البحث، معتمداً في ذلك على كتب الغريب في القرآن والسنة ومعاجم اللغة العربية، وأحياناً على شروح كتب الحديث والتفاسير.

١٣ ـ ترجمت في الهامش لكل عَلَم عند وروده أول مرة في صلب البحث فقط، مستثنياً المشهورين: كالخلفاء الأربعة، والأئمة الأربعة، والشيخين...

١٤ ـ عزوت الآيات القرآنية إلى سورها ذاكراً اسم السورة ورقم الآية بين

قوسين، أما الأحاديث فقد عزوتها إلى كتب الحديث الأصيلة ذاكراً الكتاب والباب والجزء والصفحة.

١٥ ـ حرصت أن أتبع ذكر الرسول ـ ﷺ ـ بالصلاة والسلام عليه، والصحابة بالترضي عليهم والعلماء بالترحم عليهم.

١٦ ـ سرت عند الاقتباس على مصطلحات علماء البحث العلمي، فما نقلته نصاً جعلته بين قوسين وأشرت إلى الهامش بذكر المصدر ورقم الصفحة، وما نقلته باختصار أو تحوير فغالباً ما أتركه غير مقوس مشيراً في الهامش إليه مع إضافة كلمة «بتصرف» إلا أن يكون التصرف يسيراً فأجعل النص بين قوسين أيضاً، وأشير في الهامش إلى ذلك بإضافة كلمة «يسير» قائلاً: «بتصرف يسير».

أما ما أفدته من مرجع ما فأكتفي في العزو بقول: انظر كذا. . .

خطة البحث

وقد استقر البحث على مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة:

ـ أما المقدمة فقد بينت فيها أهمية الموضوع وسبب اختياري له، ثم ذكرت منهج البحث وخطته، وختمت المقدمة بالشكر والعرفان لأهل الفضل.

أما التمهيد فقد اشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: تحدثت فيه عن حكمة الله تعالى في إرسال الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام. وقد أفضت في الحديث لبيان شدة حاجة البشر إلى هدى الرسل عليهم السلام، وقمت بتفنيد قول طائفة البراهمة التي زعمت استغناء البشر عن هدى الرسل عليهم السلام.

المبحث الثاني: تحدثت فيه عن سنة الله تعالى في الصراع بين الحق والباطل، وبينت حتمية هذا الصراع واستحالة تفادي أولياء الرحمن لهذا الصراع ـ حتى لو حاولوا ـ لكونه سنة ربانية ما وجدُ حق وباطل، حق يدافع عنه أولياء الرحمن وباطل يحميه أولياء الشيطان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ـ **أما الباب الأول**: فكان بعنوان (تثبيت الرسول ﷺ من خلال قصص النبيين والأمم السابقة). وقد اشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول وهو بعنوان: (وحدة الرسالات السماوية في العقيدة وأصول التشريع)، وقد انضوى تحته مبحثان:

المبحث الأول: اتفاق الرسل في العقيدة، وفيه تحدثت عن اتفاق الرسل عليهم السلام في الدعوة إلى توحيد الله، عارضاً دعوتهم إلى التوحيد على سبيل الإجمال

والتفصيل. ثم ذكرت الأدلة على اتفاقهم في تقرير اليوم الآخر، وختمت المبحث بذكر أساليب القرآن الكريم في إبراز وحدة الرسالات وترابط الرسل عليهم السلام.

المبحث الثاني: اتفاق الرسل في أصول التشريع. وفيه تحدثت عن اتفاقهم في أصول العبادات ـ الصلاة والزكاة والصيام والحج ـ وأصول الفضائل وأمهات الأخلاق.

ـ **أما الفصل الثاني فكان بعنوان**: (إثبات نبوة محمد ﷺ).. واشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: بشارة الأنبياء عليهم السلام ببعثة محمد ﷺ، ذكرت فيه الآيات الصريحة الدالة على تبشير الأنبياء السابقين ببعثته ﷺ.

المبحث الثاني: إخباره ﷺ عن قصص وأحداث وقعت في الزمان الغابر، مستدلاً بذلك على نبوته لكونه أخبر عن قصص وأحداث مطابقة للواقع دون مشاهدة أو سماع من أهل الكتاب أو غيرهم.

ـ **أما الفصل الثالث الذي كان بعنوان**: (سنة الله في مواقف الأمم من دعوة الرسل) فقد كان أطول فصول هذا الباب وأهمَّها بالنظر إلى موضوع الرسالة. وقد اشتمل على سبعة مباحث هي:

المبحث الأول: تكذيب الملأ للرسل ومعاداتهم للدعوة.

المبحث الثاني: استجابة المستضعفين للرسل.

المبحث الثالث: اعتراض المكذبين على الرسل في بشريتهم.

المبحث الرابع: استهزاء المكذبين بالرسل واتهامهم بالسحر والجنون.

المبحث الخامس: تهديد المكذبين للرسل بالأذى.

المبحث السادس: استعجال المكذبين نزول العذاب.

المبحث السابع: انتصار الرسل وهزيمة اعدائهم. وبه ختمت فصول هذا الباب.

ـ **أما الباب الثاني**: فهو أهم أبواب الرسالة ولذلك كان أطولها، وصلته مباشرة

بتثبيت النبي ﷺ، وكان بعنوان: (إنزال القرآن الكريم على الرسول ﷺ منجماً وأثر ذلك في تثبيته وتكريمه).

وقد اشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول وهو بعنوان: (دفاع الله عن رسوله ﷺ). وانضوى تحته ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الرد على الشبهات والاتهامات وكشف المؤامرات ضد الرسالة والرسول، وقد فصَّلت الكلام عن هذا المبحث في سبعة مطالب هي:

المطلب الأول: زعمهم أن القرآن أساطير الأولين.

المطلب الثاني: اتهامهم الرسول ﷺ بالافتراء والكذب.

المطلب الثالث: اتهامهم الرسول ﷺ بالسحر والجنون والشعر والكهانة.

المطلب الرابع: شبهة بشرية الرسول ﷺ.

المطلب الخامس: شبهة إنكارهم للبعث بعد الموت.

المطلب السادس: مؤامرات اليهود في التشكيك بالإسلام.

المطلب السابع: مؤامرات المنافقين للطعن في الإسلام.

المبحث الثاني: الإجابة عن تساؤلات المكذبين وتفنيد دعَاواهم، وجاء تفصيل الكلام عن هذا المبحث في ستة مطالب هي:

المطلب الأول: سؤالهم عن الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين والساعة.

المطلب الثاني: طلبهم للمعجزات الحسية تعنتاً.

المطلب الثالث: اقتراحاتهم المتعلقة بالقرآن الكريم على سبيل التعجيز.

المطلب الرابع: ادعاؤهم وجود حواجز نفسية بينهم وبين الرسول ﷺ.

المطلب الخامس: ادعاؤهم أن اتباعهم الرسول ﷺ يسلبهم الأمن والاستقرار.

المطلب السادس: استعجالهم نزول العذاب.

المبحث الثالث: إحباط المكائد التي تحاك لقتله ﷺ. وتحدثت فيه عن

محاولات المشركين قتل رسول الله ﷺ في حادثة الهجرة، ودلّلت على تولي الله عز وجل حماية رسوله ﷺ من كيد المشركين.

- **أما الفصل الثاني:** فقد كان بعنوان: (توجيه الله رسوله ﷺ في مواجهة المكذبين) وتحدثت فيه عن ثلاثة توجيهات هي مباحث هذا الفصل.

المبحث الأول: نهيه ﷺ عن الحزن على المكذبين وقصر مهمته على التبليغ.

المبحث الثاني: نهيه ﷺ عن الشك.

المبحث الثالث: أمره ﷺ بالصبر والأعراض عن المكذبين.

- **أما الفصل الثالث:** فكان بعنوان: (تأييد الله رسوله ﷺ في مواجهة المكذبين). واشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: إهانة الله المكذبين بالنبي ﷺ.

المبحث الثاني: توعّد الله المؤذين للرسول ﷺ بالعذاب. وتحدثت في هذا المبحث عن بعض رؤوس الكفر التي بالغت في إيذاء النبي ﷺ فحطمها القرآن الكريم عندما ذمهم ووصفهم بأقبح أوصافهم وتوعدهم في الآخرة بأشد العذاب.

المبحث الثالث: وعد الله رسوله ﷺ بالنصر والفتح المبين وتحقيق ذلك له:

وذكرت فيه بعض الوعود والبشائر التي وُعد بها رسول الله ﷺ وأصحابه يوم كانوا مستضعفين بمكة يخافون أن يتخطفهم الناس، وبينت كذلك أن هذه الوعود قد تحققت لرسول الله في غضون سنوات قليلة، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ودانت له الجزيرة العربية. وبذلك ختم الباب الثاني.

- **أما الباب الثالث فكان بعنوان:** (إظهار القرآن الكريم مكانة النبي ﷺ وأثر ذلك في تثبيته وتكريمه).

وفي هذا الباب يبدو جانب التكريم لرسول الله ﷺ أوضح من جانب التثبيت. وقد اشتمل هذا الباب على خمسة فصول هي:

الفصل الأول: إبراز القرآن الكريم صفات الرسول ﷺ وخصائصه والثناء عليه.

الفصل الثاني: تفضيل النبي محمد ﷺ على سائر الأنبياء السابقين عليهم السلام.

الفصل الثالث: أمر المؤمنين طاعة النبي ﷺ.

الفصل الرابع: أمر المؤمنين الأدب مع النبي ﷺ.

الفصل الخامس: تأييده بالمعجزات وتلبية رغباته وإجابة دعائه واللطف في عتابه ﷺ. وبذلك ختم الباب الثالث.

ثم ختمت الرسالة بخاتمة جعلتها في نقاط حاولت من خلالها إظهار كيفية الإفادة من منهج القرآن في تثبيت الرسول ﷺ لتثبيت دعاة الإسلام اليوم. وأخيراً ذيلت البحث بفهارس فنية كاشفة بلغت خمسة فهارس هي: فهرس الآيات القرآنية، وفهرس الأحاديث والآثار، وفهرس الأعلام المترجم لهم في البحث، وفهرس المصادر والمراجع، وأخيراً فهرس الموضوعات.

وفي الختام:

فإني أحمد الله وأشكره أولاً وآخراً، ظاهراً وباطناً على أن وفقني لاتمام هذا البحث الذي أسأله أن يجعله خالصاً لوجهه مؤدياً لغرضه. ولا أزعم أني استطعت الوفاء بكل ما التزمت به، كما لا أدعي أني استكملت جميع جوانب هذا البحث فإن الكمال لله عز وجل وحده والنقص والقصور من طبيعة البشر، لكن حسبي أني بذلت طاقتي واستفرغت وسعي، فإن كنت أصبت الحق فذلك محض فضل الله ومنّته وتوفيقه، وإن كانت الأخرى فمن نفسي ومن الشيطان، واستغفر الله وأتوب إليه من كل زلة قلم أو فكر تشعر بسوء الأدب مع الله أو مع رسله أو مع السلف الصالح.

واقتداءاً بقول الرسول ﷺ: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله»(١)، فإن أولى الناس بشكري هما والديّ اللذان ربياني على حب القرآن، منذ صغري، وعمي ـ رحمه الله ـ الذي شجعني على حفظ القرآن حتى تم لي ذلك بحمد، فجزاهم الله خير الجزاء وأسكن عمي فسيح جناته، كما أتقدم بالشكر الجزيل لاستاذي فضيلة الشيخ محمد بن عبد الرحمن الراوي المشرف على هذا البحث. فمع بُعد المسافة بين الرياض والظهران، التي كانت تفصل بيني وبينه فقد أحاطني برعايته وفضله وعلمه، وكان لتوجيهاته القيمة الصادرة عن الخبرة والدراية أكبر الأثر في إنجاز هذا البحث

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، ج ٤/٣٣٩.

وإخراجه بهذه الصورة. فجزاه الله عني خير الجزاء وبارك الله في عمره وجهده.

كما أشكر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ممثلة في كلية أصول الدين وقسم القرآن وعلومه بصفة خاصة على ما تقدمه من خدمة وعناية ورعاية للعلم وأهله وطلابه. كما أشكر المسؤولين في جامعة الملك فهد للبترول والمعادن ممثلة في كليتي الدراسات العليا والعلوم الذين أتاحوا لي هذه الفرصة لاستكمال دراستي التخصصية. كما لا يفوتني أن أشكر جميع أعضاء قسم الدراسات الإسلامية والعربية بجامعة الملك فهد الذين ساعدوني وشجعوني لاتمام هذا البحث. وإن كنت خاصاً أحداً بذكر وكلهم أهل للذكر، فرئيس القسم الدكتور محمد عثمان ملا، والدكتور: عبد الله بن سليمان المشوخي، والدكتور عبد الرحمن عتر، والدكتور عدنان عقاد، فجزى الله الجميع خير الجزاء وأجزل لهم في الدارين العطاء، والشكر موصول كذلك لكل من ساعدني في إعداد هذا البحث بنصيحة أو مناقشة أو طباعة أو تصويب أو تنبيه.

وأخيراً أشكر استاذيّ الفاضلين: فضيلة الشيخ الدكتور: صلاح عبد المقصود المهداوي، وفضيلة الشيخ الدكتور: حسن جبر، اللذين تكرما بقبول المشاركة في مناقشة هذه الرسالة لتقويم اعوجاجها، واستكمال نقصها فأسأل الله أن ينفعني بملاحظاتهما القيمة، وتوجيهاتهما السديدة، واستدراكاتهما النافعة إن شاء الله. فجزاهما الله عني خير الجزاء وأجزل لهما المثوبة في الدارين، وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

عبد الرحمن بن عبد الجبار صالح هوساوي

الظهران. ٣١٢٦١
جامعة الملك فهد للبترول والمعادن
ص ب ١٩٩٣

التمهيد

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: حكمة الله تعالى في إرسال الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام -

المبحث الثاني: سنة الله تعالى في الصراع بين الحق والباطل.

المبحث الأول

حكمة الله في إرسال الأنبياء والرسل ـ عليهم السلام

لقد وصف الله نفسه بـ «الحكيم» وهو الذي لا تصدر أفعاله إلا عن حكمة، فما من فعل يفعله الله ـ عز وجل ـ إلا وله حكمة، لأنه سبحانه منزه عن النقائص والعيوب، قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾[1]، فعدم البعث يجعل الخلق عبثاً ينزه الله عنه، لكن حكم الله في أفعاله قد تظهر للبشر وقد لا تظهر، إلا أن عدم ظهورها لا يعني عدم وجودها. ومن هذه الأفعال إرساله الرسل ـ عليهم السلام ـ فلا شك أن وراء إرسالهم حكماً كثيرة. وقد ظهر لي ـ من خلال الآيات ـ أن أهم حكم إرسال الرسل ثلاث:

١ ـ رحمة الله بالعالمين.

٢ ـ حاجة البشر الشديدة إلى هدي الرسل.

٣ ـ إقامة الحجة على الناس.

المطلب الأول

رحمة الله بالعالمين

لقد كانت بعثة الرسل وإنزال الكتب عليهم رحمة من الله بعباده، إذ اصطفى منهم رسلاً، وحمّلهم البينات والهدى، فعندما أهبط الله أبا البشر آدم ـ عليه السلام ـ إلى الأرض، ذكّره الله بعداوة إبليس له ولذريته وبين له أنه لا واقي لهم من هذه

(١) سورة المؤمنون، آية (١١٥).

العداوة إلا اتباع الهُدى الرباني على ألسنة الرسل، قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾[1]، فقد تعهد الله ـ في هذه الآية ـ لمن اتبع هدى الرسل بالطمأنينة والنجاة من الضلال والشقاء (فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى)، وكل من أعرض عن هذا الهُدى ونأى بجانبه فعاقبته معيشة ضنك، معيشة ضيقة رغم سعة الكون وحياة نكدة رغم رغد العيش، وهل بعد الضيق من شدة وشقاء؟! (إن الحياة المقطوعة الصلة بالله ورحمته الواسعة، ضنك مهما يكن فيها من سعة ومتاع. إنه ضنك الانقطاع عن الاتصال بالله والاطمئنان إلى حماه. ضنك الحيرة والقلق والشك. ضنك الحرص والحذر؛ الحرص على ما في اليد والحذر من الفوت. ضنك الجري وراء بارق المطامع والحسرة على كل ما يفوت، وما يشعر القلب بطمأنينة الاستقرار إلا في رحاب الله. وما يحس براحة الثقة إلا وهو مستمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها... إن طمأنينة الإيمان تضاعف الحياة طولاً وعرضاً وعمقاً وسعة، والحرمان منه شقوة لا تعدلها شقوة الفقر والحرمان)[2]، هذا في الدنيا، وفي الآخرة يكون الشقاء أدهى وأمر ﴿ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ فكما كان أعمى البصيرة في الدنيا سيكون أعمى البصر يوم القيامة ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾[3][4].

---

(١) سورة طه، آية (١٢٣ ـ ١٢٦).

(٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب (دار الشرق، بيروت، ١٣٩٣ هـ)، ج ٤/ ٢٣٥٥.

(٣) سورة الإسراء، آية (٧٢).

(٤) ذهب مجاهد وأبو صالح والسدي أن معنى (ونحشره يوم القيامة أعمى): أي لا حجة له، وقال عكرمة: عمي عليه كل شيء إلا جهنم، وذهب ابن جرير إلى أن معنى الآية أنه يحشر أعمى عن الحجة ورؤية الشيء. (جامع البيان، لابن جرير الطبري، ج ١٦/ ١٦٥ ـ دار المعرفة، بيروت)، ولم يرتض هذه التأويلات الشيخ الشنقيطي ـ رحمه الله ـ وبين أن الآية على ظاهرها، أي يحشر أعمى البصر لا يرى شيئاً، ودعم اعتراضه بقرائن فقال: والقرينة المذكورة وهي قوله تعالى: ﴿قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً﴾، فصرح بأن عماه هو العمى المقابل للبصر وهو بصر العين، لأن الكافر كان في الدنيا أعمى القلب كما دلت =

إذاً (فمن أعظم نعم الله على عباده وأشرف مننه عليهم أن أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه وبين لهم الصراط المستقيم، ولولا ذلك لكانوا بمنزلة الأنعام وأسوأ حالاً منها، فمن قبل رسالة الله واستقام عليها فهو من خير البرية ومن ردها وخرج عنها فهو من شر البرية وأسوأ حالاً من الكلب والخنزير وأحقر من كل حقير، فالحمد لله الذي أرسل إلينا رسولاً من أنفسنا يتلو علينا آياته ويزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة وإن كنا من قبل لفي ضلال مبين)[1].

ومن تمام رحمة الله بعباده أن أرسل كل رسول بلسان قومه ليبين لهم على أحسن وجه. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾[2]، وليكون لهم قدوة حسنة يقتدون به في تنفيذ المبادىء التي يدعوهم إليها، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[3].

وإذا كان إرسال الرسل رحمة للعباد ـ كما صرح القرآن بذلك[4]، فإنما ينتفع بهذه الرحمة من اتبع الرسل، غير أن نبينا محمداً ﷺ خُص ـ دون سائر الأنبياء ـ بأن إرساله كان رحمة لمن أطاعه ولمن عصاه، كما بيّن ذلك ابن عباس[5] ـ رضي الله

= على ذلك آيات كثيرة من كتاب الله، وقد أضاف جل وعلا في سورة بني إسرائيل أنه مع ذلك العمى يحشر أصم أبكم أيضاً، وذلك في قوله تعالى: ﴿**ومن يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً**﴾ الإسراء، آية (٩٧). وانظر أضواء البيان، لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقطي (المطابع الأهلية «للأوفست»، الرياض، ١٤٠٣ هـ) ج ٤/ ٥٤٨.

(١) لوامع الأنوار البهية، وسواطع الأسرار الأثرية، شرح الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية للعلامة الشيخ محمد بن أحمد السفاريني (المكتب الإسلامي ومكتبة أسامة، بيروت والرياض) ج ٢/ ٢٦١.

(٢) سورة إبراهيم، آية (٤).

(٣) سورة الأحزاب، آية (٢١).

(٤) قال تعالى عن نبينا ﷺ: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾ الأنبياء / ١٠٧، وقال عن عيسى ـ عليه السلام ـ: ﴿**ولنجعله آية للناس ورحمة منا...**﴾ مريم / ٢١، وقال عن موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿**ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة**﴾ هود/ ١٧.

(٥) هو أبو العباس، عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي، ابن عم =

عنه ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[1]، قال: من آمن بالله واليوم الآخر كتب له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عُوفي مما أصاب الأمم من الخسف والقذف[2]، وقال ابن جرير[3] بعد أن ذكر أقوال القائلين بأنه رحمة للمؤمنين والكافرين، «وأولى القولين في ذلك بالصواب القول الذي روي عن ابن عباس، وهو أن الله أرسل نبيه محمداً ـ ﷺ ـ رحمة لجميع العالم مؤمنهم وكافرهم، فأما مؤمنهم فإن الله هداه به وأدخله بالإيمان به وبالعمل بما جاء من عند الله الجنة، وأما كافرهم فإنه دفع به عنه عاجل البلاء الذي كان ينزل بالأمم المكذبة رسلها من قبله»[4].

المطلب الثاني
حاجة البشر الشديدة إلى هُدى الرسل

من حكم إرسال الرسل، حاجة البشرية الماسة إلى هداهم، مع أن بعض الأمم زعمت أنه يمكن الاستغناء عنهم بالعقل، حيث قالت طائفة البراهمة ـ وهم طائفة من المجوس ـ إن إرسال الرسل عبث لا يليق بالحكيم بحجة (أن الذي يأتي به الرسل لم يخل من أحد أمرين: إما أن يكون معقولاً، وإما أن لا يكون معقولاً فإن كان معقولاً فقد كفانا العقل التام بإدراكه والوصول إليه، فأي حاجة لنا إلى الرسول؟ وإن لم يكن

= رسول الله ﷺ، ولد وبنو هاشم بالشعب قبل الهجرة بثلاث سنين، دعا له الرسول بالفقه في الدين وتعليمه التأويل، وقد سمي بالبحر والحبر لكثرة علمه، مات بالطائف سنة ثمان وستين وهو ابن إحدى وسبعين سنة، (الإصابة، ج ٤/ ٩٥).

(١) سورة الأنبياء، آية (١٠٧).

(٢) جامع البيان، ج ١٧/ ٨٣.

(٣) هو أبو جعفر، محمد بن جرير بن يزيد الطبري، الإمام العلامة القارىء، المحدث، المفسر، المؤرخ، الفقيه صاحب التصانيف، ولد بآمل سنة أربع وعشرين ومائتين، ألف كتباً لم يصنف مثلها وهي «تفسيره جامع البيان» و «تهذيب الآثار» و «تاريخ الأمم والملوك»، توفي ببغداد سنة عشر وثلاثمائة، (طبقات المفسرين، للداوودي، ج ٢/ ١١٠ وما بعدها) ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٣ هـ).

(٤) جامع البيان، ج ١٧/ ٨٣.

معقولاً فلا يكون مقبولاً، إذ قبول ما ليس بمعقول خروج عن حد الإنسانية، ودخول في حريم البهيمية)[١].

والحقيقة أن هذا الكلام فيه شيء من الصواب، وفيه كثير من الخطأ؛ وذلك أن العقل ـ المجرد عن الوحي ـ قد يدرك بعض الحق ويخفى عليه الكثير (فإن الله سبحانه فطر عباده على الفرق بين الحسن والقبيح، وركب في عقولهم إدراك ذلك، والتمييز بين النوعين، كما فطرهم على الفرق بين النافع والضار، والملائم لهم والمنافر، وركب في حواسهم إدراك ذلك والتمييز بين أنواعه)[٢].

ونحن لا ننكر أن العقل له قدرة على إدراك الحسن من القبيح، وعلى التمييز بين الضار والنافع، إلا أن معظم إدراكه لهذه الأمور هو على سبيل الإجمال والعموم، (فالعقل يدرك حسن العدل، وأما كون هذا الفعل المعين عدلاً، أو ظلماً، فهذا مما يعجز العقل عن إدراكه في كل فعل وعقد، وكذلك يعجز عن إدراك حسن كل فعل وقبح، فتأتي الشرائع بتفصيل ذلك وتبينه)[٣].

ونستطيع أن نعدد بعض الصور التي يعجز العقل عن إدراكها بعيداً عن الوحي.

١ ـ هناك أمور غيبية تكمن مصلحة الإنسان في العاجل والآجل في معرفتها، ولا يستطيع الإنسان معرفتها بعقله المجرد، لأنها غير داخلة في مجال العقل ودائرته. وإذا لم يعرفها حصل له اضطراب وحيرة وقلق، وهذه الأمور هي كل أمر غيبي لا يمكن إدراكه بالذكاء أو الخبرة أو أي وسيلة أخرى، إنما وسيلته الوحيدة النقل والسمع. وفي مقدمة هذه الأمور، العقيدة؛ التعريف بالله وبأسمائه وصفاته وأفعاله وما يجب له، وما يستحيل عليه ومعرفة محابه ومساخطه، وحياة البرزخ بعد الموت وما يحصل فيها من نعيم أو عذاب، والحياة الآخرة وما يحصل فيها يوم القيامة من أحداث، ومعرفة ما أعدّ الله لأوليائه الطائعين، وما أعده لأعدائه المكذبين لرسله، ومقادير الثواب والعقاب وكيفيتهما ودرجاتهما، كل هذه الغيبيات وغيرها لا طريق

---

(١) الملل والنحل، للشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، ج ٢/٢٥١ (دار المعرفة ـ بيروت).

(٢) مفتاح دار السعادة، ابن قيم الجوزية (دار الكتب العلمية، بيروت) ج ٢/١١٦.

(٣) نفس المرجع السابق، ج ٢/١١٧.

للعقل لمعرفة شيء عنها بعيداً عن الوحي[١]، أضف إلى هذا معرفة الأجوبة الصحيحة على الأسئلة الملحَّة: من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟، وقلت الصحيحة بهذا القيد لأن بعض العقول حاولت الإجابة على هذه الأسئلة بعيداً عن هدى الوحي، فجاءت بكل عجيب وغريب، ووقعت في المتاهات والضلالات[٢]!!!.

٢ - هناك أمور تعد في حسّنا وتصورنا كمالاً، وهي في حق الله نقص ينزه عنه والعكس صحيح، فكيف نعرف ما الكمال لله فنُثْبته له وما النقص فننزهه عنه إلا عن طريق الوحي؟! فمثلاً: الكِبْر، كمال في حق الله، وهو نقص في حق البشر، والنوم المعتدل، كمال في حق البشر ونقص في حق الله ينزه عنه ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾[٣].

٣ - موازين الربح والخسارة عند الله تختلف عن موازين البشر، فالإنفاق في سبيل الله بميزان العقل المجرد خسارة وتضييع للمال مع أنه بميزان الوحي تنمية للمال وتكثير له، ففي الحديث عن أبي كبشة[٤] الأنماري قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: **«ثلاث أقسم عليهن، وأحدثكم حديثاً فاحفظوه، قال فأما الثلاث الذي أقسم عليهن فإنه ما نقص مال عبد صدقة..»**[٥]. وروى أبو هريرة رضي الله عنه، عن

---

(١) انظر مفتاح دار السعادة، ج ٢/ ١١٦.

(٢) من الأمثلة على حيرة العقل في معرفة الأجوبة الصحيحة للأسئلة الخالدة قصيدة «الطلاسم» لإيليا أبي ماضي من ديوانه «الجداول» ص ١٠٦ والتي مطلعها:

جئت، لا أعلم من أين، ولكني أتيت   ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيت
وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت   كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟
لست أدري

(٣) سورة البقرة، جزء من آية الكرسي (٢٥٥).

(٤) هو أبو كبشة الأنماري المذحجي، مختلف في اسمه، قيل سعيد بن عمرو، وقيل عمرو بن سعيد، وقيل عمير، وقيل عامر، وقيل سليم له صحبة، شهد غزوة تبوك وروى بعض الأحاديث عن الرسول - ﷺ -. (الإصابة، ج ٧/ ١٦١).

(٥) مسند أحمد، ج ٤/ ٢٣١، وأخرجه الترمذي في كتاب الزهد، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة، وقال هذا حديث حسن صحيح (ج ٤/ ٥٦٢)، وذكره السيوطي في الجامع الصغير، وعزاه إلى أحمد والترمذي، وحكم عليه بالحسن، (فيض القدير للمناوي ج ٣/ ٢٩٩)، وحكم عليه الألباني بالصحة (صحيح الجامع الصغير ج ١/ ٥٨٠).

رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يتقبّلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوة[1] حتى تكون مثل الجبل»[2]. وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنهم ذبحوا شاة فقال النبي ـ ﷺ ـ ما بقي منها؟ قالت: ما بقي إلا كتفُها، قال: بقي كلها غير كتفها[3] فهل تُعرف هذه المعاني بالعقل المجرد؟! وتَخَلِّي صهيب[4] الرومي عن ماله كله لقاء سماح كفار قريش له بالهجرة إلى المدينة خسارة في ميزان العقل البشري المجرد وربح بميزان الله، كيف لا وقد أنزل الله في حقه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾[5]، والرسول ـ ﷺ ـ يقول له: «ربح البيع»[6]، وقل مثل هذا في المجاهد المقتول في سبيل الله، فالعقل المجرد يعده خاسراً والوحي يعده رابحاً، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ ﴾[7].

٤ ـ هناك تصرفات وأخلاق تتفق العقول السليمة على أنها فضائل ـ بلا خلاف ـ كالصدق، والأمانة.. ولكن هذه المُسلَّمات قد يتخلى عنها البشر عند تصادمها

---

(١) الفلو: هو المهر، وهو الخيل الصغير.

(٢) رواه البخاري في كتاب الزكاة، باب: لا يقبل الله صدقة من غلول، ولا يقبل إلا من كسب طيب ج ٢/ ٥١١.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة، باب ٣٣ وقال هذا حديث صحيح (ج ٤/ ٦٤٤).

(٤) هو أبو يحيى، صهيب بن سنان بن مالك، ويقال خالد بن عمرو بن عقيل، وقيل طفيل بن عامر، من بني مالك بن تميم، نسب إلى الروم لأنهم سبوه صغيراً لكن اشتراه رجل من كلب فباعه بمكة واشتراه عبد الله بن جدعان فاعتقه، وقيل إنما هرب من الروم وقدم وحالف ابن جدعان، كان من المستضعفين ممن عذب في الله بمكة، شهد بدراً والمشاهد بعدها، مات سنة ثمان وثلاثين وهو ابن سبعين، (الإصابة، ج ٣/ ٣٥٤).

(٥) سورة البقرة، آية (٢٠٧).

(٦) أسباب نزول القرآن، لأبي الحسن بن الواحدي، تحقيق: أحمد صقر (دار القبلة للثقافة الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٤٠٤ هـ)، ص ٥٨، وانظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للإمام عبد الرحمن جلال الدين السيوطي)، (دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى)، ج ١/ ٥٧٦.

(٧) سورة آل عمران، آية ١٦٩.

وتعارضها مع الأهواء والمصالح الشخصية، فإذا بالعقل يستقبح الفضيلة ويستحسن الرذيلة، ويستمرىء الباطل ويكره الحق، ويُخَوّن الأمين ويأتمن الخائن، ويعد الفضيلة رذيلة، والرذيلة فضيلة[1]، فلو تُركت الأحكامُ للعقول لضاعت حقوق الناس في مثل هذه الظروف، فلا بد إذاً من ميزان دقيق حساس، لا يخضع للأهواء والشهوات، ولا يحابى ولا يجامل أحداً لمعرفة الحق من الباطل، والفساد من الصلاح، والفضيلة من الرذيلة. . . ـ في مثل هذه الظروف ـ وذلك الميزان هو ميزان رب البشر المنزه عن الجور والظلم والهوى والغرض ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾[2].

٥ ـ قد يختلف الحكم على الشيء الواحد، بناءً على تفاوت العقول البشرية، فالبشر تتفاوت مداركهم عمقاً وسطحية، فما هو بدهي عند قوم قد يكون معضلاً عند قوم وما هو مُسلَّم به عند قوم قد يكون مختلفاً فيه عند آخرين، وهذا يؤدي إلى الاختلاف والتفرق والتنازع في الحكم على الشيء الواحد إستحساناً واستقباحاً، لذلك فالعقل المجرد لا يصلح حَكَماً في مثل هذه المواقف، فلا بد من حَكَم من خارج العقل البشري يقول كلمته ويفصل في الأمر، وهو هدى الرسل. وحتى ما تتفق العقول عليه ـ بعيداً عن الشرع ـ يظل في دائرة الظنيات والتخمينات، أما الوحي فأحكامه قطعية لأنها صدرت من العليم الخبير الذي خلق هذا البشر وعَلِمَ ما يصلح له وما لا يصلح له، وما يسعده مما يُشْقيه ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾[3].

٦ ـ أحياناً تحار العقول في الفعل الواحد، لا بسبب الهوى، بل لكون الفعل مشتملاً على مصالح ومفاسد في الوقت نفسه، ولا تعلم العقول ـ لعجزها ـ أيهما أرجح المفسدة أم المصلحة، فهنا يقف العقل عاجزاً ويأتي الوحي ليبيّن أيهما أرجح، وقد لا يكون هذا الرجحان ظاهراً، إذ قد يكون الأمر في ظاهره مفسدة، ولكنه ينطوي على مصلحة خفية وغالباً لا يهتدي إليها العقل المجرد، فيأتي الشرع بترجيح أحد الأمرين، كما حصل في معاهدة صلح الحديبية[4]، وقد يكون الفعل

---

(١) مثلاً: عدّ قوم لوط التطهر من الفاحشة رذيلة يستحق دعاتها الاخراج من الوطن، وعدّ قوم شعيب منع شعيب لهم من الغش والتطفيف سفاهة وبلاهة!!

(٢) سورة المؤمنون، آية (٧١).

(٣) سورة الملك، آية (١٤).

(٤) ظاهر بنود المعاهدة ليس في صالح المسلمين، لذلك اعترض عمر بن الخطاب بعقله =

الواحد مصلحة لشخص ومفسدة لآخر ـ والعقل لا يستطيع إدراك ذلك ـ فيتولى الشرع بيان من يؤمر بالفعل لمصلحته ومن ينهى عنه لمفسدته[1]، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية[2]: (الأنبياء جاءوا بما تعجز العقول عن معرفته، ولم يجيئوا بما تعلم العقول بطلانه، فهم يخبرون بمحارات العقول لا بمحالات العقول)[3].

وبناءً على هذه النقاط وغيرها، فإن البشرية ـ مهما بلغ شأوها في التقدم الحضاري المادي ـ محتاجة إلى هُدى الرسل في كل زمان ومكان، لا فرق بين عصر التخلف المادي وعصر الذرة، لذلك تتابع مجيء الرسل إثر بعض ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾[4]، بل لم تخل أمة من رسول أرسل إليها ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[5]. كل ذلك لأن عَلّام الغيوب عَلِمَ أنه لا حياة طيبة إلا في ظلال هداه. ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾[6]، يقول ابن القيم[7] ـ رحمه الله تعالى ـ: (ومن ها هنا تعلم

= المجرد، لكن الرسول ـ ﷺ ـ المؤيد بالوحي وافق عليها، وكانت مصلحة للمسلمين وسماها الله فتحاً.

(١) انظر: مفتاح دار السعادة ج ٢/ ١١٧.

(٢) هو الإمام العلامة الحافظ المجتهد المطلق المفسر شيخ الإسلام ونادرة العصر، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني، ولد بحران سنة إحدى وستين وستمائة، تفوق في شتى العلوم وتأهل للفتوى والتدريس دون العشرين من عمره، وقد امتحن وأوذي في الله وحبس مرات، ومات معتقلاً في قلعة دمشق سنة ثمان وعشرين وسبع مائة، بلغت مصنفاته ثلاث مئة مجلد منها: «العقيدة الواسطية والحموية والتدمرية». «رفع الملام عن الأئمة الأعلام»، «التوسل والوسيلة»، «السياسة الشرعية»، «الفتاوى»، (تذكرة الحفاظ، ج ٤/ ٤٩٦، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي، ج ٦/ ٨٠ ـ دار الفكر ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٩٩ هـ).

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، إعداد محمد بن عبد الرحمن بن قاسم، (إشراف الرئاسة العامة لشؤون الحرمين، تنفيذ مكتبة النهضة الحديثة ـ مكة) ج ٢/ ٣١٢.

(٤) سورة المؤمنون، آية (٤٤).

(٥) سورة فاطر، آية (٢٤).

(٦) سورة الملك، آية (١٤).

(٧) هو أبو عبد الله، شمس الدين، محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي، الشهير بابن قيم الجوزية، تفنن في علوم الإسلام كشيخه شيخ الإسلام ابن تيمية فكان عالماً بالتفسير والعقيدة والأصول والفقه والحديث والفقه والكلام، امتحن وأوذي مرات وحبس مع شيخه =

اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول، وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا، ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا يُنَال رضى الله البتة إلا على أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاؤوا به، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، فأي ضرورة وحاجة فُرضت، فضرورةُ العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير، وما ظنك بمن إذا غاب عنك هَدْيُه وما جاء به طرفة عين، فسد قلبُك، وصار كالحوت إذا فارق الماء، ووضع في المقلاة، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل، كهذه الحال، بل أعظم، ولكن لا يُحسَّ بهذا إلا قلب حي، و (ما لجرح بميت إيلامُ)[1]. وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ـ ﷺ ـ فيجب على كل من نصح نفسه، وأحب نجاتها وسعادتها، أن يعرف من هديه، وسيرته، وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به، ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مستقلٍّ، ومستكثر، ومحروم، والفضلُ بيد الله يُؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم)[2].

وإذا كانت البشرية لا تستغني عن هُدى الرسل في أي حقبة من حقبها فإن حاجتها إلى هدى سيد المرسلين كانت مُلِّحة يوم بُعث، فقد بُعث والناس في جاهلية جهلاء وضلالة عمياء، ما سَلم من ذلك أهل الكتاب فضلاً عن أهل الأوثان، فقد كان أهل الكتابين في حيرة من أمرهم، فجاءت رسالة المصطفى لتنقذهم من دوامة تحريف

= ابن تيمية في المرة الأخيرة بالقلعة منفرداً عنه، ولد سنة إحدى وتسعين وستمائة، ومات سنة إحدى وخمسين وسبعمائة. من كتبه: «إعلام الموقعين» «زاد المعاد»، «مدارج السالكين»، «حادي الأرواح»، «الروح» وغيرها (شذرات الذهب، ج ٦/ ١٦٨، الأعلام، لخير الدين الزركلي، ج ٦/ ٥٦).

(١) عجز بيت للمتنبي وصدره: من يهن يسهل الهوان عليه.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم الجوزية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط، (مؤسسة الرسالة ومكتبة المنار الإسلامية، بيروت والكويت، الطبعة الثانية، ١٤٠١ هـ)، ج ١/ (٦٩-٧٠).

الكلم عن مواضعه، وتأليه الأحبار والرهبان بدون حجة أو برهان. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في وصف ذلك الزمان الذي بعث فيه سيد الأنام: (أرسله ـ ﷺ ـ على حين فترة من الرسل، ودروس من الكتب، حيث حُرف الكلم، وبُدّلت الشرائع، واستند كل قوم إلى ظلم آرائهم، وحكموا على الله وبين عباده بمقالاتهم الفاسدة وأهوائهم النادة[١]، فهدى الله به الخلائق، وأوضح به الطرائق، وأخرج الناس به من الظلمات إلى النور، وميّز به بين نهج أهل الفلاح وأهل الفجور، فمن اهتدى بهديه اهتدى، ومن مال عن سبيله فقد ضل واعتدى، فصلى الله وسلم عليه وسائر الرسل والأنبياء ما لاح نجم وبدا وعلى آله وصحبه والتابعين ومن اقتدى)[٢].

المطلب الثالث

إقامة الحجة على الناس

من كمال عدل الله ـ الذي حَرّم على نفسه الظلم ـ سبحانه، ألا يعذب أحداً حتى يرسل إليه رسولاً، ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾[٣]، وعلى هذا الأساس توالت رسل الله إلى البشر من لدن نوح ـ عليه السلام ـ إلى محمد ـ ﷺ ـ مبشرين ومنذرين، مبشرين من أطاع الله واتبع شرعه بالجنة والرضوان، ومنذرين من عصاه وخالف شرعه بالجحيم والنيران. فقامت عليهم الحجة، وانقطعت سائر الأعذار والتعلات، فقد أعذر من أنذر، ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾[٤] وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: **«ليس أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل من أجل ذلك مدح نفسه، وليس أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش، وليس أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل»**[٥].

وهذه الحجة المنفية بإرسال الرسل هي قول الله عز وجل: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم

---

(١) النادة: الشاردة أبو البعيدة.

(٢) لوامع الأنوار البهية: ج ٢/ (٢٦٢ـ٢٦٣).

(٣) سورة الإسراء، آية (١٥).

(٤) سورة النساء، آية (١٦٥).

(٥) صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش، ج ٤/ ٢١١٤.

بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾[1]، يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (فأخبر تعالى أن ما قدمت أيديهم قبل البعثة سبب لإصابتهم بالمصيبة، وأنه سبحانه لو أصابهم بما يستحقون من ذلك لاحتجوا عليه بأنه لم يُرسل إليهم رسولاً ولم يُنْزل عليهم كتاباً، فقطع هذه الحجة بإرسال الرسول، وإنزال الكتاب لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وهذا صريح في أن أعمالهم قبل البعثة كانت قبيحة بحيث استحقوا أن يصابوا بها المصيبة ولكنه سبحانه لا يعذب إلا بعد إرسال الرسل وهذا هو فصل الخطاب)[2].

---

(١) سورة طه، آية ١٣٤.

(٢) مفتاح دار السعادة: ج ٢/٧.

المبحث الثاني

سنة الله في الصراع بين الحق والباطل

يقول الله عز وجل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾[1].

هذه الآية دستور الصراع بين الحق والباطل، فهي تكشف عن قدَمه وحتميته ووسائله.

فلقد اقتضت مشيئة الله ـ عز وجل ـ أن يحتدم الصراع بين الحق والباطل وأن يكون للحق أنصار يحملونه ويجاهدون في سبيله، وأن يكون للباطل ـ كذلك ـ أعوان يؤمنون به ويدافعون عنه.

وتمتد جذور الصراع بين الحق والباطل إلى اليوم الذي خلق الله فيه أبا البشر آدم ـ عليه السلام ـ فقد فتح آدم ـ عليه السلام ـ عينيه على أعظم تكريم وأخس عداوة، تكريم الله له بإسجاد الملائكة له، وعداوة إبليس له، بحسده والإباء عن الإنصياع للأمر الإلهي بالسجود لآدم متعللاً بعلة واهية وقياس فاسد ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾[2]. فاستحق بهذا الإباء اللعن والطرد من رحمة الله ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ ﴾[3]. وبدل أن يعتذر عن ذنبه ويتوب إلى ربه، أخذته العزة بالإثم، فتمادى في غيّه وتبجح مع

---

(١) سورة الأنعام، آية (١١٢).

(٢) سورة الأعراف، آية (١٢).

(٣) سورة الحجر، آية (٣٤ ـ ٣٥).

ربه، إذ نسب إليه الإغواء، وأخذ يتوعد آدم وذريته بالإغواء والإضلال ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾[1]، وفي آية أخرى قال اللعين: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾[2].

ولكن، من لطف الله بعباده أنه حَذّرهم من عداوة إبليس لهم، وكشف لهم أسلحته وأساليبه وأهدافه حتى لا يَغْتَروا به ولا يخدعهم، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾[3]. يقول سيد قطب[4] ـ رحمه الله ـ (إنها لمسة وجدانية صادقة، فحين يستحضر الإنسانُ صورة المعركة الخالدة بينه وبين عدوه الشيطان، فإنه يتحفز بكل قواه وبكل يقظته وبغريزة الدفاع عن النفس وحماية الذات، يتحفز لدفع الغواية والإغراء، ويستيقظ لمداخل الشيطان إلى نفسه، ويتوجس من كل هاجسة، ويسرع ليعرضها على ميزان الله الذي أقامه له ليتبين، فلعلها خدعة مستترة من عدوه القديم)[5].

وهكذا بدأت العداوة في عالم الملكوت بين آدم وإبليس، وأهبطوا، وهبطت معهم العداوة لتشتعل من جديد ﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ

---

(١) سورة الحجر، آية (٣٩).

(٢) سورة النساء، آية (١١٩).

(٣) سورة فاطر، آية (٥ ـ ٦).

(٤) هو سيد بن قطب بن إبراهيم مفكر إسلامي مصري ولد بأسيوط سنة ١٩٠٦ م، تخرج بكلية دار العلوم بالقاهرة، وعمل مدرساً ثم موظفاً فمراقباً بوزارة المعارف المصرية وأوفد إلى أمريكا لدراسة برامج التعليم الغربية، ولما عاد وقد تغير فكره، طالب ببرامج تتمشى والفكرة الإسلامية وبنى على هذا استقالته وانضم إلى حركة الإخوان المسلمين، وسجن معهم مرات وقد كتب كتابه الشهير «في ظلال القرآن» في السجن ما بين عام ١٩٥٤ ـ ١٩٦٥، وقد صدر الحكم بإعدامه عام ١٩٦٦ م، من كتبه: «العدالة الاجتماعية في الإسلام»، «المستقبل لهذا الدين»، «معالم في الطريق»، الإعلام ـ قاموس تراجم ـ لخير الدين الزركلي (دار العلم للملايين ـ بيروت ـ الطبعة السادسة ـ ١٩٨٤) ج ٣/١٤٧/٣).

(٥) في ظلال القرآن، ج ٥/٢٩٢٦.

إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾[1]. (هبطوا ليصارع بعضهم بعضاً، وليعادي بعضهم بعضاً، ولتدور المعركة بين طبيعتين، وخليقتين: إحداهما ممحضة للشر، والأخرى مُزدّوجة الاستعداد للخير والشر، وليتم الابتلاء، ويجري قدر الله بما شاء)[2].

ومنذ أن أهبط آدمُ وزوجتهُ وإبليسُ، والمعركة لم تهدأ ولن تهدأ، ولن تضعَ الحرب أوزارها ما دام قلبُ ابن آدم ينبض بالحياة. فعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «**إن الشيطان قال وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الرب تبارك وتعالى: (وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني)**[3]. واستمر الصراع بين أنصار الحق ـ وعلى رأسهم الأنبياء والرسل ـ وأولياء الشيطان، فما من رسول أرسله الله إلا وقف من يعاديه ويصّد عن دينه، ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ. . . ﴾[4].

قال السدي[5] ـ رحمه الله ـ: (لم يبعث نبي قط إلا كان المجرمون له أعداء، ولم يبعث نبي قط إلا كان بعض المجرمين أشد عليه من بعض)[6]، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: (كان عدو النبي ـ ﷺ ـ أبو جهل وعدو موسى قارون، وكان قارون ابن عم موسى ـ عليه السلام ـ)[7].

---

(١) سورة الأعراف، آية (٢٤).

(٢) في ظلال القرآن، ج ٣/ ١٢٧٠.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك في كتاب التوبة والإنابة، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ج ٤/ ٢٦١.

(٤) سورة الأنعام، آية (١١٢).

(٥) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة الحجازي الأعور السدّي أحد موالي قريش، وهو السدي الكبير المفسر ذكره ابن حبان في الثقات ووثقه غير واحد وضعفه آخرون، قال العجلي: ثقة عالم بتفسير القرآن، راويه له، وقد استخدمه الطبري في تفسيره من طريق أسباط بن نصر الهمذاني، وله تفسير، مات سنة سبع وعشرين ومائة. (انظر: سير أعلام النبلاء، ج ٥/ ٢٦٤، تاريخ الثقات للحافظ العجلي، تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي، ص ٦٦ ـ دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤٠٥ هـ، الثقات لابن حبان ج ٤/ ٢٠ ـ مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن ـ الهند ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٩٨ هـ).

(٦) الدر المنثور، للسيوطي، ج ٦/ ٢٥٤.

(٧) نفس الصدر السابق.

وإذا رجعنا إلى قصص القرآن الكريم وجدنا تفصيلاً واضحاً عن الصراع بين أولياء الرحمن، وأولياء الشيطان. فالصراع إذاً قديم ودائم، بدأ بين آدم ـ عليه السلام ـ وإبليس اللعين ـ واستمر ما بين أول رسل الله ـ نوح عليه السلام ـ وقومه، إلى آخرهم ـ محمد ﷺ ـ ومن بعث فيهم، وما زال إلى يومنا هذا، وسيستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لأن طبيعة الخير والشر متضادتان، لذلك لا التقاء بين الحق والباطل في منتصف الطريق، ولا هوادة بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦ ﴾[1]، يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ: «إنها طبيعة التعارض بين منهجين للحياة ولا التقاء بينهما في صغيرة ولا كبيرة، وحرص أصحاب المناهج الأرضية على سحق المنهج الرباني الذي يتهدد وجودهم ومناهجهم وأوضاعهم قبل أن يسحقهم، فهي حتمية لا اختيار فيها في الحقيقة لهؤلاء ولا لهؤلاء... وهذه الظاهرة يقررها الله بقوله: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾[2]»[3].

فالمعركة بين الحق والباطل معركة حتمية لا يملك النبي أن يتقيها ـ حتى لو حاول ـ فضلاً عن أتباعه.

وبالتأمل في واقع الصراع بين الحق والباطل، نجد أن أساليب الباطل في معاداة الحق لا تخرج عما ذكرته الآية (يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً..) أي: (يمد بعضهم بعضاً بوسائل الخداع والغواية، وفي الوقت ذاته يقوي بعضهم بعضاً! وهي ظاهرة ملحوظة في كل تجمع للشر في حرب الحق وأهله.. إن الشياطين يتعاونون فيما بينهم، ويعين بعضهم بعضاً على الضلال أيضاً! إنهم لا يهدون بعضهم البعض إلى الحق أبداً، ولكن يزّين بعضهم لبعض عداء الحق وحربه والمضي في المعركة معه طويلاً!)[4].

---

(١) سورة الكافرون.

(٢) سورة البقرة، آية (٢١٧).

(٣) طريق الدعوة في ظلال القرآن، (بتصرف يسير)، جمع واعداد: أحمد فايز (الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت، الطبعة السادسة، ١٩٧٨ م)، ج ١/ ٣٠.

(٤) في ظلال القرآن، ج ٣/ ١١٩١.

وبناءً على ما ذكرته الآية، نستطيع أن نجزم ـ وبكل ثقة ـ أن (الصفتين المشتركتين في كل طروح خصوم الأنبياء هما: زخرف القول، والغرور، فكل طرح يقابل دعوة الأنبياء طرح فيه زخرف، ولكنه في الوقت نفسه إذا عمّقت النظر فيه فإنك تجده غروراً خالصاً، فصاحبه مغرور، ولكن بلا شيء، مغرور بكلام منمق ليس فيه محتوى مقبول عقلاً أو علماً، بل ليس فيه إلا الفساد في الأرض. . .)[1].

ولما كان الباطل لا يملك المقومات الحقيقية التي تجعله قائماً بذاته، فقد احتاج إلى الزخرفة والمخادعة حتى يقبل عند الناس، بعكس الحق. وهذا واضح وبيّن في الشعارات التي رفعتها المذاهب الهدامة ـ المعادية للإسلام ـ في هذا العصر[2].

وعودة إلى السياق القرآني نلاحظ أن سر اتخاذ أعداء الله هذين الأسلوبين ـ الزخرفة والغرور ـ إنما كان من أجل استمالة الناس إلى الباطل وفتنهم عن الحق حتى يرضوا بالباطل ويقعوا في المحظور بارتكاب الآثام، قال تعالى: ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾[3]. يقول ابن جرير ـ رحمه الله ـ: (أي يلقي الملقي منهم القول الذي زينه وحسنه بالباطل إلى صاحبه، ليغتر به من سمعه، فيضل عن سبيل الله)[4]. وقال أيضاً: (أما الغرور: فإنه ما غر الإنسان فخدعه فصده عن الصواب إلى الخطأ، وعن الحق إلى الباطل)[5].

ومهما زُيّن الباطلُ، ومهما صال وجال في الميدان ـ فترة من الزمن ـ فإن العاقبة في النهاية للمتقين، يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ: (إنه الباطل ينتفش، ويسحر العيون، ويسترهب القلوب، ويخيل إلى الكثيرين أنه غالب وأنه جارف، وأنه

---

(١) من أجل خطوة إلى الأمام على طريق الجهاد المبارك، سعيد حوي، (دار الباز، مكة المكرمة، الطبعة الثانية، ١٣٩٩ هـ) ص ٨٣.

(٢) الماسونية رفعت شعار (الإخاء ـ الحرية ـ المساواة)، الاشتراكية رفعت شعار العدالة الاجتماعية، فكلها رفعت شعارات براقة لكن إذا فحصتها عن قرب ـ أهدافها ووسائلها ـ وجدتها كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

(٣) سورة الأنعام، آية (١١٣).

(٤) جامع البيان: لابن جرير الطبري، تحقيق: أحمد شاكر ومحمود شاكر (دار المعارف، القاهرة) ج ١٢/ ٥١.

(٥) نفس المصدر السابق، ج ١٢/ ٥٦.

مُحيق! وما هو إلا أن يواجه الحق الهادىء الواثق حتى يَنْفثىء[1] كالفقاعة، وينكمش كالقنفذ، وينطفيء كشعلة الهشيم! وإذا الحق راجح الوزن، ثابت القواعد، عميق الجذور...)[2].

نخلص من هذا إلى القول، بأن الباطل مهما طغى وانتفخ، ومهما صال وجال، فسيظل باطلاً لا حقيقة له، وهشاً لا وزن له، وطارئاً ـ في الكون ـ لا بقاء له، مصيره التلاشي والاضمحلال، ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴿١٧﴾ ﴾[3].

(١) فثيء: انكسر وفتر.
(٢) في ظلال القرآن ج ٣/ ١٣٥٠.
(٣) سورة الرعد، آية (١٧).

الباب الأول

تثبيت الرسول ـ ﷺ ـ من خلال قصص النبيين والأمم السابقة

ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول:

وحدة الرسالات السماوية في العقيدة وأصول التشريع.

الفصل الثاني:

إثبات نبوة محمد ﷺ.

الفصل الثالث:

سنة الله في مواقف الأمم من دعوة الرسل عليهم السلام.

تمهيد

يشغل القصص القرآني مساحة واسعة في كتاب الله، فالحيز الذي يشغله القصص القرآني لا يقل عن ربع القرآن[١] إن لم يزد على ذلك، إذ إن حوالى ثمانية أجزاء من أصل ثلاثين جزءاً - عدد أجزاء القرآن - كلها قصص، وهذه المساحة الشاسعة التي يشغلها القصص القرآني تدل على أهمية القصص في هداية الإنسان وتربيته - كهدف عام لكل القرآن - فمن خلال القصص تتجسد المعاني التربوية المعقولة في قوالب محسوسة، تفعل فعلها في النفس الإنسانية.

ولا شك أن أغراض القصص القرآني وفوائده كثيرة، إلا أن ما يعنيني في هذا البحث هو ما عنونت به هذا الكتاب - تثبيت فؤاد النبي - ﷺ - لقوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ ﴾[٢].

ووجه تثبيت فؤاد النبي - ﷺ - بذلك، أنه كلما عاود القرآن ذكر قصص الأنبياء وأحوالهم مع أممهم عليه، زاده ذلك تذكراً وعلماً بأن حاله جار على سنن الأنبياء قبله، فيزداد يقيناً بأن عاقبته النصر على أعدائه - كما كانت عاقبتهم - فيجدد ذلك تسليته وعزاءه مما يلقاه من قومه من التكذيب، فيزيده صبراً وتحملاً وثباتاً على الطريق[٣]. فإن من أعظم ما يخفف على الإنسان بليته ومحنته، ويحمله على الصبر ما يُذْكر له من أحوال المصابين بمثل مصيبته فيرتاح لمشاركة الناس له في محنته، كما قالوا: المصيبة إذا عمت خفت.

---

(١) ذكره الدكتور فضل حسن عباس في كتابه: القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته، ص ١٠، (دار الفرقان، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ).

(٢) سورة هود، آية (١٢٠).

(٣) انظر: تفسير التحرير والتنوير، لسماحة الأستاذ الطاهر ابن عاشور، (الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤ م)، ج ١٢/ ١٩٢.

وكما قالت الخنساء[١] في جاهليتها:

ولـولا كثـرةُ البـاكيـن حـولـي   علـى إخـوانهـم لقتلـت نفسـي
ومـا يبكـون مثـلَ أخـي ولكـن   أُعـزى النفـس عنـه بـالتـأسّـي

فإذا قص الله على رسوله ـ ﷺ ـ أنباء الرسل، وما قاسوه مع أقوامهم، وما لاقوه منهم من الأذى والعنت، هوَّن ذلك عليه ما يلقاه من أعدائه المكذبين له.

ومن المعلوم أن معظم القصص القرآني نزل على رسول الله ـ ﷺ ـ في العهد المكي، والصراع بين الحق والباطل بالغ أشُده، والمسلمون مستضعفون يخافون أن يتخطفهم الناس، لهذا كانت الحاجة إلى التثبيت في العهد المكي أمس منها عن العهد المدني ـ وإن لم يستغن عنه ـ ففي هذه الفترة الحرجة والظروف القاسية نزلت سورة هود، وقد وردت هذه الآية[٢] في آخرها بعد أن قص الله على رسوله قصص الأنبياء: نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وموسى ـ عليهم السلام ـ ونزلت سورة يوسف ـ كلها ـ بعد وفاة أبي طالب وخديجة ـ سَنَدَي رسول الله ـ في عام واحد مما أحزن رسول الله ـ ﷺ ـ كثيراً، حتى سُمي ذلك العام بعام الحزن، فكان نزول سورة يوسف عليه في هذه الظروف بمثابة التعزية والتسلية له والتخفيف لآلامه.

وسأتناول الحديث عن هذا الباب في فصول ثلاثة:

الفصل الأول: وحدة الرسالات السماوية في العقيدة وأصول التشريع.

الفصل الثاني: إثبات نبوة محمد ﷺ.

الفصل الثالث: سنة الله في مواقف الأمم من دعوة الرسل.

---

(١) هي الشاعرة المشهورة الصحابية: الخنساء بنت عمرو بن الشريد، اسمها تماضر، قدمت على النبي ﷺ مع قومها من بني سليم فأسلمت معهم، وكان النبي ﷺ يعجبه شعرها ويستنشدها، جزعت كثيراً عندما قتل أخوها قبل إسلامها وقالت فيه شعراً كثيراً، وعندما استشهد أبناؤها الأربعة في القادسية قالت: «الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وارجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته»، وقد أجمع أهل الشعر أنه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها، توفيت بالبادية في أول خلافة عثمان رضي الله عنه سنة ٢٤ هـ (الإصابة، ج ٨/ ٦٦، وانظر: أعلام النساء لعمر رضا كحالة، ج ١/ ٣٦٠. وما بعدها. ـ مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠٤ هـ.

(٢) ﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾. الآية.

الفصل الأول

وحدة الرسالات السماوية في العقيدة وأصول التشريع

تتفق الرسالات السماوية جميعاً في مصدرها ومقصدها، فهي جميعاً من عند الله تعالى الذي أرسل الرسل وأنزل الكتب لهدف واحد، هو تعبيد الناس لربهم وحَمْلهم على طاعته جل وعلا.

وقد قرن الله بين المصدر والمقصد في آيات كثيرة من كتابه، كقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[1]، وقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾[2]، وفي مطلع سورة الشورى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ﴾[3]، فالموحي هو الله ـ عز وجل ـ والموحى إليهم هم الرسل ـ عليه السلام ـ على مدار الزمان.

وهذا القدر المشترك بين الرسل ـ عليهم السلام ـ سوغ أن يكون الإسلام هو دينهم جميعاً ـ كما ورد على ألسنتهم[4] إذ إن معنى الإسلام يشمل هذين الأمرين:

---

(١) سورة النساء، آية (٦٤).

(٢) سورة الأنبياء، آية (٢٥).

(٣) سورة الشورى، آية (٣).

(٤) قال تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿.. وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ يونس/ ٧٢، وقال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام ـ وهو يوصي أبناءه بالإسلام: ﴿فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ البقرة/ ١٣٢، ويجيب أبناء يعقوب ـ عليهم السلام ـ أباهم بأنهم سيكونون مسلمين ﴿قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾ البقرة/١٣٣، وحث موسى ـ عليه السلام ـ قومه على الإسلام: ﴿يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾ يونس / ٨٤ وأجاب الحواريون عيسى ـ عليه =

المصدر، والمقصد، فالإسلام هو: إسلام الوجه لله تعالى، بمعنى الاستسلام له، والإذعان لأمره، والخضوع لطاعته، كما قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾[1]، وإنما سُمي المسلم مسلماً بخضوع جوارحه لطاعة ربه.

كما قال زيد[2] بن عمرو بن نفيل:

وأسلمت وجهي لمن أسلمت ... له المزن تحمل عذباً زلالاً

يعني بذلك: استسلمت لطاعة من استسلم لطاعته المزن وانقادت[3]، وهذا المعنى للإسلام هو المعنى العام.

وعلى هذا الأساس، فدين الإسلام الذي دعا إليه الأنبياء في كل عصر ومصر، ونادوا به، هو توحيد الله سبحانه وتعالى، وتنزيهه عن الشرك، ثم الالتزام بالأحكام التي صدرت عن النبي ـ سواء أنزل عليه كتاب أم لا ـ فكلها وحي من الله. فالإسلام في عهد نوح ـ عليه السلام ـ هو اتباع الأوامر والنواهي التي صدرت عنه، والإسلام

= السلام ـ ﴿... قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون﴾ آل عمران / ٥٢، ويوسف عليه السلام يسأل الله أن يميته على الإسلام: ﴿.. توفني مسلماً والحقني بالصالحين﴾ يوسف / ١٠١، وملكة سبأ تتوب إلى الله وتعلن إسلامها: ﴿رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾ النمل / ٤٤، وفي الرسالة الخاتمة نزل على رسول الله في عرفة: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ المائدة / ٣.

(١) سورة البقرة، آية (١١٢).

(٢) هو زيد بن عمرو بن نفيل العدوي، والد سعيد بن زيد أحد العشرة وابن عم عمر بن الخطاب، أحد الحكماء، ذكره البغوي وابن مندة في الصحابة، قال ابن حجر: وفيه نظر، لأنه مات قبل البعثة بخمس سنين، لكنه قال: يحتمل إذا لم يشترط في تعريف الصحابي أن يكون من لقي الرسول ﷺ مؤمناً به بعد البعثة، لأنه آمن به قبل بعثته، فقد كان يقول: أنا انتظر نبياً من ولد إسماعيل وأنا أؤمن به وأصدقه وأشهد أنه نبي الحديث. وكان يعد نفسه الوحيد في قريش على دين إبراهيم، كما كان ينكر عليهم وأد البنت وكان يكفلها إذا أراد أبوها قتلها. روي أن الرسول ﷺ قال: «يبعث يوم القيامة أمة واحدة» (الإصابة، ج ٣/ ٣١، الأعلام ج ٣/ ٦٠).

(٣) جامع البيان / شاكر (بتصرف) ج ٢ (٥١٠ ـ ٥١١).

في عهد إبراهيم ـ عليه السلام ـ هو اتباع أحكام الصحف التي نزلت عليه، والإسلام في عهد داود ـ عليه السلام ـ هو التزام توجيهات الزبور، والإسلام في عهد ـ موسى عليه السلام ـ هو اتباع التوراة، والإسلام في عهد عيسى ـ عليه السلام ـ هو اتباع تعاليم الإنجيل، والإسلام بعد بعثة محمد ـ ﷺ ـ هو التزام القرآن والسنة، غير أن كلمة «الإسلام» إذا أطلقت مُعَرفة، فالمراد بها الإسلام بالمعنى الخاص(١)، أي الشرع الذي جاء به محمد ـ ﷺ ـ فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾(٢) وقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾(٣) وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾(٤) كلها تعني الإسلام بالمعنى الخاص. وذلك (لأنه الصورة الأخيرة لدين الله، وهو المرجع الأخير في هذا

---

(١) وقع نزاع بين العلماء حول تخصيص الإسلام بأمة محمد ﷺ، دون سائر الأمم، ولست بصدد عرض أقوالهم ومناقشتها هنا، بل اكتفي بذكر توجيه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله لهذا النزاع، حيث يقول: (ولقد تنازع الناس فيمن تقدم من أمة موسى وعيسى، هل هم مسلمون أم لا؟ وهو نزاع لفظي، فالإسلام الخاص الذي بعث الله به محمداً ﷺ المتضمن الشريعة القرآنية ليس عليه إلا أمة محمد ﷺ، والإسلام اليوم عند الإطلاق يتناول هذا، وأما الإسلام العام المتناول لكل شريعة بعث الله نبياً فإنه يتناول إسلام كل أمة متبعة لنبي من الأنبياء، ورأس الإسلام مطلقاً، شهادة أن لا إله إلا الله، وبها بعث جميع الرسل)، الرسالة التدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: زهير الشاويش (المكتب الإسلامي، دمشق وبيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠ هـ) ص ١١٣.

(٢) سورة آل عمران، آية (٩) يعزو الطاهر بن عاشور قصر الدين في الآية على الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ إلى اعتبارين.

الاعتبار الأول: بالنظر إلى وقت الإخبار، فلم يكن يومئذ دين صحيح مقبول عند الله غير ما جاء به محمد ﷺ، لأن ما سواه ـ وإن كان أصله صحيحاً ـ فقد حرّف وبدّل فلم يعد هو الدين عند الله.

الاعتبار الثاني: بالنظر إلى كمال الدين، فالدين لم يكمل كمالاً يؤهله بأن يفي بحاجات البشرية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها إلا ببعثه الرسول ﷺ، الذي بعث إلى الناس أجمعين، وكان آخر الرسل ـ عليهم السلام ـ إذ أنزل الله عليه في حجة الوداع ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ انظر: تفسير التحرير والتنوير ج ٢/ ١٩٠.

(٣) سورة آل عمران، آية (٨٥).

(٤) سورة المائدة، آية (٣).

الشأن، والمرجع الأخير في منهج الحياة وشرائع الناس، ونظام حياتهم، بلا تعديل بعد ذلك ولا تبديل، ومن ثم فكل اختلاف يجب أن يُردَّ إلى هذا الكتاب ليفصل فيه، سواء كان هذا الاختلاف في التصور الاعتقادي بين أصحاب الديانات السماوية، أو في الشريعة التي جاء هذا الكتاب بصورتها الأخيرة)[١]، ومن هنا قال رسول الله - ﷺ - «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة - يهودي أو نصراني - ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»[٢].

ولما كانت الرسالات السماوية تتحد في مصدرها ومقصدها، وجدناها كذلك - تتفق في جزء كبير من التعاليم التي جاء بها الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - وسأتحدث فيما اتفق عليه الرسل من التعاليم في مبحثين:

المبحث الأول: اتفاق الرسل في العقيدة.

المبحث الثاني: اتفاق الرسل في أصول التشريع.

المبحث الأول

اتفاق الرسل في العقيدة

المطلب الأول: اتفاقهم في الدعوة إلى توحيد الله عز وجل:

يُعد الإيمان بالله تعالى القاعدة الأساس في دعوة الرسل، ولبُّ الإيمان بالله وجوهره هو توحيده سبحانه وتنزيهه عن الشرك في أسمائه وصفاته وأفعاله، (فالتوحيد هو قاعدة العقيدة منذ أن بعث الله الرسل للناس، ولا تبديل فيها ولا تحويل ولا مجال للشرك في الألوهية ولا في العبادة، قاعدة ثابتة ثبوت النواميس الكونية، متصلة بهذه النواميس وهي واحدة منها)[٣]. وقد عرض القرآن الكريم هذه القضية بطريقتين: طريق اجمالي، وطريق تفصيلي.

فالطريق الإجمالي، بأن يذكر على سبيل الإجمال أن الرسل - جميعاً - أرسلوا بالتوحيد، كما في الآيات الآتية:

---

(١) في ظلال القرآن، ج ٢/ ٩٠٢.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملة ج ١/ ١٣٤.

(٣) في ظلال القرآن، ج ٤/ص ٢٣٧٤.

قال تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[4].

فبالتأمل في هذه الآيات الأربع، نجد أن كل آية قررت المهمة الأولى لإرسال الرسل ـ وهي توحيد الله وإفراده بالعبادة وتنزيهه عن الشركاء والأنداد ـ وأساليب القرآن الكريم في عرض هذه القضية متعددة.

فتارة يعرضها على أن الرسل مأمورون بالإعلان عن الوحدانية «لا إله إلا الله» ويرتب على ذلك أنه لا يستحق العبادة إلا الله ـ عز وجل ـ كما في الآية الأولى والثالثة.

وأحياناً يعرضها خبراً على أن جميع الرسل دعوا إلى عبادة الله ونهوا عن عبادة الطاغوت[5] كما في الآية الثانية، ومعنى هذه الآية هو معنى: «لا إله إلا الله» تماماً

---

(١) سورة النحل، آية (٢).
(٢) سورة النحل، آية (٣٦).
(٣) سورة الأنبياء، آية (٢٥).
(٤) سورة الزخرف، آية (٤٥).
(٥) قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ «الطاغوت»، عام في كل ما عبد من دون الله ورضي بالعبادة من معبود أو متبوع أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله فهو طاغوت، والطواغيت كثيرة، ورؤوسهم خمسة هي: (١) الشيطان الداعي إلى عبادة غير الله، (٢) الحاكم الجائر المغير لأحكام الله، (٣) الذي يحكم بغير ما أنزل الله، (٤) الذي يدعي علم الغيب من دون الله. (٥) الذي يعبد من دون الله وهو راضٍ بالعبادة. (مجموعة التوحيد ورسائل الشيخ أحمد بن تيمية والشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ دار الفكر) ص ٩ ـ ١٠.

فقد تضمنت النفي والإثبات، فقوله: «اعبدوا الله» إثبات، وقوله: «واجتنبوا الطاغوت» نهي متضمن للنفي.

كما عرضها على شكل استفهام إنكاري.. رداً على كفار قريش الذين زعموا تعدد الآلهة، كما في الآية الرابعة. يقول الطاهر بن عاشور[١] - رحمه الله -: «والأمر بالسؤال هنا - في هذه الآية - تمثيل لشهرة الخبر وتحققه، كما في قول السموأل أو الحارثي «سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم». والمعنى: استقر شرائع الرسل وكتبهم وأخبارهم هل تجد فيها عبادة آلهة..»[٢]. والسؤال وإن كان موجهاً إلى الرسول - ﷺ - إلا أنه قصد به تقريع كفار قريش بأن ما هم عليه لم يأت في شريعة من الشرائع[٣].

أما الطريق التفصيلي، فالمراد به ما ورد على لسان كل رسول - على حدة - من دعوة صريحة - لقومه - إلى التوحيد، فقد كان التوحيد أول أمر يدعو كل رسول قومه إليه، لذلك قال ابن القيم - رحمه الله - «التوحيد هو مفتاح دعوة الرسل، وهو أول ما يدخل به المرء في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا، فهو أول واجب وآخر واجب»[٤].

وأول من دعا إلى التوحيد بعد إنحراف فطرة البشر هو نوح - عليه السلام - قال الله عن دِعوته: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ ﴾[٥].

وفي سورة هود: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا

---

(١) هو محمد الطاهر بن عاشور، رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة، وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة، ولد سنة ١٢٩٦ هـ وتوفي سنة ١٣٩٣ هـ، من مصنفاته «مقاصد الشريعة الإسلامية» و «تفسير التحرير والتنوير» و «أصول الإنشاء والخطابة» (الأعلام، ج ٦/ ١٧٤).

(٢) تفسير التحرير والتنوير، ج ٢٥/ص ٢٢٢.

(٣) انظر فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، دار الفكر، ١٤٠١ هـ)، ج ٤/ ٥٥٧.

(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، للإمام ابن قيم الجوزية (دار الكتاب العربي، بيروت الطبعة الثانية، ١٣٩٣ هـ)، ج ٣ (٤٤٣ - ٤٤٤).

(٥) سورة الأعراف، آية (٥٩).

﴿ ... اللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ﴿٢٦﴾ ﴾[1].

وقال تعالى عن دعوة هود ـ عليه السلام ـ لقومه: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾[2].

وعن دعوة صالح ـ عليه السلام ـ لقومه قال تعالى:

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ . . ﴾[3].

وعن دعوة شعيب ـ عليه السلام ـ لقومه قال تعالى:

﴿ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ ﴾[4].

فهؤلاء الرسل الأربعة بصفة خاصة ـ نوح وهود وصالح وشعيب ـ يرد ذكرهم في قصص القرآن بهذا الترتيب، قد دعوا إلى التوحيد، وليس هذا فقط، بل نلاحظ أن القرآن الكريم يوحد حتى الألفاظ التي تلفظوا بها في الدعوة إلى التوحيد، ليدلل على اتحاد دعوتهم، كأنما تلاشت المسافات الزمنية والمكانية فيما بينهم. يقول الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـ «والسياق القرآني يوحد الألفاظ التي عبر بها جميع الرسل ـ صلوات الله عليهم ـ مع اختلاف لغاتهم.. يوحد حكاية ما قالوه، ويوحد ترجمته في نص واحد: ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾.. وذلك لتحقيق معنى وحدة العقيدة السماوية ـ على مدار التاريخ ـ حتى في صورتها اللفظية! لأن هذه العبارة دقيقة في التعبير عن حقيقة العقيدة، ولأن عرضها في السياق بذاتها يصور وحدة العقيدة تصويراً حسياً»[5].

---

(١) سورة هود، آية (٢٥ ـ ٢٦).

(٢) سورة الأعراف، الآية (٦٥)، وسورة هود، آية (٥٠).

(٣) سورة الأعراف، آية (٧٣)، وسورة هود، آية (٦١).

(٤) سورة الأعراف، آية (٨٥)، وسورة هود، آية (٨٤).

(٥) في ظلال القرآن، ج ٣/ ١٣٠٤.

أما إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقد ارتبط باسمه التوحيد، حتى وصفه الله بأنه كان حنيفاً[1] ـ أي مائلاً عن الشرك إلى التوحيد[2] ـ ولقد أكثر القرآن الحديث عن دعوته إلى التوحيد ومناظراته للمشركين ـ أفراداً وجماعات[3] ـ ولكثرة حديث القرآن الكريم عن مناظراته ومحاربته للشرك بشتى الطرق والأساليب، يكاد المرء يتصور أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ ما دعا إلا إلى توحيد الله ـ عز وجل ـ وبجانب انتصاراته على المشركين وإفحامهم في المناظرات حول أحقية الله بالتوحيد، وبطلان عبادة ما سوى الله، فقد باشر تحطيم الأصنام عملياً بيده، قال تعالى: ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ ﴾[5].

وحَمَّل الله كليمَه موسى ـ عليه السلام ـ الرسالة قائلاً له: ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ ﴾[6]، وعندما عاد من رحلته الميمونة للقاء ربه، وجد السامري قد أضلهم وزين لهم الإشراك بالله، فعكفوا على عبادة العجل فَذكّرهم بالتوحيد الذي أرسله الله به وباشر تنزيهه لله عملياً بإحراق العجل، كما حكى الله ذلك في سورة طه بقوله تعالى: ﴿ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ . إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾[7].

---

(١) الآية هي قوله تعالى: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين﴾ النحل/ ١٢٠ وقوله تعالى: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين﴾ آل عمران/ ٦٧.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ج ١/ ٣٨٠؛ (دار المعرفة ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ـ ١٤٠٧ هـ)، حاشية كتاب التوحيد، لعبد الرحمن ابن قاسم النجدي (الطبعة الثالثة، ١٤٠٨ هـ) ص ٣٨.

(٣) تدبر الآيات: سورة البقرة آية (٢٥٨)، وسورة الأنعام آية (٧٤ ـ ٨٣)، وسورة مريم، آية (٤١ ـ ٤٨)، وسورة الأنبياء، آية (٥١ ـ ٧١).

(٤) سورة الأنبياء، آية (٥٨) ـ جذاذاً: فتاتاً، وكل شيء كسرته فقد جذذته، ومنه قيل للسويق: الجديد، زاد المسير في علم التفسير، للإمام ابن الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، (المكتب الإسلامي ـ بيروت ودمشق، الطبعة الأولى، ١٣٨٤ هـ)، ج ٥/ ٣٥٨.

(٥) سورة الصافات، آية (٩٣).

(٦) سورة طه، آية (١٣ ـ ١٤).

(٧) سورة طه، آية (٩٧ ـ ٩٨).

ويَذْكر الله عن عيسى ـ عليه السلام ـ أنه دعا قومه إلى التوحيد بقوله: ﴿ . . . وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾[1]. لذلك فهو يبرأ إلى الله مما وقع فيه بنو اسرائيل من شرك التثليث ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ويوضح مهمته ودعوته صريحة لا لبس فيها ولا غموض ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾[2].

أما فيما يتعلق برسالة نبينا محمد ـ ﷺ ـ فقد أكثر الله في القرآن من ذكر أدلة التوحيد وإثبات وجود الله ووحدانيته، والنهي عن الشرك وتنزيهه عن الشركاء والأنداد في أسمائه وصفاته وأفعاله، وضَرْب أمثلة التوحيد في الأفاق والأنفس.

وقد ذكر القاسمي[3] ـ رحمه الله ـ في كتابه: «دلائل التوحيد» خمسة وعشرين دليلاً على التوحيد ذكرها القرآن الكريم، وأبرز هذه الأنواع خمسة، وهي: أدلة الخلق والإبداع، وأدلة العناية، وأدلة الفطرة، وأدلة البراهين العقلية، وأدلة التوحيد من خلال إثبات صفات الكمال لله سبحانه وتعالى وتنزيهه عن صفات النقص[4]. وقد

---

(١) سورة المائدة، آية (٧٢).

(٢) سورة المائدة، الآيات (١١٦ ـ ١١٧) قال ابن عباس وقتادة: هذا القول يكون من الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق ليعلم الكفار أنهم كانوا على باطل (تفسير البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، دار الفكر، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣ هـ) ج ٤/٥٨.

(٣) هو جمال الدين، أو محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق، من سلالة الحسين بن علي، إمام الشام في عصره، كان متبحراً في علوم الشريعة والأدب، سلفي العقيدة لا يقول بالتقليد، اتهم بتأسيس مذهب جديد سمي «المذهب الجمالي» وحبس من أجل ذلك ثم خلّي سبيله لرده التهمة، فانقطع في منزله للتصنيف وإلقاء الدروس الخاصة والعامة. من كتبه «دلائل التوحيد» و «موعظة المؤمنين» و «قواعد التحديث» وتفسيره «محاسن التأويل» كانت ولادته بدمشق سنة ١٢٨٣ هـ ومات بها سنة ١٣٣٢ هـ (الاعلام، ج ٢/ ١٣٥).

(٤) انظر دلائل التوحيد، للقاسمي ص ٢٢ ـ ٧٣ (دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ =

جمع الله هذه الأدلة الخمسة في خمس آيات من سورة النمل[1].

ومن الآيات الصريحة الجامعة في الدعوة إلى التوحيد والتحذير من الشرك.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (٣٦) ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا . . . ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ . . . ﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) . . . ﴾[4].

= ١٤٠٥ هـ)، وانظر مباحث في التفسير الموضوعي لشيخنا مصطفى مسلم، ص ١١٧ ـ ١٦١ (دار القلم ـ دمشق ـ الطبعة الأولى ـ ١٤١٠ هـ).

(١) الآيات من (٦٠ ـ ٦٤)، وانظر مباحث في التفسير الموضوعي ص ١٦٢ ـ ١٦٤.

(٢) سورة النساء، آية (٣٦).

(٣) سورة آل عمران، آية (٦٤).

(٤) سورة الإسراء، آية (٢٣).

(٥) سورة الأنعام، آية (١٥١).

(٤) سورة الحج، آية (٣٠ ـ ٣١).

المطلب الثاني: اتفاقهم في تقرير اليوم الآخر:

يقترن ذكر الإيمان بالله ـ عز وجل ـ بالإيمان باليوم الآخر، وما ذلك إلا لأهميته وضرورته، فالإيمان بوجود الله دون الإيمان بثواب الله وعقابه لا يساوي شيئاً، ولا يثمر عملاً، ولا يعمل عمله في النفس، والله خالق هذا الإنسان يعلم أن الذي يحرك هذا الإنسان ويدفعه إلى العمل هما «الرجاء» و «الخوف» ـ الترغيب والترهيب ـ جوهرا الإيمان بالآخرة، ولولاهما لما عمل الإنسان الخيرات واجتنب المنكرات، كيف لا؟! وقد قال الله عن أتقى الناس وأخلصهم ـ وهم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ـ ﴿ ... إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠) ﴾[٢].

وقديماً قالوا: «من أمن العقوبة أساء الأدب». فما الذي يقنع الإنسان بالتنازل عن فرصة سانحة ليتمتع في دنياه بما حرم الله عليه ـ كأكل أموال الناس بالباطل، وانتهاك أعراضهم، وظلمهم في حقوقهم. . . ـ، ما دام أنه لا رقيب ولا حسيب عليه في الدنيا، ولا عقاب ولا عذاب ينتظره في الآخرة!! بل ما الذي يحمل الإنسان على مقاومة الباطل ومقارعته لإحقاق الحق ـ وقد يموت أثناء ذلك ـ ما دام أنه لا ثواب ولا جزاء على ذلك!! إن الذي يقنعه بالالتزام بحدود الله فلا يتعداها، وعلى الابتعاد عن محارم الله فلا يقربها، وعلى مدافعة الباطل فلا يتركه يتبجح، يقينه بأنه سيكون هناك يوم آخر يلقى فيه أجره مضاعفاً. وإن الذي يحركه ليتقدم أو يتأخر هو إيثار ما يبقى على ما يفنى، يتحمل ألماً زائلاً خوفاً من ألم دائم، ويصبر عن لذة مؤقتة طمعاً في لذة دائمة. إن الأمور عندما تقاس بمقياس الآخرة يكون من الحماقة إضاعة نعيم خالد بنعيم زائل، كما أن ضغط الشهوات وثقلها لا يقاوم إلا بيقين الخُلْف والتعويض في الآخرة[٣]. من أجل ذلك كان الإيمان باليوم الآخر قاعدة أساس في العقيدة الإسلامية، وركناً من أركانها، ولهذا وجدنا أن كل نبي قد قرر اليوم الآخر، وحذّر

---

(٢) سورة الأنبياء، آية (٩٠).

(٣) انظر دراسات قرآنية، لمحمد قطب، (دار الشروق، بيروت والقاهرة)، ص ٦٦ ـ ٦٧.

قومه من هوله وعذابه، ورغبهم في نعيمه وجناته.

وسأذكر في عجالة ما ورد على ألسنة الرسل من تقرير لليوم الآخر:

١ ـ أعلم الله آدم ـ عليه السلام ـ عندما أهبطه من الجنة بأنه سيكون موت فبعث ونشور، ﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[1].

٢ ـ وقال تعالى على لسان نوح ـ عليه السلام ـ يخاطب قومه: ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾[2].

٣ ـ وجاء في دعاء خليل الرحمن لمكة ولأهلها ذكر اليوم الآخر: ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾[3].

كما جاء ذكره في دعائه لنفسه ولوالديه وللمؤمنين: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾[4]، وجاء في محاجته لقومه: ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾[5]، ومن دعائه كذلك: ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾[6].

٤ ـ وأنذر هود عليه السلام قومه عذاب الآخرة فكذبوه واستبعدوا أن تكون حياة أخرى قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾[7].

---

(١) سورة الأعراف، آية (٢٤ ـ ٢٥).

(٢) سورة نوح، آية (١٧ ـ ١٨).

(٣) سورة البقرة، آية (١٢٦).

(٤) سورة إبراهيم، آية (٤١).

(٥) سورة الشعراء، آية (٨٢).

(٦) سورة الشعراء، آية (٨٧ ـ ٨٩).

(٧) سورة المؤمنون، آية (٣٣ ـ ٣٧).

٥ ـ أما شعيب ـ عليه السلام ـ فقد رَغّب قومه في اليوم الآخر بصريح عبارة القرآن: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[1].

٦ ـ وورد ذكر الآخرة في كلام يوسف ـ عليه السلام ـ مع النزيلين معه في السجن ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[2]. كما ورد ذكرها في دعائه: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾[3].

٧ ـ وجاء ذكر الآخرة ضمن توجيهات الله لموسى عليه السلام في الوادي المقدس. ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾[4]، وجاء ذكر الآخرة في نصيحة مؤمن آل فرعون ـ وهو من أتباع موسى عليه السلام ـ لقومه: ﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴾[5].

وقال أيضا: ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ ﴾[6].

وجاء ذكر الآخرة في رد السحرة على تهديدات فرعون بعد إيمانهم بموسى ـ عليه السلام ـ ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ

---

(١) سورة العنكبوت، آية (٣٦).
(٢) سورة يوسف، آية (٣٧).
(٣) سورة يوسف، آية (١٠١).
(٤) سورة طه، آية (١٥ ـ ١٦).
(٥) سورة غافر، آية (٣٢ ـ ٣٣).
(٦) سورة غافر، آية (٣٩ ـ ٤١).

عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾[1].

٨ ـ أما عيسى ـ عليه السلام ـ فقد ورد ذكر الآخرة على لسانه وهو يتحدث في المهد مدافعاً عن أمه الطاهرة العفيفة الصّديقة: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾[2]. كما ورد ذكر الجنة والنار في دعوته لبني إسرائيل ﴿ . . . وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾[3].

أما رسولنا ـ ﷺ ـ فقد جاء بتفصيلات كثيرة[4] ودقيقة عن اليوم الآخر حتى لكأننا نرى ونشاهد أحداثها رأي عين، ابتداءً بالموت وسكراته ـ بداية الانتقال من هذه الدار ـ ومروراً بأحداث البرزخ وأخباره، وانتهاءً بمشاهد يوم القيامة إلى أن يستقر الناس في الجنة أو في النار ـ نعوذ بالله من النار ـ وفي ذلك يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ (ثم بلغت صورة الآخرة في هذا الدين الأخير غايتها من السعة والعمق والوضوح. . حتى بات عالم الآخرة في حس الأمة المسلمة أثبت وأوضح وأعمق من عالم الدنيا الذي يعيشونه فعلاً. . .)[5].

المطلب الثالث: وحدة الرسل وترابطهم:

الرسل سفراء الله في أرضه، والواسطة بينه وبين خلقه، أرسلهم الله من لدن آدم

---

(١) سورة طه، آية (٧٤ ـ ٧٦).

(٢) سورة مريم، آية (٣٠ ـ ٣٣).

(٣) سورة المائدة، آية (٧٢).

(٤) تقدر عدد الآيات التي تحدثت عن الآخرة بحوالي ألفي آية، أي ما يقارب ثلث القرآن الكريم (مستفاد من رسالة دكتوراه بعنوان «البعث عند الفلاسفة وموقف الإسلام منه» للباحث: عبد الكريم محمد الحميدي، مقدمة لجامعة الإمام ـ كلية أصول الدين ـ قسم العقيدة).

(٥) اليوم الآخر في ظلال القرآن، أحمد فايز ص ٨ (مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة ـ ١٤٠١ هـ).

ـ عليه السلام ـ إلى محمد ـ ﷺ ـ تترى، كلما دعت الحاجة إلى رسول أُرسل ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾[1].

يرسل إما مجدداً، قال رسول الله ـ ﷺ ـ «كانت بنو إسرائيل تسوسهم[2] الأنبياء، كلما هلك نبي قام نبي»[3].

أو معززاً ومعضداً ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[4]، وقال تعالى: في تعضيد موسى بهارون ﴿ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[5].

أو مُشرّعاً شرعاً جديداً، لذلك لم تخل أمة من الأمم من رسول أُرسل إليها: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾[6]، حتى ختموا بمحمد ـ ﷺ ـ فمحمد ﷺ، إذاً لم يكن بدعاً من الرسل، ولم تكن بعثته حادثة فريدة ولا شاذة غريبة ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[7]، بل هو حلقة في سلسلة طويلة من لدن آدم ـ عليه السلام ـ إلى أن اكتملت هذه السلسلة بحلقته، أو هو لبنة متمة لبنيان جميل شيّده الأنبياء عليهم السلام، بدأ بناءه آدم عليه السلام، بل هو حجر الزاوية في هذا البنيان، ولبنته أهم اللبنات، كما قال عن نفسه: (مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بنياناً

---

(١) سورة المؤمنون، آية (٤٤).

(٢) قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ معنى تسوسهم الأنبياء: أي أنهم كانوا إذا ظهر فيهم فساد بعث الله لهم نبياً يقيم لهم أمرهم ويزيل ما غيروا من أحكام التوراة، فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني ـ تحقيق محب الدين الخطيب، ج ٦/ ٥٧٣ (المكتبة السلفية ـ القاهرة ـ الطبعة الثالثة ١٤٠٧ هـ).

(٣) رواه البخاري في كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ج ٣ ص ١٢٧٣، ورواه مسلم في كتاب الأمارة، باب: وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول ج ٣ ص ١٤٧١.

(٤) سورة يس، آية (١٣ ـ ١٤).

(٥) سورة القصص، آية (٣٤ ـ ٣٥).

(٦) سورة فاطر، آية (٢٤).

(٧) سورة الأحقاف، آية (٩).

فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة! فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين)[1].

والإيمان بهذه السلسلة ـ المباركة ـ من الرسل الكرام أصل من أصول العقيدة الإسلامية، قال تعالى: ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾[2].

يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ «إن الله أمر نبيّه ـ ﷺ ـ أن يعلن هذه الحقيقة كلها ـ حقيقة دين الله الواحد ومنهجه ـ ويعلن إيمان أمته بجميع الرسالات، واحترامها لجميع الرسل، ومعرفتها بطبيعة دين الله، الذي لا يقبل الله من الناس سواه.. هذا الإسلام في سعته وشموله لكل الرسالات قبله وفي ولائه لكافة الرسل حَمَلَته، وفي توحيده لدين الله كله، ورجعه جميع الدعوات وجميع الرسالات إلى أصلها الواحد، والإيمان بها جملة كما أرادها الله لعباده...»[3].

ولقد سلك القرآن الكريم عدة أساليب لإبراز هذا الترابط بين الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ ونَلْمَس هذا المسلك على النحو التالي:

١ ـ سَرْد سيرة طائفة من الأنبياء، والتعقيب على ذكرهم بتأكيد كونهم أمة واحدة ـ مع بعد الزمان والمكان بينهم ـ ففي سورة الأنبياء، قال تعالى ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾[4]، وفي سورة المؤمنون قال تعالى ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾[5] (أي هذا الجمع من الأنبياء والمرسلين أمتكم، أي جماعتكم حال إنها أمة واحدة، أي ليس جمعاً تربطه الروابط البعيدة... بل هي أمة تربطها رابطة قريبة هي رابطة الإهتداء بنور الله والدعوة إلى توحيده، والقيام على شرعه وحمل الناس على اتباع أحكامه، فهي مجتمعة على أمر

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفضائل، باب كونه ﷺ خاتم النبيين، ج ١٧٩١/٤.

(٢) سورة آل عمران، آية (٨٤).

(٣) في ظلال القرآن (بتصرف يسير) ج ٤٢٢/١ ـ ٤٢٣.

(٤) سورة الأنبياء، آية (٩٢).

(٥) سورة المؤمنون، آية (٥٢).

واحد لا تعدد فيه، هو الحق والعدل، فهي جديرة بأن تكون أمة واحدة)[1].

٢ ـ عدُّ الكفر برسول واحد منهم كفراً بالجميع كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ ﴾[2]. فالمنطق يقتضي الإيمان بالجميع، لأن مرسل الجميع واحد ـ هو الله ـ وهدف الجميع واحد ـ هداية البشر ـ فلا معنى للإيمان ببعض الأنبياء دون بعض (فمن ردّ نبوة نبي من الأنبياء حسداً أو عصبية أو تشهياً، عُرف أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيماناً شرعياً، إنما هو عن غرض وهوى وعصبية)[3]، وقد وقع في هذا التناقض كل من اليهود والنصارى إذ آمن اليهود بكل الرسل ما عدا عيسى ومحمداً ـ عليهما الصلاة والسلام ـ وآمن النصارى بكل الرسل ما عدا محمداً ـ ﷺ ـ أما المسلمون، فقد آمنوا برسل الله جميعاً بلا تفرقة، واحترموا كل الديانات السماوية، وعدّوها كلها حقاً ـ ما لم يقع فيها تحريف أو تبديل[4]، ولذلك قال الله عَقب هذه الآية مادحاً إياهم: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ ﴾[5].

٣ ـ التعبير عن تكذيب أمة من الأمم لرسولها بتكذيبها للرسل جميعاً، ففي سورة الشعراء يذكر الله عن نوح أن قومه كذبوا المرسلين ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾[6] مع أن قوم نوح لم يكذبوا إلا نوحاً وحده، وكذلك تكرر التعبير نفسه مع كل من هود، وصالح، ولوط، وشعيب ـ عليهم السلام ـ[7]، وذلك لأنهم كذبوا جنس الرسل، لأن أصل دعوتهم واحد ـ مصدراً ومقصداً ـ فلو أُرسل نوح إلى قوم هود،

---

(١) تفسير القران الحكيم، الشهير بتفسير المنار، محمد رشيد رضا، (دار المعرفة، بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الثانية)؛ ج ٢/٢٨.

(٢) سورة النساء، آية (١٥٠ ـ ١٥١).

(٣) تفسير ابن كثير (بتصرف يسير) ج ١/ص ٥٨٥.

(٤) انظر في ظلال القرآن ج ٢/٧٩٨.

(٥) سورة النساء، آية (١٥٢).

(٦) سورة الشعراء، آية (١٠٥).

(٧) انظر الآيات في سورة الشعراء (١٢٣/ ١٤١/ ١٦٠/ ١٧٦).

وأرسل صالح إلى قوم هود لما تغير الأمر، بل لو أرسل الرسل جميعاً إلى قوم نوح لما آمنوا ـ سوى من آمن معه ـ ولذلك عُد تكذيبهم لنوح بمثابة تكذيبهم لجميع المرسلين.

٤ ـ التعبير عن مجموعة من الرسل بلفظ الإفراد «رسول». يقول الله عن موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ وهو يُحمّلهما رسالته إلى فرعون ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾[1]. فالمرسل مثنّى ـ هما موسى وهارون ـ والتعبير القرآني عَبّر بالمفرد وقصد به المثنى، ولهذا ـ طبعاً ـ دلالته، وقد أشار إليها الزمخشري[2] والرازي[3] من المتقدمين، كما أشار إليها الأخوان سيد ومحمد قطب من المعاصرين ودلالة ذلك: أنهما مع كونهما شخصين، إلا أنهما يقومان بمهمة واحدة، ورسالتهما واحدة، فضلاً عن كونهما أخوين، فكانا كأنهما رسول واحد[4].

---

(١) سورة الشعراء، آية (١٦).

(٢) هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشري الخوارزمي، العلامة النحوي اللغوي المفسّر، كبير المعتزلة، يلقب جار الله لمجاورة مكة زماناً، ولد سنة سبع وستين وأربعمائة بزمخشر من قرى خوارزم، كان رأساً في البلاغة والعربية مجاهراً باعتزاله وداعية إليه، له تصانيف كثيرة منها: تفسير «الكشاف» و «الفائق في غريب الحديث» و «أساس البلاغة» مات سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة. (سير أعلام النبلاء، ج ٢٠/١٥١، طبقات المفسرين للداوودي، ج ٢/ ٣١٤).

(٣) هو الإمام العلامة أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي الطبرستاني الأصل، ثم الرازي المفسر المتكلم، إمام وقته في العلوم العقلية، ولد سنة أربع وأربعين وخمسمائة، صنف في فنون كثيرة، ومن تصانيفه «التفسير الكبير» المعروف بـ «مفاتيح الغيب» و «المحصول» و «نهاية العقول» قيل إنه ندم في آخر حياته على دخوله في علم الكلام. توفي بهراة يوم الفطر سنة ست وستمائة (طبقات المفسرين للداوودي ج ٢/٢١٦، شذرات الذهب، ج ٥/ ٢١).

(٤) انظر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، (دار المعرفة، بيروت ـ لبنان)، ج ٣/ ١١٠، وانظر التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) للإمام الفخر الرازي، (دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثالثة)، ج ٢٤/ ١٢٤، وانظر في ظلال القرآن ج ٥/ ٢٥٩٠، وانظر دراسات قرآنية، لمحمد قطب، ص ١٠٤.

وقريب من هذه الآية، قوله تعالى في سورة الحاقة ﴿ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾[1]، فأفرد الرسول المُكذَّب مع أن الحديث عن جماعة من المكذبين، وهم فرعون ومن قبله والمؤتفكات[2]، كذبوا رسلهم كلاً على حدة، فعُدوا كأنهم كذبوا رسولاً واحداً لاتحاد مصدر الرسل ومقصدهم، ونخلص إلى قاعدة وهي: **تكذيب رسول واحد كتكذيب الرسل جميعاً والإيمان برسول واحد يقتضي الإيمان بجميع الرسل.**

٥ ـ إبراز القرآن الكريم لأخوة الرسل، حيث يصدق اللاحقُ بالسابق، ويبشر السابقُ باللاحق، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «والله تعالى جعل من دين الرسل، أن أولهم يبشر بآخرهم ويؤمن به، وآخرهم يصدق بأولهم ويؤمن به...»[3]، وقد جمع الله مهمتي التصديق والتبشير في آية الصف ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾[4].

ولما كان نبينا خاتم النبيين فقد كان مصدقاً للنبيين قبله، غير مبشر بأحد بعده. وكتابه مهيمناً على كتبهم قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[5].

فهذه العملية ذات الشقين ـ التصديق والتبشير ـ تؤكد أخوة الرسل ـ صلوات الله عليهم ـ كيف لا وقد صرح نبينا ـ ﷺ ـ بأخوة الأنبياء بقوله: **«أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة، ليس بيني وبينه نبي، والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد»**[6].

---

(١) سورة الحاقة، آية (١٠).

(٢) المؤتفكات: هي قرى قوم لوط، سميت بذلك لأنها ائتفكت بهم، أي انقلبت، وهي خمس قريات، صعبة وصعرة وعمرة ودوما وسدوم وهي القرية العظمى (انظر الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (دار الكتاب العربي، بيروت).

(٣) الرسالة التدمرية ص ١١١.

(٤) سورة الصف، آية (٦).

(٥) سورة المائدة، آية (٤٨) ذكر ابن كثير أقوالاً كثيرة لمعنى «مهيمناً» ثم قال: وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى، فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله، (تفسير القرآن العظيم، ج ٢/٦٨).

(٦) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب ﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها﴾ وفي رواية =

ومن الملاحظ أن القرآن الكريم يُبْرِز رابطة الأخوة بين خليلي الرحمن ـ إبراهيم عليه السلام، ومحمد ـ ﷺ ـ من جهة، وبين موسى عليه السلام، ومحمد ـ ﷺ ـ من جهة أخرى[١]، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا . . . ﴾[٤].

٦ ـ إنكار الله على أتباع الأنبياء عدم تمسّكهم بوصية الله لأنبيائه بالاتحاد والائتلاف، قال تعالى: ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ ﴾[٥].

والمعنى: أي وصيناهم عن طريق رسلهم بالاتحاد والائتلاف وإقامة الدين ولكنهم تفرقوا واختلفوا!! لا عن جهل، بل عن علم ومعرفة، وذلك بسبب البغي والحسد واتباع الهوى وحب الرئاسة[٦].

وقال في سورة الأنبياء ـ بعد الإشادة بوحدة أمة الأنبياء ـ ﴿ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾[٧].

= (والأنبياء أولاد علات) ج ٣/ ١٢٧٠، ورواه مسلم في كتاب الفضائل، باب: فضائل عيسى عليه السلام (ج ٤/ ١٨٣٧)، والعلات بفتح المهملة الضرائر، وأصله، أن من تزوج امرأة ثم تزوج أخرى كأنه عل منها، وأولاد العلات: الإخوة من الأب وأمهاتهم شتى، ومعنى الحديث: أن أصل دينهم واحد، وهو التوحيد، وإن اختلفت فروع الشرائع (فتح الباري ج ٦/ ٥٦٤).

(١) ربما سبب هذه الخصوصية، لأن بني إسرائيل يرضون بإبراهيم أباً لهم ويتمسكون بموسى كأكبر أنبيائهم، وكذلك كفار قريش يتشرفون بالانتساب إلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ.

(٢) سورة آل عمران، آية (٦٨).

(٣) سورة الأعلى، آية (١٨ ـ ١٩).

(٤) سورة الأحقاف، آية (١٢).

(٥) سورة الشورى، آية (١٤).

(٦) انظر تفسير المراغي، لأحمد مصطفى المراغي (دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٨٥) ج ٢٥/ ٢٦.

(٧) سورة الأنبياء، آية (٩٣).

والمعنى: (أي تفرقوا في الدين وكانوا شيعاً، فمنهم يهودي، ومنهم نصراني، ومنهم عابد وثن إلى غير ذلك من الفرق المختلفة)[1]، ويظهر أن تذييل الآية بقوله: «كل إلينا راجعون» فيه تهديد لأولئك الذين قطّعوا وحدة الرسل وخالفوا وصيتهم، بأنهم سيرجعون إلى الله ليحاسب كل نفس بما كسبت إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وفي سورة المؤمنون قال: بعد الإشادة بوحدة الرسل ـ كذلك ـ ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[2]، فالآية أنكرت على أتباع الرسل تفرقهم وتحزبهم وفرحهم بذلك بدلاً من اتحادهم وائتلافهم.

المبحث الثاني
اتفاق الرسل في أصول التشريع

ليست الأمور العقدية فقط ما اتفقت عليه الرسالات السماوية، بل اتفقت ـ كذلك ـ في أصول التشريع، ويمكن تقسيم التشريعات التي جاء بها الرسل ـ عليهم السلام ـ إلى قسمين[3]:

تشريعات خالدة (دائمة) لا تتبدل بتبدل الأصقاع والأوضاع.

وتشريعات موقوتة (متغيرة) تنتهي عند أجلها الذي أجله الله لها.

وبهذا التقسيم يزول الإشكال الذي يكتنف بعض الآيات فتبدو كأنها متعارضة كقوله تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ ﴾[4]، في مقابل قوله تعالى: ﴿ ... لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾[5]، فالشرع

---

(١) أضواء البيان البيان ج ٤/٦٨٩.

(٢) سورة المؤمنون، آية (٥٣).

(٣) انظر: الدين، د. محمد عبد الله دراز، (دار القلم، الكويت، ١٤٠٠ هـ) ص ١٧٨، وانظر محمد رسول الله، هكذا بشرت به الأناجيل، بشرى زخاري ميخائيل، (عالم الكتب، القاهرة، الثانية) ص ٧٩.

(٤) سورة الشورى، آية (١٣).

(٥) سورة المائدة، آية (٤٨).

الذي اتفق فيه كل من نوح وإبراهيم وموسى وعيسى هو: أصول الدين، (التشريعات الخالدة) والتي تشمل العقيدة وأصول التشريع.

«والشرعة» في الآية الثانية هي: الشريعة، والمراد بها هنا فروع التشريع وتفصيلاته (التشريعات الموقوتة)، التي تباينت فيها الرسالات بحسب اختلاف مصالح العباد، وملابسات التشريع، واختلاف استعداد الأقوام، وتنوع المشكلات الاجتماعية، ومقتضيات الزمان والمكان. يقول الفخر الرازي: (المسألة الثالثة): وردت آيات على عدم التباين في طريقة الأنبياء والرسل، وآيات دالة على حصول التباين فيها، وطريق الجمع بينها: أن كل آية دلت على عدم التباين في الدين فهي دالة على أصول الدين وكل آية دلت على حصول التباين فهي فيما يتعلق بفروع الدين[١].

وقبل الشروع في بيان أصول التشريع ـ الذي اتفقت عليها الرسل ـ يجدر بي أن أعرف الشريعة.

فأصل «الشريعة» في كلام العرب: موردُ الشاربة التي يَشْرعُها الناسُ فيشربون منها ويستقون، والعرب لا تُسميها شريعةً حتى يكون الماء عداً ـ جارياً ـ لا انقطاع له، ويكون ظاهراً معيناً لا يُستَقى بالرشاء ـ بالدلو ـ، «والشرعة» و «الشريعة» واحد، يجمعِ «شرعاً»، و «شرائع»، وسميت الشريعةُ شريعةً تشبيهاً بشريعة الماء من حيث إنَّ من شرَعَ فيها على الحقيقة المصدُوقة رَوى وتطهَرَ[٢].

والشريعةُ في الإصطلاح تقابل العقيدة، وهي التكاليف العملية[٣] التي جاء بها

---

(١) التفسير الكبير (بتصرف) ج ١٢/ ١٢، وانظر تفسير الخازن (المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الصوفي، (المعروف بالخازن، دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان) ج ١/ ٤٧٠.

(٢) انظر: جامع البيان/ شاكر ج ١٠/ ٣٨٤، المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين، المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، (دار المعرفة ـ بيروت)، مادة «شرع» ص ٢٥٨، تاج العروس من جواهر القاموس لمحمد مرتضى الزبيدي، تحقيق: عبد العليم الطحاوي (دار الجيل ـ مطبعة حكومة الكويت، ١٤٠٤ هـ)، مادة «شرع» ج ٢١/ ٢٦٠.

(٣) يرى بعض العلماء أن الشريعة تنتظم كل ما شرعه الله من العقائد والأعمال، كشيخ الإسلام ابن تيمية، (انظر: مجموع فتاوي شيخ الإسلام، ج ١٩/ ٣٠٦)، وكشيخنا مناع القطان من المعاصرين ـ (انظر: التشريع والفقه في الإسلام، تاريخاً ومنهجاً، لمناع خليل القطان، =

الإسلام في العبادات والمعاملات[1]. كما روى ذلك الإمام الطبري عن قتادة[2] قال: (الشريعة: الفرائض والحدود والأمر والنهي)[3].

وأقصد بأصول التشريع، الأصول التي اتفقت عليها الرسالات في كل من العبادات والمعاملات.

المطلب الأول: الاتفاق في أصول العبادات:

ففيما يتعلق بالجانب العبادي ـ الذي ينظم العلاقة بين العبد وربه، ويتكفل بتزكية الأنفس، نلاحظ أن الرسالات السماوية السابقة قد اتحدت في فرضية أربع عبادات[4] من أركان الإسلام في صورته الأخيرة ـ الصلاة والزكاة والصيام

= مؤسسة الرسالة، ـ بيروت ـ السابعة ـ ١٤٠٧ هـ ص ١٥)، لكن سرت في هذا البحث على التعريف المشهور أن الشريعة: هي الأحكام العملية (عبادات ومعاملات) وقد رجح هذا التعريف صاحب المنار ودافع عنه بحجة قوية، إذ يقول: (وتحرير القول أن الشريعة اسم للأحكام العملية وأنها أخص من كلمة «الدين» وإنما تدخل في مسمى الدين من حيث إن العامل بها يدين الله تعالى بعمله ويخضع له ويتوجه إليه مبتغياً مرضاته وثوابه بإذنه.. ثم يقول: ولو كانت الآية عامة في الدين والشريعة لكان معناها إن ما شرعه الله لنا هو عين ما شرعه لنوح والنبيين من بعده ولم يكن [يبدو لي أنها ولكان]، معناها أننا مخاطبون بالأحكام العملية التي شرعها الله لقوم نوح من بعده، وكون ما شرعه الله لنا هو عين ما شرعه لهم مناقض لقوله تعالى: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾، وقال قبل ذلك: «... وهذا يوافق أو يقارب عرف الأمم حتى اليوم، فهم لا يطلقون اسم الشريعة إلا على الأحكام العملية، بل يخصونها بما يتعلق بالقضاء وما يتخاصم فيه إلى الحكام، دون ما يدان الله به من أحكام الحلال والحرام». (انظر المنار، ج ٦/ ٤١٣ ـ ٤١٥).

(١) انظر: العقيدة في الله، لعمر سليمان الأشقر، ص ١٠ (مكتبة الفلاح ـ الكويت ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٧٩).

(٢) هو الحافظ العلامة، أبو الخطاب قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز السدوسي البصري الضرير الأكمه المفسر، كان رأساً في العربية واللغة وأيام العرب والنسب، كان أحفظ الناس، لا يسمع شيئاً إلا حفظه، وله تفسير، مات بواسط في الطاعون سنة ثماني عشرة ومائة (تذكرة الحفاظ، ج ١/ ١٢٢، طبقات المفسرين للداوودي، ج ٢/ ٤٧).

(٣) جامع البيان، (ج ٢٤/ ٨٨).

(٤) قام المفكر الإسلامي أبو الحسن علي الندوي بدراسة مقارنة حول وضع هذه الأركان الأربعة في الرسالات السماوية السابقة والإسلام، في كتاب سماه: «الأركان الأربعة»: الصلاة، =

والحج[1]، والآيات التي تؤيد هذا الاتفاق هي:

أولاً وثانياً: فريضتا الصلاة والزكاة:

- أوحى الله إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب فعْلَ هاتين الشعيرتين قال تعالى: ﴿ . . وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾[2].

- أخذ الله الميثاق على بني إسرائيل بفعلهما، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[4].

- وكان إسماعيل عليه السلام - يأمر أهله بهما. قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾[5].

- وأوصى الله عيسى عليه السلام - بفعلهما، قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾[6].

- أوحى الله إلى موسى وأخيه إقامة الصلاة. قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ

= الزكاة، الصوم، الحج، في ضوء الكتاب والسنة مقارنة مع الديانات الأخرى.

(١) إن كانت هذه العبادات قد اتحدت في أصلها واسمها فقد اختلفت فيما وراء ذلك، في صورها وتفصيلاتها وكيفيتها وأركانها وشروطها وواجباتها. . .

(٢) سورة الأنبياء، آية (٧٣).

(٣) سورة البقرة، آية (٨٣).

(٤) سورة المائدة، آية (١٢).

(٥) سورة مريم، آية (٥٤ - ٥٥).

(٦) سورة مريم، آية (٣٠ - ٣١).

أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

ـ أنكر الله على أتباع الأنبياء إضاعة الصلاة. قال تعالى: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[2].

قال مجاهد[3]: «لم يبعث الله نبياً قط إلا وصاه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة»[4].

ثالثاً: فريضة الصيام:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾[5]، فدلالة هذه الآية على فرضية الصيام على الأمم من قبلنا صريحة.

رابعاً: فريضة الحج:

أمر الله خليله إبراهيم[6] عليه السلام ـ بعد بنائه الكعبة ـ أن ينادي بالحج بقوله:

---

(١) سورة يونس، آية (٨٧).

(٢) سورة مريم، آية (٥٩).

(٣) هو الإمام، شيخ القراء والمفسرين، أبو الحجاج المكي مجاهد بن جبر، مولى السائب بن أبي السائب المخزومي ـ وقيل غيره ـ أشهر تلاميذ ابن عباس، أخذ عنه القرآن والتفسير والفقه، يقول: عرضت القرآن ثلاث عرضات على ابن عباس، أقفه عند كل آية أسأله فيم نزلت، وكيف كانت. قال عنه قتادة: أعلم من بقي بالتفسير مجاهد، مات وهو ساجد سنة ثلاث ومئة وقد بلغ ثلاثاً وثمانين سنة (طبقات ابن سعد، ج ٥/ ٤٦٦، سير أعلام النبلاء ج ٤/ ٤٤٩ وما بعدها).

(٤) فتح البيان في مقاصد القرآن، لصديق حسن خان (دار الفكر العربي) ج ٧/ ٣٦٠.

(٥) سورة البقرة، آية (١٨٣).

(٦) ثبت في الحديث حج كل من موسى ويونس ـ عليهما السلام ـ ففي صحيح مسلم وابن ماجه عن ابن عباس قال: سرنا مع رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة، فمررنا بواد، فقال: «أي واد هذا؟» فقالوا: وادي الأزرق قال: «كأني انظر إلى موسى عليه السلام هابطاً من الثنية وله جؤار(١) إلى الله بالتلبية «ثم أتى على ثنية هرشي (٢) فقال: أي ثنية هذه؟ قالوا: ثنية هرشي قال «كأني انظر إلى يونس بن متى عليه السلام على ناقة حمراء جَعْدةٍ(٣) عليه جُبة من صوف، خطامُ ناقته خُلبة(٤) وهو يلبي «(صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول =

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾[1]، أخرج ابن جرير والحاكم[2] وصححه، عن ابن عباس قال: «لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قال: رب قد فرغت، فقال: (أذن في الناس بالحج) قال: رب، وما يبلغ صوتي؟ قال: أذن وعليّ البلاغ، قال: رب، كيف أقول؟ قال قل: يا أيها الناس، كتب عليكم الحج حج البيت العتيق.. فسمعه من بين السماء والأرض، ألا ترى أنهم يجيئون من أقصى الأرض يلبّون...)[3].

المطلب الثاني: الاتفاق في أصول المعاملات[4]:

أما فيما يتعلق بالمعاملات، فقد وردت آيات جامعة تأمر بأصول الفضائل وأمهات الأخلاق، وتنهى عن الفواحش والمنكرات، وذَكَر بعض العلماء أن هذه الأصول هي مما اتفقت فيه الرسالات السماوية، وأشهر هذه الآيات:

- قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ... ﴾[5].

= الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات، ج ١/ ١٥٢؛ صحيح سنن ابن ماجه، كتاب المناسك، باب الحج على الرحل، ج ٢/ ١٤٩ (١) جؤار: رفع الصوت - (٢) هرشي: جبل قرب الجحفة - (٣) جعدة: أي مكتنزة اللحم - (٤) خلبة: هو الليف (صحيح مسلم بشرح النووي، ج ٢/ ٢٢٩).

(١) سورة الحج، آية (٢٧) الضامر: الفرس الخفيف اللحم (المفردات، مادة «ضمر»، ص ٢٩٩).

(٢) هو الحافظ الكبير إمام المحدثين، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدون النيسابوري المعروف بابن البيع صاحب التصانيف التي بلغت ألفاً وخمسمائة جزء، ولد سنة إحدى وعشرين وثلثمائة، كان شيعياً معظماً للشيخين. صنف المستدرك على الصحيحين، قال الذهبي «فيه أحاديث كثيرة ليست على شرط الصحة بل فيه أحاديث موضوعة، «توفي سنة خمس وأربعمائة». (تذكرة الحفاظ، ج ٣/ ١٠٣٩ وما بعدها، شذرات الذهب، ج ٣/ ١٧٦).

(٣) مستدرك الحاكم، ج ٢/ ٣٨٨، وقال هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، جامع البيان، ج ١٧/ ١٠٦، وانظر: الدر المنثور ج ٦/ ٣٢.

(٤) وتشمل النظم والقوانين التي تنظم علاقات البشر مع بعضهم، كالأسرة، والأعراض، والأموال، والأخلاق، والمعاهدات والعقود.

(٥) سورة الحديد، آية (٢٥).

يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ «والميزان». . مع الكتاب، فكل الرسالات جاءت لتقر في الأرض وفي حياة الناس ميزاناً ثابتاً ترجع إليه البشرية، لتقويم الأعمال والأحداث والأشياء والرجال، وتقيم عليه حياتها في مأمن من اضطراب الأهواء واختلاف الأمزجة، وتصادم المصالح والمنافع، ميزاناً لا يحابي أحداً لأنه يزن بالحق الإلهي للجميع، ولا يحيف على أحد لأن الله رب الجميع[1].

ـ قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾[2].

ـ قوله تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾[3]

ـ قوله تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾[4]

ـ قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾[5].

---

(١) في ظلال القرآن ج ٦/ ٣٤٩٤.
(٢) سورة البقرة، آية (٨٣).
(٣) سورة النساء، آية (١٦٠ ـ ١٦١).
(٤) سورة المائدة، آية (٣٢).
(٥) سورة الأنعام، آية (١٥١ ـ ١٥٣).

قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: «هذه[1] الآيات المحكمات التي ذكرها الله في سورة آل عمران[2]، أجمعت عليها شرائع الخلق، ولم تنسخ قط في ملة، وقد قيل: إنها العشر كلمات المنزلة على موسى ـ عليه السلام ـ»[3]، وسمع كعب الأحبار[4] رجلاً يقرأ: «قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم» فقال: والذي نفس كعب بيده، إن هذا لأول شيء في التوراة: بسم الله الرحمن الرحيم، قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم»[5]، وقد أكد خبر كعب كل من الشوكاني[6]، وسعيد حوى ـ رحمهما الله ـ وذكرا أنهما وجدا ما يناظر هذه الوصايا العشر[7]، فيما يسمونه بالتوراة!! ثم قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ بعد ذكْرها: «فلعل مراد كعب الأحبار هذا، ولليهود بهذه الوصايا عناية عظيمة، وقد كتبها أهل الزبور في آخر زبورهم، وأهل الإنجيل في أول إنجيلهم، وهي مكتوبة في لوحين. . .»[8].

(١) الضمير يعود على الآيات الثلاث الأخيرة (الوصايا العشر).

(٢) المراد قوله تعالى: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب. . .﴾.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ج ٧/ ١٣٢.

(٤) هو أبو إسحاق، كعب بن ماتع الحميري اليماني، العلامة الحبر تابعي أسلم في زمن أبي بكر وقدم المدينة في عهد عمر بن الخطاب، كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود خبيراً بكتبهم، وهو من مصادر الإسرائيليات، سكن بالشام في آخر حياته وغزا مع الصحابة. توفي بحمص في خلافه عثمان بن عفان عن مئة وأربع سنين. (سير أعلام النبلاء، ج ٣/ ٤٨٩ وما بعدها، الأعلام، ج ٥/ ٢٢٨).

(٥) جامع البيان / شاكر (١٢/ ٢٢٧) قال أحمد شاكر: هذا خبر إسناده صحيح إلى كعب الأخبار.

(٦) هو محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني ثم الصنعاني، ولد بهجرة شوكان سنة ١١٧٣ هـ ونشأ بصنعاء وولي قضاءها سنة ١٢٢٩ هـ، كان مشتغلاً في جميع أوقاته بالعلم درساً وتدريساً وافتاء وتصنيفاً، ترك التقليد واجتهد رأية اجتهاداً مطلقاً غير مقيد قبل الثلاثين، بلغت مصنفاته أربع عشرة ومئة كتاباً.

منها: تفسيره «فتح القدير» و «نيل الأوطار» و «إرشاد الفحول» و «السيل الجرار» توفي سنة ١٢٥٠ هـ (البدر الطالع، ج ٢/ ٢١٤ وما بعدها، الأعلام، ج ٦/ ٢٩٨).

(٧) قال الشوكاني: (وأولها: أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية لا يكن لك إله آخر غيري، ومنها: أكرم أباك وأمك ليطول عمرك في الأرض التي يعطيك الرب إلهك، لا تقتل، لا تزن، لا تسرق، لا تشهد على قريبك شهادة زور، لا تشته بنت قريبك، ولا تشته امرأة قريبك، ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك)، فتح القدير ج ٢/ ١٧٩.

(٨) انظر نفس المرجع السابق: وانظر الأساس في التفسير، لسعيد حوى ج ٣/ ١٧٩٥ (دار =

كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ أن هيمنة القرآن على الكتب السابقة تكون بالشهادة لأخبارها ـ غير المحرفة ـ وكشف ما حُرّف وبُدِّل وتقرير الأصول الخالدة وتأكيدها، فقال: «وهيمن على ما بين يديه من الكتاب، وذلك يعم الكتب كلها، شاهداً وحاكماً ومؤتمناً، شهد بمثل ما فيها من الأخبار الصادقة وقرّر ما في الكتب المتقدمة من أصول الدين وشرائعه الجامعة، التي اتفقت عليها الرسل، كالوصايا المذكورة في آخر الأنعام[١]، وأول سورة الأعراف[٢]، وسورة سبحان[٣]، ونحوها من السور المكية»[٤].

وقبله ابن العربي[٥] ـ رحمه الله ـ عدَّدَ الأصول الخالدة في الرسالات السماوية قائلاً: «الأصول التي لا تختلف فيها الشرائع هي: التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج، والتقرب إلى الله بصالح الأعمال... والصدق والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وصلة الرحم، وتحريم الكفر والقتل والزنا والإذاية للخلق، كيفما تصرفت، والاعتداء على الحيوان كيفما كان، واقتحام الدناءات، وما يعود بخرم المروءات، فهذا كله شُرع ديناً واحداً، وملةً متحدة لم يختلف على ألسنة الأنبياء وإن اختلفت أعدادهم... واختلفت الشرائع وراء هذا في معانٍ حسبما أراده الله، مما اقتضته المصلحة، وأوجبت الحكمة وضعه في الأزمنة على الأمم»[٦].

= السلام ـ القاهرة، بيروت ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٥ هـ).

(١) يقصد الآيات (١٥١ ـ ١٥٣).

(٢) يقصد الآيات (٢٨ ـ ٣٣).

(٣) يقصد الآيات (٢٣ ـ ٣٩).

(٤) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لشيخ الإسلام ابن تيمية (دار المدني ـ القاهرة) ج ١/ ٣.

(٥) هو الإمام العلامة، أبو بكر، محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن العربي الأندلسي الأشبيلي المالكي ختام علماء الأندلس، وآخر أئمتها وحفاظها، ولد سنة ثمان وستين وأربعمائة، كان متقناً لمسائل الخلاف والأصول والكلام، له تصانيف كثيرة ومفيدة، منها: تفسيره «أحكام القرآن»، و«عارضة الأحوذي على كتاب الترمذي» و«الإنصاف في مسائل الخلاف» في عشرين مجلداً. توفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة بفاس. (سير أعلام النبلاء، ج ١٩٧/٢٠ وما بعدها، طبقات المفسرين للداوودي، ج ١٦٧/٢ وما بعدها).

(٦) أحكام القرآن، لابن العربي، تحقيق: علي محمد البيجاوي، (دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٩٢ هـ)، ج ١٦٦٦/٤ ـ ١٦٦٧، وقد نقله عنه القرطبي، انظر الجامع لأحكام =

وفي ختام هذا الفصل أود أن أؤكد على أمر مهم وهو تعانق الشريعة والعقيدة في كل الرسالات السماوية، فلا عقيدة بدون شريعة، ولا تنفع شريعة بدون عقيدة، فالعقيدة جذور الشريعة، والشريعة ثمار العقيدة.

يقول سيد قطب ـ رحمه الله: «ومن هذا يتبين أن طبيعة الدين ـ أي دين أن يتضمن تنظيماً لحياة الناس بالتشريع، وألا يقتصر على الجانب التهذيبي الأخلاقي وحده، ولا على المشاعر الوجدانية وحدها، ولا على العبادات والشعائر وحدها كذلك، فهذا لا يكون ديناً، فما الدين إلا منهج الحياة الذي أراده الله للبشر، ونظام الحياة الذي يربط حياة الناس بمنهج الله ولا يمكن أن ينفك عنصر العقيدة الإيمانية عن الشعائر التعبدية، عن القيم الخلقية، عن الشرائع التنظيمية، في أي دين يريد أن يُصرِّف حياة الناس وفق المنهج الإلهي، وأي انفصال لهذه المقومات يبطل عمل الدين في النفوس وفي الحياة، ويخالف مفهوم الدين وطبيعته كما أراده الله»[1].

وكل من تتبع أسلوب القرآن الكريم في عرض دعوة الرسل ـ عليهم السلام ـ يجد ذلك متجسداً، فما أن يقول الرسول لقومه «اعبدوا الله ما لكم من إله غيره» حتى يطالبهم بالتزام الشريعة وترك ما يعارضها من المنكرات والمخالفات، ولما كانت المنكرات والمخالفات كثيرة وبعضها أكبر من بعض، نجد الرسل ـ عليهم السلام ـ يوجهون دعوتهم إلى أخطر أمراض المجتمع وأكثرها ضرراً لاستئصالها من جذورها[2].

= القرآن، ج ١١/١٦، ونقل عن القرطبي، الجمل في الفتوحات الإلهية، لسليمان بن عمر العجيلي الشهير بالجمل (دار إحياء التراث العربي، بيروت)، ج ٥٦/٤.

(١) في ظلال القرآن، ج ٤٠٠/١.

(٢) قرن شعيب ـ عليه السلام ـ بين الدعوة إلى التوحيد ومحاربة الفساد الاقتصادي قائلاً: ﴿أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين، وزنوا بالقسطاط المستقيم، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ الشعراء (١٨١ ـ ١٨٣)، وقرن لوط ـ عليه السلام ـ بين الدعوة إلى التوحيد ومحاربة الانحلال الخلقي، قائلاً: ﴿أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم، بل أنتم قوم عادون﴾ الشعراء (١٦٥ ـ ١٦٦)، وأتبع هود ـ عليه السلام ـ دعوته إلى التوحيد بمحاربة الغرور المادي، قائلاً ﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون، وإذا بطشتم بطشتم جبارين﴾ الشعراء (١٢٨ ـ ١٣٠) الريع: المكان المرتفع كانوا يبنون عند الطرق المشهورة لأجل اللهو والعبث =

. . . .

= وإظهار القوة، مصانع: قصوراً مشيدة محكمة ـ مثل المغترين بناطحات السحاب في زماننا هذا!! بطشتم: وصف لهم بالقوة والغلظة والجبروت (انظر تفسير القرآن العظيم، ج ٣/ ٣٥٤)، يقول الفخر الرازي ـ رحمه الله ـ الأمور التي تكلم فيها هود مع قومه ـ بالإنكار ـ ثلاثة (١) اتخاذ الأبينة العالية، ويدل على حب العلو (٢) اتخاذ المصانع ويدل على حب البقاء (٣) الجبارية، ويدل على حب التفرد بالعلو، (التفسير الكبير ج ٢٤/ ١٥٧)، وحارب موسى الطغيان السياسي وطالب فرعون بإطلاق الحريات بجانب الدعوة إلى التوحيد، قال تعالى: ﴿فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل، ولا تعذبهم، قد جئناك بآية من ربك، والسلام على من اتبع الهدى﴾ طه، (٤٧).

الفصل الثاني

إثبات نبوة محمد ـ ﷺ ـ

لقد كان من أغراض القصص القرآني: إثبات الوحي الإلهي والرسالة لمحمد ـ ﷺ ـ وبدهي أن إثبات الله النبوة لمحمد ـ ﷺ ـ في مقابل تكذيب المكذبين لهو من أعظم المثبتات لرسوله ـ ﷺ ـ كي يمضي في طريقه غير عابىء بتشكيك المشككين، وتكذيب المكذبين، وافتراء المبطلين.

وجاء إثبات نبوة الرسول ـ ﷺ ـ من خلال القصص القرآني ـ بطريقتين:

الأولى: بشارة الأنبياء ببعثته ـ ﷺ ـ.

الثانية: إخباره ـ ﷺ ـ عن قصص وأحداث وقعت في الزمان الغابر.

المبحث الأول

بشارة الأنبياء ببعثة الرسول ـ ﷺ ـ

إن تبشير الأنبياء السابقين ببعثة محمد ـ ﷺ ـ لهو أعظم شهادة على نبوته وصدقه، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: (ومما ينبغي أن يعرف أن شهادة الكتب المتقدمة لمحمد ـ ﷺ ـ إما شهادتها بنبوته، وإما شهادتها بمثل ما أخبر، هي الآيات البينات على نبوته ونبوة من قبله، وهو حجة على أهل الكتاب، وعلى غير أهل الكتاب من أصناف المشركين والملحدين)[1].

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ج ٣/ ٢٩٩.

ولقد احتوى القرآن الكريم على آيات كثيرة أثبتت أن الكتب السماوية السابقة - بصفة عامة - والتوراة والإنجيل - بصفة خاصة - احتوت على تصريحات وإشارات إلى بعثة الرسول - ﷺ - ونبوته وصفته ومهجره وصفة أصحابه.. الخ، أذكر منها ما يلي:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾[١].

فالآية أثبتت معرفة اليهود بالرسول - ﷺ - ويقينهم ببعثته حتى إنهم كانوا يستنصرون به في قتال أعدائهم المشركين، فلما بُعث الرسول وفقاً لما عرفوا من خلال كتبهم - كفروا به حسداً، لأنه لم يكن من بني إسرائيل، فعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: (أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله - ﷺ - قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر[٢] بن البراء بن معرورِ أخو بني سلمة: يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد - ﷺ - ونحن أهل شرك، وتخبروننا أنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته! فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم! فأنزل الله جل ثناؤه في ذلك: (ولما جاءهم كتاب من عند الله. الآية)[٣] فكان هذا من أعظم ما دعا الأنصار إلى المسارعة للاستجابة لأمر الرسول - ﷺ - لمّا دعاهم في موسم الحج إلى الإسلام وقال بعضهم لبعض: (يا قوم تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا تستبقنكم إليه..)[٤]

---

(١) سورة البقرة، آية (٨٩).

(٢) هو بشر بن البراء بن معرور بن صخر الأنصاري الخزرجي، شهد بدراً وما بعدها، سوده الرسول ﷺ على قومه، مات مسموماً في خيبر من شاة مسمومة، سمتها يهودية للرسول ﷺ. (الإصابة، ج ١/ ١٥٥).

(٣) جامع البيان / شاكر، ج ٢/ ٣٣٣، تفسير القرآن العظيم، ج ١/ ١٢٩، لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي (دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠ هـ) ص ٢١.

(٤) سيرة ابن هشام، لأبي محمد عبد الملك بن هشام، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ص ٢١ (دار الفكر، ١٤٠١ هـ) ج ٢/ ٣٨.

روى ابن إسحاق[1] عن عاصم[2] بن عمر بن قتادة، عن رجال من قومه، قالوا: إن مما دعانا إلى الإسلام، مع رحمة الله تعالى وهداه، أنا كنا نسمع من يهود، وكنا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب، عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه تقارب زمانُ نبي يبعث الآن نقتلكم معه قَتْلَ عاد وإرم، فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم، فلما بعث الله رسوله - ﷺ - أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى، وعرفنا ما كانوا يتوعَّدوننا به فبادرناهم إليه، فآمنا به وكفروا به، ففينا وفيهم نزلت هؤلاء الآيات من البقرة: ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله﴾ الآية[3].

الآية الثانية؛ قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾[4]

قال الزمخشري - رحمه الله - في قوله تعالى: «يعرفونه كما يعرفون أبناءهم»: أي (يعرفون رسول الله - ﷺ - معرفة جلية يميزون بينه وبين غيره بالوصف المعيَّن المشخَّص لا يشتبه عليهم كما لا يشتبه عليهم أبناؤهم وأبناء غيرهم، وعن عمر رضي الله عنه أنه سأل عبد الله بن سلام[5] عن رسول الله - ﷺ - فقال أنا أعلم به مني بابني،

---

(١) هو العلامة الحافظ الإخباري أبو بكر، محمد بن إسحاق بن يسار، مولى قيس بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف، رأى أنس بن مالك وحدث عنه، كان أحد أوعية العلم حبراً في معرفة المغازي والسير، وثقة بعضهم وضعفه آخرون، قال ابن سعد: كان محمد ثقة وقد روى الناس عنه، وقال ابن حجر: إمام المغازي، صدوق يدلس ورمي بالتشيع والقدر، ولد سنة ثمانين وأقام بالمدينة ثم خرج إلى بغداد ومات بها سنة إحدى وخمسين ومئة (انظر الطبقات الكبرى، لأبن سعد ج ٧/ ٣٢١ (دار صادر، بيروت)، تذكرة الحفاظ، ج ١/ ١٧٢، تقريب التهذيب، ص ٤٦٧).

(٢) هو أبو عمر، عاصم بن عمر بن قتادة بن النعمان الأوسي الأنصاري، تابعي ثقة عالم بالمغازي، اعتمد عليه ابن إسحاق كثيراً. توفي سنة عشرين ومئة. (سير أعلام النبلاء، ج ٥/ ٢٤٠، تهذيب التهذيب ص ٢٨٦).

(٣) سيرة ابن هشام، ج ١/ ٢٣١، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ج ٣/ ٢٨٤،

(٤) سورة البقرة، آية (١٤٦).

(٥) هو أبو يوسف، عبد الله بن سلام بن الحارث حليف النوافل من الخزرج الإسرائيلي ثم الأنصاري، كان من بني قينقاع، وكان من علماء اليهود، فلما تبين له أن الرسول هو الموصوف في التوراة أسلم وحسن إسلامه، بشره النبي ﷺ بالجنة، مات بالمدينة، سنة ثلاث وأربعين (الإصابة، ج ٤/ ٨٠).

قال: ولم؟ قال: لأني لست أشك في محمد أنه نبي، فأما ولدي فلعل والدته خانت! فقبل عمر رأسه)[1].

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[2]. تُصَوِّر هذه الآية حقيقة الترابط بين الرسل ورسالاتهم، انطلاقاً من العهد الذي أخذه الله عليهم أن يصدق بعضهم بعضاً، وهذا يؤكد نبوة محمد - ﷺ - إذ بُعث مصدقاً لما معهم[3] كما قال تعالى عنه: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ[4] مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾[5]، وهو معنى ما روي عن علي بن أبي طالب وابن عباس - رضي الله عنهما - حيث قالا: لم يبعث الله عز وجل نبياً، آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في محمد - ﷺ - لئن بُعث وهو حي ليؤمنَنّ به ولينصرنّه، ويأمره فيأخذ العهد على قومه[6].

---

(١) تفسير الكشاف: ج ١/١٠٢.

(٢) سورة آل عمران، آية (٨١ - ٨٢).

(٣) المراد بـ «مصدقاً لما معهم»: أي أنه كان معترفاً بنبوة موسى عليه السلام وبصحة التوراة، أو مصدقاً لما معهم من حيث إن التوراة بشرت بمقدم محمد - ﷺ - فإذا أتى محمد كان مجرد مجيئه مصدقاً للتوراة (التفسير الكبير، ج ٣/٢٠١): وقد يكون المعنى: مصدقاً لما معهم: أي موافقاً لهم في التوحيد والنبوات وأصول الشرائع ومقاصدها (التفسير الكبير، ج ٨/١١٩، تفسير المنار ج ١/ ٣٨٠).

(٤) الراجح أن المنبوذ هو التوراة وليس القرآن من وجهتين (١) لا يتصور النبذ إلا فيما تمسك به الإنسان، أما إذا لم يلتفت إلى الشيء أصلاً لا يقال نبذه. (٢) لو كان المراد القرآن لم يكن لتخصيص فريق معنى لأن أكثرهم لا يصدقون بالقرآن، فإن قيل كيف يصح نبذهم للتوراة وهم متمسكون بها، قيل المنبوذ هو كل ما يدل على نبوة محمد ﷺ من نعته وصفته وليس كل أحكام التوراة وتشريعاتها (التفسير الكبير، ج ٣/٢٠٢).

(٥) سورة البقرة، آية (١٠١).

(٦) انظر: جامع البيان / شاكر، ج ٦/ ٥٥٥ - ٥٥٦، تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل، للإمام أبي محمد الحسين البغوي، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك ومروان سوار، (دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ)، ج ١/ ٣٢٢، تفسير القرآن العظيم، ج ١/ ٣٨٦.

يقول شيخ المفسرين ابن جرير الطبري ـ رحمه الله ـ: «وهاتان الآيتان، وإن كان مخرج الخبر فيهما من الله عز وجل بما أخبر أنه أشهد وأخذ به ميثاق من أخذ ميثاقه به، عن أنبيائه ورسله، فإنه مقصود به إخبار من كان حوالي مهاجر رسول الله ﷺ من يهود بني إسرائيل أيام حياته ﷺ عما لله عليهم من العهد في الإيمان بنبوة محمد ـ ﷺ ـ ومعنيٌّ به تذكيرهم ما كان الله آخذاً على آبائهم وأسلافهم من المواثيق والعهود، وما كانت أنبياء الله عَرَّفتهم وتقدمت إليهم في تصديقه واتباعه ونُصرته على من خالفه وكذبه ـ وتعريفهم ما في كتب الله، التي أنزلها إلى أنبيائه التي ابتعثها إليهم، من صفته وعلامته»[1].

ويقول الرازي ـ رحمه الله ـ «اعلم أن المقصود من هذه الآيات تعديد تقرير الأشياء المعروفة عند أهل الكتاب، مما يدل على نبوة محمد ـ ﷺ ـ قطعاً لعذرهم وإظهاراً لعنادهم ومن جملتها ما ذكره الله تعالى في هذه الآية، وهو أنه تعالى أخذ الميثاق من الأنبياء الذين آتاهم الكتاب والحكمة بأنهم كلما جاءهم رسول مصدق لما معهم آمنوا به ونصروه، وأخبر أنهم قبلوا ذلك وحكم تعالى بأن من رجع عن ذلك كان من الفاسقين، فهذا هو المقصود من الآية، فحاصل الكلام أنه تعالى أوجب على جميع الأنبياء الإيمان بكل رسول جاء مصدقاً لما معهم»[2].

الآية الرابعة: قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[3].

إن هذه الآية نص صريح على وجود ذكر للرسول ـ ﷺ ـ في التوراة والانجيل، وفي ذلك يقول الفخر الرازي ـ رحمه الله ـ (وهذا يدل على أن بعثة وصحة نبوته مكتوب في التوراة والإنجيل، لأن ذلك لو لم يكن مكتوباً لكان ذكْر هذا الكلام من أعظم المنفرات لليهود والنصارى عن قبول قوله، لأن الإصرار على الكذب والبهتان

---

(١) جامع البيان / شاكر، ج ٦/ ٥٦٣.
(٢) التفسير الكبير، ج ٨/ ١١٤.
(٣) سورة الأعراف، آية (١٥٧).

من أعظم المنفرات،والعاقل لا يسعى فيما يوجب نقصان حاله، وينفِّر الناس عن قبول قوله: فلما قال ذلك دل هذا على أن ذلك النعت كان مذكوراً في التوراة والإنجيل وذلك من أعظم الدلائل على صحة نبوته)[1]، ويؤكد ذكر صفة النبي - ﷺ - في التوراة ما رواه البخاري عن عطاء[2] بن يسار رحمه الله قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: قلت: أخبرني عن صفة رسول الله - ﷺ - في التوراة، قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـٰذِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾[3]. وحرزاً للأميين[4]، (أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخَّاب[5] في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أعيناً عمياً وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً)[6].

وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه -: أن غلاماً يهودياً، كان يخدم النبي - ﷺ - فمرض فأتاه النبي - ﷺ - يعوده فوجد أباه عند رأسه يقرأ التوراة، فقال له رسول الله - ﷺ - يا يهودي! أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى، هل تجد في التوراة صفتي؟ ومخرجي؟ قال: لا، قال الفتى: بلى والله يا رسول الله إنا نجد في التوراة نعتك ومخرجك، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال - ﷺ - «أقيموا هذا من عند رأسه ولُوا[7] أخاكم»)[8].

---

(١) التفسير الكبير، ج ١٥/٢٣، وانظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ج ٣/٢٩٤ و ج ٤/٢٩٢.

(٢) هو أبو محمد المدني، عطاء بن يسار الهلالي، مولى أم المؤمنين ميمونة، كان ثقة جليلاً من أوعية العلم، صاحب مواعظ وعبادة. مات سنة أربع وتسعين ومائة وقيل غير ذلك. (تذكرة الحفاظ، ج ١/ ٩٠ تقريب التهذيب، ص ٣٩٢).

(٣) سورة الأحزاب، آية (٤٥).

(٤) حرزاً للأميين: حصناً للعرب.

(٥) (سخاب): يرفع صوته على الناس.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كراهية السخب في السوق، ج ٢/٧٤٧.

(٧) «لوا» أمر «ولي». ومعناه هنا تولوا أمره بالغسل والصلاة والدفن.

(٨) دلائل النبوة للبيهقي، ج ٦/٢٧٢ (تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ)، وأورده ابن تيمية في الجواب الصحيح ج ٣/٢٨٧ وقال رواه البيهقي بإسناد صحيح.

الآية الخامسة: قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ ﴾[١].

يقول ابن كثير[٢] ـ رحمه الله ـ (أي وإن ذكْر هذا القرآن والتنويه به لموجود في كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم الذين بَشَّروا به في قديم الدهر وحديثه كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك، ثم أنكر على المكذبين من بني إسرائيل بقوله: أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل: «أي أو ليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك أن العلماء من بني إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها، والمراد العدول منهم الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد ـ ﷺ ـ ومبعثه وأمته كما أخبر بذلك من آمن منهم كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي[٣] عمن أدركه منهم ومن شاكلهم)[٤].

وأما طائفة من علماء بني إسرائيل فقد عادوا الإسلام ورسوله، ولذلك كتموا ما عندهم من العلم بالرسول ـ ﷺ ـ وبصفته ومبعثه ـ حسداً وخوفاً على مكانتهم الدينية ـ ولم يكتفوا بالكتمان بل لاموا إخوانهم المبيحين بهذه الأخبار مدّعين أن ذلك

(١) سورة الشعراء، آية (١٩٦ ـ ١٩٧).

(٢) هو الحافظ الكبير أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء البصري ثم الدمشقي الشافعي، ولد سنة سبعمائة وقدم دمشق وصاهر الحافظ المزي وصحب ابن تيمية وتبعه في كثير من آرائه وامتحن بسبب ذلك وأوذي، كان كثير الحفظ سهل الاستحضار انتهت إليه رياسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير. له التفسير المشهور ثاني كتاب في التفسير بالمأثور بعد تفسير ابن جرير، وله موسوعة التاريخ «البداية والنهاية»، مات سنة أربع وسبعين وسبعمائة. (شذرات الذهب، ج ٦/ ٢٣٠، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، للشوكاني، ج ١/ ١٥٣ ـ مكتبة ابن تيمية، القاهرة).

(٣) هو أبو عبد الله، سلمان الفارسي، اختلف في اسمه، أصله من رام هرمز وقيل من أصبهان، سمع بأن النبي ﷺ سيبعث فخرج في طلبه، فأسر وبيع بالمدينة فاشتغل بالرق حتى هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، فشرى نفسه وأسلم واتبع الرسول. قال عنه الرسول ﷺ: «سلمان منا أهل البيت» شهد الخندق وهو الذي أشار بحفر الخندق، قيل عمّر طويلاً واختلف في عمره لكن الذهبي قال بعد النظر في تلك الأقوال: وظهر لي أنه ما زاد على الثمانين. مات في خلافة عثمان بن عفان. (الإصابة، ج ٣/ ١١٣، وانظر: طبقات ابن سعد، ج ٤/ ٧٥ وما بعدها).

(٤) تفسير القرآن العظيم (بتصرف يسير)، ج ٣/ ٣٦٠.

من شأنه أن يقيم عليهم الحجة عند الله، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾[1]، يقول ابن جرير ـ رحمه الله ـ (وقوله: «أفلا تعقلون»، خبر من الله تعالى ذكره عن اليهود اللائمين إخوانهم على ما أخبروا أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ بما فتح الله لهم عليهم، أنهم قالوا لهم: أفلا تفقهون أيها القوم وتعقلون، أن إخباركم أصحاب النبي ـ ﷺ ـ بما في كتبكم أنه نبيٌ مبعوث، حجة لهم عليكم عند ربكم، يحتجون بها عليكم؟! أي: فلا تفعلوا ذلك، ولا تقولوا لهم مثل ما قلتم، ولا تخبروهم بمثل ما أخبرتموهم به من ذلك)[2]، ومن هؤلاء المعادين لرسول الله ـ ﷺ ـ الكاتمين لأخباره حيي بن أخطب، فعن صفية[3] بنت حُيَيّ ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: (لم يكن من ولد أبي وعمي أحد أحب اليهما مني، لم ألقهما قط مع ولديهما أهش إليهما إلا أخذاني دونه، فلما قدم رسول الله ـ ﷺ ـ قباء نزل قرية بني عمرو بن عوف، غدا إليه أبي وعمي أبو ياسر بن أخطب، مُغَلِّسَيْن، فوالله ما جاءانا إلا مع مغيب الشمس، فجاءانا فاترين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينَى[4] فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما نظر إليّ واحد منهما فسمعت عمي أبا ياسر يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم، والله، قال: تعرفه بعينه وصفته؟ فقال: نعم، والله، قال: فماذا في نفسك منه، قال: عداوته والله ما بقيت)[5].

الآية السادسة: قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ

---

(١) سورة البقرة، آية (٧٦).

(٢) جامع البيان / شاكر؛ ج ٢/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦.

(٣) هي أم المؤمنين، صفية بنت حيي بن أخطب بن شعبة من بني النضير من ذرية هارون عليه السلام، قتل زوجها كنانة بن أبي الحقيق يوم خيبر، فسبيت مع السبايا، فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه بعد أن أعتقها. كانت زوجاته يعيرنها بقولهن اليهودية، فأمرها الرسول أن ترد عليهم بقول: وكيف تكونان خيراً مني وزوجي محمد وأبي هارون وعمي موسى. توفيت سنة اثنتين وخمسين في خلافة معاوية، (الإصابة، ج ٨/ ١٢٦ وما بعدها).

(٤) الهوينى: هي مشية فيها لين، وفتور من أصل الكلمة «هون» بمعنى السكينة والوقار (المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث؛ للإمام محمد بن أبي بكر الأصفهاني، تحقيق: عبد الكريم الغرباوي، (جامعة أم القرى، مركز إحياء التراث الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ، ج ٣/ ٥١٨).

(٥) دلائل النبوة للبيهقي، ج ٢/ ٥٣٣، وانظر: سيرة ابن هشام ج ٢/ ١٤٠.

بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾[1]، ذهب ابن عباس وجمهور التابعين[2] إلى أن المَعْنيَّ بالشاهد في الآية عبد الله بن سلام لأنه شهد بصدق القرآن وتحقق من نبوة محمد ـ ﷺ ـ عندما نظر إلى وجهه وتأمله فعرف أنه النبي المنتظر وتأكد أكثر عندما أجابه عن الأسئلة الثلاثة[3] التي سأله إياها، والتي لا يعلمها إلا نبي.

وعن سعد[4] بن أبي وقاص قال: (ما سمعت النبي ـ ﷺ ـ يقول لأحد يمشي على الأرض: إنه من أهل الجنة، إلا لعبد الله بن سلام، قال وفيه نزلت هذه الآية «وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله»)[5].

وعن عبد الله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ قال: نزلت فيّ آيات من كتاب الله، نزلت فيّ «وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين» ونزل فيّ «قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب»[6].

الآية السابعة: قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٦﴾ ﴾[7]،

---

(١) سورة الأحقاف، آية (١٠).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ج ٤/ ١٦٨.

(٣) الأسئلة الثلاثة هي: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ (انظر تفصيل الحادثة في صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب (٢)، ج ٣/ ١٢١١؛ ومسند أحمد؛ ج ٣/ ١٠٨).

(٤) هو أبو إسحاق سعد بن أبي وقاص واسم أبي وقاص، مالك بن عبد مناف بن زهرة القرشي، أحد العشرة، هو أول من رمى بسهم في سبيل الله وكان قائد المسلمين في القادسية وفتوحات العراق، كان مجاب الدعوة مشهوراً بذلك. اختاره عمر في الستة أهل الشورى، مات سنة خمس وخمسين. (الإصابة، ج ٣/ ٨٣، وانظر سير أعلام النبلاء ج ١/ ٩٢).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب: مناقب عبد الله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ ج ٣/ ١٣٨٧، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ (ج ٤/ ١٩٣٠).

(٦) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب: مناقب عبد الله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ ج ٥/ ٦٧٠، وانظر: الدر المنثور، ج ٧/ ٤٣٨.

(٧) سورة الصف، آية (٦)، و «أحمد» هو أحد أسماء رسول الله ﷺ كما قال عن نفسه: (لي =

هذه الآية هي أصرح آية أكدت أن الأنبياء بشروا بمحمد - ﷺ - وربما كانت كذلك لأن عيسى بن مريم - عليه السلام - لم يكن بينه وبين محمد - ﷺ - رسول، كما قال - ﷺ -: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، ليس بيني وبينه نبيّ..»[1].

وقد كان كل رسول قبل محمد - ﷺ - يقوم بعمليتي التصديق والتبشير، يصّدق من سبقه من الرسل ويبشر بمن يأتي من بعده، يقول ابن القيم - رحمه الله -: (فسنّة الله في رسله أن السابق يبشر باللاحق واللاحق يصدق السابق)[2]، ولما كان الرسول محمد - ﷺ - هو خاتم النبيين فلم يقم إلا بشق واحد من العملية؛ وهو تصديق الرسل السابقين - جميعاً - دون التبشير برسول بعده، قال تعالى: ﴿ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾[3]، يقول سيد قطب - رحمه الله -: (وهذه الآية تصوّر حلقات الرسالة المترابطة، يسلم بعضها إلى بعض، وهي متماسكة في حقيقتها، واحدة في اتجاهها، ممتدة من السماء إلى الأرض، حلقة بعد حلقة في السلسلة الطويلة المتصلة... وهي الصورة اللائقة بفعل الله ومنهجه، فهو منهج واحد في أصله متعدد في صوره)[4].

وقد أكد رسول الله - ﷺ - بشارة عيسى - عليه السلام - به، بقوله: (إني عبد الله وخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل[5] في طينته وسأنبئكم بتأويل ذلك: دعوة أبي إبراهيم[6] وبشارة عيسى قومه ورؤيا أُمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له

= خمسة إسماء: أنا محمد، وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب)، صحيح البخاري - كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ، ج ٣/١٢٩٩، قال ابن حجر: «العاقب»: أي عقب الأنبياء، وهو الخاتم الذي ليس بعده شيء. (انظر فتح الباري، ج ٦/ ٦٤٤).

(١) تقديم تخرجه ص ٦٧.

(٢) هداية الحياري في أجوبة اليهود والنصارى للإمام ابن قيم الجوزية (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ)، ص ١٩٠.

(٣) سورة الصافات، آية (٣٧).

(٤) في ظلال القرآن، ج ٦/٣٥٥٦.

(٥) «المنجدل»: أي ملقي على الجدالة وهي الأرض، أي قبل أن ينفخ فيه الروح (الفتح الرباني، أحمد عبد الرحمن البنا). (دار الشهاب، القاهرة)، ٢٠/١٨١.

(٦) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب =

قصور الشام)[1].

وأخيراً أخلص إلى ما قال ابن القيم رحمه الله: (لو لم يظهر محمد بن عبد الله ـ ﷺ ـ لبطلت نبوة سائر الأنبياء، فظهور نبوته تصديق لنبواتهم وشهادة لها بالصدق، فإرساله من آيات الأنبياء قبله، وقد أشار سبحانه إلى هذا المعنى بعينه في قوله: ﴿ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾[2]، فإن المرسلين بشروا به وأخبروا بمجيئه فمجيئه هو نفس صدق خبرهم، فكان مجيئه تصديقاً لهم، إذ هو تأويل ما أخبروا به، ولا تنافي بين هذا وبين القول الآخر: إن تصديقه المرسلين شهادته بصدقهم وإيمانه بهم فإنه صدقهم بقوله ومجيئه فشهد بصدقهم بنفس مجيئه، وشهد بصدقهم بقوله. . .)[3].

المبحث الثاني
إخباره ـ ﷺ ـ عن قصص وأحداث
وقعت في الزمان الغابر

من دلائل نبوة محمد ـ ﷺ ـ وصدقه، هذا القصص القرآني الرائع في عرضه، والدقيق في تفصيلاته، يتلوه الرسول ـ ﷺ ـ من خلال القرآن الكريم ـ وكأنه شاهد عيان لأحداثه ووقائعه التي تمتد في أغوار التاريخ إلى نشأة الكون الأولى منذ خَلْق آدم ـ عليه السلام ـ ورَفْض إبليس السجود له، إلى إهباطهما وما جرى بين ابني آدم بعد ذلك إلى الإيحاء إلى نوح ـ عليه السلام ـ وإنجائه ومن معه في الفلك وإغراق ابنه مع المكذبين، وأحداث قصة هود وصالح ولوط وشعيب ـ عليهم السلام ـ وقصة خليل الرحمن وإلقائه في النار، ودقائق قصة يوسف ـ عليه السلام ـ وتفصيلات قصة ولادة

= والحكمة ويزكيهم﴾، البقرة، آية (١٢٩).

(١) أخرجه أحمد في مسنده عن العرباض بن سارية؛ ج ٤/١٢٨، والحاكم في المستدرك، ج ٢/٦٠٠، وقال: حديث صحيح الإسناد، وأقره الذهبي، وانظر: دلائل النبوة للبيهقي، ج ١/٨٠.

(٢) سورة الصافات، آية (٣٧).

(٣) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ص ١٩٠.

موسى ـ عليه السلام ـ ونشأته في بيت فرعون ثم صراعه مع فرعون وأخيراً معاناته من بني إسرائيل، وقصة امرأة عمران ونذرها لله ما في بطنها، ثم ولادة مريم وكفالة زكريا لها، وقصة حمل مريم بعيسى ـ عليه السلام ـ ثم رفعه إلى السماء... كل هذه القصص وغيرها قد حواها القرآن الكريم، وقصها على حقيقتها، فالصورة الحقيقية لهذه القصص هي كما عرضها القرآن الكريم، لأن الكتب السماوية السابقة ـ التي حوت بعض هذه القصص قد لحقها التحريف والتشويه ـ بزيادة أو نقصان، وبتهويل أو تهوين ـ لذلك لا نستغرب أن يصف الله عز وجل القصص القرآني بأنه الحق، لأن هناك من يقص هذه القصص بالباطل، فمثلاً: بعد أن قص قصة الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى ـ والذين أرسل الله إليهم طالوت ملكاً، وجعل آية ملكه التابوت، وفصّل خطواته لقتال جالوت، والتي انتهت بقتل داود لجالوت ـ قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[1]، يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ: (هذه آيات الله التي قصصناها عليك من أمر الذين ذكرناهم بالحق، أي: بالواقع الذي كان عليه الأمر المطابق لما بأيدي أهل الكتاب من الحق الذي يعلمه علماء بني إسرائيل، وإنك يا محمد لمن المرسلين)[2] وتذييل الآية بتأكيد الرسالة «وإنك لمن المرسلين» لأن إخباره ـ ﷺ ـ عن هذه القصص مطابقة لما عند أهل الكتاب ـ من غير أن يكون قد تعلمها من بشر ـ دليل قوي على أنه تلقاها بالوحي وبالتالي فهو رسول مرسل من ربه ولا بد.

وقال عقب قصة عيسى ـ عليه السلام ـ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ ﴾[3]، وفي هذا الكلام إشارة إلى أن الحق بشأن عيسى ـ عليه السلام ـ هو ما قصه القرآن الكريم، وهو أن عيسى بشر مخلوق كمثل آدم ـ عليهما السلام ـ وليس إلهاً أو ابن إله ـ كما تزعم النصارى ـ لذلك أعقب تقرير هذه الحقيقة بالرد على النصارى في قولهم بالتثليث، بقوله: «وما من إله إلا الله» يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ: (أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق لا معدل عنه ولا محيد)[4].

وأَمَر الله نبيه محمداً ـ ﷺ ـ أن يتلو على اليهود نبأ ابني آدم بالحق:

---

(١) سورة البقرة، آية (٢٥٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ج ١/٣١١.

(٣) سورة آل عمران، آية (٦٢).

(٤) تفسير القرآن العظيم، ج ١/٣٧٩.

﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ ﴾[1]، بهذا القيد «بالحق» ليدل على أن هناك من يتلو هذا النبأ بغير الحق، يقول الرازي ـ رحمه الله ـ: (أي: تلاوة متلبسة بالصدق والحق)[2].

وقال عن قصة أصحاب الكهف: ﴿ نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ ﴾[3]، فقيد القص «بالحق» ليدل على أن هناك من يقص هذه القصة بغير الحق، ومن صور قصها بغير الحق، الاختلاف في عدد أصحاب الكهف، وقد أنكره الله بقوله: ﴿ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ ﴾[4]، أما رسول الله ـ ﷺ ـ فلا يقصها إلا بالحق، يقول الألوسي[5] ـ رحمه الله ـ «ولعل في التقيد «بالحق» إشارة إلى أن في عهده ـ ﷺ ـ من يقص نبأهم لكن لا بالحق»[6].

ولا شك أن إخباره ـ ﷺ ـ عن هذه القصص مطابقة لما عند أهل الكتاب دون أن يكون قد تعلمها من بشر، لهو أعظم دليل على نبوته، يقول الرازي ـ رحمه الله ـ: اعلم أن الله تعالى لما ختم ما اقتصه من خبر الأنبياء ذكر بعد ذلك ما يدل على نبوته ـ ﷺ ـ بقوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ ﴾[7] لأنه إخبار عن القصص الماضية من غير تعليم البتة، فلا يكون ذلك إلا بوحي من الله تعالى وقوله بعده: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ

---

(١) سورة المائدة، آية (٢٧).

(٢) التفسير الكبير، ج ١١/ ٢٠٤.

(٣) سورة الكهف، آية (١٣).

(٤) سورة الكهف، آية (٢٢).

(٥) هو أبو الثناء، شهاب الدين، السيد محمود أفندي الآلوسي، ولد سنة ١٢١٧ هـ في جانب الكرخ من بغداد، جمع كثيراً من العلوم، فكان مفسراً ومحدثاً، وأصولياً فقيهاً، اشتغل بالتدريس والتأليف وانتهت إليه رئاسة المذهب الحنفي وولي المدرسة المرجانية التي كانت مشروطة لأعلم أهل البلد، انفصل من منصب الإفتاء واكب على تفسير القرآن حتى أتمه ـ وهو روح المعاني ـ توفي رحمه الله سنة ١٢٧٠ هـ ودفن في مقبرة الشيخ معروف الكرخي في الكرخ، (انظر: التفسير والمفسرون، لمحمد حسين الذهبي، ج ١/ ٣٥٢ وما بعدها ـ دار الكتب الحديثة ـ مصر ـ الطبعة الثانية ـ ١٣٩٦ هـ).

(٦) روح المعاني، للعلامة الآلوسي (دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥ هـ)، ج ١٥/ ٢١٦.

(٧) سورة الشعراء، آية (١٩٢).

ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾[1] تأكيد آخر على أن القرآن من عند الله، وذلك لأنه عليه السلام لما ذكر هذه القصص السبع على ما هي موجودة عليه في زبر الأولين من غير تفاوت أصلاً مع أنه لم يشتغل بالتعلم والاستعداد، دل ذلك على أنه ليس إلا من عند الله تعالى[2] ويؤكد هذا الاستدلال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بقوله: (... فإذا أخبرهم بالغيوب التي لا يعلمها إلا نبي أو من أخبره نبي، وهم يعلمون أنه لم يعلم ذلك بخبر أحد من الأنبياء تبيّن لهم أنه نبيّ..)[3]، ويقول كذلك: (وجميع ما يذكره الله تعالى في القرآن من قصص الأنبياء يدل على نبوة محمد بطريق الأولى، إذ كانوا من جنس واحد ونبوته أكمل، فينبغي معرفة هذا، فإنه أصل عظيم)[4].

وهو كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ أن جميع قصص الأنبياء تدل على نبوة محمد ـ ﷺ ـ لكني سأكتفي هنا بالإشارة إلى أربع قصص ذيلها الله بما يؤكد نبوة محمد ـ ﷺ ـ وألحقُها بأقوال المفسرين التي توضح وجه دلالتها على نبوته.

القصة الأولى: كفالة مريم بنت عمران:

قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[5].

يقول ابن جرير ـ رحمه الله ـ «يعني جل ثناؤه بقوله «ذلك»: الأخبارَ التي أخبر بها عباده عن امرأة عمران وابنتها مريم، وزكريا وابنه يحيى وسائر ما قصّ في الآيات من قوله: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا ﴾[6] وذكر أنها من أنباء الغيب، لأنها من خفيّ أخبار القوم التي لم يطلّع عليها محمد ـ ﷺ ـ ولا قومه، بل لم يعلمها إلا قليلُ من أحبار أهل الكتابين ورهبانهم، ثم أخبر تعالى نبيه أنه أوحى ذلك إليه، حجة على

(١) سورة الشعراء، آية (١٩٦).
(٢) التفسير الكبير (بتصرف)، ج ٢٤/ ١٦٥.
(٣) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ج ١/ ١٤٤.
(٤) النبوات، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص ٣٩، (دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٤٠٥ هـ).
(٥) سورة آل عمران، آية (٤٤).
(٦) سورة آل عمران، آية (٣٣).

نبوته، وتحقيقاً لصدقه، وقطعاً منه به عذرَ منكري رسالته من كفار أهل الكتابين، الذين يعلمون أن محمداً لم يصل إلى علم هذه الأنباء ـ مع خفائها ـ ولم يدرك معرفتها ـ مع خمولها عند أهلها ـ إلا بإعلام الله إياه، إذ كان معلوماً عندهم أن محمداً ـ ﷺ ـ أميٌ لا يكتب فيقرأ الكتب، فيصل إلى علمه ذلك من قبَل الكتب، ولا صاحب أهل الكتُب فيأخذ علمه من قبلهم»[١].

القصة الثانية: قصة نوح ـ عليه السلام ـ:

قال تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾[٢].

يقول الرازي ـ رحمه الله ـ: (اعلم أنه تعالى لما شرح قصة نوح ـ عليه السلام ـ على التفصيل قال «تلك» أي تلك الآيات التي ذكرناها وتلك التفاصيل التي شرحناها من أنباء الغيب، أي من الأخبار التي كانت غائبة عن الخلق، وأنك ما كنت تعرف هذه القصة بل قومك ما كانوا يعرفونها أيضاً ـ كالقول لإنسان لا تعرف هذه المسألة لا أنت ولا أهل بلدك مبالغة في التجهيل بها)[٣].

ومقتضى نفي معرفته عليه السلام وقومه للقصة بهذا التفصيل يدل على أنه تلقاها بطريق الوحي، لذلك قال: «نوحيها إليك» فكان ذلك دليلاً على نبوته وصدقه.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ (فإذا علم الناس أن قومه الذين كانوا معادين له غاية العداوة، وكانوا يطلبون القدح في نبوته بكل طريق يخبرون أنه لم يكن عندهم بَشَرٌ يعلمه مثل هذا، وأنه لم يكن في قومه ولا بلده من يعرف هذا، علم الناس ما علمه قومه من أن هذا إنما أنبأه به الله، وكان هذا من أعلامه وآياته وبراهينه، وهذا مما بين الله في القرآن أنه من آياته، وأنه حين أخبر قومه بهذا مع تكذيبهم وفرط عداوتهم له، لم يمكن أحداً منهم أن يقول له: بل فينا من كان يعلم ذلك وأنت كنت تعلم ذلك، وقد تعلمته منا أو من غيرنا)[٤].

---

(١) جامع البيان / شاكر، ج ٦/ ٤٠٤ (بتصرف يسير).
(٢) سورة هود، آية (٤٩).
(٣) التفسير الكبير (بتصرف يسير)، ج ١٨/ ٨.
(٤) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ج ٤/ ٢٦.

القصة الثالثة: قصة يوسف ـ عليه السلام ـ:

قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾[1].

يقول الزمخشري ـ رحمه الله ـ: (وقوله «ذلك» إشارة إلى ما سبق من نبأ يوسف، والخطاب لرسول الله ـ ﷺ ـ والمعنى: أن هذا النبأ غيب لم يحصل لك إلا من جهة الوحي لأنك لم تحضر بني يعقوب حين أجمعوا أمرهم، وهو إلقاؤهم أخاهم في البئر، وهذا تهكم بقريش وبمن كذبه لأنه لم يخف على أحد من المكذبين أنه لم يكن من حملة هذا الحديث وأشباهه ولا لقي فيها أحداً ولا سمع منه ولم يكن من علم قومه، فإذا أخبر به وقص هذا القصص العجيب الذي أعجز حملته ورواته، لم تقع شبهة في أنه ليس منه وأنه من جهة الوحي)[2].

ويقول الشيخ الشنقيطي[3] ـ رحمه الله ـ (وقد أشار تعالى في هذه الآية الكريمة إلى صحة نبوة نبينا ـ ﷺ ـ لأنه أنزل عليه القرآن وفصل له هذه القصة مع أنه ـ ﷺ ـ لم يكن حاضراً لدى أولاد يعقوب حين أجمعوا أمرهم على المكر به، وجَعْله في غيابة الجب، فلولا أن الله أوحى إليه ذلك ما عرفه من تلقاء نفسه)[4].

القصة الرابعة: قصة موسى ـ عليه السلام ـ:

قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن

---

(١) سورة يوسف، آية (١٠٢).

(٢) الكشاف، ج ٢/ ٢٧٧.

(٣) هو الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، مفسر مدرس من علماء شنقيط ـ موريتانيا ـ ولد وتعلم بها، وحج (١٣٦٧ هـ) واستقر مدرساً في المدينة المنورة ثم الرياض، وأخيراً في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، توفي بمكة سنة ١٣٩٣ هـ، من مؤلفاته: «تفسير أضواء البيان» و«منع جواز المجاز» و«آداب البحث والمناظرة» (الأعلام، ج ٦/ ٤٥).

(٤) أضواء البيان؛ ج ٣/ ٧٣.

﴿ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾[١].

يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ «يقول تعالى منبهاً على برهان نبوة محمد ـ ﷺ ـ حيث أخبر بالغيوب الماضية خبراً كأن سامعه شاهد ورآء لما تقدم، وهو رجل أمي لا يقرأ شيئاً من الكتب ونشأ بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك»[٢].

ويقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ «فرسول الله ـ ﷺ ـ يتلو عليهم تفصيلات الأحداث كما يقصها شاهد العيان، وما كان حاضراً أحداثها، ولكنه الوحي يقصها عليه من لدن عليم خبير، رحمة بقومه أن يصيبهم العذاب بما هم فيه من الشرك، ﴿ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[٣]»[٤].

نخلص من هذا الفصل إلى القول بأن نبوة محمد ـ ﷺ ـ ثابتة عن طريق بشارة الأنبياء به، وعن طريق إخباره هو في كتابه المنزل عليه عن أحوالهم بتفصيل دقيق دون تعلم أو سماع من بشر، وفي الوقت نفسه إخباره عنهم هو إثبات لنبوتهم، لذلك كان إنكار نبوته إنكاراً لنبوتهم ولا بد، لأنه لا طريق ـ مأمون ـ لمعرفة أخبار الأنبياء إلا عن طريق النبي ـ ﷺ ـ من خلال كتابه الخالد ـ القرآن الكريم ـ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: (وإخبارهم بنبوته دليل على نبوته، فصار ما في الكتب المتقدمة من خبره، دليلاً على نبوة من قبله، وعلى نبوته، وكما أن إخباره أيضاً عنهم مع بعد العهد خبراً لم يتعلمه من بشر دليل على نبوته وقد أخبر بنبوتهم، فثبتت نبوته ونبوتهم صلى الله عليهم أجمعين)[٥].

وحيث إن الرسالات الربانية جميعاً تتفق في عقيدتها وأصول تشريعها، والأنبياء عليهم السلام يصدق بعضهم بعضاً ويبشر بعضهم ببعض، نجد أيضاً تتطابق مواقف الأمم من الرسل ومن دعوتهم بالرغم من البعد الزماني والمكاني مما يدل على أنها سنّة الله في الدعوات الربانية. وهذا ما سنتعرض له بالتفصيل في الفصل الثالث، إن شاء الله.

---

(١) سورة القصص، آية (٤٤ ـ ٤٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم؛ ج ٣/ ٤٠٢.
(٣) سورة القصص، آية (٤٧).
(٤) في ظلال القرآن، ج ٥/ ٢٦٩٨.
(٥) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ج ٤/ ٢٢.

الفصل الثالث
سنّة الله في مواقف الأمم من دعوة الرسل

وفيه سبعة مباحث:

المبحث الأول: تكذيب الملأ للرسل ومعاداتهم للدعوة.

المبحث الثاني: استجابة المستضعفين للرسل.

المبحث الثالث: اعتراض المكذبين على الرسل في بشريتهم.

المبحث الرابع: استهزاء المكذبين بالرسل واتهامهم بالسحر والجنون.

المبحث الخامس: تهديد المكذبين للرسل بالأذى.

المبحث السادس: استعجال المكذبين نزول العذاب.

المبحث السابع: انتصار الرسل وهزيمة أعدائهم.

المبحث الأول
تكذيب الملأ للرسل ومعاداتهم للدعوة

أشد العقبات التي تواجه الدعوات الربانية أول ظهورها، علّيّة القوم الذين يسميهم القرآن الكريم «الملأ»[1]، ....

---

(١) قال الزمخشري: «الملأ» هم الأشراف، من قولهم مليء بكذا، إذا كان مطيقاً له، وقد ملؤا بالأمر لأنهم ملؤا بكفايات الأمور واضطلعوا بها وبتدبيرها، (الكشاف، ج ٢/ ٢١٢).
وقال الراغب: «الملأ» جماعة يجتمعون على رأي، فيملئون العيون رِواءً ومنظراً والنفوس =

. . . . وتارة يسميهم «المترفين»[1]، وتارة ثالثة يسميهم «الأكابر»، فقد أخبرنا القرآن أنه ما من نبي بعثه الله إلا وكان «الملأ» في طليعة المكذبين، والمتصدين لدعوته، ويرفضون الإذعان والاستسلام لرب العالمين ـ قضية الرسل الأساس ـ وسبب تصدي الملأ لدعوة الرسل، هو أن الرسل ـ عليهم السلام ـ يَدْعُون إلى الولاء لله رب العالمين، والملأ يريدون الولاء لأنفسهم، كما أنهم يرون في حقيقة لا إله إلا الله ـ التي يدعوا إليها الرسل ـ نذيراً لهدم مكانتهم الاجتماعية وزوال امتيازاتهم النفعية ـ التي حصلوا عليها في غيبة الحق أو في غفلة أصحاب الحق ـ فالدعوات الربانية جميعاً ـ كما عرفنا ـ تدعو إلى المساواة والعدل، وتحارب الظلم والاستبداد، وهذا ما لا يرضاه الطغاة منذ أقدم العصور وإلى يومنا هذا، لذلك أول ما تصطدم هذه المبادىء مع أولئك المتألهين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً!! ولهذا أعلنوها حرباً شعواء لا هوادة فيها، واستخدموا أساليب الخداع والتمويه، بل استخدموا كل وسيلة ظنوا أنها تخدم أهدافهم ـ مهما كانت هابطة ودنيئة، لأن الغاية تبرر الوسيلة في منطقهم ـ لتشويه سمعة الأنبياء وأتباعهم، وزعزعة الثقة بهم وبما يدعون إليه، فشككوا في إخلاصهم ونسبوهم إلى الضلالة والسفاهة، واتهموهم بالإفساد والركون إلى الدنيا.

فالملأ من قوم نوح شككوا في إخلاص نوح ـ عليه السلام ـ وزعموا أن ما جاء به كان من أجل الرفعة والمكانة: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ

= بهاءً وجلالاً، (المفردات في غريب القرآن، ص ٤٧٣).

وقال ابن منظور: «الملأ» أشراف القوم ووجوههم ورؤساؤهم ومقدموهم الذين يرجع إلى قولهم: (لسان العرب لابن منظور ـ دار صادر، بيروت ـ ج ١/ ١٥٩، مادة «ملأ»).

ووصفوا بهذا الوصف: إما لأنهم يملؤون صدور المجالس، أو لأن القلوب تمتلىء من هيبتهم، أو لأن الأبصار تمتلىء من رؤيتهم، أو لأن العيون تتوجه إليهم في المحافل، أو لأنهم يتمالؤون، أي: يتظاهرون ويتساندون، أو لأنهم ملأ بالأحلام والآراء الصائبة.. الخ. (انظر الكشاف ج ٢/ ٢١٢، والتفسير الكبير ج ١٤/ ١٥٠).

(١) قال الراغب الترفّه: التوسع في النعمة، يقال: أترف فلان فهو مترف (المفردات، ص ٧٤)، وقال قتادة: «مترفوها»: هم جبابرتهم وقادتهم ورؤسهم في الشر، وقال ابن كثير: هم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة (تفسير القرآن العظيم، ج ٣/٥٤٨)، وقال الفخر الرازي: «المترفون»: هم الذين أترفتهم النعمة أي: أبطرتهم، فلا يحبون إلا الشهوات والملاهي ويبغضون تحمل المشاق في طلب الحق، (التفسير الكبير، ج ٢٧/٢٠٦).

﴿ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾[1] كما اتهموه بالضلالة أيضاً: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ ﴾[2].

والملأ من قوم هود اتهموا هوداً ـ عليه السلام ـ بالسفاهة، والكذب: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[3].

والملأ من قوم شعيب زعموا أن الخسارة كل الخسارة في اتباع شعيب ـ عليه السلام ـ: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾[4].

أما فرعون ـ وهو رأس الملأ في زمنه ـ فقد اتهم موسى ـ عليه السلام ـ بما هو فيه، على حد المثل «رمتني بدائها وانسلّتْ»[5] حيث وصف موسى ـ عليه السلام ـ زوراً وبهتاناً بالإفساد في الأرض، وجعل ذلك مبرراً لقتله، ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ ﴾[6]، والعجيب، كيف يتبجح فرعون بادعائه هذا ـ دون حياء ـ مع أنه هو مصدر الفساد ـ صناعة وحبكاً وترويجاً ـ بشهادة رب العالمين: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[7] وأي فساد أقبح من ادعاء الألوهية؟!! ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾[8] وأي فساد أعظم من استعباد العباد، وكبت حرياتهم، وتقتيل أبنائهم، واستذلال نسائهم؟!! ولكن يبطل العجب إذا عُرف السبب، فسبب جرأته هذه ما قاله الله في سورة «الزخرف»: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾[9]، فلم ينكروا

(١) المؤمنون، آية (٢٤).

(٢) سورة الأعراف، آية (٦٠).

(٣) سورة الأعراف، آية (٦٦).

(٤) سورة الأعراف، آية (٩٠).

(٥) كتاب الأمثال، لأبي عبيد القاسم بن سلام، تحقيق: د. عبد المجيد قطامش، (دار المأمون للتراث، دمشق وبيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٠ هـ)، ص ٧٣.

(٦) سورة غافر، آية (٢٦).

(٧) سورة القصص، آية (٤).

(٨) سورة القصص، آية (٣٨).

(٩) سورة الزخرف، آية (٥٤).

عليه ادعاء الألوهية، ولا معاداته لموسى ـ عليه السلام ـ إلا ما حصل من مؤمن آل فرعون ـ بل على العكس تواطؤوا معه، خاصة الملأ، (فهم عادة يكون لهم علاقة بالسلطة يمالئونها وتمالئهم، ويمدحونها وتعطيهم، ويتقربون إليها وتتقرب منهم، يشتركون في كثير من المصالح مع السلطة، ويرتبطون بوشائج المنفعة والمصلحة، فهم بطانة السلطة وشموسها وأقمارها تشترك معهم في مجرة واحدة. وتدور معهم في فلك واحد، إذن فكل ما لا يرضي السلطة لا يرضيهم، بل غالباً ما يكونون لسان حالها، أو المحرضين لها على فعل ما يوافق أهواءهم ومصالحهم بما يزيدهم وجاهة وسطوة وقوة على العباد وترفاً في أموال الناس، بل نراهم ـ من حقدهم ـ إذا هدأت العواصف واستقرت بعض الزوابع يثيرونها من جديد وينفخون نار العداوة ويوقدون سعار العنجهية في أصحاب السلطة، واقرأ وتأمل: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾[1][2].

يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ: (ياالله العجب، صار هؤلاء يشفقون من إفساد موسى وقومه! ألا إن فرعون وقومه هم المفسدون ولكن لا يشعرون. . .)[3].

وكذلك شككوا في إخلاص موسى وهارون وزعموا ـ كما زعم الملأ من قوم نوح ـ أنهما يريدان الدنيا والرفعة بهذا الأمر ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾[4].

وبما أن «الملأ» قد شككوا في إخلاص الرسل وانتقصوهم أمام العامة والرعاء فلا بد ـ في المقابل ـ أن يذكروا للناس مبررات عدم اتباعهم حتى يُظْهِروا أنفسهم أنهم «موضوعيون» لم يقولوا إلا الحقيقة، وأن الدافع لهم هو المصلحة العامة، لا شيء غير ذلك!!

---

(١) سورة الأعراف، آية (١٢٧).

(٢) الدعوة إلى الله، الرسالة ـ الوسيلة ـ الهدف، د. توفيق الواعي، (مكتبة الفلاح، الكويت، الأولى، ١٤٠٦ هـ) (ص ١٥٤ ـ ١٥٥) بتصرف يسير.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ج ٢/٢٤٩.

(٤) سورة يونس، آية (٧٨).

وقد ذكروا ـ فعلاً ـ بعض المبررات، إلا أنها أوهى من بيت العنكبوت، منها:

١ ـ ادعاؤهم أن ما جاء به الرسل ـ عليهم السلام ـ ليس بخير:

جرت عادة الكبراء في كل زمان ومكان أنهم يَعْتَدُّون بآرائهم ويُصِّرون على اختياراتهم ـ والتي غالباً ما تكون محكومة بالشهوة والهوى ـ فالخير في نظرهم ما اختاروه، والشر ما اختاره غيرهم ـ خاصة من هو دونهم كالمستضعفين ـ لذلك قالوا لرسول الله ـ ﷺ ـ بأنفة وكبرياء زائفين ما حكاه القرآن الكريم في سورة الأحقاف ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ۝١١ ﴾[1]. (طبعاً! فلا بد من عيب في الحق ما داموا لم يهتدوا به، ولم يذعنوا له، لا بد من عيب في الحق لأنهم هم لا يجوز أن يخطئوا، وهم في نظر أنفسهم، أو فيما يريدون أن يوحوا به للجماهير مقدسون معصومون لا يخطئون)[2].

ويبدو أن هذا الإدعاء سنة، وإن كان القرآن لم يصرح بذلك، إلا أن هناك إشارات تدل على ذلك.

فالملأ من قوم نوح استدلوا على بطلان دعوة نوح ـ عليه السلام ـ لأن أتباعه من المستضعفين وليسوا من الكبراء ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ ﴾[3].

وعد الملأ من قوم شعيب عاقبة اتباع شعيب ـ عليه السلام ـ هي الخسارة، ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝٩٠ ﴾[4]، وهذا الكلام فيه إشارة ضمنية أن الفلاح هو في اتباعهم.

٢ ـ اعتقادهم ـ أن أغداق الله النعم عليهم دليل على مكانتهم عنده جل وعلا:

لقد ظن الملأ ـ جهلاً ـ أن هناك علاقة وثيقة بين مكانة الإنسان عند ربه وحجم

(١) سورة الأحقاف، آية (١١).
(٢) في ظلال القرآن، ج ٦/٣٢٥٨.
(٣) سورة هود، آية (٢٧).
(٤) سورة الأعراف، آية (٩٠).

ما يملك من زينة الحياة الدنيا ـ الأموال والأولاد ـ فمكانته عند الله ـ في نظرهم ـ تتناسب مع ما يملك من حطام الدنيا قرباً أو بعداً، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾[1]، ثم علّلوا كفرهم وعدم اتباعهم للرسل بقولهم: ﴿ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾[2]، قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ: (يقول تعالى ذكره: وقال أهل الاستكبار على الله ـ من كل قرية أرسلنا فيها نذيراً لأنبيائنا ورسلنا ـ نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن في الآخرة بمعذبين، لأن الله لو لم يكن راضياً ما نحن عليه من الملة والعمل، لم يُخَوِّلنا الأموال والأولاد، ولم يبسط لنا في الرزق، وإنما أعطانا ما أعطانا من ذلك لرضاه أعمالنا، وآثرنا على غيرنا لفضلنا وزلفة لنا عنده)[3].

(إن المترفين تخدعهم القيم الزائفة والنعم الزائلة، ويغرهم ما هم فيه من ثراء وقوة، فيحسبونه مانعهم من عذاب الله، ويخالون أنه آية الرضى عنهم، أو أنهم في مكان أعلى من الحساب والجزاء. . . ولا شك أن هذا من أكبر الأخطاء التي يقع فيها الإنسان، وذلك عندما يزن أمور الآخرة بالمقاييس الدنيوية الأرضية الضيقة، لهذا نجد القرآن يضع لهم ميزان القيم كما هي عند الله، ويبين لهم أن بسط الرزق وقبضه لا يدل على رضى ولا غضب من الله، ولا يمنع بذاته عذاباً ولا يدفع إلى عذاب، إنما هو أمر منفصل عن الحساب والجزاء، وعن الرضى والغضب، يتبع سنة أخرى من سنن الله: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[4]، فقد يغدق الله على أهل الشر استدراجاً لهم ليزدادوا سوءاً وبطراً وإفساداً، وقد يحرمهم حكمة فيزدادوا جزعاً وقنوطاً ويأساً من رحمة الله. وفي كلتا الحالتين يتضاعف رصيدهم من السيئات، فيتضاعف عقابهم ويزدادوا بعداً من الله. وفي المقابل قد يغدق الله على أهل الخير، ليمكنهم من أعمال صالحة كثيرة ما كانوا بالغيها لو لم يبسط لهم في الرزق، وليشكروا نعمة الله عليهم، وقد يحرمهم ليبلو صبرهم وتَحَمُّلَهُمْ، لينتهوا بعد

---

(١) سورة سبأ، آية (٣٤).

(٢) سورة سبأ، آية (٣٥).

(٣) جامع البيان، ج ٢٢/٦٧.

(٤) سورة سبأ، آية (٣٦).

ذلك إلى مضاعفة المثوبة والقرب من الله. وأياً ما كانت أسباب بسط الرزق وقبضه من عمل الناس، ومن حكمة الله، فهي مسألة منفصلة عن أن تكون دليلاً بذاتها على أن المال والرزق والأبناء والمتاع قيم تقدم أو تؤخر عند الله، ولكنها تتوقف على تصرف المبسوط في الرزق أو المضيق عليهم فيه)[1].

وبنفس المنطق اعتذر الملأ من بني إسرائيل في ترك اتباعهم لطالوت الذي بعثه الله إليهم قائلين: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ﴾ فرد عليهم نبيهم بقوله: ﴿ ... إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ ﴾[2].

٣ ـ زعمهم التمسك بعُرف الآباء:

من المبررات الواهية التي يتشبث بها الملأ لرد دعوة الأنبياء، زعمهم أن آباءهم كانوا على الهدى، ولذلك فهم يؤثرون أن يقتفوا أثرهم على اتباع الرسول ـ مع أنه منهم وفيهم ـ وذلك كقول عتبة بن ربيعة ـ نيابة عن الملأ ـ لمحمد ـ ﷺ ـ: يا محمد! أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله ـ ﷺ ـ، ثم قال: أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ـ ﷺ ـ قال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك ـ فلما انتهى عتبة من كلامه تلا رسول الله ﷺ عليه صدر سورة فصلت حتى قال عتبة: حسبك ورجع بها إلى قومه[3].

وتَمسك الملأ بعرف الآباء ـ ولو كان باطلاً ـ وتقليدهم تقليد الأعمى سنّة قديمة قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[4].

---

(١) في ظلال القرآن (بتصرف واختصار) ج ٥/ ٢٩١٠.

(٢) سورة البقرة، آية (٢٤٧).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، وقال صحيح الإسناد ج ٢/ ٢٥٣. وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة، ج ٢/ ٢٠٣، والأصبهاني في دلائل النبوة، تحقيق: محمد بن محمد الحداد، (دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ)، واللفظ له ص ١٩٤.

(٤) سورة الزخرف، آية (٢٣).

قال البيضاوي[1] ـ رحمه الله ـ «وهذه الآية تسلية لرسول الله ـ ﷺ ـ ودلالة على أن التقليد في نحو ذلك ضلال قديم، وأن أسلافهم لم يكن لهم سند يُعتد به.. ووجه تخصيص المترفين بالذكر للإشعار بأن التنعم وحبَّ البطالة صرفهم عن النظر الصحيح إلى التقليد الأعمى»[2].

ومما يؤكد أن القضية ليست قضية تقليد الآباء في اهتدائهم بقدر ما هي مبرر فقط لعدم اتباعهم للرسل، ما ردوا على الرسول في قوله: ﴿.. أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم..﴾ حيث قالوا: ﴿ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[3]، وقد ذكر القرآن الكريم ـ على سبيل التفصيل ـ بعض مقولات الأقوام الذين تشبثوا بهذا المبرر.

فعندما ناقش إبراهيم ـ عليه السلام ـ الملأ من قومه في عبادة الأصنام لم تكن لهم حجة سوى أنهم وجدوا آباءهم لها عابدين، فهم على الأثر سائرون ﴿ .. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ فردوا عليه: ﴿ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾[4]، لا حجة غير ذلك، مما دفع إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى مواجهتهم بالحقيقة التي يكره الملأ ـ في كل عصر ـ سماعها: قال: ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾[5].

وعندما أفحم هود ـ عليه السلام ـ قومه، أخذتهم العزة بالإثم وتمسكوا بما هم

---

(١) هو الإمام العلامة، أبو سعيد، عبد الله بن عمر بن محمد، قاضي القضاة ناصر الدين البيضاوي، كان عارفاً بالفقه والتفسير والعربية والمنطق، نظاراً صالحاً متعبداً زاهداً شافعياً، ولي القضاء بشيراز ودخل تبريز مات بها سنة خمس وثمانية وستمائة، من مؤلفاته: تفسيره «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» و«مختصر الكشاف» و«شرح الكافية» لابن الحاجب، و «الإيضاح» في أصول الدين. (طبقات المفسرين للداوودي، ج ١/٢٤٨).

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المعروف بتفسير البيضاوي، ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي، (مؤسسة شعبان، بيروت)، ج ٥/٥٩.

(٣) سورة الزخرف، آية (٢٤).

(٤) سورة الأنبياء، آية (٥٢ ـ ٥٣).

(٥) سورة الأنبياء، آية (٥٤).

عليه قائلين: ﴿ . . قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾[1].

واستنكر الملأ من قوم شعيب على شعيب ـ عليه السلام ـ دعوته لهم نبذ ما كان يعبد آباؤهم، قائلين: ﴿ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾[2].

والاستنكار نفسه ورد من الملأ من قوم فرعون على موسى ـ عليه السلام ـ ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ﴾[3].

ولقد نهج كفار قريش النهج نفسه، كما أخبرنا ـ سبحانه وتعالى ـ عنهم بقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾[4] وقال كذلك: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾[5].

أمام هذا التَحُجر وهذا الجمود اضطر الرسول ـ ﷺ ـ إلى تسفيه أحلامهم، وتضليل آبائهم وعَيْب دينهم، وشَتْم آلهتهم، مما أثار حفيظة الملأ وذهبوا إلى عمه أبي طالب وقالوا له: (يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه. .)[6] فكان هذا بداية الصراع بين الرسول ـ ﷺ ـ والملأ من قومه.

المبحث الثاني

إستجابة المستضعفين للرسل

جرت سنة الله فى الدعوات الربانية أن يبادر المستضعفون في المجتمع ـ الفقراء

---

(١) سورة الأعراف، آية (٧٠).

(٢) سورة هود، آية (٨٧).

(٣) سورة يونس، آية (٧٨).

(٤) سورة البقرة، آية (١٧٠).

(٥) سورة المائدة، آية (١٠٤).

(٦) سيرة ابن هشام، ج ١/ ٢٧٧.

والموالي والعبيد... - إلى اعتناق هذه الدعوة، ففي جميع الدعوات الربانية - بلا استثناء - كان الرعيل الأول أو معظمهم من هذه الطبقة، وقد أشار إلى هذه السنة «هرقل» في معرض حديثه مع أبي سفيان[1]، بقوله: (... وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل...)[2].

فقوم نوح عيروا نوحاً، لأن الطليعة من أتباعه هم الأرذلون، ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ... ﴾[3].

وبادر المستضعفون من قوم شعيب إلى الإيمان به في حين أخذ الملأ يتهكمون منهم ومن سرعة إيمانهم ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾[4].

وكذلك احتقر فرعون وملؤه أتباع موسى - عليه السلام - لأنهم من المستضعفين ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا

---

(١) هو صخر بن حرب بن أمية، أبو سفيان القرشي الأموي، يكنى أبا حنظلة، وهو والد معاوية وابنته أم حبيبة زوج النبي ﷺ، أسلم عام الفتح وكان من المؤلفة، وكان قبل ذلك رأس المشركين يوم أحد والأحزاب، مات في آخر خلافة عثمان وهو ابن ثمان وثمانين (الإصابة، ج ٣/ ٢٣٧).

(٢) أخرجه البخاري في باب: بدء الوحي ج ١/ ٧، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب: كتاب النبي - ﷺ - إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، ج ٣/ ١٣٩٣.

(٣) سورة هود، آية (٢٧)، بادي الرأي: أي اندفعوا لاتباعك دون روية أو تفكير، وهذا القول قالوه على سبيل المذمة، وهو عجيب فكيف يذم الإنسان بما يستحق عليه المدح والإشادة، لأن الحق متى ظهر لم يحتج اعتناقه واتباعه إلى تفكير أو تردد، بل لا يفكر ههنا إلا مكابر أو عَييّ، لذلك قال الرسول - ﷺ - مادحاً أبا بكر - لعدم تردده أو تأخره في اتباعه - «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر فإنه لم يتلعثم» (انظر تفسير القرآن العظيم، ج ٢/ ٤٥٨).

(٤) سورة الأعراف، آية (٧٥ - ٧٦).

عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا . . ﴾[2].

وفي الرسالة الخاتمة سمعنا تقرير أبي سفيان لهرقل، أن الرعيل الأول من أتباع النبي - ﷺ - هم الضعفاء - كبلال[3] وصهيب وعمار[4] هذا بالنسبة للدعوات الربانية.

أما إذا كانت الدعوة أرضية، فسرعان ما يلتف حولها الكبراء والنفعيون وأصحاب المصالح الدنيوية[5].

والسؤال الذي يفرض نفسه، لماذا يبادر المستضعفون لاعتناق هذه الدعوة، ويتباطأ أو يمتنع الملأ عن الإستجابة لها؟!!.

الإجابة عن هذا السؤال يمكن تلخيصها فيما يلي[6]:

١ - لأنهم أقرب إلى الفطرة، ففطرتهم لم يفسدها الجاه والسلطان والثراء الذي

---

(١) سورة المؤمنون، آية (٤٥ - ٤٧).

(٢) سورة الأعراف، آية (١٣٧).

(٣) هو بلال بن رباح الحبشي، كان مولى بني جمح وكان أمية بن خلف - سيده - يعذبه إذا حميت الظهيرة، يريد فتنه عن دينه، فاشتراه أبو بكر واعتقه. اتخذه النبي ﷺ مؤذناً له، وشهد معه المشاهد كلها، مات بالشام مجاهداً، وقيل مات في طاعون عمواس، سنة عشرين، (الإصابة، ج ١/ ١٧٠ وما بعدها).

(٤) هو عمار بن ياسر بن عامر بن مالك بن كنانة من بني ثعلبة بن عوف، كان حليفاً لبني مخزوم وأمه سمية مولاة لهم. كان من السابقين هو وأبوه وأمه، وكانوا ممن يعذب في سبيل الله، هاجر إلى المدينة وشهد المشاهد كلها، قتل مع علي بصفين سنة سبع وثلاثين، (الإصابة، ج ٤/ ٢٧٣ وما بعدها).

(٥) انظر الحقائق والأرقام في كتاب المفكر الإسلامي: يوسف القرضاوي «الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا» (مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٠ هـ) ص ٢٣٨ وما بعدها.

(٦) انظر: تفسير المنار، ج ٨/ ٥٠٤، في ظلال القرآن، ج ٤/ ١٨٧٢، أضواء البيان ج ٩/ ٥٢ فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، (دار الفكر، الطبعة الثامنة، ١٤٠٠ هـ) ص ٩٧ - ٩٨، مباحث في التفسير الموضوعي لشيخنا مصطفى مسلم، ص ٢٢٣ - ٢٢٤، دعوة الرسل إلى الله تعالى، لمحمد أحمد العدوي (مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة)، ص٢٩.

غالباً ما يؤثر على الفطرة السوية ـ ولما كانت الرسالات السماوية ملائمة للفطرة الإنسانية، فقد وجدت قبولاً عند هؤلاء الناس.

٢ ـ لأنهم لا يملكون من حطام الدنيا وزينتها ما يعوقهم عن الاستجابة للرسل، كما لا يخافون ـ في ظل العقيدة الربانية ـ أن تضيع عليهم حقوقاً مسروقا في غياب الحق أو في ظل الأوضاع الشاذة الفاسدة!!!.

٣ ـ لأنه ليس لهم من الوجاهات الاجتماعية أو الزعامات القبلية(١) ما يمنعهم من الاستجابة لفرد عادي ـ في نظرهم ـ كرسل الله (ما نراك إلا بشراً مثلنا).

٤ ـ لأنه لا يشق عليهم أن يكونوا تابعين ومرؤوسين، وليس في قلوبهم من حب الرياسة ما يمنعهم من الاستماع للحق، بعكس الكبراء لا هَمّ لهم إلا الصدارة والزعامة. لذلك يتركون الدعوة وما حملت إذا لم يُقَدموا فيها(٢).

٥ ـ لأنهم يرون في الدين الرباني تحريراً لهم من عبودية العباد، والتشرف في الانتماء إلى عبودية رب العباد، كما وضَّح ربعي بن عامر ـ رضي الله عنه ـ مهمة الإسلام أمام رستم عندما سأله: (ما الذي جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله...)(٣).

وكما قال قائل(٤) معتزاً بعبوديته لله رب العالمين:

وممــا زادنــي شــرفــاً وعــزاً ... وكـدت بـأخمصـي أطـأ الثـريـا
دخولي تحت قولك «يا عبادي» ... وأن أرسلـت أحمـد لـي نبيـاً!

---

(١) يبدو ـ حسب الظاهر وبعد قدر الله ـ أن أبا طالب لم يسلم خشية التعيير، ولم يسلم أبو جهل بسبب الزعامة، والله أعلم.

(٢) عندما عرض رسول الله ـ ﷺ ـ نفسه على بني عامر بن صعصعة، قال كبيرهم: بيحرة بن فارس: أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء»، «فقال له: أفنهدف نحورنا [نجعلها هدفاً] للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟!! لا حاجة لنا بأمرك» فأبوا عليه، (انظر سيرة ابن هشام، ج ٢/٢٣).

(٣) البداية والنهاية، للحافظ ابن كثير، (مكتبة المعارف ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة / ١٤٠٢ هـ) ج ٧/٣٩.

(٤) لم أقف على القائل.

وهذه الحقيقة بقدر ما تلائم المستضعفين والمستعبدين لذلك يحتضنونها، فإنها تخدش وتجرح كبرياء المتألهين من مهازيل البشر! لذلك يعادونها.

٦ ـ لأنهم يشعرون بالمساواة والكرامة في ظل الدين الرباني، حيث لا تفاضل بالأنساب أو الأحساب، أو الأموال، إنما التفاضل بالتقوى، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾[1].

وقد يلجأ الملأ إلى المساواة في اعتناق الدعوة ـ إذا أحسوا أن الوقت ليس في صالحهم ـ وأخطر هذه المساومات، مساومتهم على إبعاد الضعفاء أو تخصيصهم ببعض الامتيازات كشرط لالتحاقهم بركب الدعوة.

وقد حصلت هذه المساومة مع نوح ـ عليه السلام ـ حيث طالبوه أن يطرد الأراذل!! في نظرهم ـ وهذا المطلب لم يصرح به القرآن الكريم، لكنه مفهوم من الحوار الذي دار بين نوح والملأ، وجاء فيه رفض نوح طرد الضعفاء. ﴿ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾[2]، وفي سورة هود، اعتذر لهم بقوله: ﴿ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[3].

وتروي كتبُ السنّة أن كفار قريش تقدّموا إلى النبي ـ ﷺ ـ بالطلب نفسه، أن يطرد الضعفاء أو على الأقل أن يُفْردهم بمجلس خاص حتى يفكروا في اتباعه، فعن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا مع النبي ـ ﷺ ـ ستة نفر. فقال المشركون للنبي ـ ﷺ ـ اطرد هؤلاء لا يجترؤن علينا. قال: وكنا أنا وابن مسعود، ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما. فوقع في نفس رسول الله ـ ﷺ ـ ما

---

(١) سورة الحجرات، آية (١٣).
(٢) سورة الشعراء، آية (١١١ ـ ١١٤).
(٣) سورة هود، آية (٣٠).

شاء أن يقع فحدّث نفسه، فأنزل الله - عز وجل - ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾[1][2].

وفي رواية ابن ماجه[3] ذكْر تتمة الستة وهم: سعد بن أبي وقاص، وابن مسعود وصهيب، وعمار، والمقداد، وبلال[4] - رضي الله عنهم -.

وفي سنن ابن ماجه أيضاً، عن خباب[5] في قوله تعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي. . . - إلى قوله - فتكون من الظالمين﴾.

قال: جاء الأقرع[6] بن حابس التميمي، وعيينه[7] بن حصن الفزاري، فوجدوا رسول الله - ﷺ - مع صهيب وبلال وعمار وخباب قاعداً في ناس من الضعفاء من المؤمنين. فلما رأوهم حول النبي - ﷺ - حقروهم، فأتَوْه فخَلوا به وقالوا: إنا نريد

(١) سورة الأنعام، آية (٥٢).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب: فضل سعد بن أبي وقاص (ج ٤/ ١٨٧٨)، وانظر أسباب نزول القرآن للواحدي ص ٢١٢، والدر المنثور، ج ٣/ ٢٧٤.

(٣) هو أبو عبد الله، محمد بن يزيد الربعي القزويني، ابن ماجه، الحافظ الكبير، الحجة المفسر، صنف السنن والتفسير والتاريخ، مات سنة ثلاث وسبعين ومئتين وله أربع وستون سنة، (سير أعلام النبلاء، ج ١٣/ ٢٧٧، وما بعدها، تقريب التهذيب، ص ٥١٤).

(٤) انظر: صحيح سنن ابن ماجه، كتاب الزهد - باب مجالسة الفقراء، ج ٢/ ٣٩٧).

(٥) هو أبو عبد الله، خباب بن الارت بن جندلة بن خزيمة التميمي الخزاعي، سبي في الجاهلية وبيع بمكة، فكان مولى أم أنمار الخزاعية ثم حالف بني زهرة، كان من السابقين إلى الإسلام وأول من أظهر الإسلام وعذب عذاباً شديداً، شهد بدراً وما بعدها، ونزل الكوفة ومات بها سنة سبع وثلاثين. (الإصابة، ج ٢/ ١٠١).

(٦) هو الأقرع بن حابس بن عقال التميمي المجاشعي الدارمي، وقيل اسمه فراس، وإنما قيل له الأقرع لقرع كان برأسه وفد على النبي ﷺ وشهد فتح مكة وحنيناً والطائف وكان من المؤلفة قلوبهم وحسن إسلامه، فكان شريفاً في الجاهلية وفي الإسلام، اختلف في وفاته ورجح الرضي الشاطبي أنه قتل باليرموك (الإصابة، ج ١/ ٥٨ وما بعدها).

(٧) هو أبو مالك عيينة بن حصن بن حذيفة بن فزارة الفزاري، كان اسمه حذيفة فلقب بعيينه لأنه كان اصابته شجة فجحظت عيناه، كان من المؤلفة قلوبهم، اسلم قبل الفتح وشهدها وشهد حنيناً والطائف، ارتد في عهد أبي بكر ومال إلى طليحة وبايعه ثم عاد إلى الإسلام، وكان فيه جفاء سكان البوادي قيل عاش إلى خلافة عثمان بن عفان. (الإصابة، ج ٥/ ٥٥ وما بعدها).

أن نجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنك، فإذا نحن فرغنا، فاقعد معهم إن شئت، قال: «نَعَمْ» قالوا: فاكتب لنا عليك كتاباً، قال، فدعا بصحيفة، ودعا علياً ليكتب، ونحن قعود في ناحية، فنزل جبرائيل ـ عليه السلام ـ فقال: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٢ ﴾[1].

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: (مر الملأ من قريش على النبي ـ ﷺ ـ وعنده: صهيب، وعمار، وبلال، وخباب، ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك؟! أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا؟! أنحن نكون تبعاً لهؤلاء؟! اطردهم عنك! فلعلك إن طردتهم أن نتبعك، فنزلت: **﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه.. إلى قوله: وكذلك فتنا بعضهم ببعض..﴾**[2].

وروى ابن جرير بسنده إلى عكرمة[3] قال: جاء عتبة بن ربيعة، وشيبة ومُطعم بن عدي، والحارث بن نوفل، وقرظة بن عبد عمرو بن نوفل، في أشراف من بني عبد مناف من الكفار إلى أبي طالب، فقالوا: لو أن ابن أخيك محمداً يطرد عنه موالينا وحلفاءنا فإنما هم عبيدنا وعُسَفَاؤنا[4] كان أعظم في صدورنا وأطوع له عندنا،

---

(١) صحيح سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب مجالسة الفقراء، (ج ٢/٣٩٧)، وانظر: جامع البيان /شاكر (ج ١١/ ٣٧٦)، وانظر أسباب نزول القرآن للواحدي ص ٢١٢، والدر المنثور، ج ٣/ ٢٧٣.

(٢) أخرجه ابن جرير بسنده. جامع البيان /شاكر (ج ١١/ ٣٧٤) وخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ الثالثة ـ ١٤٠٢ هـ)، وقال: رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد رجال الصحيح، غير كردوس وهو ثقة، ج ٧/ ٢٠) وانظر أسباب نزول القرآن للواحدي ص ٢١٣، وانظر الدر المنثور (ج ٣/ ٢٧٢).

(٣) هو أبو عبد الله، عكرمة بن عبد الله، البربري ثم المدني الهاشمي، مولى ابن عباس، إمام حبر ثقة ثبت، عالم بالتفسير، لم يثبت تكذيبه ولا ثبت عنه بدعة، قال الشعبي: ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة. توفي سنة أربع ومائة، (تذكرة الحفاظ، ج ١/ ٩٥، تقريب التهذيب، ص ٣٩٧، طبقات المفسرين للداوودي، ج ١/ ٣٨٦).

(٤) العسفاء «جمع عسيف» وهو: الأجير المستهان به. (النهاية في غريب الحديث، لأبي =

وأدنى لاتباعنا إياه، وتصديقنا له! قال: فأتى أبو طالب النبي - ﷺ - فحدثه بالذي كلموه به، فقال عمر بن الخطاب: لو فعلت ذلك حتى تنظر ما الذي يريدون، وإلام يصيرون من قولهم؟ فأنزل الله تعالى ذكره هذه الآية، فلما نزلت أقبل عمر بن الخطاب يعتذر عن مقالته...)[1].

وأخرج ابن جرير بسنده إلى سلـمان الفارسي قال: جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله - ﷺ - عيينة بن [حصن] بن بدر والأقرع بن حابس وذوُوهم، فقالوا: يا نبي الله، إنك لو جلست في صدر المسجد ونفيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم - يعنون سلمان وأبا ذر[2] وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب الصوف ولم يكن عليهم غيرها - جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك! فأنزل الله ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ - حتى بلغ - إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا ﴾[3] يتهددهم بالنار، فقام النبي - ﷺ - يلتمسهم، حتى إذا أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله تعالى، قال: الحمد لله الذي لم يمتنى حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي، معكم المحيا، ومعكم الممات)[4].

ومن مجموع هذه الروايات نجد أن تبريرات هذه المساومة تنحصر في ثلاثة أمور:

١ - أنه لا يليق بمكانتهم الاجتماعية أن يجلسوا وعبيدهم ومواليهم في مجلس واحد، فضلاً عن أن يكونوا لهم أتباعاً.

= السعادات ابن الأثير، تحقيق: طاهر الزاوي - المكتبة العلمية، بيروت - ج ٣/ ٢٣٦، مادة «عسف».

(١) جامع البيان / شاكر (ج ١١/ ٣٧٩)، وانظر: أسباب نزول القرآن للواحدي ص ٢١٤.

(٢) هو جندب بن جنادة بن سفيان من بني غفار، يكنى أبا ذر، كان من السابقين إلى الإسلام، انصرف إلى بلاده بعد إسلامه يدعو قومه إلى الإسلام وقدم المدينة بعد بدر وأحد وكان عمر يلحقه بهم، وكان في علمه يوازي ابن مسعود. تأخر يوم تبوك عن الرسول ﷺ ثم لحق به. سكن الشام بعد وفاة عمر وكان له رأي في ملكية المال فأمره عثمان أن يتحول إلى الربذة - من قرى المدينة - ومات بها سنة إحدى وثلاثين، (الإصابة، ج ٧/ ٦١، وما بعدها وانظر طبقات ابن سعد، ج ٤/ ٢١٩ وما بعدها).

(٣) سورة الكهف، آية (٢٧ - ٢٩).

(٤) جامع البيان (ج ١٥/ ١٥٦)، وانظر: أسباب نزول القرآن للواحدي، ص ٣٠٦، وانظر: الدر المنثور، ج ٥/ ٣٨٣.

٢ ـ أنهم يخشون من التعيّير، لأنهم جلسوا مع الأرقاء والفقراء.

٣ ـ أنهم يتضايقون من روائح العرق التي تفوح من جباب الصوف التي يلبسها الضعفاء.

ولما كان الله قد علم ـ وهو علام الغيوب ـ أن هذه ما هي إلا تعلات وتبريرات وأن القوم غير جادين، كما أن الاستجابة لطلبهم ـ من جهة أخرى ـ مخالفة صريحة للمبدأ الذي يدعو إليه من حيث المساواة بين الناس، وأن ميزان التفاضل بينهم هو الإيمان والتقوى ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[1]، وليس أغناكم أو أوجهكم أو أنسبكم!!! لذلك نبه الله رسوله ـ ﷺ ـ إلى عدم الدخول في هذه المساومات، فمن أراد الدعوة لذاتها ولمبادئها الربانية العادلة فهلّم، ومن أقبل على الدعوة بشروط سابقة أو طالباً امتيازات ـ لا تحق له ـ فلا مرحباً به، فالإسلام لا يتملق أحداً، ولا يفتقر إلى أحد حتى يتنازل عن مبادئه لأجله ـ كائناً من كان ـ فأوْقف هذه المساومات ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ .. ﴾[2]، (اصبر نفسك مع هؤلاء، صاحبهم وجالسهم وعلمّهم، ففيهم الخير، وعلى مثلهم تقوم الدعوات، فالدعوات لا تقوم على من يعتنقونها لأنها غالبة، ومن يعتنقونها ليقودوا بها الأتباع، ومن يعتنقونها ليحققوا بها الأطماع، وليتجروا بها في سوق الدعوات تُشترى منهم وتُباع! إنما تقوم الدعوات بهذه القلوب التي تتجه إلى الله خالصة له، لا تبغي جاهاً ولا متاعاً ولا انتفاعاً، إنما تبتغي وجهه وترجو رضاه)[3].

المبحث الثالث

اعتراض المكذبين على الرسل في بشريتهم

لقد كانت بشرية الرسل ـ عليهم السلام ـ أعظم فتنة لكثير من الناس ـ على مر العصور ـ منعتهم من الاستجابة لأمر الله. قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ

---

(١) سورة الحجرات، آية (١٣).

(٢) سورة الكهف، آية (٢٨).

(٣) في ظلال القرآن، ج ٤/٢٢٦٨.

﴿ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾[1]. وهذه الآية وإن كانت قد جاءت تعقيباً على تعنتات كفار قريش في طلب الآيات الحسية، إلا أن الآية قررت حقيقة قديمة، لذا فالأظهر أن تعريف «الناس» في الآية يراد به الاستغراق[2]. ولقوة شبهة اعتراض المكذبين على بشرية الرسل، نجد أن الأسلوب القرآني يحصر سبب تكذيب الرسل ـ مع تعدده ـ في هذه الشبهة، ولقد ذكر الله هذه الشبهة في القرآن الكريم، على ألسنة المكذبين للرسل على ضربين:

على سبيل الإجمال، كما في قوله تعالى:

﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾[4].

وعلى سبيل التفصيل:

بدءاً بقوم نوح الذين اعترضوا على بشرية نوح ـ عليه السلام ـ بقولهم: ﴿ .. مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا .. ﴾[5].

ومروراً بثمود الذين حقروا صالحاً ـ عليه السلام ـ لبشريته واستنكفوا عن اتباعه، قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾[6].

---

(١) سورة الإسراء، آية (٩٤).
(٢) انظر: تفسير التحرير والتنوير، ج ١٥/ ٢١٢.
(٣) سورة إبراهيم، آية (١٠).
(٤) سورة التغابن، آية (٥ ـ ٦).
(٥) سورة هود، آية (٢٧).
(٦) سورة القمر، آية (٢٣ ـ ٢٤).

وعلى إثرهم قوم شعيب إذ قالوا لشعيب ـ عليه السلام ـ ﴿ .. وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ ﴾(١).

وعلى نفس النهج تشبث فرعون وملؤه بنفس الشبهة لرد الرسالة: ﴿ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾(٢).

وانتهاءً بسيد المرسلين الذي طُعن في رسالته من أجل بشريته فقالوا: ﴿ .. أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾(٣).

وبالتأمل في اعتراضات المكذبين على بشرية الرسل وما يترتب عليها، نجد أن هذه الاعتراضات إما شبهات وإما تعنتات، ويمكن تلخيصها في الآتي:

١ ـ ادعاؤهم مماثلة الرسل عليهم السلام لهم في الأكل والشرب ونحوهما.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾(٤).

٢ ـ زعمهم استحالة الإيحاء إلى البشر، وكل من يدعي ذلك فهو كذاب.

قال تعالى عن قول قوم شعيب: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾(٥).

وقال تعالى عن أصحاب القرية: ﴿ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾(٦).

وقال تعالى عن قول قوم صالح: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾(٧).

٣ ـ اعتقادهم أن الرسل ينبغي أن يكونوا ملائكة.

---

(١) سورة الشعراء، آية (١٨٦).
(٢) سورة المؤمنون، آية (٤٧).
(٣) سورة الإسراء، آية (٩٤).
(٤) سورة المؤمنون، آية (٣٣).
(٥) سورة الشعراء، آية (١٨٦).
(٦) سورة يس، آية (١٥).
(٧) سورة القمر، آية (٢٥).

قال تعالى عن قوم نوح: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[2].

٤ ـ ادعاؤهم أن اتباع الرسل من البشر يقود إلى الخسارة والضلال!

قال تعالى عن المكذبين: ﴿ .. وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾[4].

٥ ـ زعمهم أن الرسل لم يأتوا بآية تدل على صدقهم.

قال تعالى عن قول المكذبين لرسلهم ﴿ .. إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾[5]، وقال تعالى عن عاد: ﴿ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[6].

هذه هي أهم شبهات الكفار وتعنتاتهم حول بشرية الرسل.

وجاء دور الرد على شبهاتهم ودحضها إن شاء الله، فأقول وبالله التوفيق:

أولاً: الرد على ادعائهم مماثلة الرسل لهم في الأكل والشرب ونحوهما:

إن الذين طعنوا في رسالة الرسل بسبب بشريتهم ولكونهم مثلهم يأكلون كما يأكلون، ويشربون كما يشربون، ويمشون في الأسواق كما يمشون، لم يأتوا بحجة مقبولة، ولم يدّعموا زعمهم ببرهان ساطع، كل ما عندهم قياس فاسد! فكأنهم قالوا: (إن كنتم قد فارقتمونا في هذه الأحوال العالية الإلهية الشريفة، وجب أن تفارقونا في

---

(١) سورة المؤمنون، آية (٢٤).
(٢) سورة فصلت، آية (١٤).
(٣) سورة المؤمنون، آية (٣٤).
(٤) سورة القمر، آية (٢٣ ـ ٢٤).
(٥) سورة إبراهيم، آية (١٠).
(٦) سورة هود، آية (٥٣).

الأحوال الخسيسية، وهي الحاجة إلى الأكل والشرب والحدث والوقاع)[1]، وهذا القياس تبدو فيه السذاجة والسطحية في التفكير، كما يبدو من خلاله الجهل بوظيفة الرسل.

فأما من حيث السذاجة والسطحية، فقد كانوا يتوقعون أن تحاط شخصية الرسول بالغموض والأسرار والألغاز. وما ذلك إلا بسبب الأوهام والأساطير التي عششت في مخيلتهم، فغفلوا عن الحقائق القاطعة التي جاء بها الرسل، والمعجزات الباهرة التي أيدوا بها[2].

وأما من حيث وظيفة الرسول، فبسبب تخبطهم في إدراك مهمة الرسول المبعوث فيهم، قادهم ذلك إلى استنكار كون الرسول بشراً. ومن المعلوم أن من أهم مهمات الرسل، البيان والتعليم والتربية والتزكية، ولا خلاف أن مباشرة البشر لهذه المهمة مع البشر أنسب، لأنه في هذه الحالة سيكون المرسَلُ من جنس المرسل إليهم، وذلك أدعى للفهم منه، والأُنس إليه، لأنه يشعر بمشاعرهم ويحس بأحاسيسهم، يدرك آلامهم وآمالهم، ويعرف نوازعهم وأشواقهم، يعرف نقاط الضعف والقوة فيهم، لأنه في النهاية منهم وفيهم، وهم من جانبهم يجدون فيه القدوة التي يمكن احتذاؤها لأنه بشر مثلهم، فيكون هو بشخصه ترجمة لما يدعوهم إليه، فتكون حركاته وسكناته وأعماله وأقواله محط أنظارهم، فيتشجعون لتقليده، لأن ما يدعو إليه في طاقة البشر وهم كذلك. في حين لو كان المرسل إليهم ليس بشراً ـ مَلَكاً كما طلبوا، مثلاً ـ لما فكروا ولا حاولوا في تقليده، لأنهم يشعرون أن طبيعته غير طبيعتهم، ولكثرت معاذيرهم في ادعاء عدم الاقتدار على الاقتداء به ـ ولصدقوا في ذلك ـ ولذلك عقب الله على اعتراضهم بقوله: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾[3][4].

---

(١) التفسير الكبير، ج ١٩/ ٩٥.

(٢) انظر: تفسير المنار، ج ٨/ ٢٧٩، في ظلال القرآن، ج ٥/ ٢٩٦١.

(٣) سورة الإسراء، آية (٩٥).

(٤) انظر: تفسير المنار، ج ٨/ ٢٧٩. في ظلال القرآن ج ٥/ ٢٥٥٣، مقارنة الأديان (٣) الإسلام د. أحمد شلبي ص ١١٥، (مكتبة النهضة ـ القاهرة ـ السادسة ـ ١٩٧٩ م)، النبوة والأنبياء، للصابوني، ص ٢٩ (دار القلم ـ دمشق ـ الرابعة ـ ١٤٠٩ هـ).

ثانياً: الرد على زعمهم استحالة الإيحاء إلى البشر:

إن زعمهم استحالة الإيحاء إلى البشر مَرَدُّه إلى أحد أمرين أو كليهما:

إما عدم تقدير الله حق قدره وإما الجهل بحقيقة الإنسان ومكانته عند الله.

أما السبب الأول: فقد قال الله رداً على بعض الذين ادعوا ذلك: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ . . ﴾[1] [2]، ومعنى الآية: (أي ما عرفوا الله حق معرفته، ولا عظموه حق تعظيمه بإنكارهم قدرته على إنزال شيء من العلم على قلوب بعض البشر لاقتضاء علمه وحكمته أن يكونوا معلمين لسائر البشر ما فيه هدايتهم)[3].

ولا بد من التأكيد هنا على أن قدرته سبحانه مطلقة لا يحدها شيء، فما أراده الله كان - ولو اجتمع أهل الأرض على رده - وما لم يرده لم يكن - ولو أراده أهل الأرض جميعاً - ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾[4]. وقد أراد الله أن يكون رسله إلى البشر بشراً مثلهم، لذلك كان!

أما عن السبب الثاني: فالثابت أن بني آدم من أكرم ما خلق الله: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾[5]، وأهم أسباب التكريم نفخ الله فيه من روحه ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي . . ﴾[6]، (وبهذه النفخة الإلهية أودع الله في البشر الاستعداد للاتصال به، فلا عجب أن يختار الله واحداً من هذا الجنس، صاحب استعداد روحي للتلقي، فيوحي إليه ما يهدي به إخوانه إلى الطريق كلما غام عليهم الطريق، وما يقدم به إليهم

---

(١) سورة الأنعام، آية (٩١).

(٢) قال ابن عباس ومجاهد: نزلت في مشركي قريش، واختاره ابن جرير وابن كثير وقيل نزلت في طائفة من اليهود، وقيل نزلت في شخص من اليهود بعينه، قيل هو: فنحاص، وقيل هو: مالك بن الصيف (انظر: جامع البيان / شاكر ج ١١/ ٥٢١، ٥٢٥، أسباب نزول القرآن، للواحدي، ص ٢١٥، تفسير القرآن العظيم ج ٢/ ١٦١، الدر المنثور ج ٣/ ٣١٤.

(٣) تفسير المنار، ج ٨/ ٢٧٨.

(٤) سورة يس، آية (٨٢).

(٥) سورة الإسراء، آية (٧٠).

(٦) سورة الحجر، آية (٢٩).

العون كلما كانوا في حاجة إلى العون)[1]، والعجيب من المكذبين، بدل أن يفتخروا لكون الرسول بشراً مثلهم استعظموا هذا الأمر واستبعدوا اختيار الله لهم!!، ولم ينظروا إلا إلى المظهر الخارجي فيه ـ الأكل، والشرب، والمشي. . . . ونسوا أو تناسوا تكريم الله له بالنفخة العلوية، وبتعليمه الأسماء، وبإسجاد الملائكة له، وباستخلافه في الأرض وبتحميله الأمانة التي عجزت السموات والأرض والجبال عن حملها، وبتفضيله على كثير مما خلق تفضيلاً. .

أما الرسل ـ صلوات الله عليهم ـ فقد كانوا يعتزون ببشريتهم لذلك لم ينكروها، بل أكدوها ـ مع أنها هي المطعن ـ ﴿**إن نحن إلا بشر مثلكم**﴾ لكنهم وجهوا الأنظار إلى منّة الله عليهم باختيارهم واصطفائهم من بين الخلق ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ . . ﴾[2]. (نعم هي منّة ضخمة لا على أشخاص الرسل وحدهم، ولكن كذلك على البشرية التي تشرفت بانتخاب أفراد منها لهذه المهمة العظمى، مهمة الاتصال والتلقي من الملأ الأعلى، وهي منّة على البشرية بتذكير الفطرة التي ران عليها الركام ليخرج من الظلمات إلى النور، ولتتحرك فيها أجهزة الاستقبال والتلقي فتخرج من الموت الراكد إلى الحياة المتفتحة. .)[3].

ثالثاً: الرد على اعتقادهم أن الرسل ينبغي أن يكونوا ملائكة:

إن هذا الاعتقاد ـ سواءٌ أكان تعنتاً أم شبهة ـ ليدل على حماقة القوم، إذ إن رؤية الملائكة ليست في وسع البشر فضلاً عن التلقي عنهم ـ إلا لمن هيأه الله للتلقي عنهم ـ فالرسول ـ ﷺ ـ مع تهيئته لذلك ـ كان يجد من الشدة ما لا يتصور عند نزول جبريل ـ عليه السلام ـ عليه في صورته الملائكية، فكيف بمن لم يُهيىء لرؤية الملائكة أو التلقي عنهم؟! لذلك كانت بعثت الرسل من البشر ضرورية لاتفاق الطباع. كما قال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾[4].

---

(١) في ظلال القرآن، ج ٥/ ٢٥٥٢.

(٢) سورة إبراهيم، آية (١١).

(٣) في ظلال القرآن، ج ٤/ ٢٠٩١.

(٤) سورة الإسراء، آية (٩٥).

فالملائكة يلائمهم رسول من الملائكة ـ لو وُجدوا في الأرض ـ والبشر يلائمهم رسول من البشر ـ كما حصل ـ وسوف يأتي مزيد تفصيل حول هذه الشبهة[1].

رابعاً: الرد على ادعائهم أن اتباع الرسل من البشر يقود إلى الخسارة والضلال!!

هذا هو سبق الحكم في المسألة، وهو التعنت الذي ليس بعده تعنت! إن المرء ليتساءل على أي أساس وصل الجاحدون إلى هذه النتيجة؟! هل بَنَو ذلك على تجارب سابقة؟! أم بَنَوه على تجربتهم الخاصة؟! أم ماذا؟ الجواب: لا هذا ولا ذاك، إنما وصلوا إلى هذه النتيجة بناءً على الحسد والجمود والتقليد الأعمى لما وجدوا عليه آباءهم، فاتباع الآباء ولو كانوا على ضلال هو الهدى والفوز ـ في نظرهم ـ والحياد عن منهجهم ـ ولو بإتباع الرسل ـ هو الضلال والخسارة، كما قال الملأ من قوم نوح ـ عليه السلام ـ له: ﴿ . . إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٦٠ ﴾[2]، وقال كفار قريش لرسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿ . . أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۝٤١ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٢ . . ﴾[3]، (وهكذا يبلغ الضال من الضلال أن يحسب من يدعوه إلى الهدى هو الضال، بل هكذا يبلغ التبجح الوقح بعدما يبلغ المسخ في الفطر! هكذا تنقلب الموازين، وتبطل الضوابط، ويحكم الهوى، ما دام أن الميزان ليس هو ميزان الله الذي لا ينحرف ولا يميل)[4]، ومن قبل قال أسلافهم: ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝٣٤ ﴾[5].

يقول أبو السعود[6] ـ رحمه الله ـ انظر كيف جعلوا اتباع الرسول الحق الذي

---

(١) انظر: الباب الثاني ـ الفصل الأول، ص ١٨٥.
(٢) سورة الأعراف، آية (٦٠).
(٣) سورة الفرقان، آية (٤١ ـ ٤٢).
(٤) في ظلال القرآن، ج ٣/ ١٣٠٩.
(٥) سورة المؤمنون، آية (٣٤).
(٦) هو الإمام العلامة المولى أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي، ولد بقرية قريبة من قسطنطينية واجتهد في التعلم والتحصيل حتى انتهى إليه الإفتاء سنة ٩٥٢ هـ بعد أن توفي أمير خان، كما تقلد القضاء في بروسة فالقسطنطينية فالروم إيلي، صنف تفسيره المسمى، «بإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم» وله «تحفة الطلاب» و «رسالة المسح على الخفين»، توفي سنة اثنين وثمانية وتسعمائة، (شذرات الذهب، ج ٨/ ٣٩٥، الأعلام، ج ٧/ ٥٩).

يوصلهم إلى سعادة الدارين خسرانا دون عبادة الأصنام التي لا خسران وراءها قاتلهم الله أنى يؤفكون»[1]، بل الحقيقة التي لا مرية فيها أن الهدى كل الهدى، والفوز كل الفوز في اتباع الرسل، قال تعالى: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾[2]، وقال: ﴿ .. وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾[3].

خامساً: الرد على زعمهم أن الرسل لم يأتوا بآية تدل على صدقهم!

على الرغم من تأييد الله سبحانه وتعالى رسله بالمعجزات التي تدل على صدق نبوتهم، إلا أننا نلاحظ أن الجاحدين يُصرون على المطالبة بآيات أخرى لتبرهن على صدقهم، وهذا يؤكد أن القضية ليست قضية أدلة وبراهين بقدر ما هي تعنت وجحود، لأنه ما من نبي بعثه الله إلا وأيده بالآيات والمعجزات التي هي في معنى قول: (صدق عبدي فيما يبلغ عني)[4]، وفي ذلك يقول الرسول ـ ﷺ ـ **«ما من الأنبياء نبيّ إلا أُعطي ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أُوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»**[5]. فهذا دليل بيّن على اقتران دعوى الرسالة بظهور المعجزات، ومع ذلك نجد التعنت من أولئك الذين يطالبون رسولهم بآية غير الآية التي أتى بها أو يدّعون عدم إتيان رسولهم بأي آية أصلاً!، كما قالت عاد لهود ـ عليه السلام ـ ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ .. ﴾[6]. سبحانك هذا بهتان عظيم!

إن قولهم هذا قد بلغ غاية الإفراط في الكذب والعناد، فقد أكد الله مجيءَ هود ـ عليه السلام ـ بآيات، إلا أنهم جحدوها ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ .. ﴾[7]

---

(١) تفسير أبي السعود المسمى بإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ـ لأبي السعود محمد بن محمد العمادي (دار إحياء التراث العربي ـ بيروت) ج ٦/ ١٣٣.

(٢) سورة النور، آية (٥٤).

(٣) سورة الأحزاب، آية (٧١).

(٤) تفسير المنار، ج ١/ ٢١٧.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب فصائل القرآن، باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل، ج ٤/ ١٩٠٥، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ ج ١/ ١٣٤.

(٦) سورة هود، آية (٥٣).

(٧) سورة هود، آية (٥٩).

ونحن وإن كنا لا نعرف ما هي آيات هود ـ عليه السلام ـ على وجه التحديد إلا أننا نجزم بأن الله أظهر على يد هود ـ عليه السلام ـ آيات، للآية والحديث السابق.

وفي مقابل هذا التعنت من جهة وسوء الأدب مع الله من جهة أخرى، نجد أدب الرسل الجمّ مع الله، إذ تبرؤوا من الحول ومن القوة وردوا قضية الإتيان بالآيات إلى الله فإن شاء ـ جل وعلا ـ أجراها وإن لم يشأ فلا مكره له ـ سبحانه ـ ﴿ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾[1].

المبحث الرابع

استهزاء المكذبين بالرسل واتهامهم بالسحر والجنون

دأب المكذبون والملأ بصفة خاصة ـ منذ بعثة نوح عليه السلام إلى يومنا هذا ـ على محاولة صرف الناس عن هدى الرسل، لأنهم يعرفون أنهم لو تركوا الرسل وشأنهم فإن معظم الناس سيؤمنون، وما ذلك إلا لجاذبية الحق وملائمته لفطرتهم، لذلك يقومون بشن حرب نفسية ضد الرسل ـ عليهم السلام ـ فيشككون في نواياهم، ويقدحون في عقولهم، وينتقصون من قَدْرهم، ويُحقّرون آراءهم، ويتهمونهم بأشنع التهم، ويُشيعُون الشبهات حول رسالتهم، كل ذلك بقصد تشويه سمعتهم، وتهوين شأنهم، وتحجيم دعوتهم، وتنفير الناس منهم، وزعزعة الثقة فيهم، وإيجاد هوة عميقة بينهم وبين الناس. وقد ذكر الله هذه السنّة على سبيل الإجمال والتفصيل.

فمن الآيات المجملة، قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ .. ﴾[2].

يقول أبو السعود ـ رحمه الله ـ (والمعنى: إن ذلك [الاستهزاء] ليس مختصاً بك، بل هو أمر مطرّد، قد فُعل ذلك برسل كثيرة كائنة من قبلك)[3].

وفي هذه الآية تسلية للرسول ـ ﷺ ـ وتسرية عنه إزاء ما كان يلقاه من قومه من

---

(١) سورة إبراهيم، آية (١١).

(٢) سورة الأنعام، آية (١٠).

(٣) تفسير أبي السعود، ج ٥/ ٢٤.

الانتقاص بالسخرية والاستهزاء، فكأنه قيل له: إن ما تلقاه من قومك قد لقيته الرسل من قبلك، لأن ذلك سنّة في الدعوات الربانية، وجانب السنّة الآخر أنه سيصيبهم من العذاب مثل ما أصاب أولئك.

ومن الآيات المجملة قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾[1].

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ ﴾[2].

أما صور الاستهزاء على التفصيل فكثيرة، حيث تَفَنَّن مجرمو كل أمة في أساليب الاستهزاء والسخرية برسولهم! وقد أفاض القرآن في تفصيل ذلك. وسأكتفي بذكر مثال واحد لكل من قوم نوح، وعاد، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى ـ عليهم السلام ـ.

١ ـ استهزاء الملأ من قوم نوح بنوح ـ عليه السلام ـ:

قال تعالى: ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ .. ﴾[3] ذكر معظم المفسرين أن قوم نوح كانوا يقولون له ـ استهزاءً وسخريةً ـ عجباً لك يا نوح أتحولت نجاراً بعد أن كنت نبياً؟!! وعجباً لك أتصنع سفينة في البر؟!!![4] لحديث: (لو رحم الله أحداً من قوم نوح، لرحم أم الصبي[5]! قال رسول الله ـ ﷺ ـ كان نوح مكث في قومه ألف سنة إلا

---

(١) سورة الرعد، آية (٣٢).
(٢) سورة الزخرف، آية (٦ ـ ٧).
(٣) سورة هود، آية (٣٨).
(٤) انظر: جامع البيان / شاكر، ج ١٥/ ٣١٠، الكشاف ج ٢/ ٢١٥، زاد المسير في علم التفسير، ج ٤/ ١٠٣، التفسير الكبير ج ١٧/ ٢٢٤، الجامع لأحكام القرآن، ج ٩/ ٣٢.
(٥) قصة أم الصبي مذكورة في تتمة نص الحديث وهي: (.. فلما فرغ منها ـ أي من صنع السفينة ـ وفار التنور وكثر الماء في السكك خشيت أم الصبي عليه وكانت تحبه حباً شديداً فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء خرجت حتى بلغت ثلثي الجبل فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت به على الجبل فلما بلغ الماء فمها رفعته بيديها حتى ذهب بهما الماء، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم الصبي).

خمسين عاماً يدعوهم إلى الله، حتى كان آخر زمانه، غرس شجرةً فعظمت وذهبت كلَّ مذهب، ثم قطعها، ثم جعل يعمل سفينة ويمرُّون فيسألونه، فيقول: أعملها سفينة! فيسخرون منه ويقولون: تعمل سفينة في البر! فكيف تجري؟ فيقول: سوف تعلمون..)[1].

يقول سيد قطب - رحمه الله - «وترى الجماعات من قومه المتكبرين يمرون به فيسخرون، يسخرون من الرجل الذي كان يقول لهم إنه رسول ويدعوهم، ويجادلهم فيطيل جدالهم، ثم إذا هو ينقلب نجاراً يصنع مركباً.. إنهم يسخرون لأنهم لا يرون إلا ظاهر الأمر، ولا يعلمون ما وراءه من وحي وأمر.. فأما نوح فهو واثق عارف وهو يخبرهم في اعتزاز وثقة وطمأنينة واستعلاء أنه يبادلهم سخرية بسخرية: **﴿قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون﴾**، نسخر منكم لأنكم لا تدركون ما وراء هذا العمل من تدبير الله، وما ينتظركم من مصير»[2].

٢ - استهزاء عاد بهود - عليه السلام -:

قال تعالى: حكاية عما قالوه لهود - عليه السلام -: ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ .. ﴾[3].

نلاحظ في هذا الرد استهزاءً بهود - عليه السلام - من جهة، وتعظيماً لآلهتهم - التي لا تنفع ولا تضر - من جهة أخرى، حيث رموا هوداً - عليه السلام - بالجنون، وزعموا أن هذا الجنون كان نتيجة مَسة أصابته من بعض آلهتهم التي حقرها، فتضمن كلامهم الإشادة بآلهتهم والتهديد لكل من تسول له نفسه أن ينال منها بسوء! يقول الرازي - رحمه الله - «والمعنى: أنك شتمت آلهتنا فجعلتك مجنوناً وأفسدت عقلك»[4].

---

(١) أخرجه ابن جرير وغيره بسنده، وقال أحمد شاكر: هذا إسناد حسن (جامع البيان / شاكر ج ١٥/ ٣١٠)، وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد، وقال: رواه الطبراني في الأوسط وفيه موسى بن يعقوب الزمعي، وثقه ابن معين وغيره وضعفه ابن المديني وبقية رجاله ثقات (ج ٨/ ٢٠٠).

(٢) في ظلال القرآن، ج ٤/ ١٨٧٧.

(٣) سورة هود، آية (٥٤).

(٤) التفسير الكبير، ج ١٨/ ١٣.

وإن مما يؤلم النفس الأبية، أن يهزأ المبطل بالمحق، ويسخر السفيه بالعاقل، ويستهزىء الوضيع بالشريف[1].

٣ ـ استهزاء ثمود بصالح ـ عليه السلام ـ:

قال تعالى: حكاية عما قالوه لصالح ـ عليه السلام ـ ﴿ قَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ . . ﴾[2].

إن هذا طعن في عقل صالح ـ عليه السلام ـ وسخرية منه. فقولهم هذا كقول القائل: كنت أظنك عاقلاً فبان لي خلاف ذلك! وإنه لمن أعجب العجب أن يكون الرسل قبل ادعاء النبوة موضع تقدير واحترام وفجأة ـ بعد اصطفائهم بالنبوة ـ تنقلب الموازين فتبطل الحقائق، وتصبح المحاسن مساوىء والمحامد مذاماً، فإذا العاقل مجنون! والأمين خائن، والصادق كاذب! (وإن مما يؤسف له أن يتم هذا، وأن يصدر على ألسنة السفهاء من المكذبين لصاحب العقل الذكي، والفهم الواعي الدقيق، والفكر النيّر أنه مجنون، إنه ليس احتقار لهؤلاء الأعلام وإنما احتقار وازدراء بعقول المخاطبين وتفكيرهم، كيف يُصدّق هؤلاء الغوغاء أن هؤلاء الرسل الذين عاشوا معهم، وتعاملوا معهم، وادركوا ذكاءهم، وسعة فهمهم ووفور عقلهم أنهم مجانين!)[3].

٤ ـ استهزاء قوم لوط بلوط ـ عليه السلام ـ:

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[4].

نلمح في ردهم هذا السخرية بلوط ـ عليه السلام ـ واتباعه، وأعجب العجب أن يُعيّر الإنسان على التزام الفضيلة وعلى الطهر والعفاف، إن هذا التعْيير، والذي قُصد

---

(١) الابتلاء والمحن في الدعوات، د. محمد عبد القادر أبو فارس، (دار الفرقان، عمان ـ الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ)، ص ٤٨.

(٢) سورة هود، آية (٦٢).

(٣) الابتلاء والمحن في الدعوات، ص ٦٦.

(٤) سورة الأعراف، آية (٨٢).

به السخرية ـ بالدرجة الأولى ـ يبين لنا بجلاء عمق هاوية الرذيلة التي انحدر فيها قوم لوط، حتى صار التطهر دنساً ورجساً يستحق صاحبه التَّنَدُّر به ثم الإخراج!! يقول الفخر الرازي ـ رحمه الله ـ «وإنما قالوا: «أناس يتطهرون» على سبيل السخرية بهم وبتطهّرهم من الفواحش، كما يقول الشيطان من الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم: أبعدوا عنا هذا المتقشف وأريحونا من هذا المتزهد»[1].

منطق عجيب ووضع منكوس أن يُعاب الإنسان بما يستحق عليه المدح والإشادة!!!

٥ ـ استهزاء مدين بشعيب ـ عليه السلام ـ:

قال تعالى: حكاية عما قالوه لشعيب ـ عليه السلام ـ ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾[2].

في هذا الرد تهكم وسخرية بشعيب وبما يدعو إليه من ناحيتين، فبقولهم: ﴿أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء..﴾ عدوّه كالمعتوه الذي يطالع كتباً ثم يقول كلاماً سخيفاً، فيقال له: هذا من مطالعة تلك الكتب على سبيل الاستهزاء والسخرية[3]، أما قولهم: ﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾ فقد عكسوا الكلام على سبيل الاستهزاء والتندّر، فيكون المعنى: إنك لأنت السفيه الجاهل، كما يقال للبخيل: لو رآك حاتم لسجد لك! وكما ينادى الجبان، يا شجاع! قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أرادوا السفيه الغاوي ـ والعرب تصف الشيء بضده، فتقول: للديغ سليم، وللفلاة المهلكة مفازة[4].

٦ ـ استهزاء فرعون وملائه بموسى ـ عليه السلام ـ:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ

---

(١) التفسير الكبير، ج ١٤/ ١٧١.
(٢) سورة هود، آية (٨٧).
(٣) التفسير الكبير (بتصرف) ج ١٧/ ٤٣.
(٤) انظر: معالم التنزيل، للبغوي، ج ٢/ ٣٩٨، التفسير الكبير، ج ١٧/ ٤٤.

﴿الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾[١]، قال القرطبي[٢] ـ رحمه الله ـ «أي يضحكون استهزاءً وسخريةً، يوهمون أتباعهم أن تلك الآيات سحر وتخييل، وأنهم قادرون عليها»[٣]، أما فرعون فقد استغل قدراً كونياً ليحقر موسى ـ عليه السلام ـ ويستهزىء به، عندما نادى في قومه قائلاً: ﴿.. يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾[٤]. ويقصد بـ «مَهين» ضعيف، ليس عنده من حطام الدنيا الزائل ـ مال وشرف وأنصار.. ـ يقول الطاهر بن عاشور: «.. وهذا سفسطة وتشغيب إذ ليس المقام مقام انتصار حتى يحقّر القائم فيه بقلة النصير، ولا مقام مباهاة حتى ينتقص صاحبه بضعف الحال»[٥]. ويقصد بـ «لا يكاد يُبين» تعيير موسى بالحُبسة التي كانت في لسانه، والتي تسبب هو في وجودها[٦].

أما نوع الاستهزاء الذي اتفقت جميع الأمم المكذبة على استخدامه ضد الرسل ـ أعقل الناس وأزكاهم نفساً ـ فهو اتهامهم بالسحر والجنون، حتى إن الله ذكر

---

(١) سورة الزخرف، آية (٤٦ ـ ٤٧).

(٢) هو أبو عبد الله القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح الأنصاري الخزرجي المالكي، مصنف التفسير المشهور الذي سارت به الركبان، كان من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين الورعين الزاهدين في الدنيا المشغولين بالآخرة. كتابه في التفسير «جامع أحكام القرآن» من أجل التفاسير وأعظمها نفعاً، ومن كتبه المشهورة «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة» توفي سنة إحدى وسبعين وستمائة. (طبقات المفسرين للداوودي، ج ٢/ ٦٩ وما بعدها).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ج ١٦/ ٩٧.

(٤) سورة الزخرف، آية (٥١ ـ ٥٢).

(٥) تفسير التحرير والتنوير، ج ٢٥/ ٢٣١.

(٦) ذكر جمهور المفسرين أن موسى ـ عليه السلام ـ عندما كان صغيراً يعيش في بيت فرعون حمله فرعون فلطمه موسى وجر لحيته فقال له عدّوي وهمّ بقتله فشفعت له آسية زوجة فرعون. وقالت: إنه طفل صغير لا يفرق بين الأشياء، فقدمت له لؤلؤتين وجمرتين لاختباره فأخذ الجمرة وجعلها في فيه فأصابته حبسة في لسانه، وذلك قوله: ﴿واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي﴾ طه/٢٧، وقوله: ﴿يضيق صدري، ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون﴾ الشعراء/١٣ (وانظر: جامع البيان، ١٦/ ١٢٠، معالم التنزيل للبغوي ج ٣/ ٢١٦، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ١١/ ١٩٢، الدر المنثور، ج ٥/ ٥٦٧).

ـ لتطابق التهمة ـ كأن بعضهم وصى بعضاً على اتهام الرسل بهما أو بأحدهما، قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝ ﴾[1]، يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ: «فهي جبلة واحدة وطبيعة واحدة للمكذبين، وهو استقبال واحد للحق وللرسل يستقبلهم به المنحرفون: «ساحر أو مجنون» كما يقول هؤلاء المشركون! كأنما تواصوا بهذا الاستقبال على مدار القرون! وما تواصوا بشيء، إنما هي طبيعة الطغيان وتجاوز الحق والقصد تجمع بين الغابرين واللاحقين!)[2].

ومن المناسب أن أختم هذا المبحث بإيراد بعض الآيات الواردة في اتهام الرسل ـ عليهم السلام ـ بالسحر[3] والجنون[4].

ـ اتهم نوح ـ عليه السلام ـ بالجنون بقولهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ..﴾[5].

---

(١) سورة الذاريات، آية (٥٢ ـ ٥٣).

(٢) في ظلال القرآن، ج ٦/٣٣٨٦.

(٣) السحر: عمل تُقُرِّب فيه إلى الشيطان وبمعونة منه، والسّحر الأُخْذة، وكل ما لطف مأخذه ودقّ فهو سحر، قال الأزهري: وأصل السحر: صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره فكأن الساحر لما أرى الباطل في صورة الحق وخيّل الشيء على غير حقيقته قد سحر الشيء عن وجهه أي صرفه، قال يونس: تقول العرب للرجل: ما سحرك عن وجه كذا وكذا: أي ما صرفك عنه؟ وما سحرك عنا سَحْراً: أي ما صرفك؟ (انظر: لسان العرب ج ٤/٣٤٨ مادة «سحر»).

والسحر يقال على معان: الأول: الخداع وتخييلات لا حقيقة لها، نحو ما يفعله المشعبذ بصرف الأبصار عما يفعله لخفة يده، والثاني: استجلاب معاونة الشيطان بضرب من التقرب إليه، والثالث: ما يذهب إليه الاغتام [الذين لا (يفصحون) شيئاً ـ رأي العوام ـ اللسان ١٢/٤٣٣]. يزعمون أنه من قوته يُغيِّر الصور والطبائع، فيجعل الإنسان حماراً، ولا حقيقة لذلك عند المحصلين. (المفردات للراغب ص ٢٢٦. مادة سحر).

(٤) جنّ: أصل الجن سَتْرُ الشيء عن الحاسة، وكل شيء ستُر عنك فقد جُن عنك، يقال جَنّه الليل وأجنّه وجَنّ عليه فجنّه، سَتره، والجنان: القلب لكونه مستوراً عن الحاسة، ومنه الجَنّة، والجَنّة كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض. والجنين: الولد ما دام في بطن أمه، وجمعه أجنّة، وجن الرجل جنوناً، وأجنّه الله، فهو مجنون، والجنون: حائل بين النفس والعقل وجُنّ فُلان قيل أصابه الجنُّ. (المفردات للراغب ص ٩٨ ـ ٩٩ مادة «جن»).

(٥) سورة المؤمنون، آية (٢٥).

- واتهم صالح - عليه السلام - بالسحر بقولهم: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾[1][2].

- واتهم شعيب - عليه السلام - بالسحر بقولهم: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾[3].

- واتهم موسى وهارون - عليهما السلام - بالسحر بقولهم: ﴿ .. إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ ﴾[4].

- واتهم فرعونُ موسى - عليه السلام - بالجنون، بقوله: ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ ﴾[5].

- وكذلك اتهمه بالسحر كما ذكره الله عزو جل: ﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ ﴾[6].

- وكذلك اتهم رسولنا - ﷺ - بالسحر والجنون. وسأفصل الحديث عنه في الباب الثاني [7] إن شاء الله.

المبحث الخامس
تهديد المكذبين للرسل بالأذى

عندما يُخفق أعداء الرسل عن ثني الرسل - عليهم السلام - عن عزمهم تجاه دعوتهم بالأساليب الدعائية، يلجأون إلى الأساليب المادية لمحاربة رسل الله ودعوتهم، وهذا يدل على إفلاسهم في ميدان الاستدلال والبراهين وشعورهم

---

(١) مسحَّر: أي مختل الإدراك والتصورات من جراء سحر سُلط عليه، «ومن المسحّرين» أبلغ في الاتصاف بالتسحير من أن يقال: إنما أنت مسحَّر (تفسير التحرير والتنوير، ج ١٩/١٧٧، ١٨٦).

(٢) سورة الشعراء، آية (١٥٣).

(٣) سورة الشعراء، آية (١٨٥).

(٤) سورة طه، آية (٦٣).

(٥) سورة الشعراء، آية (٢٧).

(٦) سورة الذاريات، آية (٣٩).

(٧) انظر: ص ١٧٦.

بالضعف أمام الحق الأبلج، وعجزهم عن مقاومة المنطق بالمنطق، وإبطال الحجة بالحجة، ومواجهة الفكرة بالفكرة، فهم لا يملكون حجة تسند باطلهم، ولا يستطيعون إقناع العقول بجاهليتهم، فحجتهم التهديد، ومنطقهم الإرهاب، ووسيلتهم البطش، ـ وسيلة الطواغيت في مواجهة الحق كلما أعوزتهم الحجة[١].

يقول الشنقيطي ـ رحمه الله ـ «وقد جرت العادة بأن المبطل إذا أفحم بالدليل لجإ إلى ما عنده من القوة ليستعملها ضد الحق»[٢].

إن التهديد بالأذى إو إيقاع الأذى بالرسل ـ عليهم السلام ـ وأتباعهم سُنة من سنن الله في الدعوات الربانية، فما من نبّي من أنبياء الله في تاريخ الدعوات الطويل إلا وقد هُدّدَ بالأذى أو وقع عليه الأذى فعلاً، وهذه السُنة قد تحدثت عنها آيات كثيرة في الكتاب العزيز، نذكر منها على سبيل المثال:

قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ ﴾[٣].

قال السدي وقتادة ومجاهد ـ رحمهم الله ـ أن يتركوا «أي لا يبتلون في أموالهم وأنفسهم بالقتل والتعذيب»[٤]، ثم بين أن تلك سنة جارية تَعَرض لها المؤمنون من قبل، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. ﴾[٥]. يقول الشوكاني ـ رحمه الله ـ «أي هذه سنة الله في عباده، وأنه يختبر مؤمني هذه الأمة، كما اختبر من قبلهم من الأمم، كما جاء به القرآن في غير موضع من قصص الأنبياء وما وقع مع قومهم من المحن، وما اختبر الله به أتباعهم ومن آمن بهم من تلك الأمور التي نزلت بهم. . .»[٦]، ولقد أكد القرآن الكريم هذه السنة في معرض مواساة الله لنبينا محمد ـ ﷺ ـ فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا

---

(١) انظر: في ظلال القرآن، ج ٣/ ١٣٢٢، مع قصص السابقين في القرآن، ج ٣، د. صلاح الخالدي، (دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ) ص ٢٤٥.

(٢) أضواء البيان ج ٤/ ٥٨٨.

(٣) سورة العنكبوت، آية (١ ـ ٢).

(٤) فتح القدير، للشوكاني ج ٤/ ١٩٢.

(٥) سورة العنكبوت، آية (٣).

(٦) فتح القدير، للشوكاني ج ٤/ ١٩٢.

وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾[1]، يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ في ظلال هذه الآية: «كلمات يقولها الله ـ لرسوله ـ ﷺ ـ. . كلمات للذكرى، وللتسرية، وللمواساة، والتأسية. . وهي ترسم للدعاة إلى الله من بعد رسول الله ـ ﷺ ـ طريقهم واضحاً، ودورهم محدداً، كما ترسم لهم متاعب الطريق وعقباته، ثم ما ينتظرهم بعد ذلك كله في نهاية الطريق. . إنها تعلمهم أن سنة الله في الدعوات واحدة. كما أنها كذلك وحدة. وحدة لا تتجزأ. . دعوة تتلقاها الكثرة بالتكذيب، وتتلقى أصحابها بالأذى. . وصبر من الدعاة على التكذيب، وصبر كذلك على الأذى، وسنة تجري بالنصر في النهاية. . ولكنها تجيء في موعدها، لا يعجلها عن هذا الموعد أن الدعاة الأبرياء الطيبين المخلصين يتلقون الأذى والتكذيب ولا أن المجرمين الضالين والمضلين يقدرون على أذى المخلصين الأبرياء الطيبين! ولا يعجلها كذلك عن موعدها أن صاحب الدعوة المخلص المتجرد من ذاته ومن شهواته إنما يرغب في هداية قومه حباً في هدايتهم، ويأسى على ما هم فيه من ضلال وشقوة وعلى ما ينتظرهم من دمار وعذاب في الدنيا والآخرة. . لا يعجلها عن موعدها شيء من ذلك كله، فإن الله لا يعجل لعجلة أحد من خلقه. ولا مبدل لكلماته، سواء تعلقت هذه الكلمات بالنصر المحتوم، أم تعلقت بالأجل المرسوم»[2].

ولقد تعددت صور الأذى وصنوفه ـ وإن كان في جوهره واحداً ـ وهذه الصور تفاوتت كذلك في الضعف والقوة، فمن مجرد الشتم والتهديد بإيقاع الأذى إلى درجة التقتيل شر قتله. وأبرز هذه الصور هي:

(١) التهديد بالرجم والتعذيب (٢) التهديد بالسجن والتنكيل
(٣) التهديد بالنفي والإخراج (٤) التهديد بالقتل والتحريق.

ولتوضيح هذه الصور نفصلها فيما يلي:

أولاً: التهديد بالرجم[3] والتعذيب:

لقد ذكر القرآن الكريم أن عدداً من رسل الله قد هُددوا بالرجم، وهؤلاء الرسل

---

(١) سورة الأنعام، آية (٣٤).

(٢) في ظلال القرآن، ج ٢/ ١٠٧٧ ـ ١٠٧٨.

(٣) الرجم معناه واسع، ودرجاته متفاوتة، فأدنى معاني الرجم: السب والشتم، وأعلاها القتل=

هم: نوح وشعيب وإبراهيم - عليهم السلام - بالإضافة إلى الرسل الثلاثة إلى أصحاب القرية.

فنوح - عليه السلام - هَدَده قَومُه بالرجم بقولهم: ﴿ .. لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾[1]، يقول سيد قطب - رحمه الله - «فلما أن واجههم نوح - عليه السلام - بحجته الواضحة ومنطقه المستقيم، وعجزوا عن المضي في الجدل بالحجة والبرهان، لجأوا إلى ما يلجأ إليه الطغيان كلما أعوزته الحجة، وخذله البرهان، لجأوا إلى التهديد بالقوة المادية الغليظة التي يعتمد عليها الطغاة في كل زمان ومكان، عندما تعوزهم الحجة، ويعجزهم البرهان»[2]، ومعنى «من المرجومين» في الآية: أي المقتولين أقبح قتلة[3].

كذلك هُدد شعيب - عليه السلام - من قبل قومه بقولهم: ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ﴾[4] أي: لقتلناك شر قتلة[5].

أما إبراهيم - خليل الرحمن - فقد جاءه التهديد بالرجم من أقرب الناس إليه، وهو والده، حيث قال له: ﴿ .. لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ .. ﴾[6]، أي: لأشتمنّك وأقولن فيك قولاً قبيحاً، قاله ابن عباس والسدي وابن جريج[7]

= شر قتلة، يقول ابن منظور: الرجم: القتل، وإنما قيل للقتل رجم لأنهم كانوا إذا قتلوا رجلاً رمَوْه بالحجارة حتى يقتلوه. والرجم: اللعن، ومنه الشيطان الرجيم، أي: المرجوم باللعنة المبعد المطرود من رحمة الله، والرجم بمعنى السب والشتم، والرجم بمعنى الهجران (لسان العرب، مادة «رجم» ج ١٢/ ٢٢٦ - ٢٢٧).

(١) سورة الشعراء، آية (١١٦).

(٢) في ظلال القرآن، ج ٥/ ٢٦٠٨.

(٣) المفردات في غريب القرآن، للراغب، ص ١٩٠.

(٤) سورة هود، آية (٩١).

(٥) الكشاف، ج ٢/ ٢٣١.

(٦) سورة مريم، آية (٤٦).

(٧) هو أبو الوليد، عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الرومي الأموي، مولاهم المكي، الإمام المجتهد الحافظ، فقيه الحرم، ولد سنة نيف وسبعين وأدرك صغار الصحابة. قال أحمد: كان من أوعية العلم، وهو وابن عروبة أول من صنف الكتب بالحجاز، وله كتاب «التفسير» وله «السنن» مات سنة خمسين ومائة (تذكرة الحفاظ، ج ١/ ١٦٩، طبقات المفسرين للداوودي، ج ١/ ٣٥٨).

والضحاك[1] وغيرهم[2].

وكذلك هدد أصحابُ القرية الرسلَ الثلاثة[3] بقوله: ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾[4].

ثانياً: التهديد بالسجن والتنكيل:

يظن الطغاة أن حبس الدعاة ـ وعلى رأسهم الرسل عليهم السلام ـ يحقق لهم أمرين أو أحدهما:

الأول: الحيلولة بين الداعية وبين الناس، وبالتالي إعاقة الدعوة من الانتشار.

والآخر: إدخال الرعب والذعر في نفس الداعية كي يتخلى عن دعوته ومبادئه.

ولا شك أن حبس الدعاة من شأنه أن يعيق الدعوة ويبطىء من سرعة انتشارها كما أن حياة السجن غالباً ما يرتبط بها التعذيب والبطش والتنكيل، لكن خابوا وخسروا إذ ظنوا أنهم يستطيعون أن يحصروا دعوة الله في حيز ما؛ بحبس الرسل وسَجْنهم فالله غالب على أمره، وبالغ أمره، لكن ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾[5]. وأخطأوا ـ أيضاً ـ إذ ظنوا أن السجن ـ على ظلمته وكربته ـ والتكيل والبطش ـ على قسوته ـ يمكن أن يفت في عضد الرسل وأتباعهم البررة! بل إن تاريخ الدعوات الربانية يثبت عكس ذلك تماماً، فالعاقبة للمتقين والغلبة للمرسلين ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا

---

(١) هو أبو القاسم، الضحاك بن مزاحم الهلالي الخرساني، المفسر، وثقه أحمد وغيره وكان كثير الإرسال، مات سنة اثنتين ومائة. (طبقات المفسرين للداوودي ج ١/ ٢٢٢، شذرات الذهب، ج ١/ ١٢٤).

(٢) انظر: جامع البيان، ج ١٦/ ٦٨، الكشاف ج ٢/ ٤١٣، التفسير الكبير ج ٢١/ ٢٢٨، تفسير القرآن العظيم ج ٣/ ١٣٠، المفردات ص ١٩٠.

(٣) اختلف العلماء في أسماء هؤلاء الرسل الثلاثة إلى عدة أقوال أشهرها: (١) ما روي عن ابن عباس وكعب ووهب أن أسماءهم هي: «صادق ومصدوق وشلوم»، (٢) وروي عن وهب أن أسماءهم هي: «يوحنا وبولس وشمعون»، أما القرية فقد أجمعوا على أنها أنطاكية. انظر: جامع البيان: ج ٢٢/ ١٠١، تفسير البغوي؛ ج ٤/ ٩، تفسير القرآن العظيم، ج ٣/ ٥٧٤).

(٤) سورة يس، آية (١٨).

(٥) سورة الطلاق، آية (٣).

لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾[1]، كما أن الله وعد بإظهار دينه في صورته الأخيرة ـ مهما ضيق عليه أعداؤه ـ بقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾[2].

ولقد تعرض موسى ـ كليم الله ـ لتهديد فرعون ـ عدو الله ـ بالسجن بقوله: ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[3] أي قال له: لأجعلنك في زمرة المسجونين في سجوني التي قد علمت فظاعتها وشدتها، وقال: «من المسجونين» ولم يقل: «لأسجننك» مبالغة في إحكام الحبس. وقد ذكر المفسرون أن سجنه كان أشد من القتل، وكان يحبس المرء في هوة عميقة تحت الأرض سجناً إنفرادياً لا أنيس ولا جليس حتى يموت وحده[4]. وتَوَعَّدَ فرعون ـ بالتنكيل والبطش والتَصْليب ـ أولئك السحرة الذين اتبعوا موسى ـ عليه السلام ـ عندما ظهر الحق على يديه ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾[5]، فبدأ فرعون «المشهد المسرحي التمثيلي» باتهام سَحَرته ـ الذين جُمعوا بأمره من أطراف المدينة لإبطال آية موسى ـ بالخيانة والتآمر والتواطىء مع موسى لإفساد النظام!! مع علمه اليقيني بأن شيئاً من هذا الاتصال بين موسى والسحرة لم يقع من قبل. ولكنها «المناورة» من جهة والاستخفاف بالرعاء من جهة أخرى، فقال ما حكاه الله: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾[6]، وإن اتهام فرعون للسحرة بالتواطىء أمر متوقع، فهذا ديدن الطغاة في مثل هذه المواقف! لكن الغريب أن يؤاخذهم على عدم الاستئذان منه للإيمان برب

---

(١) سورة الصافات، آية (١٧١ ـ ١٧٣).

(٢) سورة الصف، آية (٩).

(٣) سورة الشعراء، اية (٢٩).

(٤) انظر: تفسير البغوي، ج ٣/ ٣٨٥؛ ج ٣/ ١١٢، التفسير الكبير؛ ج ٢٤/ ١٣١، الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج ١٣/ ٩٩، تفسير البيضاوي، ج ٤/ ١٠٢، الفتوحات الإلهية، ج ٣/ ٢٧٦.

(٥) سورة الأعراف، آية (١١٨ ـ ١٢٢).

(٦) سورة الأعراف، آية (١٢٣).

موسى واتباع الحق! وما عرف ـ لأنه يتعامل بموازين مادية بحتة ـ أنهم هم أنفسهم لم يستأذنهم الإيمان عندما أشرق في أرواحهم ولامس شغاف قلوبهم! فالقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء[(١)].

ولقد اتخذ فرعون من هذين السببين ـ عدم استئذانهم في الإيمان، واتهامهم بالخيانة والتواطىء مع موسى ـ عليه السلام ـ ذريعةً ومبرراً للتنكيل بالمؤمنين، فقال مهدداً ومتوعداً ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾[(٢)]، وفي آية أخرى: ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾[(٣)]، يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ: «إنه التهديد الغليظ بالعذاب الغليظ الذي يعتمد عليه الطغاة، ويسلطونه على الجسوم والأبدان حين يعجزون عن قهر القلوب والأرواح ﴿فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، ولأصلبنكم في جذوع النخل﴾ ثم الاستعلاء بالقوة الغاشمة، قوة الوحوش في الغابة، القوة التي تمزق الأحشاء والأوصال، ولا تفرق بين إنسان يقرع بالحجة وحيوان يقرع بالناب ﴿ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى﴾»![(٤)].

ثالثاً: التهديد بالنفي والإخراج:

يسلك الطغاة مع الرسل ـ عند عجزهم عن إعاقة الدعوة من الانتشار ـ أسلوباً آخر هو: إخراجهم من أرضهم ونفيهم من بين أظهرهم، وذلك لأن الباطل تُزعجه رؤية الحق، وهو ينتشر بين الناس، وهو يدرك ـ تماماً ـ أنه بقدر ما ينتشر الحق بقدر ما ينكمش سلطان الباطل، وذلك مؤشر لزواله واجتثاثه من جذوره.

ويبدو أنه ما من رسول إلا وقد حاول الملأ من قومه إخراجه، لقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا .. ﴾[(٥)]، فالآية تخبرنا أن الكفرة ساوموا رسلهم على أمرين:

---

(١) تقدم تخريجه، انظر صفحة ١٠.

(٢) سورة الأعراف، آية (١٢٤).

(٣) سورة طه، آية (٧١).

(٤) في ظلال القرآن، ج ٤/٢٣٤٣.

(٥) سورة إبراهيم، آية (١٣).

فإما الإخراج من الأرض وإما العودة إلى ملة الكفر والشرك[1] ونلاحظ في الآية تأكيد هذا التهديد في دخول لام القسم ونون التوكيد على لفظة «لَنُخْرِجَنَّكم»، فكأنهم قالوا: والله لنخرجَنَّكم أو والله لتعودنّ في ديننا الذي ندين به!!

ولمّا كان هذا التهديد الموجه إلى الرسل يتضمن محاربة دين الله سبحانه وتعالى، فقد تولى سبحانه الردّ على تهديد المكذبين بأعظم تهديد حيث توعدهم بالإهلاك المدمر والإخراج الأبدي من الدنيا، قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ .. ﴾[2]، يقول أبو حيان ـ رحمه الله ـ: (ولما أقسموا على إخراج الرسل أو العودة في ملتهم، أقسم تعالى على إهلاكهم، وأي إخراج أعظم من الأهلاك بحيث

---

(١) قد يوهم قولهم «أو لتعودن في ملتنا» بأن الأنبياء كانوا مشركين ـ والعياذ بالله ـ قبل إرسالهم، وقد أجاب العلماء عن هذا الإشكال بعدة تأويلات، جمعها الفخر الرازي ـ رحمه الله ـ في تفسيره، وهي:
(الوجه الأول): أن أولئك الأنبياء عليهم السلام إنما نشأوا في تلك البلاد وكانوا في تلك القبائل وفي أول الأمر ما أظهروا المخالفة مع أولئك الكفار، بل كانوا في ظاهر الأمر معهم من غير إظهار مخالفة، فالقوم ظنوا لهذا السبب أنهم كانوا في أول الأمر على دينهم فلهذا السبب قالوا: ﴿أو لتعودن في ملتنا﴾.
(الوجه الثاني): أن هذا حكاية كلام الكفار ولا يجب في كل ما قالوه أن يكونوا صادقين فيه، فلعلهم توهموا ذلك مع أنه ما كان الأمر كما توهموه.
(الوجه الثالث): لعل الخطاب وإن كان في الظاهر مع الرسل إلا أن المقصود بهذا الخطاب أتباعهم وأصحابهم ولا بأس أن يقال: إنما كانوا قبل ذلك الوقت على دين أولئك الكفار.
(الوجه الرابع): قال صاحب الكشاف: العود بمعنى الصيرورة كثير في كلام العرب.
(الوجه الخامس): لعل أولئك الأنبياء كانوا قبل إرسالهم على ملة من الملل، ثم إنه تعالى أوحى إليهم بنسخ تلك الملة وأمرهم بشريعة أخرى، وبقي الأقوام على تلك الشريعة التي صارت منسوخة مصرين على سبيل الكفر، وعلى هذا التقدير فلا يبعد أن يطلبوا من الأنبياء أن يعودوا إلى تلك الملة.
(الوجه السادس): لا يبعد أن يكون المعنى، أو لتعودن في ملتنا، أي إلى ما كنتم عليه قبل ادعاء الرسالة من السكوت عن ذكر معايبة ديننا وعدم التعرض له بالطعن والقدح، والله أعلم (التفسير الكبير، ج ١٩/ ٩٩ ـ ١٠٠).
(٢) سورة إبراهيم، آية (١٣ ـ ١٤).

لا يكون لهم عودة إليها أبداً)[1].

وكما ذكر القرآن هذا التهديد الموجه إلى الرسل - عليهم السلام - على سبيل الاجمال، فقد ذكر - أيضاً - أن هذا التهديد قد وُجِّه إلى كل من لوط وشعيب - عليهما السلام - بصفة خاصة.

فعن تهديد قوم لوط له بالإخراج قال تعالى: ﴿ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾[2]، وقد ذكروا علةً لإخراجهم ينطبق عليها المثل: (عُذره أشدُّ من جُرمه)[3]، حيث زعموا أن التطهر عن الفاحشة هو الجريمة التي استحقوا بسببها الإخراج!!!

وأما عن تهديد الملأ من قوم شعيب له بالإخراج فقال تعالى: ﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا . . ﴾[4]، يقول الشوكاني - رحمه الله -: «لم يكتفوا بترك الإيمان والتمرد عن الإجابة إلى ما دعاهم إليه، بل جاوزوا ذلك بغياً وبطراً وأشراً إلى توعد نبيهم ومن آمن به بالإخراج من قريتهم أو عوده هو ومن معه في ملتهم الكفرية: أي لا بد من أحد أمرين: إما الإخراج، أو العَود. .)[5] .

رابعاً: التهديد بالقتل والتحريق:

من صور إيذاء الرسل - كذلك - تهديدهم بالقتل والتحريق، فأعداء الرسل لا يبالون بسلوك أي طريق لإعاقة الدعوة، حتى لو كان بالتخلص الأبدي من الرسل - عليهم السلام - عن طريق قتلهم. ولقد ذكر الله - جلت قدرته - أن أكثر من تعرض للقتل هم أنبياء بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾[6]،

(١) البحر المحيط، ج ٥/ ٤١١.
(٢) سورة النمل، آية (٥٦).
(٣) كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام ص ٤٦.
(٤) سورة الأعراف، آية (٨٨).
(٥) فتح القدير، للشوكاني، ج ٢/ ٢٢٥.
(٦) سورة المائدة، آية (٧٠).

يقول أبو حيان ـ رحمه الله ـ (هذا إخبار بما صدر من أسلاف اليهود من نقض الميثاق الذي أخذه تعالى عليهم وما اجترحوه من الجرائم العظام من تكذيب الأنبياء وقتل بعضهم، وهؤلاء أخلاف أولئك، فغير بدع ما يصدر منهم للرسول من الأذى والعصيان إذ ذاك شنشنةٌ من أسلافهم»[1].

ولقد تعرض كل من إبراهيم ـ خليل الرحمن ـ وموسى ـ كليم الله ـ عليهما السلام ـ للتهديد بالقتل من قبَل أعداء الله.

فعن تهديد خليل الرحمن بالقتل قال تعالى: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ . . ﴾[2]، ويبدو أن هناك إجماعاً بين أعداء الله على ضرورة التخلص من إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلا أنهم اختلفوا في كيفية التخلص منه، فبعضهم يرى التخلص منه بالقتل والآخرون يرون التخلص منه بالتحريق، وتُبين آية سورة الأنبياء إلى أن الخيار وقع على تحريقه ـ لأنه أفظع ـ قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾[3]، لكن لطف الله تداركه بالنجاة، ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾[4]، وقد ذكر المفسرون كلاماً كثيراً في وصف النار ومدة إضرامها وصور وأحوال جرت لإبراهيم ـ عليه السلام ـ وهو في النار، يبدو أن معظمها من الإسرائيليات لذلك أعرضت عنها صفحاً واكتفيت بإجمال القرآن لهذه الحادثة.

أما عن تهديد كليم الله موسى بالقتل، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ ﴾[5]، يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «وهذا عزم من فرعون لعنه الله تعالى على قتل موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أي قال لقومه: دعوني حتى أقتل لكم هذا «وليدع ربه» أي: لا أُبالي منه، وهذا في غاية الجحد والتجهرم[6] والعناد، وقوله قبحه الله: «إني أخاف أن يبدل

---

(١) البحر المحيط، ج ٣/ ٥٣١ ـ ٥٣٢.
(٢) سورة العنكبوت، آية (٢٤).
(٣) سورة الأنبياء، آية (٦٨).
(٤) سورة الأنبياء، آية (٦٩).
(٥) سورة غافر، آية (٢٦).
(٦) لا أدري ما مراد ابن كثير ـ رحمه الله ـ بهذه الكلمة لأن كلمة «جهرم» قرية من قرى فارس =

دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد» يعني موسى، يخشى فرعون أن يضل موسى الناس ويغيّر رسومهم وعاداتهم، وهذا كما يقال في المثل: صار فرعون مذكراً، يعني واعظاً يشفق على الناس من موسى عليه السلام»[1].

أما رسولنا محمد ـ ﷺ ـ فقد ناله من صنوف الأذى وأنواعه ما تنوء بحمله الجبال الراسيات، ويكفي هنا أن أورد حديثاً واحداً يبيّن ذلك[2]، ففي الحديث عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ (لقد أُخفتُ في الله وما يُخاف أحدُ، ولقد أُوذيت في الله وما يؤذى أحد، ولقد أتت علي ثلاثون من بين يوم وليلة ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يُواريه إبط بلال[3])[4].

وقد يكون من المناسب ـ قبل أن أختم هذا المبحث ـ أن أعرض بعض حكم ابتلاء الرسل ـ عليهم السلام ـ وأتباعهم الصادقين من قبل أعداء الدين. فقد يحار المؤمن ـ ما لم يدرك حكمة الله ـ عندما يرى أولياء الله وقد تسلط عليهم أعداء الله، لا لتقصير منهم في طاعة الله، بل لأنهم مطيعون له، فيتساءل كيف يتسلط هؤلاء الكفار على أولياء الله وينكّلون بهم؟! مع يقينه بأن الله ـ سبحانه ـ عادل لا يظلم أحداً وأنه جل وعلا أغير على دينه من خلقه ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فلا بد أن يكون وراء هذا الابتلاء حكم، علمها من علمها وجهلها من جهلها، وأهم هذا الحكَم هي:

= تنسب إليها الثياب والبسط (انظر اللسان ج ١٢/ ١١١)، وربما وقع تصحيف من كلمة «تجهم» بمعنى الغلظة كما في دعاء النبي ـ ﷺ ـ إلى من تكلني، إلى عدو يتجهمني: أي يلقاني بالغلظة والوجه الكريه.

(١) تفسير القرآن العظيم، ج ٤/ ٨٣.

(٢) لأنه سيأتي تفصيل ما تعرض له الرسول ـ ﷺ ـ من الأذى الحسي والمعنوي في الباب الثاني.

(٣) إبط بلال: ما تحت المنكب، والمعنى أن بلالاً كان رفيقي في ذلك الوقت، وما كان لنا من الطعام إلا شيء قليل بقدر ما يأخذه بلال تحت إبطه (تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، لمحمد عبد الرحمن المباركفوري، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ـ دار الفكر، الطبعة الثالثة، ١٣٩٩ هـ، ج ٧/ ١٧٠).

(٤) أخرجه الترمذي، وقال هذا حديث حسن غريب، كتاب صفة القيامة، باب (٣٤)، ج ٤/ ٦٤٥، وانظر صحيح الترمذي، ج ٢/ ٣٠١.

١ ـ الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة:

إن أي عمل كلما كان شاقاً أو دقيقاً أو معقداً كان المرء محتاجاً إلى بذل جهد أكبر في الإعداد له، والتدريب من أجله، ولمّا كان العمل لدين الله يتميز بأنه عمل متنوع وواسع ومستمر، ومسؤولية الفرد فيه تزداد يوماً بعد يوم، كما أن مسؤوليته بعد الإنتصار أعظم منها قبل ذلك، كان لا بد له من إعداد خاص مكافىء لضخامة هذا العمل؛ ولذلك شاءت إرادة الله أن يخضع المؤمنون بصفة عامة والدعاة ـ وعلى رأسهم الأنبياء ـ بصفة خاصة، لصنوف من الاختبارات الشاقة والخشنة التي هي بمثابة تدريبات لتحمل المسؤولية الكبرى، مسؤولية الاستخلاف في الأرض والتمكين لدين الله ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ . . ﴾[1][2].

٢ ـ المحافظة على الأمانة بعد تَسَلُّمها:

إن الشعور بقيمة الشيء يتناسب تناسباً طردياً مع ما يُبذل في سبيله. ومسؤولية الخلافة وإقامة الحق والعدل في الأرض أمر لا يتأتى إلا بالتضحيات والآلام، ولن يحافظ على هذه الآمانة ـ بعد تَسَلُّمها ـ إلا من بذل في سبيلها الغالي والنفيس، وأرخص في سبيلها كلها عزيز: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ . . ﴾[3]، يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ: «. . وعندئذ تمحص الصفوف فيتميز الأقوياء من الضعفاء، وعندئذ تمضي دعوة الحق في طريقها برجالها الذين ثبتوا عليها، واجتازوا امتحانها وبلاءها، أولئك هم الأمناء عليها الذين يتحملّون تكاليف النصر وتبعاته، وقد نالوا هذا النصر بثمنه الغالي، وأدوا ضريبته صادقين مؤثرين»[4].

---

(١) سورة النور، آية (٥٥).

(٢) انظر: قواعد الدعوة إلى الله. د. همام عبد الرحيم سعيد، (دار العدوي، عمان ـ الأردن ـ الطبعة الأولى، ١٤٠٣ هـ) ص ٧٥.

(٣) سورة الحج، آية (٤١).

(٤) في ظلال القرآن، ج ٤/ ٢٥٦١.

٣ ـ تطهير الصف المؤمن من أدعياء الإيمان:

يَدّعي الإيمان وقت العافية والسراء كل أحد، لكن هذه الدعوى تحتاج إلى دليل وإثبات، فكان الابتلاء هو الميزان الذي يتميز به الصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق، والطيب من الخبيث، والأصيل من الدخيل، قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ . . ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ . . ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[3].

يقول سيد قطب ـ رلحمه الله ـ: «ولله الحكمة البالغة. فإن بروز المجرمين لحرب الأنبياء والدعوات يقوي عُوْدَها، ويطبعها بطابع الجد الذي يناسب طبيعتها وكفاح أصحابها هو الذي يميز الدعوات الحقة من الدعاوى الزائفة، وهو الذي يمحص القائمين عليها، ويطرد الزائفين منهم، فلا يبقى بجوارها إلا العناصر المؤمنة القوية المتجردة، التي لا تبغى مغانم قريبة، ولا تريد إلا الدعوة خالصة، تبتغي بها وجه الله تعالى»[4].

٤ ـ تربية المؤمنين بتمحيص قلوبهم وصقل معادنهم:

من المعلوم ـ في دراسة علوم الأرض ـ أن هناك معادن، من أجود المعادن وأصلبها، ولكنها مدفونة في التراب والأوحال، ومختلطة ببعض الشوائب التي لو لم تستخلص منها لرخص ثمنها؛ لذلك تُعَّرض هذه المعادن للنار لكي تُنَّقى من الشوائب كما هو الحال بالنسبة للذهب والفضة وغيرهما من المعادن الثمينة، وهذه النظرية نفسها يخضع لها المؤمنون الأقوياء، فلا بد من تمحيص ما في قلوبهم بتنقيتها من شوائب الشرك والنفاق وتطهيرهم من الذنوب والأمراض، بل النصر نفسه لا يأتي إلا بعد التمحيص فسنة الله جارية على ترتيب تمحيص المؤمنين أولاً ثم محق الكافرين،

(١) سورة آل عمران، آية (١٧٩).
(٢) سورة الأنفال، آية (٣٧).
(٣) سورة العنكبوت، آية (٣).
(٤) في ظلال القرآن، ج ٤/ ٢٥٦١.

قال تعالى: ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ .. وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾[2].

٥ ـ استخراج عبوديتهم وذلهم لله وانكسارهم له وافتقارهم إليه:

تستجيش الشدائد مكنون القوى ومذخور الطاقة ما كان المؤمن ليعلمها في نفسه لولا الشدائد!! ففي هذه الظروف القاسية يكتشف المؤمن نفسه وقوته المعنوية المتمثلة في صدق اللجوء إلى الله وحرارة التضرع إليه، وذلك حين تهتز كل الأسانيد وتتوارى كل الأوهام ويتيقن أن لا ملجأ من الله إلا إليه، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله. يقول الرازي ـ رحمه الله ـ: «إن إخلاص الإنسان حالة البلاء ورجوعه إلى باب الله تعالى أكثر من إخلاصه حال إقبال الدنيا عليه»[3]، والعكس صحيح، فقد يظن الإنسان في نفسه القدرة والشجاعة والتجرد من حظوظ النفس ـ كالشح والحرص والرياء ـ فإذا هو يكتشف من خلال التجربة العملية في مواجهة الأحداث أنه ما زال في قلبه شوائب وأمراض لم تمحص بعد!!! فيكون الابتلاء منبهاً له على ضرورة العناية بنقاط الضعف هذه.

٦ ـ زيادة رصيدهم في الحسنات ورفع درجاتهم عند الله:

إن الله يرفع درجات المؤمنين ويضاعف حسناتهم، أو على الأقل يكفر خطاياهم وذنوبهم حتى يمشي أحدهم على الأرض وما عليه خطيئة، غسلته المحن غسلاً، وطهرته الشدائد تطهيراً، وإذا كانت الخطايا لازمة للبشر لأنهم ليسوا ملائكة ولم تضمن لهم العصمة ـ كالأنبياء ـ فإن من رحمة الله بعباده المؤمنين أن يتعهدهم بالابتلاء بعد الإبتلاء لتتحات عنهم الخطايا ـ بالصبر والاحتساب ـ كما تتحات ورق الشجر إذا يبس، وعن ذلك يقول الرسول ـ ﷺ ـ: **«ما يُصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا همّ ولا حزن ولا أذى ولا غَمّ، حتى الشوكة يُشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه»**[4]، وفي الحديث: **«ما يزال البلاءُ بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وما له**

---

(١) سورة آل عمران، آية (١٤١).
(٢) سورة آل عمران، آية (١٥٤).
(٣) التفسير الكبير، ج ٤/ ١٥٠.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض؛ ج ٥/ ٢١٣٧، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن... ج ٤/ ١٩٩٢. (نصب) تعب، (وصب) مرض. (هم) كره لما يتوقعه من =

حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة»[1]، وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: **«والذي نفسي بيده ما على الأرض مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله به سيآته، كما تحط الشجرة ورقها»**[2].

٧ ـ شهادة الله على قوة إيمان المبتلى ومحبة الله له:

قد يكون ابتلاء العبد دليلاً على حب الله له وحبه الخير له، فلعل الله يريد أن يبلغه الدرجات العالية في الجنة، فيبتليه ليبلغه ذلك المقام، وفي الحديث: **«إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى ومن سخط فله السُخط»**[3]، وعن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أراد الله بعبده خيراً عَجّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة»**[4]، وهو من جهة أخرى دليل على قوة إيمان المبتلي، فشدة البلاء وضعفه يتناسب تناسباً طردياً مع قوة الإيمان وضعفه؛ فكلما زاد إيمان العبد زادت شدة الإبتلاء. ولمّا كان الأنبياء هم أقوى الناس إيماناً كانوا ـ كذلك ـ أشد الناس بلاءً، ففي الحديث عن مصعب[5] بن سعد عن أبيه قال: قلت يا رسول الله: أيُّ الناس أشد بلاءً؟ قال: **«الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينهُ صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقةٌ ابْتلى على حسب دينه، فما**

= سوء. (حزن) أسى على ما حصل من مكروه في الماضي (أذى) من تعدي غيره عليه، (غم) ما يضيق القلب والنفس، (خطاياه) ذنوبه (فتح الباري، ج ١٠/ ١١٠).

(١) أخرجه الترمذي، عن أبي هريرة، وقال هذا حديث حسن صحيح، كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، ج ٤/ ٦٠٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي معاوية، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن ج ٤/ ١٩٩١.

(٣) أخرجه الترمذي عن أنس، وقال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، ج ٤/ ٦٠١، وأخرجه ابن ماجه عن أنس في كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء (صحيح ابن ماجه، ج ٢/ ٣٧٣).

(٤) أخرجه الترمذي، عن أنس، وقال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، كتاب الزهد باب ما جاء في الصبر على البلاء، ج ٤/ ٦٠١، وانظر صحيح الترمذي للألباني، ج ٢/ ٢٨٥.

(٥) هو أبو زرارة المدني، مصعب بن سعد أبي وقاص الزهري، ثقة كثير الحديث، مات سنة ثلاث ومائة. (طبقات ابن سعد، ج ٥/ ١٦٩، سير أعلام النبلاء، ٤ / ٣٥٠ تقريب التهذيب، ص ٥٣٣).

يبرح البلاءُ بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئةٌ»[1]، ودخل أبو سعيد الخدري[2] ـ رضي الله عنه ـ على رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يوعك[3] فوضع يده على الرسول ـ ﷺ ـ فوجد حره بين يديه فوق اللحاف، فقال: يا رسول الله: ما أشدها عليك! قال: إنا كذلك يُضعّف علينا البلاء ويُضعّف لنا الأجر، قلت يا رسول الله: أي الناس أشد بلاءً؟! قال: **«الأنبياء، ثم الصالحون، إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة التي يحويها، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء..»**[4].

٨ ـ تعميق الهوة بين المؤمنين والكافرين[5]:

إن الكفار ـ بنص الكتاب وبشهادة الواقع ـ لن يرضوا عن المؤمنين حتى يتبعوهم ويرتدوا عن دينهم ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ .. ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿ .. وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ .. ﴾[7]، فحرص الكفار على ردة المسلمين أو استئصالهم يستجيش العاطفة الإيمانية لدى المؤمنين، وتحملهم على الإصرار في التمسك بدينهم ولذلك تغدوا المعركة بين الطرفين دائمة ومستمرة لا تنتهي إلا بخضوع الكفار لأحكام الإسلام، ولو لم يبتل الله المؤمنين بأذى الكفار لهم، لصبروا على باطلهم وهادنوهم، ولأدى ذلك إلى ظهور الفتنة وانتشار الفساد في البر والبحر قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ

---

(١) أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح، كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، ج ٤/ ٦٠١، وأخرجه ابن ماجه عن سعد بن أبي وقاص، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء (صحيح ابن ماجه، ج ٢/ ٣٧١).

(٢) هو أبو سعيد الخدري، سعد بن مالك بن سنان بن الأبجر وهو خدرة بن عوف الأنصاري الخزرجي، استصغر بأحد واستشهد أبوه بها وغزا هو ما بعدها، كان من المكثرين للحديث عن رسول الله وكان أفقه أحداث الصحابة. مات سنة أربع وسبعين، وقيل غير ذلك. (الإصابة، ج ٣/ ٨٥).

(٣) الوعك: الحمى وقيل ألمها.

(٤) أخرجه ابن ماجه كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء (صحيح ابن ماجه ج ٢/ ٣٧١).

(٥) انظر: قواعد الدعوة إلى الله، ص ٧٨.

(٦) سورة البقرة، آية (١٢٠).

(٧) سورة البقرة، آية (٢١٧).

﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ. . ﴾[1].

٩ ـ ربط المؤمنين برباط عاطفي:

قد يتساهل المسلمون في الروابط الأخوية ومقتضيات الأخوة ـ التعاون، الإيثار، سلامة الصدر. . ـ في حالة الرخاء والسلامة، ولكن المحن والابتلاءات المشتركة تدفعهم إلى استشعار هذه المعاني والتفاعل معها[2] كما أراد الرسول ـ ﷺ ـ منهم أن يكونوا في مثل قوله: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذ اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى»[3]، (والمرء قد ينسى من شاركه في مناسبة سعيدة هنيئة ولكنه لن ينسى من شاركه في الألم والمعاناة)[4].

١٠ ـ تقديم الدليل القوي على جدارة الدعوة وصدق المنتمين إليها:

إن كثيرين أقبلوا على الدعوة عندما رأوا ثبات أهلها واصطبارهم على تحمل الإبتلاء الذي لا تثبت له الجبال الراسيات. وتَحمّلُ الإبتلاء شهادة يُدلي بها المبتلي أمام الناس على جدارة الدعوة وصدق دعاتها[5] يقول الإمام الفخر الرازي ـ رحمه الله ـ: «ومن المعلوم أن التبع إذا عرفوا أن المتبوع في أعظم المحن بسبب المذهب الذي ينصره ثم رأوه مع ذلك مصراً على ذلك المذهب، كان ذلك أدعى لهم إلى اتباعه مما إذا رأوه مُرَفَّه الحال لا كلفة عليه في هذا المذهب»[6].

ويُفصّل سيد قطب ـ رحمه الله ـ في بيان هذه الحكمة ـ بحسّه الدعوي ـ بقوله: «والذي يقع غالباً أن كثرة الناس تقف متفرجة على الصراع بين المجرمين وأصحاب

---

(١) سورة الأنفال، آية (٣٩).

(٢) يقول الأستاذ محمد قطب ـ حفظه الله ـ إن الإحساس بمعاني الأخوة ـ كالإيثار والتعاون وغيره ـ تجسّد بأقوى معانيه في السجن وسط العذاب والمعاناة (محاضرة ألقاها فضيلته في جامعة الملك فيصل بالدمام بعنوان واجب الشباب المسلم).

(٣) أخرجه مسلم عن النعمان بن بشير، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ج ٤/ ١٩٩٩.

(٤) قواعد الدعوة إلى الله، ص ٧٩.

(٥) نفس المصدر السابق والصفحة (بتصرف يسير).

(٦) التفسير الكبير، ج ٤/ ١٥٠.

الدعوات حتى إذا تضخَّم رصيد التضحيات والآلام في صف أصحاب الدعوات، وهم ثابتون على دعوتهم، ماضون في طريقهم، قالت الكثرة المتفرجة أو شعرت أنه لا يمسك أصحاب الدعوة على دعوتهم ـ على الرغم من التضحيات والآلام ـ إلا أن في هذه الدعوة ما هو أغلى مما يضحون به وأثمن. . وعندئذ تتقدم الكثرة المتفرجة لترى ما هذا العنصر الغالي الثمين الذي يرجح كل أعراض الحياة، ويرجح الحياة ذاتها عند أصحاب الدعوة. وعندئذ يدخل المتفرجون أفواجاً في هذه العقيدة بعد طول التفرج بالصراع!!»[1].

١١ ـ اتخاذ الله الشهداء من عباده:

إن من حكَم ابتلاء المؤمنين إرادة الله اتخاذ الشهداء منهم، كما قال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾[2].

لذلك كانت الشهادة غاية تطلب لذاتها، لأنها دليل على محبة العبد لربه وإيثار مرضاته على نفسه حيث يبذل الغالي والنفيس في سبيل الله، وأغلى ما يبذله المسلم إراقة دمه من أجل نصرة دين الله، لهذا كانت درجة الشهداء من أعلى الدرجات عند الله كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ: **«من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً وجبت له الجنة، وأخرى يرفع الله بها أهلها في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض أو أبعد ما بين السماء والأرض»** قال: قلت[3] وما ذاك يا رسول الله، قال: **«الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله»**[4]، ولا سبيل إلى نيل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو[5].

---

(١) في ظلال القرآن؛ ج ٥/ ٢٥٦٢،

(٢) سورة آل عمران، آية (١٤٠).

(٣) القائل هو الراوي: أبو سعيد الخدري.

(٤) رواه الحاكم في مستدركه، وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ج ٢/ ٩٣.

(٥) انظر: زاد المعاد، ج ٣/ ٢٢١ ـ ٢٢٢.

المبحث السادس

استعجال المكذبين نزول العذاب

لقد بالغ أعداء الرسل ـ في كل زمان ـ في تكذيب الرسل ـ عليهم السلام ـ حيث ربطوا صدق الرسل بتحقيق بعض التعنتات التي أظهروها وطالبوا الرسل بالإتيان بها حتى يتسنى لهم الإيمان بهم والتسليم لهم، وأشد هذه المطالب تعنتاً وأدلها على حماقة القوم، هو استعجالهم نزول العذاب للاستدلال به على صدق الرسل ـ على حد زعمهم ـ ويدلنا على أن هذا المطلب كان من أجل التعنت لا التحقق من صدق الرسل، ما حكاه الله عن قول كفار قريش لرسولنا ـ ﷺ ـ: ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾[1] فلو أن هدفهم من طلب الآيات كان التحقق من صدق الرسول، لقالوا: «اهدنا إليه» بدلاً من «فأمطر علينا حجارة»، يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ (وهو دعاء غريب، يصور حالة من العناد الجامح الذي يؤثر الهلاك على الإذعان للحق، حتى ولو كان حقاً! إن الفطرة السليمة حين تشك تدعو الله أن يكشف لها عن وجه الحق، وأن يهديها إليه دون أن تجد في هذا غضاضة، ولكنها حين تفسد بالكبرياء الجامحة، تأخذها العزة بالإثم، حتى لتؤثر الهلاك والعذاب، على أن تخضع للحق عندما يكشف لها واضحاً لا ريب فيه..)[2]، أما كون استعجالهم العذاب دليلاً على حماقتهم وسفههم، فلأن العذاب إذا وقع ـ كما طلبوا ـ فإنه سيعاجلهم بالهلاك ولن يترك لهم فرصة الإيمان والرجوع إلى الله! وبذلك يكون دليل صدقه هلاكهم!!

وبالرغم من اختلاف طلبات المكذبين ـ تعنتاً ـ إلا أنهم اتفقوا على استعجال رسلهم بالعذاب، فباستعراض قصص الأنبياء نلاحظ أن استعجال العذاب كان من دأب المكذبين الدال على سفههم وغطرستهم.

فعن استعجال قوم نوح للعذاب: قال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾[3].

---

(١) سورة الأنفال، آية (٣٢).

(٢) في ظلال القرآن، ج ٣/ ١٥٠٥.

(٣) سورة هود، آية (٣٢).

وقال تعالى عن استعجال قوم هود العذاب: ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾[1] وفي سورة الأحقاف: ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾[2].

وقال تعالى عن استعجال قوم صالح العذاب: ﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾[3].

وقال تعالى عن استعجال قوم لوط العذاب: ﴿ .. فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[4].

وقال تعالى عن استعجال قوم شعيب العذاب: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ ﴾[5].

وتكاد تنحصر أسباب استعجال المكذبين نزول العذاب ـ حسب أقوال المفسرين ـ في أربعة أمور:

أولاً: أن يكون سبب ذلك التمادي في التكذيب واستبعاد وقوع ما أخبربه الرسل.

قال تعالى حكاية عن قوم شعيب: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ ﴾[6]، يقول الفخر الرازي ـ رحمه الله ـ: «وإنما طلبوا ذلك [أي إسقاط الكِسَف] لاستبعادهم وقوعه، فظنوا أنه إذا لم يقع ظهر كذبه»[7].

وقال تعالى عن قوم نوح: ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾[8].

يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «استعجلوا عذاب الله وعقوبته استبعاداً منهم وقوعه، كقوله جلت عظمته ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ ﴾[9]»[10].

---

(١) سورة الأعراف، آية (٧٠).
(٢) سورة الأحقاف، آية (٢٢).
(٣) سورة الأعراف، آية (٧٧).
(٤) سورة العنكبوت، آية (٢٩).
(٥ ـ ٦) سورة الشعراء، آية (١٨٧).
(٧) التفسير الكبير، ج ٢٤/ ١٦٤.
(٨) سورة هود، آية (٣٢).
(٩) سورة الشورى، آية (١٨).
(١٠) تفسير القرآن العظيم، ج ٤/ ١٧٣.

ثانياً: أن يكون سبب ذلك التحدي، التبجح والاستهتار بالنذير:

قال تعالى: ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ .. ﴾[1]، يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ: «.. إنه التبجح الذي يصاحب المعصية، ويعبر عن عصيانهم بقوله: «عَتَوْاْ» لإبراز التبجح فيها، وليصور الشعور النفسي المصاحب لها، والذي يعبر عنه كذلك ذلك التحدي باستعجال العذاب والاستهتار بالنذير»[2]، ويقول ـ كذلك ـ عن استعجال قوم شعيب للعذاب: (وهو تحدي المستهتر الهازىء المستهين! وهو شبيه بتحدي المشركين للرسول الكريم)[3].

ثالثاً: أن يكون سبب التحدي الاستهزاء بالعذاب:

قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ ﴾[4] يقول البيضاوي ـ رحمه الله ـ في قوله تعالى: ﴿ما كانوا به يستهزؤون﴾: «أي العذاب الذي كانوا به يستعجلون، فوضع يستهزؤون موضع يستعجلون لأن استعجالهم كان استهزاء»[5].

رابعاً: أن يكون سبب التحدي الجهل بالعواقب والاغترار بسعة العيش والترف:

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ .. ﴾[6].

يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «هذا من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم وعتوهم، وهذا مما عيبوا به»[7].

ويقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ: «ولقد كانوا يستعجلون عذاب الله، على سبيل

---

(١) سورة الأعراف، آية (٧٧).
(٢) في ظلال القرآن؛ ج ٣/ ١٣١٤.
(٣) في ظلال القرآن؛ ج ٥/ ٢٦١٥.
(٤) سورة هود، آية (٨).
(٥) تفسير البيضاوي، ج ٣/ ١٠٤.
(٦) سورة الأنفال، آية (٣٢).
(٧) تفسير القرآن العظيم، ج ٢/ ٣١٦.

الاستهزاء والاستهتار، واغتراراً بما هم فيه من متاع، يبلد حسهم، ويجعلهم يستبعدون النقلة منه إلى العذاب والنكال، شأنهم شأن ذوي النعمة قلما يخطر ببالهم أن تزول، وقلما يتصورون أن تحول»[1].

وفي مقابل هذا التبجح وسوء الأدب مع الله نجد أدب الرسل ـ الجَمّ ـ مع الله حيث وقفوا عند حدودهم ولم يتألوا على الله، ولم يقترحوا حتى نوع العذاب أو وقته بل تركوا ذلك كله لمشيئة الله وقَدَره وتبرؤا من الحول والقوة، فهذا نوح ـ عليه السلام ـ يقول: ﴿ .. إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[2] وفي موضع آخر من القرآن قال: ﴿ .. إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[3]، ويعقب سيد قطب ـ رحمه الله ـ على هذه الآية ببيان مهمة نوح ـ عليه السلام ـ حيث قال لهم: (إن مهمتي أن أنذركم بالعذاب كما كلفت أن أنذركم، ولست أعلم متى يحين موعده، ولا كيف يكون شكله، فعلم ذلك عند الله، وإنما أنا مُبلِّغ عن الله، لا أدّعي علماً ولا قدرة مع الله.. ولكني ـ في المقابل ـ أراكم قوماً تجهلون وتحمقون، وأية حماقة وأي جهل أشد من استقبال النذير الناصح القريب بمثل هذا التحدي والتكذيب؟)[4]. ومن جهة أخرى تتجلى لنا شفقة الأنبياء على أممهم المكذبة وهم يلقون بأيديهم إلى التهلكة ـ وذلك باستعجالهم العذاب ـ ويدخلون في تحدي مع من لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء!

فهذا صالح ـ عليه السلام ـ بعد أن تبجح قومه بقولهم: ﴿ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ ـ يـرد عليهم بشفقة وعطف: ﴿ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾[5]، يذكرهم بأن الأولى أن يلجأوا إلى ربهم ويستغفروه من ذنوبهم لعله يرحمهم بدل التمادي في التكذيب، إذ لا فائدة يَجْنونها لو لَبّى الله طلبهم وأنزل عليهم العذاب، إلا الحسرة والندامة! ولات حين مندم. ويجب أن ندرك جيداً أن الله ـ عز وجل ـ حين لا يستجيب لتخرصات هؤلاء

---

(١) في ظلال القرآن، ج ٥/٢٦١٨.
(٢) سورة هود، آية (٣٣).
(٣) سورة الأحقاف، آية (٢٣).
(٤) في ظلال القرآن، ج ٦/٣٢٦٦.
(٥) سورة النمل، آية (٤٦).

القوم ـ في طلب العذاب وتحقق مطلبهم ـ إنما يعود لحكمته سبحانه، فهو يمهلهم ولا يهملهم حتى إذا أخذهم أخذهم أخذ عزيز مقتدر، كما في حديث أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، وقال: ثم قرأ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[1][2].

وحكم تأجيل العذاب ـ مع استعجالهم له ـ كثيرة، فقد يكون إمهال الله: (إستدراجاً للظالمين ليزدادوا عتواً وفساداً).

ـ أو امتحاناً للمؤمنين ليزدادوا إيماناً وثباتاً، وليتخلف عن صفوفهم من لا يطيق الصبر والثبات.

ـ أو استبقاءاً لمن يعلم سبحانه أن فيهم خيراً من أولئك المنحرفين حتى يتبين لهم الرشد من الغي فيثوبوا إلى الهدى.

ـ أو استخراجاً لذرية صالحة من ظهورهم تعبد وتنحاز إلى حزبه ولو كان آباؤهم من الضالين.. أو لغير هذا وذاك من تدبير الله المستور)[3].

المبحث السابع
انتصار الرسل وهزيمة أعدائهم

شاءت إرادة الله ـ عز وجل ـ أن يبتلي أولياءه بأعدائه، وأن يحتدم الصراع بين الطرفين، وأن تكون الحرب سجالاً بينهما، كما قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ.. ﴾[4] فتارة يُدال الرسل وأخرى يُدال عليهم لكن العاقبة لهم، وقد ورد ذكر هذه السنّة في حديث هرقل مع أبي سفيان: (قال هرقل: فهل قاتلتموه؟

قال أبو سفيان: نعم.

---

(١) سورة هود، آية (١٠٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة هود (ج ٤/١٧٢٦)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم (ج ٤/١٩٩٧).

(٣) في ظلال القرآن؛ ج ٥/٢٧٤٧.

(٤) سورة آل عمران، آية (١٤٠).

قال هرقل: فكيف كان قتالكم إياه؟

قال أبو سفيان: الحرب بيننا وبينه سجالٌ يصيب منا ونصيب منه.

قال هرقل: وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة)[(١)].

وعليه فلا انتصار ولا تمكين إلا بعد الإبتلاء والتمحيص ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾[(٢)]، فالآية صريحة على أن محق الكافرين يتم بعد تمحيص المؤمنين. وعندما سئل الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ (أيما أفضل للرجل أن يُمَكن أو يبتلي؟ قال الشافعي: لا يُمَكن حتى يُبتلي، فإن الله ابتلى نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ فلما صبروا مكَّنَهم، فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة)[(٣)]، ومهما يكن من أمر فإن العاقبة ـ في النهاية ـ للمتقين، والآيات التي تثبت هذا وتؤكده كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾[(٤)]

وقوله تعالى: ﴿ .. وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[(٥)]

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[(٦)].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾[(٧)].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن ابن عباس، كتاب الجهاد والسير. باب كتاب النبي ـ ﷺ ـ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام؛ ج ٣/ ١٣٩٤ وما بعدها.

(٢) سورة آل عمران، آية (١٤١).

(٣) الفوائد لابن القيم الجوزية، تحقيق: أحمد راتب عرموش (دار النفائس، بيروت، طبعة أولى، ١٣٩٩ هـ) ص ٢٦٩.

(٤) سورة إبراهيم، آية (١٣ ـ ١٤).

(٥) سورة القصص، آية (٨٣).

(٦) سورة الروم، آية (٤٧).

(٧) سورة الصافات، آية (١٧١ ـ ١٧٣).

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ۝٥١ ﴾[1].

وقال تعالى مسلياً رسوله ومثبتاً له: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣٤ ﴾[2].

وقوله: ﴿لا مبدل لكلمات الله﴾ تفسرها آية غافرة السابقة. فالكلمات هي: وعد الله رسله - عليه السلام - بالنصر والغلبة[3]، ولكن (قد يبطىء هذا النصر أحياناً - في تقدير البشر - لأنهم يَحْسبون الأمور بغير حساب الله، ويُقّدرون الأحوال لا كما يقدرها الله، والله هو الحكيم الخبير، يصدق وعده في الوقت الذي يريده ويعلمه، وفق مشيئته وسنته، وقد تتكشف حكمة توقيته وتقديره للبشر وقد لا تتكشف، ولكن إرادته هي الخير وتوقيته هو الصحيح، ووعده القاطع واقع عن يقين، يرتقبه الصابرون واثقين مطمئنين)[4]، وإذا كان تقدير موعد النصر شأناً من شؤون الله الذي لا يملك تقديمه أو تأخيره أحد - حتى الرسل عليهم السلام - ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٣٣ ﴾[5]، فكذلك تَقْدير نوع النصر للمؤمنين ونوع الهزيمة للكافرين، هو من شؤون الله - عز وجل - وتنوع صور النصر والهزيمة لا يعلمها إلا الله، فهناك صُور للنصر في ثوب الهزيمة يغفل عنها أغلب البشر، فالكثرة الكاثرة لا تدرك إلا صور النصر والهزيمة المألوفة. ولقد ألمح إلى بعض صور النصر الخفية إمام المفسرين؛ ابن جرير الطبري - من المتقدمين، وسيد قطب - من المعاصرين - رحمهما الله - وذلك عند تفسيرهما لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ۝٥١ ﴾[6]، فقد تساءل ابن جرير الطبري - رحمه الله - قائلاً: (يقول القائل: وما معنى إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا، وقد علمنا أن منهم من قتله أعداؤه ومثلوا به، كشعياء، ويحيى بن زكريا وأشباههما، ومنهم من همّ بقتله

(١) سورة غافر، آية (٥١).
(٢) سورة الأنعام، آية (٣٤).
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ج ٢/ ١٣٥.
(٤) في ظلال القرآن؛ ج ٥/ ٢٧٧٤.
(٥) سورة هود، آية (٣٣).
(٦) سورة غافر، آية (٥١).

قومه فكان أحسن أحواله أن يخلص منهم حتى فارقهم ناجياً بنفسه، كإبراهيم الذي هاجر إلى الشام من أرضه مفارقاً لقومه، وعيسى الذي رُفع إلى السماء إذ أراد قومه قتله، فأين النصرة التي أخبرنا أنه ينصرها رسله والمؤمنين به في الحياة الدنيا وهؤلاء أنبياؤه قد نالهم من قومهم ما قد علمت وما نصروا على من نالهم بما نالهم به؟!

[ثم أجاب على هذه التساؤلات قائلًا]:

أن يكون معناه إنا للنصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا،

إما باعلائناهم على من كذبنا واظفارناهم بهم حتى يقهروهم غلبة، ويذلوهم بالظفر ذلة، كالذي فَعل من ذلك بداود وسليمان، فأعطاهما من الملك والسلطان ما قهرا به كل كافر، وكالذي فعل بمحمد ـ ﷺ ـ بإظهاره على من كذبه من قومه.

وإما بانتقامنا ممن حادّهم وشاقهم باهلاكهم وإنجاء الرسل ممن كذبهم وعاداهم، كالذي فعل تعالى ذكره بنوح وقومه من تغريق قومه وإنجائه منهم، وكالذي فعل بموسى وفرعون وقومه إذ أهلكهم غرقاً ونَجّى موسى ومن آمن به من بني إسرائيل وغيرهم ونحو ذلك.

أو بانتقامنا في الحياة الدنيا من مكذبيهم بعد وفاة رسولنا من بعد مهلكهم، كالذي فعلنا من نصرتنا شعياء بعد مهلكه بتسليطنا على قتلته من سلطنا حتى انتصرنا بهم من قتلته، وكفعلنا بقتلة يحيى من تسليطنا بُخْتنصَّر عليهم حتى انتصرنا به من قتلته له، وكانتصارنا لعيسى من مريدي قتله بالروم حتى أهلكناهم بهم)[1].

وكذلك تساءل سيد قطب ـ رحمه الله ـ قائلاً: (إن وعد الله قاطع جازم: «إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا. .» بينما يشاهد الناس أن الرسل منهم من يقتل ومنهم من يهاجر من أرضه وقومه مكذباً مطروداً، وأن المؤمنين فيهم من يسام العذاب، وفيهم من يلقى في الأخدود، وفيهم من يستشهد، وفيهم من يعيش في كرب وشدة واضطهاد، و. . . فأين وعد الله لهم بالنصر في الحياة الدنيا؟ [ويجيب قائلًا] ولكن الناس يقيسون بظواهر الأمور، ويغفلون عن قيم كثيرة وحقائق كثيرة في التقدير. إن الناس يقيسون بفترة قصيرة من الزمان، وحيز محدود من المكان، وهي مقاييس بشرية صغيرة، فأما المقياس الشامل فيعرض القضية في الرقعة الفسيحة من

---

(١) جامع البيان، ج ٢٤/٤٨ ـ ٤٩.

الزمان والمكان، ولا يضع الحدود بين عصر وعصر، ولا بين مكان ومكان.. والناس كذلك يقصرون معنى النصر على صور معينة معهودة لهم، قريبة الرؤية لأعينهم، ولكن صور النصر شتى، وقد يتلبس بعضها بصور الهزيمة عند النظرة القصيرة.. [ثم يتساءل قائلاً] إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهو يلقى في النار فلا يرجع عن عقيدته ولا عند الدعوة التي يدعو إليها.. أكان في موقف نصر أم موقف هزيمة؟ ما من شك ـ في منطق العقيدة ـ أنه كان في قمة النصر وهو يلقى في النار، كما أنه انتصر مرة أخرى وهو ينجو من النار، هذه صورة وتلك صورة... وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام، كما نصرها باستشهاده... [ويكرر السؤال] ما النصر؟ وما الهزيمة؟ [ثم يقول]: إننا في حاجة إلى أن نراجع ما استقر في تقديرنا من الصور. ومن القيم، قبل أن نسأل: أين وعد الله لرسله وللمؤمنين بالنصر في الحياة الدنيا)[١].

من الصور الأخرى للنصر ـ كما وردت في كلام المفسرين ـ ما قاله الفخر الرازي ـ رحمه الله ـ: «أما النصرة والغلبة، فقد تكون بقوة الحجة، وقد تكون بالدولة والاستيلاء، وقد تكون بالدوام والثبات، فالمؤمن وإن صار مغلوباً في بعض الأوقات بسبب ضعف أحوال الدنيا فهو الغالب..»[٢].

ويرى الشنقيطي ـ رحمه الله ـ أن الغلبة في قوله تعالى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾[٣]، نوعان: غلبة بالحجة والبيان، وهي ثابتة لجميع الرسل، وغلبة بالسيف والسنان، وهي ثابتة لمن أُمر بالقتال منهم دون من لم يُؤمر به[٤].

ويمكن ـ من هذه الأقوال ـ تلخيص صور نصر الله لرسله وأتباعهم بالآتي:

١ ـ نصرهم بالحجة والبرهان.
٢ ـ نصرهم بالثبات على المبادىء.
٣ ـ نصرهم بالسيف والسنان.
٤ ـ نصرهم بالانتقام ممن قتلهم.
٥ ـ نصرهم بتسخير السنن الكونية.

والآيات التي تشهد لهذه الصور كثيرة مها ما يتعلق بالنصر بالحجة والبرهان، كالمناظرة التي جرت بين إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقومه بمن فيهم أبوه أزر. قال

---

(١) في ظلال القرآن؛ ج ٥/ ٣٠٨٥ ـ ٣٠٨٦.
(٢) التفسير الكبير؛ ج ٢٦/ ١٧٢.
(٣) سورة المجادلة، آية (٢١).
(٤) أضواء البيان؛ ج ٧/ ٨٢٣.

تعالى: ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾(١).

ومن تلك الآيات ما ذكره الله بشأن السحرة الذين ثبتوا على الحق بالرغم من تهديدات فرعون وتوعده لهم، قال تعالى حكاية عنه: ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾(٢).

ومن هذه الآيات ما ورد من انتصار داود ـ عليه السلام ـ على جالوت في القتال، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾، ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ

(١) سورة الأنعام، آية (٧٤ ـ ٨٣).
(٢) سورة طه، آية (٧١ ـ ٧٦).

بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (1).

أما صورة نصر الرسل بالانتقام ممن قتلهم، فلم ترد آيات صريحة تدل على هذه الصورة، ولكن العلماء عدّوها صورة من صور النصر، قال السدي ـ رحمه الله ـ: (لم يبعث الله ـ عز وجل ـ رسولاً قط إلى قوم فيقتلونه أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا، قال: فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها)(2) ولقد أورد ابن جرير الطبري ـ رحمه الله ـ أمثلة على هذه الصورة كما ورد في كلامه(3)، ونقل عنه ذلك ابن كثير في تفسيره(4).

أما نصر الرسل بتسخير السنن الكونية، فهي أكثر الصور ذكراً في القرآن الكريم، وقد جمع الله المهلكين بهذه الصورة في آية واحدة بقوله: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا . . ﴾(5)، أما ذكرهم على التفصيل فهو كالآتي:

1 ـ قال تعالى عن هلاك قوم نوح ونجاة نوح وأتباعه: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾(6).

2 ـ وقال تعالى عن هلاك قوم هود: ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ ﴾(7).

وقال تعالى عن نجاة هود وأتباعه: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ ﴾(8).

---

(1) سورة البقرة، آية (250 ـ 251).

(2) تفسير القرآن العظيم، ج 4/ 90.

(3) انظر: ص 154.

(4) تفسير القرآن العظيم؛ ج 4/ 90.

(5) سورة العنكبوت، آية (40).

(6) سورة الأعراف، آية (64).

(7) سورة الحاقة، آية (5 ـ 8).

(8) سورة هود، آية (58).

٣ ـ وقال تعالى عن هلاك قوم صالح ونجاة صالح وأتباعه: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾، كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ . . ﴾[1].

٤ ـ وقال تعالى عن هلاك قوم لوط: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾، مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ . . ﴾[2]

وقال عن نجاة لوط وأهله: ﴿ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾[3].

٥ ـ وقال تعالى عن هلاك قوم شعيب ونجاة شعيب وأتباعه: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[4].

٦ ـ وقال تعالى عن هلاك فرعون وجنده ونجاة موسى وأتباعه: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[5].

إن هذه الآيات تؤكد أن العاقبة للمتقين، فمهما طال ليل الظالمين فلا بد للفجر من طلوع ولا بد لهم من سوء عاقبة، وحَسْب الظالمين عذاب جهنم ـ إن لم يعالجهم الله بعذاب الدنيا ـ قال تعالى: ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ ﴾[6].

هذه أهم سنن الله في الدعوات الربانية ـ في نظري ـ ولقد كان القرآن الكريم ينزل تارة بعد أخرى يذكّر رسول الله ومن معه بهذه السنن الإلهية، فكان له في قصص الأنبياء أسوة، وفي مصير المكذبين سلوى، وفي العدة بالنصر بشرى.

من هنا كان نزول القرآن الكريم منجماً من أهم وسائل تثبيت الرسول ـ ﷺ ـ. وهو ما سأتناوله بالحديث في الباب الثاني إن شاء الله.

---

(١) سورة هود، آية (٦٦ ـ ٦٨).
(٢) سورة هود، آية (٨٢ ـ ٨٣).
(٣) سورة الشعراء، آية (١٦٨ ـ ١٧١).
(٤) سورة هود، آية (٩٤ ـ ٩٥).
(٥) سورة الشعراء، آية (٦٣ ـ ٦٦).
(٦) سورة المجادلة، آية (٨).

الباب الثاني

إنزال القرآن الكريم على الرسول - ﷺ - منجماً وأثر ذلك في تثبيته وتكريمه

ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول:

دفاع الله عن رسوله ﷺ.

الفصل الثاني:

توجيه الله رسوله ﷺ في مواجهة المكذبين.

الفصل الثالث:

تأييد الله رسوله ﷺ في مواجهة المكذبين.

تمهيد

لقد نزل القرآن على رسول الله ﷺ منجماً في ثلاث وعشرين سنة(١) كما في حديث ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ حيث قال: (بُعث رسول الله ـ ﷺ ـ لأربعين سنة فمكث ثلاث عشرة سنةً يوحى إليه، ثم أُمر بالهجرة فهاجر عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين)(٢) ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾(٣)، أي جعلناه مفرقاً لكي تقرأه على الناس على مهل وتؤدة، ونزلناه تنزيلاً حسب الوقائع والأحداث. كما أن الواقع العملي لنزول القرآن يشهد بتنجيمه، فقد صح نزول سورة المسَد كاملة رداً على أبي لهب، ونزلت عشر آيات رداً على أصحاب الإفك وإبراءً لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

ولقد كان لنزول القرآن منجماً أثر كبير في تثبيت قلب النبي ـ ﷺ ـ وتكريمه كما

---

(١) اختلف العلماء في عدد سنوات نزول القرآن بين عشرين وثلاث وعشرين وخمس وعشرين سنة، وذكر السيوطي ـ رحمه الله ـ أن سبب الخلاف مبني على اختلافهم في مدة إقامة النبي ـ ﷺ ـ بمكة بعد البعثة، أهي عشر سنوات، أم ثلاث عشرة، أم خمس عشرة؟ وقد رجح كل من شيخنا مناع القطان والدكتور محمد محمد أبو شهبة نزوله في ثلاث وعشرين سنة. (انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي)، (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥ هـ) ج ١/١١٧، المدخل لدراسة القرآن الكريم ـ د. محمد محمد أبو شهبة (دار اللواء ـ المملكة العربية السعودية ـ الرياض الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ هـ)، ص ٥١، مباحث في علوم القرآن، مناع القطان (مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة، ١٤٠٠ هـ)، ص ١٠١.

(٢) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي وأصحابه إلى المدينة، ج ٣/١٤١٦.

(٣) سورة الإسراء، آية (١٠٦).

صرح القرآن بذلك في سياق رده على تعنت الكفار في اقتراحهم نزول القرآن عليه جملة واحدة حيث جعل الله إحدى علل نزوله منجماً تثبيت فؤاد النبي - ﷺ -.

قال تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾[1]. يقول أبو شامة[2] - رحمه الله - (فإن قيل ما السر في نزوله منجماً؟ وهلا نزل كسائر الكتب جملة! قلنا: هذا سؤال قد تولى الله جوابه فقال تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملةً واحدة﴾، يعنون كما أُنزل على من قبله من الرسل، فأجابهم تعالى بقوله: (كذلك - أي أنزلناه كذلك مفرقاً - لنثبت به فؤادك)، أي لنقوي به قلبك، فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى بالقلب، وأشد عناية بالمُرسَل إليه، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك إليه وتجدد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة، ولهذا كان أجود ما يكون في رمضان[3] لكثرة لقياه لجبريل)[4].

وسأتناول الحديث عن هذا الباب في ثلاثة فصول أيضاً، هي:

الفصل الأول: دفاع الله عن رسوله - ﷺ -.

الفصل الثاني: توجيه الله رسوله - ﷺ - في مواجهة المكذبين.

الفصل الثالث: تأييد الله رسوله - ﷺ - في مواجهة المكذبين.

---

(١) سورة الفرقان، آية (٣٢).

(٢) هو أبو القاسم عبد الرحمن بن اسماعيل بن عثمان شهاب الدين المقدسي الأصل، الدمشقي الشافعي، المقريء النحوي ذو الفنون. ولد في ربيع سنة تسع وتسعين وخمسمائة. أتم حفظ القرآن قبل العاشرة من عمره وقرأ القراءات كلها. درّس وأفتى وألف في معظم العلوم، من مصنفاته: «شرح الشاطبية» و «مختصر تاريخ دمشق» و «الأصول في الأصول» و «مفردات القراء»، توفي في تاسع عشر من رمضان سنة خمس وستين وستمائة. (طبقات المفسرين للداوودي، ج ١/ ٢٧٠).

(٣) يشير إلى حديث ابن عباس رضي الله عنهما: كان رسول الله - ﷺ - أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلّرسول الله - ﷺ - أجود بالخير من الريح المرسلة (رواه البخاري في صحيحه، باب بدء الوحي، ج ١/ ٧).

(٤) الإتقان في علوم القرآن ج ١/ ١٢١.

الفصل الأول

دفاع الله عن رسوله - ﷺ -

لقد بالغ المكذبون في التصدي لرسول الله - ﷺ - ولدعوته وسلكوا كل حيلة قادهم إليها شيطانهم، فاختلقوا الشبهات وشوهوا الحقائق وألصقوا به التهم وأثاروا معه الجدل.. بل ذهبوا إلى أبعد من هذا عندما حاولوا اغتياله، وفي سورة الإسراء آية تُصوِّر لنا مدى حرص الكفار على فتنة الرسول - ﷺ - عن دعوته بالترغيب أو الترهيب وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾[1]، فالآية بينت أن الكفار حاولوا بكل وسيلة فتن الرسول - ﷺ - إلا أن تثبيت الله له كان مانعاً من ركونه إليهم. ولقد أكرم الله رسوله عندما تولى بنفسه الدفاع عنه في كتابه الكريم، حيث كانت الآيات تنزل على الرسول - ﷺ - تباعاً، فما من شبهة أثاروها إلا فنّدها، وما من تهمة ألصقوها به إلا دفعها، وما من مؤامرة دبَّروها إلا كشفها، ومن من أسئلة تعجيزية سألوها إلا دحضها، وما من مكيدة حبكوها - لقتله - إلا أحبطها... وهذا الدفاع عنه من شأنه أن يثبت رسول الله على طريقه غير عابىء بالكفار ما دام اللطف الإلهي يتولاه ويحوطه بالرعاية.

---

(١) سورة الإسراء، آية (٧٣ - ٧٤).

روى السيوطي في لباب النقول، عن ابن عباس قال: خرج أمية بن خلف وأبو جهل بن هشام ورجال من قريش، فأتوا رسول الله - ﷺ -، فقالوا: يا محمد تعال تمسح بآلهتنا وندخل في دينك، وكان يحب إسلام قومه فرقّ لهم، فأنزل الله ﴿وإن كادوا ليفتنونك.. إلى نصيراً﴾ قال: هذا أصح ما ورد في سبب نزولها وهو إسناد جيد وله شاهد (لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي، ص ١٣٨).

وسيكون الحديث عن دفاع الله - عز وجل - عن رسوله - ﷺ - في ثلاثة مباحث، هي:

المبحث الأول: الرد على الشبهات والاتهامات وكشف المؤامرات ضد الرسالة والرسول.

المبحث الثاني: الإجابة على تساؤلات المكذبين وتفنيد دَعاوَاهم.

المبحث الثالث: إحباط المكائد التي تحاك لقتله - ﷺ -.

المبحث الأول

الرد على الشبهات والاتهامات
وكشف المؤامرات ضد الرسالة والرسول
وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: زعمهم أن القرآن أساطير الأولين.

المطلب الثاني: اتهامهم الرسول - ﷺ - بالكذب والافتراء.

المطلب الثالث: اتهامهم الرسول - ﷺ - بالسحر والجنون والشعر والكهانة.

المطلب الرابع: شبهة بشرية الرسول - ﷺ -.

المطلب الخامس: شبهة إنكارهم للبعث بعد الموت.

المطلب السادس: مؤامرات اليهود في التشكيك بالإسلام.

المطلب السابع: مؤامرات المنافقين للطعن في الإسلام.

المطلب الأول: زعم الكفار أن القرآن الكريم أساطير الأولين:

ذكر الله عز وجل في عدة آيات أن الكفار طعنوا في هذا القرآن بزعمهم أنه أساطير الأولين. وهذه الآيات هي:

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن

يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[2].

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[3].

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾[4].

قوله تعالى: ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ ﴾[5].

وقبل الرد على هذه التهمة أود أن أشير إلى مدلول كلمة «أساطير».

يقول الراغب* ـ رحمه الله ـ: «وأما قوله أساطير الأولين» فقد قال المبرد[6]: هي جمع أسطورة نحو أُرجوحة وأراجيح وأثفية وأثافي وأُحدوثة وأحاديث. وقوله تعالى: **﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين﴾** أي: شيء كتبوه كذباً وميناً[7] كما زعموا، نحو قوله تعالى: **﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تُملى عليه بكرة وأصيلاً﴾**»[8].

---

(١) سورة الإنعام، آية (٢٥).
(٢) سورة الأنفال، آية (٣١).
(٣) سورة النحل، آية (٢٤).
(٤) سورة الفرقان، آية (٥).
(٥) سورة القلم، آية (١٥).

* هو الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني، صاحب التصانيف أديب متكلم مشهور، من تصانيفه: «المفردات في غريب القرآن» و «جامع التفاسير» «محاضرات الأدباء» توفي سنة اثنتين وخمس مئة. (انظر سير أعلام النبلاء، ج ١٨/ ١٢٠، الأعلام، ج ٢/ ٢٥٥).

(٦) المبرد: هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي، أبو العباس، المعروف بالمبرد. إمام العربية ببغداد في زمنه، وأحد أئمة الأدب والأخبار. من مؤلفاته: «الكامل» و «المذكر والمؤنث» و «المقتضب». وُلد بالبصرة عام ٢١٠ هـ وتوفي ببغداد عام ٢٨٦ هـ (سير أعلام النبلاء، ج ٢٣/ ٥٧٦، الأعلام ج ٧/ ١٤٤).

(٧) المين: الكذب، تجمع على مُيُون. وهي هنا للتأكيد كما في القرآن: «لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً» (اللسان، ج ١٣/ ٤٢ مادة «مين»).

(٨) المفردات في غريب القرآن، ص ٢٣٢.

وفي اللسان: (والأساطير: الأباطيل. يقال سطّر فلان علينا يسطرُ، إذا جاء بأحاديث تشبه الباطل. والأساطير: أحاديث لا نظام لها)[1]. ويذكر الطاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ أن العرب كانوا يطلقون كلمة «أساطير» على ما يتسامر الناس به من القصص والأخبار بصرف النظر عن حقيقتها، ولذلك لم يميزوا بين التواريخ والقصص والخرافات لأن جميع ذلك مرمي بالكذب والمبالغة[2].

وبناء على هذا التعريف يظهر جلياً أن الكفار كانوا يقصدون من وصف القرآن الكريم بـ «أساطير الأولين» الطعن فيه والتوهين من شأنه بتشبيهه بالخرافات والحكايات التي لا يعرف أصلها ولا يعرف صدقها من كذبها، غايتها التسلية والمسامرة. وقد تولى كبر هذه الفرية النضر بن الحارث حيث كان يشبّه القرآن الكريم بأخبار «رستم» و «اسفنديار»[3].

روى الواحدي[4] عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أبا سفيان بن حرب، والوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث، وعتبة وشيبة ابنَي ربيعة، وأمية، وأبي بن خلف، استمعوا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقالوا للنضر: يا أبا قُتَيْلَة ما يقول محمد؟ قال: والذي جعلها بيته (يعني الكعبة) ما أدري ما يقول، إلا أني أرى تحريك شفتيه يتكلم بشيء، وما يقول إلا أساطير الأولين مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية. وكان النضر كثير الحديث عن القرون الأولى، وكان يحدث قريشاً فيستمعون حديثه. فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾[5][6].

(١) لسان العرب: ٤/ ٣٦٣، مادة «سطر».
(٢) انظر تفسير التحرير والتنوير ج ٧/ ١٨٢.
(٣) قال القرطبي رحمه الله: وكان النضر صاحب قصص وأسفار، فسمع أقاصيص في ديار العجم مثل: «قصة رستم واسفنديار» فكان يحدثهم بها (الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ٦/ ٤٠٥).
(٤) هو أبو الحسن، علي بن أحمد الواحدي النيسابوري الشافعي، إمام علماء التأويل، له تفاسير ثلاثة هي: «البسيط» و «الوسيط» و «الوجيز» وله «أسباب النزول» توفي سنة ثمان وستين وأربع مئة. (انظر سير أعلام النبلاء، ج ١٨/ ٣٣٩ وما بعدها).
(٥) سورة الأنعام، آية (٢٥).
(٦) أسباب نزول القرآن للواحدي، ص ٢٠٩، وانظر تفسير البغوي ج ٢/ ٩١، وانظر زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ج ٣/ ١٨.

ولقد جاء رد القرآن الكريم على هذه التهمة مبثوثاً في ثنايا السور ويمكن تلخيص الرد على هذه الفرية في أمرين:

أولاً: تأكيد إنزال القرآن الكريم من رب العالمين:

لقد أمر الله رسوله ـ ﷺ ـ أن يرد على القائلين أن هذا القرآن أساطير الأولين اكتتبها، بأنه محض افتراء، بل هو تنزيل ممن يعلم السرّ في السموات والأرض. قال تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾[1]. فرد عليهم بقوله: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[2]. يقول الألوسي ـ رحمه الله ـ: «قل لهم رداً عليهم وتحقيقاً للحق»، (أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض) وصف تعالى نفسه بإحاطة علمه بجميع المعلومات الخفية، والجلية المعلومة من باب أولى للإيذان بانطواء ما أنزله على أسرار مطوية عن عقول البشر مع ما فيه من التعريض بمجازاتهم بجناياتهم المحكية التي هي من جملة معلوماته تعالى، أي ليس ذلك كما تزعمون، بل هو أمر سماوي أنزله الله تعالى الذي لا يعزب عن علمه شيء من الأشياء وأودع فيه فنون الحكم والأسرار على وجه بديع لا تحوم حوله الأفهام حيث أعجزكم قاطبة بفصاحته وبلاغته وأخبركم بمغيبات مستقبلة وأمور مكنونة لا يهتدي إليها ولا يوقف إلا بتوفيق الله تعالى العليم الخبير عليها..)[3].

ولقد أكد الله إنزال القرآن في آيات كثيرة وفي مناسبات عديدة، ولازم نزول القرآن من الله عز وجل أن يكون كله حقاً لا أساطير فيه لأن الأساطير: أباطيل ـ كما عرفنا ـ والله سبحانه منزّه عن قول الباطل فضلاً عن الأمر به، لذلك قرن الله بين نزول القرآن وبين كونه حقاً، فقال تعالى: ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ ﴾[4].

---

(١) سورة الفرقان، آية (٥).
(٢) سورة الفرقان، آية (٦).
(٣) روح المعاني للألوسي، ج ١٨/ ٢٣٦.
(٤) سورة الإسراء، آية (١٠٥).

ثانياً: تأكيد القرآن الكريم على أمية الرسول ـ ﷺ ـ:

لقد ادعى الكفار بجانب اتهام القرآن بأنه أساطير الأولين، أنه اكتتبها، بمعنى أن الرسول ـ ﷺ ـ كتبها لنفسه أو كُتبت له، بناءً على اختلاف المفسرين في معنى اكتتبها. فقد ذكر الزمخشري أن «اكتتبها» أي: كتبها لنفسه وأخذها، كما تقول: استكب الماء واصطبه، إذا سكبه وصبه لنفسه وأخذه[1]. والجمهور على أن «اكتتبها»: أي طلب أن تُكتب له لأنه كان لا يكتب[2]. واستشهد الرازي لهذا القول بقولهم: (احتجم وافتصد إذا أمر بالحجامة والفصد[3])[4].

وظاهر كلام ابن كثير يؤيد قول الزمخشري حيث قال في قوله تعالى: ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها﴾ يعنون كتب الأوائل، أي استنسخها. ثم قال وهذا الكلام لسخافته وكذبه وبهته منهم يعلم كل أحد بطلانه فإنه قد علم بالتواتر وبالضرورة أن محمداً رسول الله ـ ﷺ ـ لم يكن يعاني شيئاً من الكتابة لا في أول عمره ولا في آخره وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحواً من أربعين سنة وهم يعرفون مدخله ومخرجه وصدقه ونزاهته وبره وأمانته وبعده عن الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة حتى إنهم كانوا يلقّبونه في صغره، وإلى أن بعث بالصادق الأمين، لما يعلمون من صدقه وبره فلما أكرمه الله بما أكرمه به نصبوا له العداوة ورموه بهذه الأقوال التي يعلم كل عاقل براءته منها وحاروا فيما يقذفونه به..)[5] وأيّاً من القولين ترجح[6]، فإن قصدهم ظاهر، وهو الطعن في القرآن بالتشكيك في نسبته إلى الله عز وجل.

---

(١) انظر الكشاف ١، ج ٣/ ٨٨.

(٢) انظر تفسير البغوي، ج ٣/ ٣٦١، زاد المسير في علم التفسير، ج ٦/ ٧٣، روح المعاني، ج ١٨/ ٢٣٥.

(٣) الفصد: قطع العروق، وافتصد فلان إذا قطع عرقه ففصد (لسان العرب، ج ٣/ ٣٣٦ مادة «فصد»).

(٤) التفسير الكبير، ج ٢٤/ ٥١.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ج ٣/ ٣٢١.

(٦) والقول بأن اكتتبها أي كتبها لنفسه هو ظاهر اختيار أبي حيان والشنقيطي، انظر البحر المحيط، ج ٦/ ٤٨٣، وأضواء البيان، ج ٦/ ٢٧٦. وهو راجح لثلاثة أمور، هي:

أ ـ أن اللغة تؤيد هذا الوجه كما ذكر الزمخشري ـ رحمه الله ـ.

ب ـ حقيقة الإملاء في اللغة إلقاء الكلام على الكاتب ليكتب كما قال تعالى: ﴿فليكتب =

وقد ردّ عليهم في فريتهم هذه بتأكيد أُمية رسوله في أكثر من آية، منها قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ ﴾[2].

وصرَّح في سورة العنكبوت أن النبي - ﷺ - لو كان من زُمرة الكاتبين أو القارئين قبل إنزال القرآن عليه لأدى ذلك إلى ارتياب المكذبين الباحثين عن أدنى شبهة للطعن في هذا القرآن، فقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[3]. يقول الشوكاني - رحمه الله - في قوله تعالى: ﴿إذاً لارتاب المبطلون﴾ أي لو كنت ممن يقدر على التلاوة والخط لقالوا لعله وجد ما يتلوه علينا من كتب الله السابقة أو من الكتب المدونة في أخبار الأمم، فلما كنت أمياً لا تقرأ ولا تكتب لم يكن هناك موضع للريبة ولا محل للشك أبداً، بل إنكار من أنكر وكفر من كفر مجرد عناد وجحود بلا شبهة، وسماهم مبطلين لأن ارتيابهم على تقدير أنه - ﷺ - يقرأ ويكتب ظلم منهم لظهور نزاهته ووضوح معجزاته..)[4].

المطلب الثاني: اتهامهم الرسول - ﷺ - بالكذب والافتراء:

لقد اتهم المشركون رسول الله - ﷺ - بالكذب في ادعاء الرسالة بصفة عامة وإنزال القرآن عليه بصفة خاصة. واتهامهم له بافتراء القرآن إنما يقصدون به أحد معنيين أو كلاهما:

= وليُملل الذي عليه الحق﴾، البقرة/ ٢٨٢، فإذا قلنا أن معنى اكتتبها أي طلب من يكتب له اضطررنا إلى تأويل الإملاء على الاستعارة بمعنى الإلقاء للحفظ بعد الكتابة، بدل الإلقاء للكتابة كما هو معروف ولا شك أن حمل الكلام على الحقيقة أولى من حمله على المجاز.

ج - تعليل ترجيح أن معنى «اكتتبها» أي: طلب من يكتب له لأنه أمّي لا يكتب وأن هذا مشهور بين المشركين، غير مُسلَّم به - أي الاستدلال - إذ لا يمنع أن يدّعي المشركون - مع ذلك - أنه كتب لنفسه، لأن القضية قضية تعنُّت ومكابرة، وليس قضية مراعاة الممكن المعقول، ألم تكن مكة كلها تعلم صدق الرسول - ﷺ - وأمانته؟! ومع ذلك رموه بالكذب والإفك عندما بُعث بالرسالة.

(١) سورة الأعراف، آية (١٥٧).

(٢) سورة الأعراف، آية (١٥٨).

(٣) سورة العنكبوت، آية (٤٨).

(٤) فتح القدير، للشوكاني، ج ٤/ ٢٠٧.

الأول: أن القرآن الكريم كَذب في نفسه.

الثاني: أن الرسول ـ ﷺ ـ كَذَب بإضافة القرآن إلى الله[1].

ومعنى الافتراء في اللغة يحمل هذين المعنيين. ففي اللسان (فري فلان الكذب يفريه إذا اختلقه، والفرية من الكذب، وفي التنزيل ﴿أم يقولون افتراه﴾: أي اختلقه)[2]. ونقل الرازي عن أبي مسلم قوله: (الافتراء: افتعال من فريت.. ويقال فيمن شتم امرءاً بما ليس فيه افترى عليه)[3] وقد جمع الله بين هذين المعنيين في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى .. ﴾[4].

يقول الطاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ: «والإفك: الكذب، ووصفه بالمفتَري، إما أنه يتوجّه إلى نسبته إلى الله تعالى أو أُريد أنه في ذاته إفك، وزادوا فجعلوه مخترعاً من النبي ـ ﷺ ـ ليس مسبوقاً به»[5].

والآيات التي ذكرت اتهام المشركين للرسول بالافتراء كثيرة، نذكر منها:

قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾[6].

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[7]

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ ﴾[8].

(١) انظر التفسير الكبير، ج ٢٤/ ٥٠.
(٢) لسان العرب، ج ١٥/ ١٥٤، مادة «فرا».
(٣) التفسير الكبير، ج ٢٤/ ٥٠.
(٤) سورة سبأ، آية (٤٣).
(٥) تفسير التحرير والتنوير، ج ٢٢/ ٢٢٦.
(٦) سورة يونس، آية (٣٨).
(٧) سورة هود، آية (١٣).
(٨) سورة الفرقان، آية (٤).

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ ﴾[2].

هذه بعض الآيات التي نوهّت باتهام المكذبين للرسول ـ ﷺ ـ بالافتراء، وهي تتضمن في ثناياها الرد على هذه التهمة. وقد رد القرآن على هذه الفرية بردود كثيرة ومتنوعة، سأكتفي بإيراد الصريح منها.

أولاً: أمر الله رسوله أن يرد عليهم بأنه لا منجي له من عذاب الله لو افترى عليه الكذب:

قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ ﴾[3]. ففي هذه الآية نجد إشفاق النبي ـ ﷺ ـ على نفسه من عذاب الله الذي سوف يعاجله لو كَذَب على ربه، وحينئذ لن يدفع عنه العذاب أحد من البشر لأنهم جميعاً عاجزون عن ذلك. وما أشد انطباق هذه الآية على آية سورة الحاقة: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[4]. فقوله: **﴿قل إن افتريته﴾** يقابله: **﴿ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل﴾**، وقوله: **﴿فلا تملكون لي من الله شيئاً﴾** يقابله: **﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾**. وهاتان الآيتان وإن تضمنتا تهديداً لرسول الله ـ ﷺ ـ إلا أنهما جاءتا لتؤكدا صدق الرسول ـ ﷺ ـ وأمانته، وبراءته من تهمة الكذب والخيانة. إذ إن في الآيتين فعل شرط وجوابه. وفعل الشرط هو الافتراء أو التقول، ومضمون جواب الشرط الهلاك، فلما لم يتحقق مضمون جواب الشرط عُلم انتفاء وقوع فعل الشرط.

---

(١) سورة الشورى، آية (٢٤).

(٢) سورة الأحقاف، آية (٨).

(٣) سورة الأحقاف، آية (٨).

(٤) سورة الحاقة، آية (٤٤ ـ ٤٧).

قال ابن كثير: «لأخذنا منه باليمين» أي لانتقمنا منه باليمين لأنها أشد في البطش، «ثم لقطعنا منه الوتين» قال ابن عباس: الوتين هو نياط القلب وهو عِرْق معلق به القلب فإذا انقطع مات صاحبه)، انظر تفسير القرآن العظيم ج ٤/ ٤٤٥.

ثانياً: اعتراف خصوم النبي - ﷺ - بصدقه:

لقد سجل القرآن الكريم اعتراف المكذبين بصدق النبي - ﷺ - وجعل ذلك حجة عليهم حيث قال تعالى: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[١]. فلقد عاش - محمد - ﷺ - بين ظهرانيهم أربعين سنة قبل البعثة ولم تؤثر عنه كذبة واحدة، بل على العكس كان متميزاً بينهم بالصدق والأمانة حتى قلدوه وسام الأمانة حين وثقوا بصدقه وأمانته، فلقبوه بالأمين، ووضعوا عنده أماناتهم ورَضُوا بحكمه في أعظم الأمور[٢] (ولو حفظوا عليه كذبه نادرة في غير الرسالة لجعلوها دليلاً على تكذيبه في الرسالة، ومن لزم الصدق في صغره كان له في الكبر ألزم، ومن عصم منه في حق نفسه كان في حقوق الله تعالى أعصم، وحسبك بهذا دفعاً لجاحد ورداً لمعاند)[٣].

ومن شهاداتهم على صدقه ما يلي:

١ - اعتراف المشركين بصدق النبي - ﷺ -:

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾[٤] ورهطك منهم المخلصين[٥]، خرج رسول الله - ﷺ - حتى صعد الصفا، فهتف: يا صباحاه. فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل، أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. قال أبو لهب: تباً لك، ما جمعتنا

---

(١) سورة الأنعام، آية (٣٣).

(٢) عندما بنى المشركون الكعبة اختلفوا فيمن يتشرف بوضع الحجر في مكانه حتى كادت أن تقع معركة بين القبائل، ثم رَضوا بحكم أول داخل إلى المسجد فكان هذا الداخل رسول الله، فقالوا هذا الأمين، رضينا، هذا محمد - ﷺ - (انظر القصة كاملة في مسندأحمد ج ٣/ ٤٢٥، وسيرة ابن هشام ج ١/ ٢١٣ - ٢١٤).

(٣) أعلام النبوة، لأبي الحسن علي الماوردي، ص ١٩٠ (دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الأولى ١٤٠٦ هـ).

(٤) سورة الشعراء، آية (٢١٤).

(٥) قال النووي رحمه الله: الظاهر أن هذه العبارة كان قرآناً أنزل ثم نسخت تلاوته (صحيح مسلم بشرح النووي، ج ٣/ ٨٢).

إلا لهذا ثم قام. فنزلت: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ ﴾[1][2].

٢ ـ اعتراف أبي جهل بصدق النبي ـ ﷺ ـ:

روى ابن جرير بسنده أن الأخنس بن شريق خلا بأبي جهل فقال: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد، أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس ههنا من قريش أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا! فقال أبو جهل: ويحك، والله إن محمداً لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهب بنو قُصي باللواء والحجابة والسقاية والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟ فذلك قوله: ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾[3].

٣ ـ شهادة أمية بن خلف وامرأته بصدق النبي ـ ﷺ ـ:

روى البخاري قصة اعتمار سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ ونزوله ضيفاً على أمية بن خلف، وفي القصة جرى حوار بين سعد وأمية، فقال سعد: (فإني سمعت محمداً ـ ﷺ ـ يزعم أنه قاتلك، قال: إياي؟ قال نعم. قال: والله ما يكذب محمد إذا حدّث، فرجع إلى امرأته، فقال: أما تعلمين ما قال أخي اليثربي، قالت: وما قال؟ قال: زعم أنه سمع محمداً يزعم أنه قاتلي، قالت: فوالله ما يكذب محمد، قال: فلما خرجوا إلى بدر وجاء الصّريخ[4]، قالت له امرأته: أما ذكرت ما قال لك أخوك اليثربي قال: فأراد أن لا يخرج فقال له أبو جهل: إنك من أشراف الوادي فسر يوماً أو يومين، فسار معهم، فقتله الله)[5].

٤ ـ شهادة أبي سفيان قبل الإسلام بصدق النبي ـ ﷺ ـ:

روى البخاري ومسلم في قصة حوار أبي سفيان مع هرقل أنه سأله: (فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فأجاب أبو سفيان بقوله لا)[6].

---

(١) سورة المسد.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة المسد ج ١٩٠٢/٤، صحيح مسلم، كتاب الإيمان ـ باب قوله تعالى: ﴿وانذر عشيرتك الأقربين﴾ وانظر أسباب النزول للواحدي، ص ٥٠٧، ج ١٩٤/١.

(٣) جامع البيان / شاكر، ج ٣٣٣/١١.

(٤) الصريخ: صوت المستصرخ وهو المستغيث.

(٥) رواه البخاري في صحيحه كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، ج ١٣٢٩/٣.

(٦) تقدم تخريجه، انظر ص ١٠٦، ١٥٢.

فهذه بعض شهادات خصومه - ﷺ - يؤكدون فيها صدقه ويبرؤنه من الكذب.

إذن فالمشركون عندما كانوا يطلقون هذه التهمة على الرسول - ﷺ - ويُلقون بالكلام جُزافاً على عواهنه، كانوا لا يؤمنون بها ولا يصدقون أنفسهم في ادعائها، لكنهم قصدوا بذلك توهين شأن الرسالة والقرآن وتشكيك الناس في صدق النبي - ﷺ - حسداً وبهتاناً واتباعاً للهوى وطمعاً في الزعامة الجوفاء.

ثالثاً: تحدي القرآن الكفار أن يأتوا بمثل هذا القرآن:

لقد كانت أقوى الحجج التي دحض الله بها قول القائلين بأن هذا القرآن مفترى، أنه تحداهم أن يأتوا بمثله، بل أن يفتروا مثله كما زعموا أن الرسول - ﷺ - قد افتراه إن كانوا صادقين: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾[1]

- تحداهم في أول الأمر أن يأتوا بمثل هذا القرآن، حيث قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾[2].

- فلما عجزوا أرخى لهم العنان وتنازل معهم إلى عشر سور فقط لإطماعهم في المحاولة من جهة وتأكيد عجزهم عن الإتيان بمثله من جهة أخرى فقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[3]. وفي الآية زيادة تبكيت وتوبيخ لهم بقوله «مفتريات» إذ أطلق لهم العنان أن يفتروا ما شاءوا من موضوعات هذه السور العشر، إزالة لعلَلهم وقطعاً لأعذارهم ومبالغة في تعجيزهم فإذا عجزوا مع ذلك كان دليلاً على أنه من عند الله لذلك قال عقب هذه الآية: ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[4].

- فلما عجزوا رضي منهم في آخر المطاف بأقل القليل، حيث اكتفى منهم بالإتيان بسورة واحدة من مثله، فقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ

---

(١) سورة الطور، آية (٣٣ ـ ٣٤).

(٢) سورة الإسراء، آية (٨٨).

(٣) سورة هود، آية (١٣).

(٤) سورة هود، آية (١٤).

﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٨﴾[1]. وهذا الترتيب هو الذي رجحه ابن كثير رحمه الله وغيره[2].

وواضح وجه دلالة عجزهم عن المعارضة على صدق رسول الله. وذلك أن محمداً ـ ﷺ ـ إنما هو رجل منهم ولد بمكة وعاش بين ظهرانيهم أُمياً وظل كذلك إذ لم يثبت اتّصاله بأحد العلماء من أهل الكتاب أو غيرهم بقصد التّلمذ والتعلّم، لذلك فثقافته من جنس ثقافتهم، وكلامه لا يخرج عن مألوفهم، وفصاحته لا تتجاوز فصاحتهم، إذ الأصل أن ما يفعله يستطيعون فعله وما يقوله يستطيعون قوله، فلما جاءهم بكلام بلغ الغاية في الفصاحة والبلاغة، والدقة في الأخبار ـ الماضية والمستقبلة ـ وطالبهم بالإتيان بمثله، وهيّجهم لمعارضته فعجزوا عن معارضته أو نظم مثله ـ وهم أرباب الفصاحة والبيان والحريصون على إبطال أمره ـ دلّ ذلك على أن هذا القرآن لا يمكن أن يصدر عن رجل من هذه البيئة، بل لا يمكن أن يكون مصدره بشرياً البتة. فكان هذا رداً على اتهامهم له بالافتراء، وهو المقصود.

رابعاً: الرد على الزعم بأن رسول الله ـ ﷺ ـ استعان بغيره في المجيء بالقرآن الكريم:

لقد زعم الكفار أن قوماً آخرين أعانوا رسول الله ـ ﷺ ـ في افتراء هذا القرآن. قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ﴾[3] وقال كذلك: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾[4].

ولقد كذّبهم الله في الآية الأولى بقوله: «فقد جاؤوا ظلماً وزوراً» (فبين سبحانه أن هذا من الكذب الظاهر المعلوم لأعدائه فضلاً عن أوليائه، فإنهم يعلمون أنه ليس عنده أحد يعينه على ذلك، وليس في قومه ولا في بلده من يحسن ذلك ليُعيْنه عليه

---

(١) سورة يونس، آية (٣٨).

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم، ج ٢/ ٤٣٣، تفسير البحر المحيط، ج ٥/ ٢٠٨، البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج ٢/ ١١٠ (دار المعرفة، بيروت ـ لبنان ـ الثانية ـ ١٣٩١ هـ)، مناهل العرفان في علوم القرآن لمحمد عبد العظيم الزرقاني، ج ٢/ ٢٢٩ (دار إحياء الكتب العلمية ـ الثالثة)، مباحث في علوم القرآن لشيخنا مناع القطان، ص ٢٥٩.

(٣) سورة الفرقان، آية (٤).

(٤) سورة النحل، آية (١٠٣).

فلهذا قال تعالى: ﴿فقد جاؤوا ظلماً وزوراً﴾ فإن جميع أهل بلده وقومه المعادين له يعلمون أن هذا ظلم له وزور ولهذا لم يقل هذا أحد من عقلائهم المعروفين)[١].

ويقول الزمخشري ـ رحمه الله ـ: «وظُلْمهم أنهم جعلوا العربي يتلقن من الأعجمي الرومي كلاماً عربياً أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب، والزور هو أنهم بهتوه بنسبة ما هو بريء منه إليه»[٢] وقد فنّد الله هذا الزعم في رده في الآية الثانية بقوله: ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾[٣]. روى ابن جرير بسنده إلى ابن عباس قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ يَعْلم قيْناً بمكة وكان اسمه بلعام[٤] وكان أعجمي اللسان وكان المشركون يرون رسول الله ـ ﷺ ـ يدخل عليه ويخرج من عنده فقالوا إنما يعلمه بلعام فأنزل الله هذا الآية[٥]. وهذا يدل على تَخبُّط القوم وشدة انهزامهم إذ أثاروا شبهة ليجرحوا بها رسول الله فجرحوا أنفسهم من حيث لا يعلمون، فكل أحد يعلم كَذب هذا الزعم، فإذا كان هذا القرآن قد أعجزهم وهم فرسان الفصاحة والبيان، فهل يُعقل أن يكون مصدر هذا القرآن حداداً أمياً أعجمياً لا يحسن التكلم بالعربية؟!! ثم إن كانوا صادقين أن مصدره ذلك الأعجمي، فما الذي كان يمنعهم أن يأخذوا منه كما أخذ صاحبهم فيعارضوه بمثله، خاصة أنه قد تحداهم أن يأتوا بمثله؟! ألا إنه تخبّط الحاسدين وتعنت المكذبين.

المطلب الثالث: اتهامهم الرسول ـ ﷺ ـ بالجنون والسحر والشعر والكهانة:

من التهم التي وُجّهت إلى الرسول ـ ﷺ ـ والقرآن على حد سواء، زعم الكفار

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ج ١/ ١٤٣.

(٢) الكشاف، ج ٣/ ٨٨.

(٣) سورة النحل، آية (١٠٣).

(٤) اختلف في اسم الرجل، فقيل: هو عبد لبني عامر بن لؤي يقال له يعيش وكان يقرأ الكتب، وقيل: عداس، غلام عتبة بن ربيعة وقيل: عبد لبني الحضرمي صاحب كتب، وكان اسمه جبراً، وكانت قريش تقول عبد بني الحضرمي يعلّم خديجة وخديجة تعلّم محمداً، وقيل كان بمكة نصراني أعجمي اللسان اسمه بلعام ويقال له أبو ميسرة يتكلم بالرومية وقيل: سلمان الفارسي، وبالجملة فلا فائدة في تعديد هذه الأسماء والحاصل إن القوم اتهموه بأنه يتعلم هذه الكلمات من غيره ثم إنه يظهرها من نفسه ويزعم أنه إنما عرفها بالوحي وهو كاذب فيه، (التفسير الكبير، ج ٢٠/ ١١٧).

(٥) جامع البيان، ج ١٤/ ١١٩.

أن رسول الله ـ ﷺ ـ مجنون أو ساحر أو كاهن أو شاعر، وبالتالي فالقرآن سحر أو شعر أو كهانة أو جنون. وهذا الإسفاف في إثارة الشبهات إنما يدل على مدى الهزيمة التي مُنيَ بها القوم حتى حاروا وعجزوا عن الاتفاق على طعن يوجهونه إلى الرسول ـ ﷺ ـ يلبِّسون من خلاله على الناس أمره، وذلك لأن كل هذه التهم التي كانوا يلصقونها بالرسول وبالقرآن كانت واهية وهزيلة غير مقنعة لمثيريها فضلاً عن غيرهم. وقد صور القرآن الكريم الاضطراب والحيرة اللتين وقع فيهما القوم بشأن القرآن أو الرسول بقوله تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾[1] فهذه الإضطرابات الثلاثة المتوالية تُصوّر لنا حيرتهم في الرأي وتخبطهم. ولقد عدّ القرآن الكريم هذا الاضطراب ضرباً من الضلال فقال تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ ﴾[2]. يقول الشيخ الشنقيطي ـ رحمه الله ـ: (والأظهر عندي في معنى الآية ما قاله غير واحد من أن معنى: ضربوا لك الأمثال: أنهم تارة يقولون إنك ساحر، وتارة مسحور وتارة مجنون، وتارة شاعر، وتارة كاهن، وتارة كذاب)[3].

ومن الآيات التي سجلت اتهامهم للرسول ـ ﷺ ـ بهذه الطعون ما يلي:

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ ﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ ﴾[6].

فهذه الآيات الثلاث ذكرت ثلاثة طعون من أربعة وهي: الجنون والشعر والسحر. أما الطعن بالكهانة فقد ورد ذكره ضمن الطعون التي نفاها القرآن الكريم عن الرسول ـ ﷺ ـ.

وسأقسّم الرد على هذه الإتهامات إلى قسمين: الرد الإجمالي والرد التفصيلي:

---

(١) سورة الأنبياء، آية (٥).

(٢) سورة الفرقان، آية (٩).

(٣) أضواء البيان، ج ٦/ ٢٨٤.

(٤) سورة الحجر، آية (٦).

(٥) سورة الصافات، آية (٣٦).

(٦) سورة ص، آية (٤).

أولاً: الرد الإجمالي على هذه التهم:

لقد رد القرآن رداً إجمالياً على هذه التهم، وذلك بأن نفى عن الرسول ـ ﷺ ـ هذه التهم نفياً قاطعاً، فقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾[2].

فاكتفى في هذه الآيات بمجرد نفي هذه التهم وذلك لأن الفرق واضح وبيّن بين ما جاء به الرسول ـ ﷺ ـ وما يحاولون إلصاقه به من تهم باطلة، وهو ما شهد به أهل الخبرة بأفانين الكلام منهم، مع أن بعضهم كان من أشد الناس عداوة للرسول ـ ﷺ ـ، والفضل ما شهدت به الأعداء[3]. وهذه بعض شهاداتهم:

١ ـ شهادة الوليد بن المغيرة:

يقول ابن اسحاق في السيرة: (ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سن فيهم، وقد حضر الموسم، فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويردّ قولكم بعضه بعضاً، قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نَقُل به، قال: بل أنتم فقولوا أسمع، قالوا: نقول: كاهن، قال لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة[4] الكاهن ولا سجعه، قالوا: فنقول: مجنون، قال ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقة ولا تخالُجه[5] ولا وسوسته قالوا: فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رَجَزَه وهَزَجَه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه[6]

---

(١) سورة الطور، آية (٢٩).

(٢) سورة الحاقة، آية (٣٨ ـ ٤٣).

(٣) شطر بيت شعر ـ لم أقف على قائله ـ يقول:

شهد الأنام بفضله حتى العدا ... والفضل ما شهدت به الأعداء

(٤) «زمزمة الكاهن» صوت خفي لا يكاد يُفهم (اللسان، ج ١٢/ ٢٧٤، مادة «زمم»).

(٥) أصل الإختلاج: الحركة والإضطراب، والمراد هنا اختلاج الأعضاء وتحركها عن غير إرادة (انظر اللسان، ج ٢/٢٥٨، مادة «خلج»).

(٦) هذه كلها أنواع من الشعر.

فما هو بالشعر، قالوا: فنقول: ساحر، قال: ما هو بساحر لقد رأينا السحّار وسحرَهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم[١]، قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لَعَذق وإن فرعه لجَنَاة[٢] [قال ابن هشام[٣]: ويقال لَغَدق] وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر جاء بقول هو سحر، يُفرّق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته، فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسُبُل الناس ـ حين قدموا الموسم ـ لا يمرّ بهم أحد إلا حذّروه إياه وذكروا لهم أمره)[٤].

٢ ـ شهادة عتبة بن ربيعة:

ذكر ابن إسحاق أن مفاوضات جرت بين الرسول ـ ﷺ ـ وقريش، مثّل قريشاً في هذه المفاوضات عتبة بن ربيعة ـ وكان سيداً ذا رأي في قومه ـ حيث عرض عدة أمور على الرسول ـ ﷺ ـ مقابل أن يكفّ عن النيل من آلهتهم فما كان من رسول الله إلا أن تلا عليه صدر سورة فصلت وانتهت بذلك المفاوضات وعاد عتبة بن ربيعة إلى قومه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني، واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم: فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك

---

(١) «بنفثهم ولا عقدهم» هذا إشارة إلى ما كان يفعل الساحر، إذ كان يأخذ خيطاً فيعقده ثم ينفث عليه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿من شر النفاثات في العقد﴾.

(٢) «العذق»: كل غصن له شعب، وغدق بالغين: معناه كثير الماء، ومنه قوله تعالى: ﴿ماء غدقاً﴾ «الجناة» الجَنِي هو أخذ الثمرة من شجرها، يقال جنيت الثمرة أجنيها، والمعنى فيه ثمر يجنى (انظر مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس. تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩، ج ١/ ٤٨٢ مادة «جني»).

(٣) هو العلامة النحوي الأخباري، أبو محمد، عبد الملك بن هشام الذُّهلي السدوسي، سمع السيرة النبوية من زياد البكّائي ـ صاحب ابن إسحاق ـ وهذبها، مات سنة ثمان عشرة ومئتين. (انظر سير أعلام النبلاء، ج ١٠/ ٤٢٨ وما بعدها).

(٤) سيرة ابن هشام، ج ١/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم)[١].

٢ ـ شهادة النضر بن الحارث:

قال ابن اسحاق: «فقال ـ أي النضر بن الحارث ـ يا معشر قريش، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر، لا والله، ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم، وقلتم: كاهن، لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجهم، وسمعنا سجعهم، وقلتم: شاعر، لا والله ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه، وقلتم: مجنون، لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقة ولا وسوسته ولا تخليطه، يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم»[٢].

٤ ـ شهادة أنيس[٣] الغفاري:

عن عبد الله بن الصامت[٤] قال: قال أبو ذر: خرجنا من قومنا غفار، وكانوا يحلون الشهر الحرام. فخرجت أنا وأخي أنيس وأمُّنا. ـ إلى أن قال ـ فقال أنيس: إن لي حاجة بمكة فاكفني. فانطلق أنيس حتى أتى مكة. فراث عليّ[٥]. ثم جاء فقلت: ما صنعت؟ قال: لقيت رجلاً بمكة على دينك. يزعم أن الله أرسله. قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون: شاعر، كاهن، ساحر ـ وكان أنيس أحد الشعراء ـ قال أنيس: لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر[٦] فما يلتئم على لسان أحد بعدي، أي شعر. والله إنه لصادق، وإنهم لكاذبون)[٧].

---

(١) انظر سيرة ابن هشام، ج ١/٣١٣ ـ ٣١٤.

(٢) سيرة ابن هشام، ج ١/٣١٩.

(٣) هو أنيس بن جنادة الغفاري، أخو أبي ذر، وكان أكبر منه، روى مسلم قصة إسلامه، (انظر: الإصابة، ج ١/٧٦).

(٤) هو عبد الله بن الصامت الغفاري، روى عن عمه أبي ذر وعمر وعائشة وغيرهم، وثقه العلماء، مات ما بين السبعين إلى الثمانين. (تهذيب التهذيب، ج ٥/ ٢٦٤).

(٥) فراث عليّ: أي أبطأ.

(٦) «أقراء الشعر» أي طرقه وأنواعه (صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٦/٢٨).

(٧) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة ـ باب من فضائل أبي ذر رضي الله عنه ـ، ج ٤/(١٩١٩ ـ ١٩٢٠ م).

هذه أربع شهادات، ثلاث منها صدرت عن أعدى أعداء رسول الله الحريصين كل الحرص على إبطال أمره يعترفون فيها أن القرآن الكريم ليس من جنس الشعر أو السحر أو الكهانة أو الجنون، إذن لم يحملهم على الطعن في القرآن إلا لإرضاء قومهم والتمادي في الكفر والضلال والحرص على الدنيا والرياسة.

ثانياً: الرد التفصيلي على هذه الاتهامات:

١ ـ الرد على تهمة الجنون:

لقد دعا القرآن الكريم المشركين مثنى وفرادى أن يتجردوا للتفكر في حال النبي ـ ﷺ ـ وحال ما يدعو إليه فقال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾[1].

يقول الشوكاني ـ رحمه الله ـ: «والمراد بالقيام: القيام بطلب الحق وإصداق الفكر فيه، «ثم تتفكروا» في أمر النبي وما جاء به من الكتاب، فإنكم عند ذلك تعلمون أن «ما بصاحبكم من جنة» وذلك لأنهم كانوا يقولون: «إن محمداً مجنون، فقال الله سبحانه، قل لهم اعتبروا أمري بواحدة، وهي أن تقوموا لله، وفي ذاته مجتمعين، فيقول الرجل لصاحبه هلمّ، فلنتصادق، هل رأينا بهذا الرجل من جنة: أي جنون أو جربنا عليه كذباً، ثم ينفرد كل واحد عن صاحبه فيتفكر وينظر، فإن في ذلك ما يدل على أن محمد ـ ﷺ ـ صادق وأنه رسول من عند الله، وأنه ليس بكاذب ولا ساحر ولا مجنون وهو معنى قوله «إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد» أي ما هو إلا نذير لكم بين يدي الساعة»[2]. فنبّه سبحانه أن نتيجة التفكر بتجرد عن الأهواء والأغراض سيؤدي بهم إلى الاعتراف ببراءته من الجنون (وكيف يمكن لمجنون أن يأتي بمثل ما أتى به من الدلائل القاطعة، والشرائع الكاملة؟!)[3]. وفي وصف النبي ـ ﷺ ـ في هذه الآية وآية التكوير[4]. «بصاحبكم» تذكير لهم بأنهم يعرفونه من أول نشأته إلى قبيل ادعائه النبوة معرفة الصاحب لصاحبه، يعرفون مدخله ومخرجه، ويعترفون بسمو أخلاقه وزكاة نفسه ورزانة فكره وحسن تدبيره، لذلك أودعوا عنده

---

(١) سورة سبأ، آية (٤٦).

(٢) فتح القدير للشوكاني، ج ٤/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤.

(٣) التفسير الكبير، ج ٢٣/ ١١١.

(٤) الآية هي: ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾ آية (٢٢).

أغلى أموالهم واثقين بأمانته، وحكّموه في أشد الأزمات مستنيرين برجاحة عقله. فكيف يأتمنون مجنوناً، وكيف يرضون حكم مجنون إن كانوا صادقين في دعواهم؟! لهذا أنكر عليه دعواهم بقوله: ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾[1] يقول الرازي ـ رحمه الله ـ: «نبّه سبحانه بذلك على أنهم عرفوا منه قبل ادعائه الرسالة كونه في نهاية الأمانة والصدق وغاية الطهر من الكذب والأخلاق الذميمة، فكيف كذبوه بعد أن اتفقت كلمتهم على تسميته بالأمين؟!»[2].

ويُقسم الله لنبيه في صدور سورة القلم بثلاثة أمور بـ«ن» وبالقلم، وبما يسطرون ـ أي ما يكتبون ـ جاعلاً جواب القسم تبرئته من تلك الفرية الظالمة التي رماه المشركون بها فقال تعالى: ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ ﴾[3] ثم قرن هذا النفي بما يؤكد براءته من الجنون، فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[4] وكفى بها شهادة تصدر من رب العالمين. يقول الرازي ـ رحمه الله ـ: «اعلم أن هذا تعريف لمن رماه بالجنون بأن ذلك كذب، وخطأ وذلك لأن الأخلاق الحميدة والأفعال المرضية كانت ظاهرة منه، ومن كان موصوفاً بتلك الأخلاق والأفعال لم يجز إضافة الجنون إليه لأن أخلاق المجانين سيئة»[5] وزيادة على هذا فإن رسول الله ـ ﷺ ـ لم يكن متصفاً بالأخلاق الحميدة فحسب، بل كان متحلياً بأكمل الأخلاق وأعلى المنازل والدرجات فيها، لهذا وصف الله خُلقه بأنه عظيم.

٢ ـ الرد على تهمتي السحر والكهانة:

إن السحر والكهانة تقومان أساساً على الكذب والتمويه وادعاء علم الغيب. فمن معاني السحر ـ كما مر معنا[6] ـ الخداع وتخيلات لا حقيقة لها، نحو ما يفعله المشعبذ بصرف الأبصار عما يفعله لخفة يده. والكهانة كما يعرّفها ابن حجر[7]

(١) سورة المؤمنون، آية (٦٩).
(٢) التفسير الكبير، ج ٢٣/ ١١١.
(٣) سورة القلم، آية (٢).
(٤) سورة القلم، آية (٤).
(٥) التفسير الكبير، ج ٣٠/ ٨٠.
(٦) انظر ص ١٢٨ من البحث.
(٧) هو الإمام الحافظ الشهير، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني أصله من عسقلان بفلسطين =

ـ رحمه الله ـ: (ادعاء علم الغيب كالإخبار بما سيقع في الأرض مع الاستناد إلى سبب. والأصل فيه استراق الجنّي السمع من كلام الملائكة فيلقيه في أذن الكاهن)[1]، كما أخبر بذلك رسول الله ـ ﷺ ـ في الحديث الذي ترويه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: (سأل ناس رسول الله ـ ﷺ ـ عن الكهان فقال: ليس بشيء فقالوا: يا رسول الله، إنهم يحدثوننا أحياناً بشيء فيكون حقاً، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنّي فيقرها في أذن وليه، فيخلطون معها مائة كذبة)[2]. فإذا عرفنا هذا عن السحرة والكهان فلنقارن بين شخصية رسول الله وشخصية كل من الساحر والكاهن لنرى البون الشاسع بين هاتين الشخصيتين من جهة وبين طبيعة أعمال كل شخصية من جهة أخرى. يقول الدكتور إبراهيم زيد الكيلاني: «إن الدراسة العميقة المتأملة لشخصية محمد ـ ﷺ ـ الذي يحب العزلة بعيداً عن أعين الناس يعبد ربه في حراء، وإذا خالط الناس خالطهم بالأمانة والصدق والعفة يجد اختلافاً جوهرياً بين هذه الشخصية وشخصية الساحر أو الكاهن القائمة على خداع العقول بالنبوءة المزعومة أو خداع النظر بالأعمال السحرية»[3] وإنا لنجد النبي ـ ﷺ ـ في عشرات الآيات يعلن براءته من كل ما يدعيه الكهان والسحرة لأنفسهم من الإتيان بخوارق العادات أو الاطلاع على الغيب أو القدرة على النفع أو الضر ـ إلا بإذن الله ـ من هذه الآيات:

قوله تعالى على لسان رسوله: ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾[4].

وكقوله: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ

= ومولده بمصر سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة، له تصانيف لا تحصى، من أشهرها «فتح الباري شرح صحيح البخاري» و «لسان الميزان» و «تهذيب التهذيب» و «تقريب التهذيب» و «بلوغ المرام من أدلة الأحكام» وغيرها. توفي سنة اثنتين وخمسين وثمان مئة (انظر: البدر الطالع، ج ١/٨٧ وما بعدها، والأعلام، ج ١/١٧٨).

(١) فتح الباري لابن حجر، ج ١٠/٢٢٧.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الطب، باب الكهانة، ج ٥/٢١٧٣.

(٣) معركة النبوة مع المشركين، لإبراهيم زيد الكيلاني، ص ٤٥ (مكتبة الأقصى، عمان ـ الأردن ـ الأولى ـ ١٤١٠ هـ).

(٤) سورة الأعراف، آية (١٨٨).

أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[١].

وإذا تأملنا مصدري السحر والكهانة وجدناهما الشيطان الرجيم وما ذلك إلا لتناسب الطباع بين الطرفين. ولما كانت طباع الشياطين مباينة لطباع محمد ـ ﷺ ـ حصلت النفرة وتَعذّرت الإلفة بين الطرفين، وهذا ما نصّ عليه القرآن الكريم بقوله: ﴿ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٢٢٢﴾ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾[٢] يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «فالشياطين تنزل على من يحصل مقصودها بنزولها عليه، وهو المناسب لها في الكذب والإثم. أما الصادق البار، فلا يحصل به مقصود الشياطين، فإن الشيطان لا يطلب الصدق والبر، وإنما يطلب الكذب والفجر. ومحمد ـ ﷺ ـ ما زال قومه يعرفونه بينهم بالصادق الأمين، لم تجرب عليه كذبة واحدة»[٣].

وأخيراً، بالنظر إلى طبيعة أعمال كلٍ شخصية وأثر ما تدعو إليه، نجد أن كلاً من الساحر والكاهن يَسعَون في الأرض فساداً، وأثر أعمالهما تفريق الشمل وتمزيق الوحدة ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ .. ﴾[٤] ومن هذا المنطق جاء التحريم الجازم عن إتيانهم وتصديقهم فيما يقولون ويدّعون. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: **«من أتى عرّافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أُنزل على محمد»**[٥]. أما النبي، فإن من أهم مهماته الإصلاح بين الناس، وتأليف القلوب على الحق، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم. ولما كانت طبيعة ما تدعوا إليه

---

(١) سورة الأنعام، اية (٥٠).

(٢) سورة الشعراء، آية (٢٢١ ـ ٢٢٣).

(٣) الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، ج ٤/ ٤٠.

(٤) سورة البقرة، آية (١٠٢).

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (ج ١/ ٨) وقال صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وأحمد في مسنده، وقال أحمد شاكر، إسناده صحيح، انظر: المسند / شاكر (ج ٩/ ١٥٣).

الشياطين تختلف عن طبيعة ما يدعو إليه القرآن نفى الله أن يكون للشياطين إلى هذا القرآن سبيل فقال: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾[1]. يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ (وما يليق هذا القرآن بالشياطين، وهو يدعو إلى الهدى والصلاح والإيمان، والشياطين تدعوا إلى الضلال والفساد والكفر)[2].

٣ ـ الرد على تهمة الشعر:

لقد اتهم المشركون رسول الله ـ ﷺ ـ بأنه شاعر وأن القرآن شعر. والغرض من ذلك، ادعاء أن هذا القرآن من تأليف محمد ـ ﷺ ـ وأنه لا حقيقة له، بل هو مجرد تخيلات وأوهام ـ كما هو الحال في الشعر الجاهلي ـ فرد عليهم بنفي تعليمه الشعر لنبيه، وأكد ذلك باستحالة تأتّي الشعر منه ـ حتى لو حاول ـ فقال تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ ﴾[3]. والمعنى: (ما يصح له ولا يتطلّب لو طلبه، أي: جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يأت له ولم يتسهل)[4] ويشهد لهذا واقع النبي ـ ﷺ ـ حيث لم يثبت عنه قول بيت شعر قط على سبيل القصد، فربما خرج منه كلاماً موزوناً بغير قصد فلا يعتبر هذا من ذاك، كقوله يوم حنين:

أنا النبي لا كذب ... أنا ابن عبد المطلب

والدليل على استحالة صدور الشعر عنه ـ ﷺ ـ ما رواه ابن جرير أنه قيل لعائشة رضي الله عنها: (هل كان رسول الله ـ ﷺ ـ يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت كان أبغض الحديث إليه غير أنه كان يتمثل ببيت أخي بني قيس فيجعل آخره أوله وأوله آخره فقال له أبو بكر رضي الله عنه: إنه ليس هكذا فقال نبي الله: إي والله ما أنا بشاعر ولا ينبغي لي)[5].

---

(١) سورة الشعراء، آية (٢١٠ ـ ٢١٢).

(٢) في ظلال القرآن، ج ٥/ ٢٦١٩.

(٣) سورة يس، آية (٦٩).

(٤) الكشاف، ج ٣/ ٢٩٢.

(٥) جامع البيان، ج ٢٣/ ١٩، والبيت هو لطرفة بن العبد في معلقته المشهورة:

ستُبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ... ويأتيك بالأخبار من لم تزود

فكان رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «ويأتيك من لم تزود بالأخبار».

وإذا ما قارنا بين موضوعات القرآن وموضوعات الشعر وجدنا الفرق الشاسع بينهما. فالقرآن لم يتقيّد بأوزان الشعر وقوافيه، ولم يعن بأغراض الشعر ومعانيه، كالبكاء على الأطلال، والحنين إلى الأوطان، وتشبيه الإبل والصحراء، ووصف الخيل والليل، وذكر الحروب وما يكون فيها من كرٍ وفر، والمديح والهجاء، والغزل والرثاء وغيرها[1] بينما نجد أن القرآن يتحدث عن قضايا تختلف اختلافاً جذرياً عن قضايا الشعر الجاهلي، يتحدث عن قضايا التوحيد والشرك، والرسالة والساعة، والجنة والنار، والعبادة والأخلاق، والحسنة والسيئة، والطاعة والمعصية، والسعادة والشقاء، والعدل والظلم، والقصص والأمثال.. إلخ هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد أبرز الله أخص خصائص الشعراء - الجاهليين - وهو ضياع المنهج وتقلب المواقف والمبادىء خلافاً لمنهج الرسول الثابت وهدفه المحدد فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ ﴾[2]. يقول الشوكاني - رحمه الله -: «أي ألم تر أنهم في كل فن من فنون الكذب يخوضون، وفي كل شعبة من شعب الزور يتكلمون، فتارة يمزقون الأعراض بالهجاء، وتارة يأتون من المجون بكل ما يمجه السمع ويستقبحه العقل، وتارة يخوضون في بحر السفاهة والوقاحة، وينعون الحق ويمدحون الباطل، ويرغبون في فعل المحرمات، ويدعون الناس إلى فعل المنكرات كما تسمعه في أشعارهم من مدح الخمر والزنا واللواط ونحو هذه الرذائل الملعونة. «وأنهم يقولون ما لا يفعلون» أي: يقولون فعلنا وفعلنا وهم كذبة في ذلك، فقد يدلون بكلامهم على الكرم والخير ولا يفعلونه، وقد ينسبون إلى أنفسهم من أفعال الشر ما لا يقدرون على فعله كما تجده في كثير من أشعارهم من الدعاوى الكاذبة والزور الخالص المتضمن لقذف المحصنات، وأنهم فعلوا بهن كذا وكذا، وذلك كذب محض وافتراء بحت»[3].

المطلب الرابع: شبهة بشرية الرسول - ﷺ -:

سلك كفار قريش نهج الأمم السابقة في الاعتراض على بشرية الرسل عليهم السلام. وأثاروا حولها شبهات واتخذوها ذريعة لتكذيبه فقالوا مستنكرين:

---

(١) انظر: مرآة الإسلام لطه حسين (دار المعارف بمصر - ١٩٦٦) ص ١٤٤.

(٢) سورة الشعراء، آية (٢٢٥ - ٢٢٦).

(٣) فتح القدير، للشوكاني، ج ٤/ ١٢١.

﴿ . . . أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾[1].

ويمكن تلخيص شبهتهم حول بشرية الرسول ـ ﷺ ـ في أمرين:

الأول: إنكارهم الوحي إلى البشر وتعجبهم من ذلك:

روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس قال: (لما بعث الله محمداً رسولاً، أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر منهم فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد ـ ﷺ ـ فأنزل الله تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ . . ﴾[2] وأنزل: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا ﴾[3][4].

الثاني: ادعاؤهم مماثلة الرسول ـ ﷺ ـ لهم في كل شيء:

قال تعالى: ﴿ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ . . ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ . . ﴾[6].

وكان منهج القرآن في تَفْنيد هذه الشبهة على النحو التالي:

١ ـ بين الله لهم أن محمداً ليس بدعاً من الرسل في كونه من البشر.

فالله قد أرسل من قبله رسلاً إلى أقوامهم قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ . . ﴾[7].

وإذا كان الأمر كذلك فما وجه الغرابة في الإيحاء إلى محمد ـ ﷺ ـ؟! لذلك

---

(١) سورة الإسراء، آية (٩٤).

(٢) سورة يونس، آية (٢).

(٣) سورة النحل، آية (٤٣).

(٤) جامع البيان / شاكر، ج ١٥/١٣، وانظر لباب النقول ص ١٢٨.

(٥) سورة الأنبياء، آية (٣).

(٦) سورة الفرقان، آية (٧).

(٧) سورة غافر، آية (٧٨).

أمره الله أن يرد عليهم بقوله: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾[1]، (أي لست بأول رسول طرق العالم، بل قد جاءت الرسل من قبلي، فما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتى تستنكروني وتستبعدون بعثي إليكم فإنه قد أرسل الله جلّ وعلا قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم)[2] وجميع الرسل الذين أرسلهم الله قبل محمد - ﷺ - من لدن نوح إلى عيسى عليهم السلام كانوا بشراً، لمناسبة الرسول للمرسل إليهم، قال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾[3][4].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ .. ﴾[5] يقول ابن عطية* - رحمه الله -: «وقوله تعالى: ﴿وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً﴾ رد على فرقة منهم كانوا يستبعدون أن يبعث الله من البشر رسولاً يشفُّ[6] على نوعه من البشر بهذا القدر من الفضل، فمثّل الله تعالى في الرد عليهم بمن سبق من الرسل من البشر»[7] وحيث إن الرسل بشر فلا غرابة أن يتمتعوا بكل صفات البشر المادية التي هي من مقتضيات الجسدية، فيأكلون ويشربون وينكحون ويمرضون ويموتون. قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ﴾[8] وإذا كان الأمر كذلك فلا معنى لاعتراض الكفار على رسول الله في أكله وشربه وسعيه.. فحاله من حال الأنبياء الذين سبقوه قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾[9].

---

(١) سورة الأحقاف، آية (٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ج ٤/ ١٦٧.

(٣) سورة الإسراء، آية (٩٥).

(٤) تقدم الحديث عن تناسب الرسول من البشر للبشر بالتفصيل في ص ١١٧.

(٥) سورة الأنبياء، آية (٧).

* هو الإمام الكبير، أبو محمد، عبد الحق بن غالب بن عطية الغرناطي، كان فقيهاً عالماً بالتفسير والأحكام والأدب واللغة، ألّف الكتاب البديع «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» توفي سنة إحدى وأربعين وخمسمائة (طبقات المفسرين للداوودي، ج ١/ ٢٦٥ وما بعدها).

(٦) الشَّفُّ: الربح والفضل والزيادة (النهاية، ج ٢/ ٤٨٨).

(٧) المحرر الوجيز، ١٠/ ١٢٦ - ١٢٧.

(٨) سورة الأنبياء، آية (٨).

(٩) سورة الرعد، آية (٣٨).

وقال كذلك: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ . . ﴾ [1] يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ «يقول تعالى مخبراً عن جميع من بعثه من الرسل المتقدمين أنهم كانوا يأكلون الطعام ويحتاجون إلى التغذي به ويمشون في الأسواق للتكسب والتجارة وليس ذلك بمناف لحالهم ومنصبهم، فإن الله تعالى جعل لهم من السمات الحسنة، والصفات الجميلة، والأقوال الفاضلة، والأعمال الكاملة، والخوارق الباهرة، والأدلة الظاهرة ما يستدل به كل ذي لب سليم، وبصيرة مستقيمة على صدق ما جاءوا به من الله . . »[2].

٢ ـ بين الله لهم أن النبوة اصطفاءٌ منه سبحانه:

فالرسالة اصطفاء من الله لا دخل لها بالموازين المادية أو الاعتبارات الاجتماعية. فالله يصطفي من يشاء لرسالته وهو أعلم من يصلح لها. قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[3] وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ . . ﴾[4]. ولا منافاة بين الاصطفاء وبشرية الرسل ـ عليهم السلام ـ فهم بشر قبل الرسالة وبعدها إلا أن الله ميّز بينهم وبين سائر البشر بإنزال الوحي عليهم وهو ما حرص الأنبياء على لفت انظار قومهم إليه. قال تعالى: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ . . ﴾[5] وأمر رسولنا ـ ﷺ ـ أن يقول للكفار: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾[6].

وبديهي أن اصطفاء الرسل يصاحبه تأهيل الله لهم لتلقي الوحي وتحمّله، قال تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾[7]. ولو أدرك الجاحدون هذه النقطة لما أثاروا شبهاً حول بشرية الرسل ـ إلا أن يكون تعنتاً.

---

(١) سورة الفرقان، آية (٢٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ج ٣/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥.

(٣) سورة الحج، آية (٧٥).

(٤) سورة الأنعام، آية (١٢٤).

(٥) سورة إبراهيم، آية (١١).

(٦) سورة الكهف، آية (١١٠).

(٧) سورة طه، آية (٣٩).

المطلب الخامس: شبهة إنكار البعث بعد الموت:

لقد كانت قضية البعث بعد الموت ـ على بداهتها ووضوحها ـ من أكثر القضايا ـ بعد قضية الألوهية ـ التي أثار المشركون حولها الجدل والنقاش. فما كانوا يتحملون البتة أن يقول لهم الرسول ـ ﷺ ـ أن هناك بعد هذه الحياة بعثاً ونشوراً، وجزاءً وحساباً، ثم جنةً أو ناراً. وقد بلغ من شدة تكذيبهم بهذه القضية أنهم اجتهدوا في الحلف، وأغلظوا في الأيمان، أنه لا يقع بعث بعد الموت.

قال تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾(1) بل عدّوا مدّعي هذه القضية إما مفترٍ على الله كذباً وإما مجنون لا يعقل ما يقول، قال تعالى: ﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ﴾(2).

والشبهة التي دعتهم إلى إنكار البعث سجلتها الآيات الآتية:

قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾(3).

وقال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾(4).

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ ﴾(5).

---

(1) سورة النحل، آية (٣٨).
(2) سورة سبأ، آية (٧ ـ ٨).
(3) سورة الإسراء، آية (٤٩).
(4) سورة يس، آية (٧٨) وسبب نزول الآية كما أخرجه الحاكم في مستدركه وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (جاء العاص بن وائل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ، بعظم حائل ففتته فقال: يا محمد أيبعث هذا بعد ما أرم؟ قال نعم. يبعث الله هذا ثم يميتك ثم يُحييك ثم يدخلك نار جهنم) ولابن أبي حاتم من طرق عن مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدي نحوه، وسموا الإنسان أبي بن خلف وقيل غير ذلك. (مستدرك الحاكم، كتاب التفسير، سورة يس، ج ٢/٤٢٩، وانظر: لباب النقول في أسباب النزول ص ١٨٢ ـ ١٨٣).
(5) سورة سبأ، آية (٧).

وقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ ﴾[2].

وخلاصة شبهتهم أنهم يقولون: أيعقل أن الإنسان إذا زهقت روحه، وانقطع نَفَسُه، وتمزق جسده، وبليت عظامه أن يجتمع هذا الرفات المتناثر وتدب فيه الحياة ويرجع إنساناً سوياً كما كان؟!!

ومردّ هذه الشبهة سببان:

الأول: قياس قدرة الله بقدرتهم.

الثاني: الغفلة عن النشأة الأولى.

إن قياس القوم قدرة الله بقدرتهم هو الذي أدى بهم إلى هذه النتيجة ـ أعني إنكار البعث ـ وذلك أن قُدْرة البشر محدودة مهما عظُمت، فإذا نظروا إلى قضية البعث من خلال قدراتهم انتهوا إلى نتيجة واحدة هي إنكار البعث. أما قدرة الله فهي قدرة مطلقة لا يحدها حدود ولا يعجزها شيء ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾[3]. يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ: «إنهم يرون هذا البعث أمراً عسيراً بعد الموت والبلى وتفرق الأشلاء والذرات. وغفلوا عن معجزة الحياة الأولى... وغفلوا عن طبيعة القدرة الإلهية، وأنها لا تقاس إلى تصورات البشر وطاقاتهم، وأن إيجاد شيء لا يكلف تلك القدرة شيئاً، فيكفي أن تتوجه الإرادة إلى كون الشيء فيكون.. وإنما يستهول الأمر ويستصعبه من يحسبون بحساب البشر، وينظرون بعين البشر، ويقيسون بمقاييس البشر، ومن هنا يُخطئون التصور والتقدير»[4]. ويقول في موضع آخر: «إن الله سبحانه يخلق بلا كلفة ولا جهد ولا يختلف بالقياس إليه خلق الكبير وخلق الصغير.. يكون هذا الشيء سماءً أو أرضاً، ويكون بعوضة أو نخلاً. هذا وذلك سواء أمام الكلمة.. كن فيكون! ليس هناك صعب ولا سهل. وليس هناك

---

(١) سورة مريم، آية (٦٦).

(٢) سورة النازعات، آية (١٠ ـ ١١).

(٣) سورة يس، آية (٨٢).

(٤) اليوم الآخر في ظلال القرآن، ٢٤ ـ ٢٥.

قريب ولا بعيد. فتوجه الإرادة لخلق الشيء كاف وحده لوجوده كائناً ما يكون»[1].

أما السبب الثاني: وهو الغفلة عن النشأة الأولى، فلو أن القوم تأملوا نشأتهم الأولى، وأدركوا أنهم صاروا بعد أن لم يكونوا شيئاً، لانتفى هذا السؤال: ﴿ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ ﴾[2].

يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ: «إن المشيئة التي تبث الحياة في صور الحياة وأشكالها في هذه الأرض، هي المشيئة التي ترد الحياة في الموات. وإن القَدَر الذي يجري بإخراج الحياة من الموات في الدنيا لهو ذاته القَدَر الذي يجري بجريان الحياة في الموتى مرة أخرى.. ولكن الغفلة عن النشأة الأولى تستهول هذا الأمر. يقول سبحانه: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ ﴾[2] إنه اعتراض منشؤه غفلة الإنسان عن نشأته الأولى. فأين كان؟ وكيف كان؟ إنه لم يكن ثم كان، والبعث أقرب إلى التصور من النشأة الأولى لو أنه تذكر ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ ﴾[3]»[3].

رد القرآن على شبهة المنكرين للبعث:

لقد رد القرآن الكريم على هذه الشبهة بعدة ردود مبثوثة في آياته، وهذه الردود جاءت على شكل استدلالات القرآن على إمكانية البعث بعد الموت. وسأكتفي بإيراد الصريح منها لكثرتها:

١ ـ الاستدلال على المعاد بالبداءة:

يقول تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ .. ﴾[4].

---

(١) نفس المراجع، ص ٣٠ ـ ٣١.
(٢) سورة مريم، آية (٦٦).
(٣) سورة مريم، آية (٦٧).
(٤) اليوم الآخر في ظلال القرآن، ص ٢٧.
(٥) سورة الإسراء، آية (٤٩ ـ ٥١).

ويقول تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾[2].

ففي هذه الآيات استدل الله على البعث بلفت أنظار المنكرين للبعث إلى قضية بدهية ـ لو تأملوها بتجرد ـ وهي:

أن من استطاع أن يُوجد الشيء من العدم، أمكنه إعادة تكوينه عند العطب، بل إن إعادة تكوينه أسهل من ابتداء تكوينه. ولله المثل الأعلى، فقد خلق الإنسان من العدم فهل يعجز بعد ذلك عن أن يعيد خلقه بعد أن يفنى؟! وقد أشار الله إلى هذه البدهية في الآية الأولى بقوله: ﴿قل الذي فطركم أول مرة﴾، وفي الآية الثانية بقوله: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده﴾، وفي الآية الثالثة بقوله: ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة﴾ يقول شارح العقيدة الطحاوية[3]: «فاحتج بالإبداء على الإعادة وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى. إذ كل عاقل يعلم ضرورياً أن من قدر على هذه قدر على هذه وأنه لو كان عاجزاً عن الثانية لكان عن الأولى أعجزَ وأعجزَ»[4].

ونلاحظ في الآية الثانية تأكيد هذه البدهية بقوله: ﴿وهو أهون عليه﴾ وإن كان في ميزان الله ليس هناك ما هو سهل وأسهل، أو هين وأهون، لأنها كلها بين الكاف والنون، ولكن الله خاطب القوم بمقاييسهم ومعقولاتهم. كذلك نلاحظ في الآية الثالثة تحدي الله لمنكري البعث حيث أظهر لهم قدرته على البعث حتى لو انقلبوا بعد موتهم إلى حجارة أو حديد أو غيره ـ مما ليس فيه رائحة البشرية وذكرى الحياة ـ فكيف وهم لا يملكون أن يكونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر، بل إن أثر البشرية وذكرى الحياة باق فيهم حيث يعاد خلقهم من عظم عَجْب الذنب، كما في الصحيحين عن النبي ـ ﷺ ـ «وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عَجْبُ

---

(١) سورة الروم، آية (٢٧).

(٢) سورة يس، آية (٧٨ ـ ٧٩).

(٣) هو علي بن علي ابن أبي العز الدمشقي، المتوفى سنة ٧٩٢ هـ.

(٤) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز تحقيق شعيب الأرنؤوط، ص ٤٠٠ (مكتبة دار البيان ـ دمشق ـ الأولى ١٤٠١ هـ).

الذنب[1] ومنه يُركّب الخلق يوم القيامة»[2].

٢ ـ الاستدلال على المعاد بخلق السموات والأرض:

يقول الله تعالى رداً على منكري البعث: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾[3].

ويقول أيضاً: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾[4]. فاستدل سبحانه على المعاد بخلق ما تقرر في العقول أنه أعظم من خلق الإنسان ـ أول مرة وإعادته مرة ثانية ـ ولا خلاف في أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الإنسان ـ بالنظر إلى مقاييس البشر ـ قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾[5]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن ساق هذه النصوص: «فإنه من المعلوم ببداهة العقول أن خلق السموات والأرض أعظم من خلق أمثال بني آدم والقدرة عليه أبلغ وأن هذا الأيسر أولى بالإمكان والقدرة من ذلك»[6].

ويقول شارح العقيدة الطحاوية: «ثم أكد هذا ـ يعني المعاد ـ بأخذ الدلالة من الشيء الأجل الأعظم على الأيسر الأصغر، فإن كان عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل فهو ما دونه بكثير أقدر وأقدر، فمن قدر على حمل قنطار فهو على حمل أوقية أشد اقتداراً، فقال سبحانه: **﴿أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم﴾** فأخبر أن الذي أبدع السموات والأرض على جلالتهما وعظم شأنهما وكبر أجسامهما وسعتهما وعجيب خلقهما أقدر على أن يحيي عظاماً صارت رميماً فيردها إلى حالتها الأولى»[7].

(١) عجب الذنب بفتح المهملة وسكون المعجمة هو العظم الذي في أسفل الصلب عند العجز ويسمى العصعص، (نهاية غريب الحديث لابن الأثير، ج ٣، ص ١٨٤، ٢٤٨).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة الزمر، ج ٤/١٨١٣، ورواه مسلم في صحيحه واللفظ له، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ما بين النفختين، ج ٤/ ٢٢٧١.

(٣) سورة يس، آية (٨١).

(٤) سورة الأحقاف، آية (٣٣).

(٥) سورة غافر، آية (٥٧).

(٦) مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ج ٣/ ٢٩٩.

(٧) شرح العقيدة الطحاوية، ص ٤٠٠ ـ ٤٠١.

٣ ـ الاستدلال على المعاد بإحياء الأرض وإخراج النبات:

يقول تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾[2].

ويقول تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾[3].

فهذه الآيات تلفت أنظار المنكرين للبعث إلى ظاهرة كونية مألوفة متكررة وهي إحياء الأرض بعد موتها بنزول المطر. وقد استدل القرآن على المعاد بهذه الظاهرة بضرب المثل، حيث شبّه الجثث الهامدة والعظام البالية بالأرض الميتة، وشبه اهتزاز هذه الأرض عند خروج النبات بخروج الناس من الأجداث للحشر والنشر. وقد بين النبي ـ ﷺ ـ هذا التشابه بقوله: «ثم ينزل الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل»[4].

ومهما كانت المسافة شاسعة بين عناصر التراب الأولية الساذجة والنطفة المؤلفة من الخلايا المنوية أو خلايا عجب الذنب، إلا أن سر الحياة واحد، ذلك السر الذي يبث الله به الحياة في الكائنات ـ مهما جلّت أو حقرت ـ والذي لا يعلمه أحد سواه ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾[5][6].

---

(١) سورة الأعراف، آية (٥٧).
(٢) سورة فاطر، آية (٩).
(٣) سورة فصلت، آية (٣٩).
(٤) صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ما بين النفختين، ج ٤/ ٢٢٧١.
(٥) سورة الإسراء، آية (٨٥).
(٦) انظر اليوم الآخر في ظلال القرآن، ص ٢٨.

٤ ـ الاستدلال على المعاد بحكمة الله وعدله:

يقول تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾[١].

ويقول تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾[٢].

فالله الذي وصف نفسه «بالحكيم» منزه عن العبث المنافي للحكمة، فعدله وحكمته يقتضيان أن يكون هناك يوم آخر ـ بعد هذه الحياة ـ، تُنصب فيه موازين الحق ليكافىء المحسن على إحسانه ويعاقب المسيىء على إساءته، وإلا استوى المسيىء والمحسن والعاصي والمطيع، والمؤمن والكافر، ولانتفى بذلك عدل الله وبطلت حكمته في الخلق، وهذا محال حيث قال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾[٣].

وفي الآية الثانية أبرز الله في رده على منكري البعث قضيتين: دقة علمه ـ سبحانه ـ الذي لا يغيب عنه مثقال حبة في السموات ولا في الأرض، ليدل على إمكانية بعثهم مهما كان وضعهم. وعدله حيث علّل إتيان الساعة بأنه لمجازاة المؤمنين على أعمالهم الصالحة وعقاب الكفار على أعمالهم السيئة[٤].

المطلب السادس: مؤامرات اليهود في التشكيك بالإسلام:

دأب اليهود على بث الشكوك في الإسلام بقصد زعزعة ثقة المسلمين ـ الناشئين ـ بالإسلام. ولا يستغرب ذلك من اليهود، فهم قومٌ بهت وأهل غدر وخيانة

---

(١) سورة المؤمنون، آية (١١٥).

(٢) سورة سبأ، آية (٣ ـ ٥).

(٣) سورة ص، آية (٢٧ ـ ٢٨).

(٤) انظر التفسير الكبير، ج ٢٥/ ٢٤١.

ـ كما وصفهم أحد أحبارهم بعد إسلامه[1].

والمؤامرات ـ التي حبكها يهود ضد الإسلام منفردين أو بالتعاون مع المشركين أو بالاتفاق مع المنافقين ـ كثيرة، إلا أنني سأكتفي بذكر ثلاث مؤامرات انفرد بها اليهود، وهي:

١ ـ كتمهم الحق وتلبيس الحقائق.

٢ ـ إثارة الشبهات حول نسخ بعض الأحكام.

٣ ـ دخولهم في الإسلام ثم الارتداد عنه.

أولاً: كتمهم الحق وتلبيس الحقائق:

أشارت آيتان إلى هذه المؤامرة بشقّيْها، جاءت إحداهما بأسلوب النهي، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾[2] وجاءت الأخرى بأسلوب الاستفهام الإنكاري، قال تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾[3]. يقول الرازي ـ رحمه الله ـ: «اعلم أن إضلال الغير لا يحصل إلا بطريقتين، وذلك لأن الغير إن كان قد سمع دلائل الحق فإضلاله لا يمكن إلا بتشويش تلك الدلائل عليه، وإن كان ما سمعها فإضلاله إنما يمكن بإخفاء الدلائل عنه ومنعه من الوصول إليها، فقوله: ﴿**ولا تلبسوا الحق بالباطل**﴾ إشارة إلى القسم الأول وهو: تشويش الدلائل عليه، وقوله: ﴿**وتكتموا الحق**﴾ إشارة إلى القسم الثاني وهو منعه من الوصول إلى الدلائل»[4].

ولقد سخَّر اليهود علمهم بالرسول ـ ﷺ ـ لمحاربته بدل استغلال ذلك لسبق الإيمان به، ووقعوا فيما حذّرهم الله منه بقوله: ﴿ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ﴾[5]. قال ابن عباس: «أي لا تكونوا أول كافر به وعندكم فيه من

(١) هو عبد الله بن سلام.
(٢) سورة البقرة، آية (٤٢).
(٣) سورة آل عمران، آية (٧١).
(٤) التفسير الكبير، ج ٣/ ٤٣.
(٥) سورة البقرة، آية (٤١).

العلم ما ليس عند غيركم»[1] وبالإضافة إلى هذه المعرفة فإن الله قد أخذ عليهم الميثاق على لسان أنبيائهم أن يؤمنوا بمحمد - ﷺ - إن أدركوه، ولكن للأسف تنكروا لهذه المعرفة فحرفوها وخانوا رسلهم فنقضوا الميثاق!

ومن أمثلة كتمهم للحق وتزييف الحقائق ما يلي:

١ - تغييرهم صفات النبي - ﷺ - المذكورة في كتبهم:

قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[2].

أخرج ابن أبي حاتم[3] من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: نزلت في أحبار اليهود وجدوا صفة النبي - ﷺ - مكتوبة في التوراة، أكحل العين، ربعة، جعد الشعر، حسن الوجه، فمحوه حسداً وبغياً، وقالوا: نجده طويلاً، أزرق، سبط الشعر)[4].

٢ - إدعاؤهم أن الرسول الموعود هو الذي يأتي بقربان تأكله النار:

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ﴾[5]. قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في كعب بن الأشرف، وكعب بن الأسد، ومالك بن الصيف ووهب بن يهوذا وزيد بن التابوب، وفنحاص ابن عازوراء وغيرهم، أتوا رسول الله - ﷺ - فقالوا: يا محمد تزعم أنك رسول الله وأنه تعالى أنزل عليك كتاباً، وقد عهد الله إلينا في التوراة أن لا نؤمن لرسول يزعم أنه من عند الله حتى يأتينا بقربان تأكله النار، ويكون لها دوي خفيف، تنزل من السماء، فإن جئتنا بهذا صدقناك. فنزلت هذه الآية)[6].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ج ١/ ٨٧.
(٢) سورة البقرة، آية (٧٩).
(٣) هو أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم التميمي الحنظلي، الإمام الثبت ابن الإمام الثبت حافظ الرّي، أخذ علم أبيه وأبي زرعة، من تصانيفه: «التفسير المسند» وكتاب «الجرح والتعديل»، وكتاب «الزهد» و «العلل». مات سنة سبع وعشرين وثلاثمائة. (طبقات المفسرين، للداوودي، ج ١/ ٢٨٥ وما بعدها).
(٤) لباب النقول، ص ٢٠.
(٥) سورة آل عمران، آية (١٨٣).
(٦) التفسير الكبير، ج ٩/ ١٢١، وانظر: أسباب نزول القرآن للواحدي، ص ١٢٩.

واضح أن قصدهم من ذلك التشكيك في صحة نبوة محمد ـ ﷺ ـ لكن الله رد كيدهم في نحورهم ولقّن رسوله أن يرد عليهم بقوله: ﴿قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين﴾(١). والمعنى: قل لهم يا محمد إن كنتم صادقين في دعواكم فلم قتل أسلافكم ـ الذين أنتم راضون بفعلهم ـ رسل الله الذين جاؤوهم بالحجج الدالة على صدقهم بالإضافة إلى آية أكل النار للقرابين المتقبلة؟! وهذا رد دامغ لشبهتهم التي تدل على أنهم أثاروها متعنتين ومشككين ولم يكونوا طلاب حق مسترشدين أو متحققين من نبوته ـ ﷺ ـ.

٣ ـ قولهم لكفار قريش إن دينكم أهدى من دين محمد ـ ﷺ ـ:

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾(٢). أخرج ابن جرير بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان الذين حَزّبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبني قريظة: حُيَي بن أخطب، وسلام بن أبي الحقيق، وأبو رافع، والربيع بن الربيع بن أبي الحقيق، وأبو عمارة، وهوذة بن قيس، وكان سائرهم من بني النضير، فلما قدموا على قريش، قالوا: هؤلاء أحبار يهود وأهل العلم بالكتب الأُوَل، فاسألوهم: أدينكم خير أم دين محمد؟ فسألوهم، فقالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أهدى منه وممن اتبعه، فأنزل الله فيهم هذه الآيات)(٣).

وهكذا يصل حقد اليهود على الإسلام ورسوله إلى حد الزعم أن الشرك وعبادة الأصنام أهدى من التوحيد(٤)، ومهما يكن سبب حقدهم على الإسلام فإنه لا مبرر

---

(١) سورة آل عمران، آية (١٨٣).
(٢) سورة النساء، آية (٥١).
(٣) جامع البيان، شاكر ج ٨/ ٤٦٩ ـ ٤٧٠، وانظر لباب النقول، ص ٧١.
(٤) وموقف اليهود هذا بلغ من الشناعة والقبح حداً لا يغتفر بأي حال، مما دعا العالم اليهودي المعاصر ـ وهو الدكتور: إسرائيل ولفنسون ـ إلى التشنيع عليهم حيث قال ما نصه: «والذي يؤلم كل مؤمن بإله واحد من اليهود والمسلمين على السواء، إنما هو تلك المحادثة التي جرت بين اليهود وبين قريش الوثنيين حيث فضل هؤلاء النفر من اليهود أديان قريش على دين صاحب الرسالة الإسلامية «إلى أن قال» ثم إن ضرورات الحرب أباحت للأمم استعمال الحيل والأكاذيب، والتوسل بالخُدَع والأضاليل للتغلب على العدو، ولكن مع هذا كان من =

لهذا الزعم، لأنهم بهذا الزعم طعنوا في الرسالات السماوية كلها وفي مقدمتها اليهودية. ولهذا استحقوا اللعنة من الله على هذه الجريمة الشنعاء، قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾[1] يقول الرازي ـ رحمه الله ـ: «واعلم أن القوم إنما استحقوا هذا اللعن الشديد لأن الذي ذكروه من تفضيل عَبَدة الأوثان على الذين آمنوا بمحمد ـ ﷺ ـ يجري مجرى المكابرة، فمن يعبد غير الله كيف يكون أفضل حالاً ممن لا يرضى بمعبود غير الله؟! ومن كان دينه الإقبال بالكلية على خدمة الخالق والإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة، كيف يكون أقل حالاً ممن كان بالضد في كل هذه الأحوال؟!»[2].

ثانياً: إثارة الشبهات حول نسخ بعض الأحكام:

لقد حاول اليهود التشكيك في الإسلام باستغلال منهجه التربوي في نسخ الأحكام وتغييرها تمشياً مع مقتضى التدرج في تربية الأمة الإسلامية الناشئة وفق الظروف والملابسات المحيطة بها.

وكانوا يقولون: (ألا ترون إلى محمد ـ ﷺ ـ يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً، ما هذا القرآن إلا كلام محمد ـ ﷺ ـ يقول من تلقاء نفسه، وهو كلام يناقض بعضه بعضاً. فأنزل الله تعالى: ﴿ ۞ مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ ﴾[3][4].

فكان نزول هذه الآية بمثابة الطمأنة للمسلمين وتفويت الفرصة على

= واجب هؤلاء اليهود ألا يتورطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش، وألا يصرحوا أمام زعماء قريش، بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامي، ولو أدى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطلبهم، «السيرة النبوية»، لأبي الحسن الندوي، ص ٢٣٢، (المطبعة العصرية للطباعة والنشر ـ صيدا ـ لبنان، ١٣٩٩ هـ)، (مقتبس من كتاب اليهود في بلاد العرب، لولفنسون، ص ٢٣٢).

(١) سورة النساء، آية (٥٢).

(٢) التفسير الكبير، ج ١٢٩/١٠.

(٣) سورة البقرة، آية (١٠٦).

(٤) انظر: أسباب نزول القرآن للواحدي ص ٣٢، وروح المعاني، ج ٣٥١/١.

المشككين، حيث إن هذه الشبهة كانت قد بدأت تعمل عملها في بعض النفوس كما يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ: «ويبدو أن هذه الحملة الخبيثة الماكرة آتت ثمرتها الكريهة في بعض نفوس المسلمين. فأخذوا يسألون الرسول ـ ﷺ ـ في قلق وزعزعة، ويطلبون البراهين والأدلة، الأمر الذي لا يتفق مع الطمأنينة المطلقة إلى القيادة، والثقة المطلقة بمصدر العقيدة. فنزل القرآن يبين لهم أن نسخ بعض الأوامر والآيات يتبع حكمة الله الذي يختار الأحسن لعباده، ويعلم ما يصلح لهم في كل موقف. وينبههم في الوقت ذاته إلى أن هدف اليهود هو ردهم كفاراً بعد إيمانهم، حسداً من عند أنفسهم على اختيار الله لهم، واختصاصهم برحمته وفضله، بتنزيل الكتاب الأخير عليهم، وانتدابهم لهذا الأمر العظيم. ويكشف لهم ما وراء أضاليل اليهود من غرض دفين..»[(١)].

واستنكار اليهود للنسخ لا مبرر له غير الحسد، إذ ليس هناك ما يمنع وقوعه عقلاً فضلاً عن أنه ثبت وقوعه في الشرائع السابقة. ولقد ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ أمثلة لنسخ بعض الأحكام التي وقعت في الشرائع المتقدمة، فقد أحل الله لآدم تزويج بناته من بنيه ثم حرم ذلك، وأباح لنوح ـ عليه السلام ـ بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات ثم نسخ حلّ بعضها، وكان نكاح الأختين مباحاً لإسرائيل وبنيه ثم حُرم ذلك في شريعة التوراة وما بعدها، وأُمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده إسماعيل عليه السلام ثم نُسخ قبل الفعل، وأشياء كثيرة يطول ذكرها وهم يعترفون بذلك ويصدفون عنه. ثم قال: ففي هذا المقام بيّن تعالى جواز النسخ رداً على اليهود عليهم لعنة الله حيث قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾[(٢)] فكما أن له الملك بلا منازع فكذلك له الحكم بما يشاء ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ ﴾[(٣)(٤)].

أما حادثة نسخ القبلة فهو أول وأعظم أحكام النسخ التي وقعت وأغاظت اليهود، إذ فقدوا بهذا التحول حجتهم التي كانوا يرتكنون إليها في تعاظمهم وزهوهم

---

(١) في ظلال القرآن، ج ١/ ٩٤.
(٢) سورة البقرة، آية (١٠٦ ـ ١٠٧).
(٣) سورة الأعراف، آية (٥٤).
(٤) انظر تفسير القرآن العظيم، ج ١/ ١٥٦.

على المسلمين وتشكيكهم في دينهم مدّعين أن اتجاههم إلى قبلتهم هو اعتراف بأنهم على الهدى وبأن النبي والمسلمين إنما يقتبسون الهدى منهم[١] لذلك لا نستغرب ذلك الحديث الطويل الذي تناوله القرآن حول هذه المسألة تمهيداً للحادثة ورداً على شبهات اليهود وعلاجاً لبعض النفوس المسلمة التي علق بها غبار هذه الشبهة. يقول صاحب الظلال ـ رحمه الله ـ: «الحديث في هذا الدرس يكاد يقتصر على حادث تحويل القبلة، والملابسات التي أحاطت به، والدسائس التي حاولها اليهود في الصف المسلم بمناسبته، والأقاويل التي أطلقوها من حوله، ومعالجة آثار الأقاويل في نفوس بعض المسلمين، وفي الصف المسلم عن العموم.. وقد كان التوجه إلى بيت المقدس ـ وهو قبلة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ـ سبباً في اتخاذ اليهود إياه ذريعة للاستكبار عن الدخول في الإسلام، إذ أطلقوا في المدينة ألسنتهم بالقول، بأن اتجاه محمد ومن معه إلى قبلتهم في الصلاة دليل على أن دينهم هو الدين، وقبلتهم هي القبلة، وأنهم هم الأصل، فأوْلى بمحمد ومن معه أن يفيئوا إلى دينهم لا أن يدعوهم إلى الدخول في الإسلام»[٢].

وما إن تم تحويل القبلة إلى مكة حتى انطلقت أبواق اليهود تلقي في صفوف المسلمين بذور الشك قائلين ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ فأخرسهم الله بقوله: ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾[٣]. (إن المشرق لله والمغرب لله. فكل متجه فهو إليه في أي اتجاه. فالجهات والأماكن لا فضل لها في ذاتها. إنما يفضلها ويخصصها اختيار الله وتوجيهه... والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. فإذا اختار لعباده وجهة، واختار لهم قبلة فهي إذن المختارة. وعن طريقها يسيرون إلى صراط مستقيم)[٤]. كما كشف الله للمؤمنين حكمة تحويل القبلة الأولى بالثانية بأنه كان للاختبار وصقل النفوس وتخليصها من شوائب الشرك والعصبية للأرض أو القوم أو الجنس... مما كان مستحكماً في قلب العربي ـ في ذلك الوقت ـ والتجرد الكامل لله

---

(١) انظر: سيرة الرسول، صور مقتبسة من القرآن الكريم، لمحمد عزة دروزة، ج ٢/ ١٥٢، (طبعة إدارة إحياء التراث الإسلامي بقطر ـ عناية: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري.

(٢) في ظلال القرآن، ج ١/ ١١٩.

(٣) سورة البقرة، آية (١٤٢).

(٤) في ظلال القرآن، ج ١/ ١٣٠.

والإذعان لأوامر رسوله. فقال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾[1] ثم طمأنهم على مصير إخوانهم الذين صلّوا إلى بيت المقدس وماتوا على ذلك. فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما وُجّه النبي ـ ﷺ ـ إلى الكعبة قالوا: يا رسول الله كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾[2] يقول الرازي ـ رحمه الله ـ: «ثم إن الله تعالى أجاب عن الإشكال الذي خطر على بال بعض الصحابة فأنزل تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ وبين أن النسخ نقل من مصلحة إلى مصلحة، ومن تكليف إلى تكليف، والأول كالثاني في أن القائم به متمسك بالدين، وأن من هذا حاله فإنه لا يضيع أجره»[3].

ثالثاً: دخولهم في الإسلام ثم الارتداد عنه:

لم يدع اليهود أي وسيلة يظنون أنهم يستطيعون من خلالها تشكيك المسلمين في دينهم إلا سلكوها. ومن أخبث الوسائل التي سلكوها لتنفيذ ذلك، التظاهر باعتناق الإسلام بامتثال بعض شعائره، ثم الارتداد عنه، قال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[4].

أخرج الواحدي عن الحسن[5] والسدي قالا: (تواطأ اثنا عشر حبراً من يهود خيبر وقرى عربية، وقال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمد أول النهار باللسان دون الاعتقاد، واكفروا آخر النهار، وقولوا: إنا نظرنا في كتبنا، وشاورنا علماءنا، فوجدنا محمداً ليس بذلك، وظهر لنا كَذبه، وبطلان دينه، فإذا فعلتم ذلك شك أصحابه في

---

(١) سورة البقرة، آية (١٤٣).

(٢) رواه الترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح، كتاب تفسير القرآن، باب «ومن سورة البقرة»، ج ٥/٢٠٨.

(٣) التفسير الكبير، ج ٤/١٠٦ ـ ١٠٧.

(٤) سورة آل عمران، آية (٧٢).

(٥) هو أبو سعيد الحسن البصري بن أبي الحسن، مولى زيد بن ثابت وقيل غيره، ولد في زمن عمر بن الخطاب، كان إماماً كبير الشأن، رفيع الذكر، رأساً في العلم والعمل. له «التفسير» رواه عنه جماعة و«كتابه إلى عبد الملك بن مروان في الرد عى القدرية»، مات سنة عشر ومائة. (طبقات المفسرين للداوودي، ج ١/ ١٥٠).

دينهم وقالوا: إنهم أهل كتاب، وهم أعلم به منا، فيرجعون عن دينهم إلى دينكم. فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأخبر به نبيه محمداً - ﷺ - والمؤمنين)[1].

وهذه المكيدة من شأنها أن توقع الناس في بلبلة واضطراب وشك في صحة دينهم لأن علامة الحق أن لا يرجع عنه من يقتنع به - كما نوه هرقل إلى هذه القاعدة -[2] فإذا رأى المسلمون اليهود يدخلون في الدين ثم يرتدون عنه فسيقولون: لولا أن اليهود اطلعوا على عيب أو نقص في هذا الدين لما ارتدوا عنه، خاصة أن العرب كانوا ينظرون إلى اليهود بعين الإجلال والإكبار لأنهم أهل الكتاب الأول!!!، لكن الله رد هذه المؤامرة بإفشالها وإظهار ما خططوه وبيتوه بقوله: ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾[3] والمعنى كما يقول ابن كثير: (أي لا تطمئنوا أو تظهروا سركم وما عندكم إلا لمن تبع دينكم، ولا تظهروا ما بأيديكم - من صفة محمد النبي الأمي - إلى المسلمين فيؤمنوا به ويحتجوا به عليكم..)[4]. وكما فضح الله اليهود، فقد ثبّت النبي والمؤمنين معه على دينهم مؤكداً لهم أنهم على الحق والهدى بقوله في نفس الآية: ﴿**قل إن الهدى هدى الله**﴾.

وهكذا أحبط الله جميع المؤامرات التي حبكها اليهود للتشكيك بالإسلام ورسوله، فلله الحمد والمنّة.

المطلب السابع: مؤامرات المنافقين للطعن في الإسلام:

بدأ ظهور النفاق والمنافقين كحركة داخلية معادية للإسلام ومعوقة لانتشاره منذ وقت مبكر من العهد المدني. ولقد اتفقت كثير من أهداف المنافقين المناوئة للإسلام مع أهداف اليهود، لذلك كان التعاون بينهم على «قدم وساق» حتى سماهم الله إخوة، قال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي، ص ١٠٤، وانظر جامع البيان / شاكر، ج ٦/ ٥٠٧.

(٢) جاء في حوار هرقل مع أبي سفيان قوله: (هل يرتد أحد منهم عن دينه، بعد أن يدخل فيه سخطة له؟ فقال أبو سفيان لا). وقد سبق تخريج الحديث مراراً في هذا البحث.

(٣) سورة آل عمران، آية (٧٣).

(٤) تفسير القرآن العظيم (بتصرف)، ج ١/ ٣٨١.

﴿أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾[1].

ولقد كانت للمنافقين مواقف لا تقل خطورة ـ إن لم تزد ـ عن مواقف اليهود في الكيد للإسلام والتآمر عليه. وسأكتفي بذكر موقفين للمنافقين ضد الإسلام هما:

١ ـ حادثة الإفك.

٢ ـ مسجد الضرار.

أولاً: حادثة الإفك:

هي الحادثة المشهورة التي ورد ذكرها في سورة النور من أول قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ .. إلى قوله تعالى ـ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾[2] وأوردتها كتب السنة والسيرة. ولطول أحداثها وشهرتها سأكتفي بتخليصها.

وخلاصة الحادثة: أن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ كانت مع رسول الله ـ ﷺ ـ في غزوة بني المصطلق ـ كعادته في اصطحاب إحدى نسائه في غزواته ـ وفي العودة نزل الجيش منزلاً فذهبت عائشة ـ رضي الله عنها ـ لحاجتها وتأخرت بسبب فقدانها لعقد لها فجلست تبحث عنه، وعندما عادت وجدت الجيش قد رحل بهودجها المحمول ظناً منهم أنها بداخله لخفة وزنها. فجلست في مكانها أملاً أن يفتقدوها فيرسلوا في إثرها، فنامت ولم تستيقظ إلا على استرجاع صفوان بن المعطل[3] الذي كان متأخراً عن الجيش فأناخ لها راحلته فركبت ثم سار بها وما كلّمها بكلمة واحدة، ووصلا ـ بطبيعة الحال ـ متأخرين عن الجيش، فلما رأى الناس ذلك، تكلم كل على شاكلته واستغل الموقف عدو الله عبد الله بن سلول قائلاً: «والله ما نجت منه ولا نجا منها» وقال: «امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت، ثم جاء يقودها!» وأفاض أهل الإفك في الحديث ورسول الله ـ ﷺ ـ ساكت لا يتكلم. ووافق الحادثة مرض

---

(١) سورة الحشر، آية (١١).

(٢) سورة النور، آية (١١ ـ ٢٠).

(٣) هو صفوان بن المعطل بن ربيعة، سكن المدينة وشهد الخندق والمشاهد ويكنى أبا عمرو، اتهمه المنافقون في حادثة الإفك المشهورة، عاش إلى خلافة معاوية وغزا الروم ومات بها سنة ثمان وخمسين وقيل ستين. (الإصابة، ج ٣/ ٢٥٠).

عائشة رضي الله عنها. وكانت ترى جفاء من رسول الله - ﷺ - لم تعهده، لذلك استأذنته أن تُمَرّض في بيت أبيها، فوافق. وظلت مريضة قرابة شهر كامل وأهل الإفك يخوضون والرسول - ﷺ - يتألم مما يقولون وكذلك أبو بكر رضي الله عنه، كل هذا وعائشة المريضة - رضي الله عنها - لا تدري ما يجري حولها. وبعد أن عرفت زاد مرضها وكبر همها وبكت حتى تقلص دمعها. وأخذ رسول الله يستشير بعض أصحابه في الأمر، وبعدها صعد المنبر وقال: «يا معشر المسلمين من يعذرني[1] من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، لقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي» فقال سعد بن معاذ[2] - سيد الأوس -: أنا أعذرك فيه، إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. فقال سعد بن عبادة[3] - سيد الخزرج - وقد أخذته الحمية - كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، فرد عليه أسيد بن حضير[4] - ابن عم سعد بن معاذ - كذبت، لعمر الله لنقتلنّه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين. فثار الحيان، الأوس والخزرج حتى همّوا أن يقتتلوا، ورسول الله - ﷺ - قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله يُخفّضهم حتى سكتوا، وبعدها ذهب إلى بيت أبي بكر وتحدث مع عائشة على مسمع من أبويها قائلاً: «أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه». فلما قضى رسول الله - ﷺ - كلامه طلبت من أبويها أن تجيبا رسول الله - ﷺ - فاعتذرا قائلين: ما ندري ما نقول

---

(١) أي من ينصرني عليه وينتقم منه.

(٢) هو سعد بن معاذ بن النعمان من بني عبد الأشهل الأنصاري سيد الأوس ويكنى أبا عمرو، أسلم لإسلامه معظم بني عبد الأشهل، شهد بدراً وما بعدها، وأصيب بسهم يوم الخندق، مات على إثره بعد شهر وذلك في السنة الخامسة واهتز عرش الرحمن لموته. (الإصابة، ج ٣/ ٨٧).

(٣) هو سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة الأنصاري سيد الخزرج، يكنى أبا ثابت وأبا قيس، شهد العقبة، وكان أحد النقباء، كان مشهوراً بالجود فقد كان يُعشي كل ليلة ثمانين من أهل الصفة. خرج إلى الشام فمات بحوران سنة خمس عشرة (الإصابة، ج ٣/ ٨٠).

(٤) هو أسيد بن حضير بن سماك بن بني عبد الأشهل الأنصاري، يكنى أبا يحيى، أحد السابقين إلى الإسلام على يد مصعب بن عمير، كان أحد النقباء ليلة العقبة وهو ممن ثبت يوم أحد، مات سنة عشرين، (الإصابة، ج ١/ ٤٨).

لرسول الله. عندها تحولت عنهم متمثلة قول يعقوب عليه السلام: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[(1)] وما هي إلا لحظات حتى غُشي رسول الله فنزل عليه الوحي ببراءة عائشة رضي الله عنها ونزلت عشر آيات من سورة النور من أول قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ . . ﴾[(2)(3)].

هذا ملخص حادثة الإفك. والناظر لأول وهلة، قد يظن أن القضية مجرد تهمة لعرض من أعراض المسلمين، وما أكثر الأعراض التي تُتَّهم زوراً وبهتاناً! وليس الأمر كذلك هنا. فلو كانت القضية مجرد قضية عرض ـ على خطورتها ـ لسهل حَلّها، ولكن القضية قضية الإسلام كله. فلقد حاول المنافقون ـ بقيادة ابن سلول ـ أن يغتالوا الإسلام وأن يقتلعوه من جذوره باستغلال هذا الحدث. كما يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ: «لقد عرف عبد الله بن أبي بن سلول ـ رأس النفاق وحامل لواء الكيد للإسلام ـ كيف يختار مقتلاً، لولا أن الله كان من ورائه محيطاً، وكان لدينه حافظاً، ولرسوله عاصماً، وللجماعة المسلمة راعياً»[(4)] ولا نكون مبالغين إن قلنا إن هذه الحادثة كانت أقسى المحن التي تعرض لها الرسول ـ ﷺ ـ على الإطلاق. يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ «لقد كانت معركة خاضها رسول الله ـ ﷺ ـ وخاضتها الجماعة المسلمة يومذاك وخاضها الإسلام. معركة ضخمة لعلها أضخم المعارك التي خاضها رسول الله ـ ﷺ ـ وخرج منها منتصراً كاظماً لآلامه الكبار.. والآلام التي تناوشه لعلها أعظم الآلام التي مرت به في حياته. والخطر على الإسلام من تلك الفرية من أشد الأخطار التي تعرض لها في تاريخه»[(5)].

ولقد كانت أهداف المنافقين التفصيلية من هذه المكيدة العظيمة ما يلي:[(6)]

---

(١) سورة يوسف، آية (١٨).

(٢) سورة النور، آية (١١ ـ ٢٠).

(٣) انظر القصة بأكملها في صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة النور، ج ٤/ ١٧٧٤ وما بعدها، وفي صحيح مسلم ـ كتاب التوبة ـ باب حديث الإفك، ج ٤/ ٢١٢٩ وما بعدها، وفي سيرة ابن هشام ج ٣/ ٣٤١، لباب النقول في أسباب النزول ص ١٥٤ وما بعدها.

(٤) في ظلال القرآن، ج ٤/ ٢٥٠١.

(٥) نفس المرجع السابق.

(٦) انظر معالم الدعوة في القصص القرآني، (رسالة دكتوراه) لعبد الوهاب بن لطف الديلمي، =

١ ـ إشاعة المنكر والفاحشة في الذين آمنوا.

٢ ـ إثارة الفتنة وجر بعض الصالحين إليها.

٣ ـ إيقاع المسلمين في حيرة وبلبلة واضطراب.

٤ ـ تمزيق الصف المسلم المتلاحم الذي أغاظ المنافقين.

٥ ـ الطعن في رسالة رسول الله ـ ﷺ ـ بالطعن في عرضه!

٦ ـ انتزاع ثقة الناس بعضهم ببعض بسبب زوال ثقة الناس عن بيت النبوة ـ أطهر بيوت المسلمين.

ولقد ظفر المنافقون ببعض النتائج التي كانوا يهدفون إليها، مثل[١]:

١ ـ وقوع بعض الصحابة في الفتنة، كمسطح بن أثاثة[٢]، وحَمنة بنت جحش[٣]، وحسان بن ثابت[٤] رضي الله عنهم.

٢ ـ وقوع معظم الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ في حيرة وبلبلة، لكن الله ربط على قلوبهم.

٣ ـ تنازع الحيان الأوس والخزرج بين يدي رسول الله حتى كادوا أن يقتتلوا.

= ج ٢/ ٨٢٠ ـ ٨٢١ (دار المجتمع، السعودية ـ جدة ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٦ هـ).

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) هو مسطح بن أثاثة بن عباد بن عبد المطلب، كان اسمه عوناً وأما مسطح فهو لقبه، أمه بنت خالة أبي بكر، كان أبو بكر يُموّنه لقرابته منه، فلما شارك في الإفك قطع عنه النفقة وبعد نزول: ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم﴾، الآية، عاد عليه بالإنفاق، مات سنة أربع وثلاثين في خلافة عثمان، (الإصابة، ج ٦/ ٨٨).

(٣) حمنة بنت جحش الأسدية أخت أم المؤمنين زينب، كانت زوج مصعب بن عمير، فلما قُتل يوم أُحد تزوجها طلحة بن عبد الله، فولدت له محمداً وعمران. أمها هي أميمة بنت عبد المطلب. كانت حمنة من المبايعات وشهدت أحداً فكانت تسقي العطشى وتحمل الجرحى وتداويهم، (الإصابة، ج ٨/ ٥٣).

(٤) هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام من بني النجار الأنصاري الخزرجي؛ شاعر رسول الله يكنى أبا الوليد، اختلف في سنة وفاته، فقيل سنة أربعين، وخمسين، وأربع وخمسين، وعاش مائة وعشرين سنة، (الإصابة، ج ٢/ ٨).

ومع الاعتقاد بأن هذه الحادثة من أعظم المحن التي مرت برسول الله ﷺ إلا أن الله سماها خيراً، قال تعالى: **﴿إن الذين جاءوا بالإفك عُصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم﴾** ولقد حاول بعض المفسرين استلهام وجه الخيرية في هذه الحادثة. فقال الرازي ـ رحمه الله ـ: (فإن قيل فمن أي جهة يصير خيراً لهم مع أنه مضرة في العاجل؟ قلنا لوجوه:

أحدها: إنهم صبروا على ذلك الغَمّ طلباً لمرضاة الله تعالى فاستوجبوا به الثواب وهذه طريقة المؤمنين عند وقوع الظلم بهم.

ثانيها: إنه لولا إظهارهم للإفك كان يجوز أن تبقى التهمة كامنة في صدور البعض، وعند الإظهار انكشف كذب القوم على مر الدهر.

ثالثها: إنه صار خيراً لهم لما فيه من شرفهم وبيان فضلهم من حيث نزلت ثمان عشرة آية كلها ببراءة عائشة ـ رضي الله عنها ـ وشهد الله تعالى بكذب القاذفين ونسبهم إلى الإفك وأوجب عليهم اللعن والذم وهذا غاية الشرف والفضل)[1].

ومن أوجه الخير ما ذكره ابن القيم من حكَم الحادثة بقوله: «وأيضاً فإن الله سبحانه أحب أن يظهر منزلة رسوله وأهل بيته عنده، وكرامتهم عليه، وأن يخرج رسول الله عن هذه القضية، ويتولى هو بنفسه الدفاع والمنافحة عنه، والرد على أعدائه، وذمهم وعيبهم بأمر لا يكون له فيه عمل، ولا ينسب إليه، بل يكون هو وحده المتولي لذلك، المدافع عن رسوله وأهل بيته»[2].

ويكشف سيد قطب ـ رحمه الله ـ عن بعض أوجه الخير كذلك قائلاً:

١ ـ «خير. فهو يكشف عن الكائدين للإسلام في شخص رسول الله ـ ﷺ ـ وأهل بيته.

٢ ـ وهو يكشف للجماعة المسلمة عن ضرورة تحريم القذف وأخذ القاذفين بالحد الذي فرضه الله، ويبين مدى الأخطار التي تحيق بالجماعة لو أطلقت فيها الألسنة تقذف المحصنات الغافلات المؤمنات. فهي عندئذ لا تقف عند حد. إنما

---

(١) التفسير الكبير (بتصرف يسير)، ج ٢٣/ ١٧٣.

(٢) زاد المعاد (بتصرف يسير)، ج ٣/ ٢٦٢.

تمضي صعداً إلى أشرف المقامات، وتتطاول إلى أعلى الهامات، وتُعْدم الجماعة كل وقاية وكل تحرّج وكل حياء.

٣ ـ وهو خير لأنه يرسم للجماعة المسلمة المنهج القويم في مواجهة مثل هذا الأمر العظيم»[١] ويتكون المنهج من خطوتين:

إحداهما: خطوة عرض الأمر على القلب واستفتاء الضمير وحسن الظن. قال تعالى: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ ﴾[٢].

الثانية: خطوة التثبت وطلب الدليل والبرهان قال تعالى: ﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[٣].

ثانياً: مسجد الضرار:

من خطط المنافقين للنيل من هذا الدين: التمسح بمسوح الصالحين ورفع شعار المصلحين المشفقين على الناس وعلى مصالحهم. فباسم هذا الشعار وتحت هذه اللافتة تتم محاربة الإسلام أو تشويهه وتمييعه. ولقد كان مسجد الضرار مثالاً حياً لهدم الإسلام باسم الإسلام وتحت ستار الشفقة والعطف على المرضى وأصحاب العلل. فقد ذكر المفسرون أن المنافقين بنو مسجداً بجوار مسجد قباء وذلك قبل خروج الرسول ـ ﷺ ـ إلى غزوة تبوك، ثم أرسلوا إليه وهو يتجهز للخروج قائلين: يا رسول الله إنا قد بَنَيْنَا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة، والليلة الشاتية وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه وتدعو لنا بالبركة. فقال عليه السلام: إني على جناح سفر، وإذا قدمنا إن شاء الله صلينا فيها. فلما قفل راجعاً إلى المدينة ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل جبريل عليه السلام بخبر مسجد الضرار، قال تعالى:

(١) في ظلال القرآن، ج ٤/ ٢٥٠٠.

(٢) سورة النور، آية (١٢)، ولقد طبّق أبو أيوب الأنصاري هذه الخطوة حيث قالت أم أيوب: يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رضي الله عنها؟ قال نعم. وذلك الكذب. أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله. قال: فعائشة والله خير منك. وفي رواية أنها قالت: ولو كنت أنا بدل عائشة رضي الله عنها ما خُنْت رسول الله ـ ﷺ ـ فعائشة خير مِنّي، وصفوان خير منك. (انظر سيرة ابن هشام، ج ٣/ ٣٤٨، وانظر تفسير الكشاف، ج ٣/ ٦٥).

(٣) سورة النور، آية (١٣).

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾(١).

ونُهي رسول الله عن الصلاة في ذلك المسجد، قال تعالى: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾(٢). فأرسل رسول الله جماعة من الصحابة إلى هذا المسجد وأمرهم أن يهدموه ففعلوا، وأمر أن يُتخذ مكانه كَناسة يلقى فيها الجيف والقمامة(٣).

والجدير بالملاحظة أن المنافقين أظهروا حسن نواياهم بإظهار جوانب الخير المزعومة من وراء بناء المسجد مخفين وراء ذلك وجههم الكالح ومقاصدهم الخبيثة. وبالإضافة إلى ذلك دعّموا جريمتهم بأيمان كاذبة حلفوها «ولَيحلفُنّ إن أردنا إلا الحسنى» لكن الله الذي لا يخفى عليه شيء أكذبهم «والله يشهد إنهم لكاذبون» وكشف عن نواياهم الخبيثة، حيث وصف المسجد الذي بنوه بأربع صفات:

١ ـ «ضراراً» والمراد أنهم بنوا مسجدهم لمضارة المؤمنين أي محاولة إيقاع الضرر بهم وهم أهل مسجد قباء ـ المسجد الذي بناه لهم رسول الله ـ ﷺ ـ عند مقدمه من مكة مهاجراً وقبل وصوله إلى المدينة ـ إذ بنَوه بجواره مُضادّة لهم في الاجتماع للصلاة فيه.

٢ ـ « وكفراً» أي للكفر أو تقوية للكفر، وتسهيل أعماله من فعل وترك، كتمكين المنافقين من ترك الصلاة هنالك مع خفاء ذلك على المؤمنين لعدم اجتماعهم في مسجد واحد، والتشاور بينهم في الكيد لرسول الله ـ ﷺ ـ وغير ذلك.

٣ ـ «وتفريقاً بين المؤمنين» أي التفريق بين المؤمنين الذين هنالك، فإنهم كانوا يصلون جميعاً في مسجد قباء، وفي ذلك من مقاصد الإسلام الاجتماعية ما فيه، وهو التعارف والتآلف والتعاون وجمع الكلمة.

---

(١) سورة التوبة، آية (١٠٧).

(٢) سورة التوبة، آية (١٠٨).

(٣) انظر: جامع البيان / شاكر، ج ٤٦٨/١٤ وما بعدها، سيرة ابن هشام ج ١٨٥/٤ أسباب نزول القرآن للواحدي ص ٢٦٠ ـ ٢٦٢. التفسير الكبير، ج ١٩٥/١٦، تفسير القرآن العظيم، ج ٤٠٢/٢ ـ ٤٠٣، الدر المنثور، ج ٢٨٦/٤، روح المعاني للألوسي ج ١٨/١١.

٤ ـ «وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله» أي اتخاذ هذا المسجد «وكراً» لمحاربة الله ورسوله بالانتظار والترقب لمن حارب الله ورسوله أن يجيء محارباً، فيجد مكاناً مُرصداً له، وقوماً راصدين مستعدين للحرب معه، وهم هؤلاء المنافقون الذين بنوا هذا المسجد مرصداً لذلك.

والمفسرون متفقون على أن الذي أغراهم ببناء هذا المسجد لهذا الغرض، رجل من الخزرج يعرف بأبي عامر الراهب[١]. وعَدَهم بأنه سيأتيهم بجيش من الروم لقتال النبي ـ ﷺ ـ وأصحابه[٢].

هكذا أبطل الله هاتين المؤامرتين اللتين قصد المنافقون بهما الطعن في دين الله عز وجل.

المبحث الثاني

الإجابة على تساؤلات المكذبين وتفنيد دَعاوَاهم

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: سؤالهم عن الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين والساعة.

المطلب الثاني: طلبهم المعجزات الحسية تعنتاً.

---

(١) هو أبو عامر والد حنظلة غسيل الملائكة رضي الله تعالى عنه، وكان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح وتنصر فلما قدم النبي ـ ﷺ ـ المدينة قال له أبو عامر: ما هذا الدين الذي جئت به؟ فقال النبي ـ ﷺ ـ: الحنيفية البيضاء، دين إبراهيم عليه السلام قال: فأنا عليها فقال له عليه الصلاة والسلام: إنك لست عليها فقال: بلى ولكنك أنت أدخلت فيها ما ليس منها فقال النبي ـ ﷺ ـ: ما فعلت ولكن جئت بها بيضاء نقية فقال أبو عامر: أمات الله تعالى الكاذب منا طريداً وحيداً فأمّن النبي ـ ﷺ ـ فسماه الناس أبا عامر الكذاب وسماه النبي ـ ﷺ ـ الفاسق، فلما كان يوم أحد قال للنبي ـ ﷺ ـ: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم فلم يزل كذلك إلى يوم حنين فلما انهزمت هوازن يومئذ ولى هارباً إلى الشام وأرسل إلى المنافقين يحثهم على بناء مسجد، فلما بَنُوه بقوا منتظرين قدومه ليصلي فيه ويظهر على رسول الله ـ ﷺ ـ ولكن المسجد هُدم بأمر رسول الله ـ ﷺ ـ ومات أبو عامر وحيداً بقنسرين. (روح المعاني، ج ١١/١٨ ـ ١٩).

(٢) تفسير المنار (باختصار)، ج ١١/٣٩ ـ ٤٠.

المطلب الثالث: اقتراحاتهم المتعلقة بالقرآن الكريم على سبيل التعجيز.

المطلب الرابع: ادعاؤهم وجود حواجز نفسية بينهم وبين الرسول ـ ﷺ ـ.

المطلب الخامس: ادعاؤهم أن اتباعهم للرسول ـ ﷺ ـ يسلب عنهم الأمن والاستقرار.

المطلب السادس: استعجالهم نزول العذاب.

المطلب الأول: سؤالهم عن الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين والساعة:

وَجّه المكذبون إلى رسول الله ـ ﷺ ـ عدة أسئلة، أغلبها تعجيزية وإن ظهرت في ثوب البحث عن الحقيقة. ومن أشهر هذه الأسئلة: سؤال المشركين ـ بتحريض من اليهود ـ عن الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين. فقد نقل المفسرون ما ذكره ابن إسحاق عن ابن عباس: أن مشركي قريش بعثوا النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا لهم: سلوهم عن محمد وصفُوا له صفَتَه وأخبروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء. فخرجا حتى قدما المدينة فسألوا أحبار اليهود عن رسول الله ـ ﷺ ـ ووصفوا لهم أمْره ببعض قوله فقالت لهم أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهنّ فإن أخبركم بهنّ فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل فرَوْا فيه رأيكُم، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنه كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وما كان نبأه، وسلوه عن الروح ما هو.

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما مكة على قريش، فقالا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور، فأخبروهم بها فجاءوا رسول الله ـ ﷺ ـ، فقالوا: يا محمد! أخبرنا. فسألوه عما أمروهم به، فقال لهم رسول الله ـ ﷺ ـ: «أخبركم بما سألتم عنه غداً»، ولم يستثن، فانصرفوا عنه. فمكث رسول الله ـ ﷺ ـ خمسَ عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحياً ولم يأته جبريل حتى أرجف أهل مكة وقالوا وَعَدَنا محمد غداً واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء مما سألنا عنه، حتى أحزن رسول الله ـ ﷺ ـ مُكث الوحي عنه وشقّ عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل ـ عليه السلام ـ من

الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على عدم الاستثناء وخبرُ ما سألوه من أمر الفتنة[1] والرجل الطواف[2].

وقول الله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾[3][4].

قال شيخنا مصطفى مسلم ـ حفظه الله ـ بعد أن أورد هذه الرواية: «وهذه الرواية وإن تكلم بعضهم في سندها وأن فيها رجلاً مجهولاً، فإن واقع السورة وما ورد فيها من صيغ الإستفسار منهم كقوله تعالى: ﴿أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً﴾ وقوله تعالى: ﴿ويسألونك عن ذي القرنين..﴾ وقوله تعالى: ﴿ولا تقولنّ لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله..﴾ كل ذلك يؤكد حادثة الاستفسار من رسول الله ـ ﷺ ـ عن الفتنة وعن الرجل الطواف، وعن نسيان ذكر المشيئة»[5].

أما السؤال عن الروح فلا شك في صحة وقوعه حيث روى الشيخان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (بينا أنا مع النبي ـ ﷺ ـ في حرث وهو متكىء على

(١) الايات من سورة الكهف من (٩ ـ ٢٧).
(٢) الآيات من سورة الكهف من (٨٣ ـ ٩٩).
(٣) سورة الإسراء، آية (٨٥).
(٤) دلائل النبوة للبيهقي، ج ٢/ ٢٧٠، وانظر سيرة ابن هشام ج ١/ ٣٢١، جامع البيان، ج ١٥/ ١٢٧ ـ ١٢٨، تفسير القرآن العظيم، ج ٣/ ٧٦، الدر المنثور، ج ٥/ ٣٥٧، لباب النقول في أسباب النزول، ص ١٤٣.
(٥) مباحث في التفسير الموضوعي ص ١٧٤.
وقد رد الدكتور ولفنسون الإسرائيلي على بعض المستشرقين الذي شككوا في هذه الرواية فقال في رسالته: (تاريخ اليهود في بلاد العرب) ٩٨ ما يأتي: (وينفي بعض المستشرقين صحة هذه القصة الخطيرة دون أن يأتوا بدليل نطمئن إليه. والحق أن من العسير إنكار رواية تاريخية كانت سبباً في نزول سورة الكهف والآيات الخاصة بالروح وذي القرنين وعندنا دليل يحملنا على الاعتقاد بأن هذه الرواية من المحتمل أن تكون واقعية وهي أن في التلمود قصة مشهورة تشبه قصة أهل الكهف ومن هذه القصة أخذ أحبار اليهود الأسئلة التي وجهوها للرسول بواسطة وفد قريش. ويؤيد هذه القصة ما ذهبنا إليه من أنه لم يكن بمكة أحد من اليهود، إذ لو وجد منهم في مكة ما أوفد قريش وفدهم إلى المدينة ليسألوا أحبار اليهود عن شأن النبي وإذا وُجد منهم أحد فلا بد أن يكون غير عالم)، انظر كتاب: محمد رسول الله، لمحمد رضا ص ١١٧ ـ ١١٨ (دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ).

عسيب إذ مرّ اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح؟ فقال: ما رَابَكُم إليه؟[1]. وقال بعضهم: لا يستقبلكم بشيء تكرهونه، فقالوا سلوه، فسألوه عن الروح فأمسك النبي - ﷺ - فلم يرد عليهم شيئاً، فعلمت أنه يوحَى إليه، فقمت مقامي فلما نزل الوحي قال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾[2][3].

فهذا الحديث يثبت أن الذي سأل السؤال هو اليهود، في حين ورد حديث آخر يثبت أن السؤال صدر من كفار قريش بتحريض من اليهود، والحديث رواه الترمذي والحاكم وصححاه[4] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (قالت قريش لليهود: علمونا شيئاً نسأل هذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح، فسألوه، فأنزل الله: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ قالوا: أُوتينا علماً كثيراً: أوتينا التوراة، ومن أُوتي التوراة فقد أُوتي خيراً كثيراً. فأنزل الله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾[5].

ومن المؤكد أن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين من القصص الخفية والغامضة حتى على بعض علماء بني إسرائيل، وما الاضطراب الذي وقع في معرفة

---

(١) أي ما إرْبكم وحاجتكم إلى سؤاله (النهاية في غريب الحديث، ج ٢/ ٢٨٧).
(٢) سورة الإسراء، آية (٨٥).
(٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة الإسراء، ج ٤/ ١٧٤٩، ورواه مسلم في صحيحه في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب سؤال اليهود النبي - ﷺ - عن الروح، ج ٤/ ٢١٥٢. وهذه الرواية تقتضي أن الآية مدنية وفي ذلك إشكال مع رواية ابن عباس - التالية لها - والتي تقرر أن السؤال وقع بمكة. وقد أجاب كل من الحافظ ابن كثير وابن حجر - رحمهما الله - عن هذا الإشكال باعتبار تعدد النزول. فقال ابن كثير - رحمه الله -: (قد يجاب عن هذا بأنه قد تكون الآية نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية، كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك. أو أنه نزل عليه الوحي بأن يجيبهم عما سألوه - أي اليهود - بالآية نفسها المتقدم إنزالها عليه بمكة)، تفسير القرآن العظيم ج ٣/ ٦٤، وقال ابن حجر - رحمه الله -: (ويمكن الجمع بأن يتعدد النزول بحمل سكوته في المرة الثانية على توقع مزيد بيان في ذلك..)، فتح الباري، ج ٨/ ٢٥٣.
(٤) سنن الترمذي، كتاب التفسير، سورة بني اسرائيل، ج ٥/ ٣٠٤، مستدرك الحاكم، كتاب التفسير، سورة القدر، ج ٢/ ٥٣١، وانظر لباب النقول، ص ١٤٤.
(٥) سورة الكهف، آية (١٠٩).

عدد أصحاب الكهف إلا دليل على هذا الخفاء والذي أكده قوله تعالى: ﴿ مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞ ﴾[1]. كما تدل اختلافات العلماء المتضاربة في شخصية ذي القرنين[2] على ما اعتقدنا من غموض هذه القصة أيضاً. أما حقيقة الروح فهو من الآيات المتشابهة التي استأثر الله بعلمها «قل الروح من أمر ربي» وإذا كان الأمر كذلك، فإنه من الواضح البيّن أن اليهود قصدوا بإثارة مثل هذه الأسئلة الغامضة التعجيز لا التحقق - كما زعموا - وإلا فقد كان يكفيهم للتحقق من صدق النبي - ﷺ - مطابقة صفاته بما ورد في كتبهم من نعته. ولو سلّمنا جدلاً أن قصدهم كان التحقق - فعلاً - من نبوة النبي - ﷺ - وصدقه، فإن المنهج الذي سلكوه للاستدلال على ذلك كان منهجاً خاطئاً في أساسه. فمنذ متى كان صدق الرجل يتوقف على معرفته بالمسائل التاريخية أو المشكلة؟! وإن قصة موسى والخضر - الواردة في السورة نفسها[3] - لتؤكد خطأ هذا المنهج في الاستدلال. فكأن الله يقول لهم هذا موسى - عليه السلام - أكبر أنبيائكم لم يؤثر على نبوته ولا صدقه مجرد جهله بتأويل تصرفات الخضر - عليه السلام - الغامضة وهو دونه في المكانة. والخطأ المنهجي نفسه الذي وقع فيه اليهود وقع فيه قبلهم كفار قريش، حيث تركوا معرفتهم اليقينية والتفصيلية بمحمد - ﷺ - منذ ولادته إلى بعثته وتوجهوا إلى اليهود الذين لا يعرفونه إلا من خلال كتبهم يسألونهم عن محمد - ﷺ - أصادق أم كاذب؟! مع أنه كان الأولى أن يسأل اليهودُ أنفسهم كفارَ قريش عن هذه المعلومات.

---

(١) سورة الكهف، آية (٢٢).

(٢) يقول شيخنا مصطفى مسلم - حفظه الله - «اختلف المفسرون في اسم ذي القرنين ونسبه وزمان وجوده، وسبب تلقيبه بذي القرنين، ولولا هذا الخلط الشديد الذي لا يقبله العقل ولا ترضاه الشريعة الذي وقع فيه كثير منهم لأعرضنا عن الخوض في هذا المبحث...». ثم ذكر أبرز الأقوال في تحديد شخصيته وقصرها على ثلاثة: أنه أبو كرب شمر بن عمرو بن أفريقيش الحميري، وقال آخرون إنه الإسكندر المكدوني بن فيلبوس اليوناني، وقيل هو قورش الأخميني. وذكر بعدها سبعة معالم قيمة استنبطها من الآيات جعلها ضوابط وعلامات تعين على تحديد هوية ذي القرنين. وتَرَجَّحَ له بعد ذلك أن أقرب من تنطبق عليه هذه الضوابط هو قورش الأخميني وهي الشخصية نفسها التي رجّحها من قبله الخبير التاريخي أبو الكلام آزاد - رحمه الله - في كتابه القيم في الباب بعنوان «ويسألونك عن ذي القرنين» (انظر مباحث في التفسير الموضوعي - ص ٣٠٩ وما بعدها، تجد بحثاً قيماً عن ذي القرنين).

(٣) سورة الكهف، آية (٦٠ - ٨٢).

وأياً كان دافعهم فإن الله دمغ الجميع بالحجة وذلك بإبلاغ رسوله ـ ﷺ ـ الأجوبة الصحيحة عن الأسئلة التي أثيرت. وبالإضافة إلى ذلك فلقد كانت ملابسات نزول الأجوبة دليلاً آخر على صدق النبي ـ ﷺ ـ على الرغم من تأخر الجواب خمس عشرة ليلة حتى أرجف أهل مكة ـ كما تقول الرواية ـ يقول الشيخ أبو زهرة[1] ـ رحمه الله ـ: «إن مجيء الإجابة بعد طول انتظار، وإرجافهم نحوها، وإشاعتهم عجز محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن الإجابة، تكون للإجابة فائدة أنها تكون أوقع، إذ تكون في وقت الحاجة إليها، فيكون فيها فضل تمكين في النفس، ويكون التحدي أشد تثبيتاً في النفس وأقوى لتكذيبهم ورد كيدهم في نحرهم، إذ يكونون قد تقاولوا في ذلك، فيكون ردهم قد علمه كل من أشاعوا بين يديه عجز محمد ـ ﷺ ـ فيكون دعوة لتصديق النبي عليه الصلاة والسلام. وفوق ذلك فإن التأخير يدل على أن محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يأتي بهذا الكتاب من عنده، إنما يأتيه عن الله تعالى علام الغيوب الذي يعلم ما خلق وهو السميع البصير»[2].

أما سؤالهم عن الساعة فقد كان على سبيل السخرية والاستهزاء واستبعاد وقوعها كما يقول ابن كثير رحمه الله: «... وكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعاداً لوقوعها وتكذيباً بوجودها، كما قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ﴾[4][5].

---

(١) هو محمد بن أحمد أبو زهرة، أكبر علماء الشريعة الإسلامية في عصره، ولد سنة ١٣١٦ هـ بمدينة المحلة الكبرى، بمصر، وتربى بالجامع الأحمدي وتعلم بمدرسة القضاء الشرعي، بدأ اتجاهه إلى البحث العلمي في كلية أصول الدين (١٩٣٣ م) وعُيّن أستاذاً محاضراً للدراسات العليا في الجامعة (١٩٣٥ م) وعضواً للمجلس الأعلى للبحوث العلمية. وكان وكيلاً لكلية الحقوق بجامعة القاهرة، وكيلاً لمعهد الدراسات الإسلامية. أصدر أكثر من (٤٠) كتاباً، منها: «الخطابة» و«أصول الفقه» و«تنظيم الإسلام للمجتمع» و«أحكام التركات والمواريث» وغيرها. توفي بالقاهرة سنة ١٣٩٤ هـ. (الأعلام للزركلي، ج ٦/ ٢٥).

(٢) خاتم النبيين، للشيخ محمد أبو زهرة، ج ١/ ٤٦٧، (المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت).

(٣) سورة الملك، آية (٢٥).

(٤) سورة الشورى، آية (١٨).

(٥) تفسير القرآن العظيم، ج ٢/ ٢٨٢.

وقد تكرر السؤال الصريح عن الساعة في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم هي:

قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى . . ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴾[3].

واضح من سياق هذه الآيات أن المسؤول عنه هو موعد قيام الساعة بدليل قوله تعالى في موضوعين: **﴿أيان مرساها﴾** قال ابن عباس معناها: منتهاها، أي: متى محطها، وأيّان آخر مدة الدنيا الذي هو أول وقت الساعة. والملاحظ اتحاد الإجابة في المواضع الثلاثة إذ أمر الله رسوله أن يردّ علمها إليه فقال في موضعين: **﴿قل إنما علمها عند الله﴾** وقال في الموضع الثالث: **﴿إلى ربك منتهاها﴾** وذلك لأن موعد قيام الساعة إحدى مفاتيح الغيب[4] التي اختص الله بعلمها ولم يطلع عليها ملك مقرب أو نبي مرسل. ولهذا عندما سأل جبريل رسول الله ـ ﷺ ـ في الحديث المشهور ـ أجاب بقوله: **«ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»**[5].

وقد صرح الله بالحكمة من وراء إخفاء وقت الساعة بأنه للابتلاء والامتحان، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾[6] فجعل علة الإخفاء كي تنال كل نفس جزاء ما عملت من خير أو شر في دار الابتلاء. ولو أن الله

---

(١) سورة الأعراف، آية ١٨٧؛ وردت روايتان في سبب هذه الآية: فقيل نزلت في اليهود وقيل نزلت في كفار قريش. وقد رجح ابن كثير نزولها في كفار قريش لكون السورة مكية. (انظر: أسباب نزول القرآن للواحدي، ص ٢٢٤، وتفسير القرآن العظيم، ج ٢/ ٢٨٢).

(٢) سورة الأحزاب، آية (٦٣).

(٣) سورة النازعات، آية (٤٢ ـ ٤٤).

(٤) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: مفاتيح الغيب خمسٌ لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحدُ إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله (صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ باب قوله: الله يعلم ما تحمل كل أنثى، ج ٤/ ٣٣٧١).

(٥) الحديث رواه مسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب الإيمان والإسلام والإحسان، ج ١/ ٣٧.

(٦) سورة طه، آية (١٥).

أعلمَ الناسَ بموعد موتهم أو قيام الساعة لانتفى الابتلاء ولانهمكوا في المعاصي حتى إذا قرب أجلهم تابوا ورجعوا فغفرت ذنوبهم فلا يتميّز الصادق من الكاذب فلله الحكمة فيما أظهر وأخفى، وفيما أمر ونهى لا راد لقضائه ومعقب لحكمه.

المطلب الثاني: طلبهم المعجزات الحسية تعنتاً:

أوضحت فيما سبق[١] أن الله عز وجل أيدّ كل رسول من رسله بالمعجزات التي تدل على صدقه. ولقد علم الله أن هذه المعجزات كافية لكل باحث عن الحق ومستعد لقبوله. وبينما كانت معجزات الأنبياء السابقين حسية فإن معجزة رسول الله ـ الدالة على صدقه ـ كانت وحياً، كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «**وإنما كان الذي أوتيته وحياً**»[٢] ورغم هزيمة المشركين أمام تحدي القرآن ظلوا متمسكين بكفرهم وعنادهم، ولم يكتفوا بذلك، بل راحوا يطالبون الرسول ـ ﷺ ـ بمعجزات حسية بقصد إحراج الرسول ـ ﷺ ـ من جهة وإخفاء هزيمتهم من جهة أخرى. ولقد تكرر التحدي بطَلَب الآيات من جانب الجاحدين نحو خمس وعشرين مرة صريحة عدا التحدي الضمني[٣]. وجاءت هذه الطلبات على ضربين:

الضرب الأول: طلب الآيات دون تحديد نوعها، وأمثلتها ما يلي:

المثال الأول: قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[٤].

المثال الثاني: قوله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَاۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾[٥].

المثال الثالث: قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلْ إِنَّمَا

---

(١) انظر: ص١٢١ من هذا البحث.
(٢) تقدم تخريجه في ص ١٢١.
(٣) ذكره محمد عزة دروزة في كتابه: سيرة الرسول، صور مقتبسة من القرآن الكريم، ج ١/ ٢٤١.
(٤) سورة الأنعام، آية (٣٧).
(٥) سورة الأنعام، آية (١٠٩).

﴿ ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[1].

المثال الرابع: قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ﴾[2].

المثال الخامس: قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ﴾[3].

المثال السادس: قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ ﴾[4].

المثال السابع: قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾[5].

الضرب الثاني: طلب آيات معينة، وأمثلتها ما يلي:

المثال الأول: طلبهم إنزال الملك على الرسول ـ ﷺ ـ.

طلب الكفار أن ينزل الملك على رسول الله في أكثر من آية، وادّعوا أن هدفهم من هذا الطلب أن يشهد هذا الملك للرسول بالصدق ويعينه على تبليغ الرسالة. قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ . . ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ ﴾[7]. يقول ابن كثير رحمه الله: «يقولون: هلا أنزل إليه ملك من عند الله فيكون شاهداً على صدق ما يدعيه؟!»[8].

(١) سورة يونس، آية (٢٠).
(٢) سورة الرعد، آية (٧).
(٣) سورة الرعد، اية (٢٧).
(٤) سورة طه، آية (١٣٣).
(٥) سورة العنكبوت، آية (٥٠).
(٦) سورة الأنعام، آية (٨).
(٧) سورة الفرقان، آية (٧).
(٨) تفسير القرآن العظيم، ج ٣/ ٣٢٢.

المثال الثاني: طلبهم إنزال الملائكة عليهم.

طلب الكفار كذلك أن ينزل الله عليهم الملائكة. قال تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ .. ﴾[1]. وزعم الكفار أن هدفهم من هذا الطلب التأكد من صدق النبي ـ ﷺ ـ إذ قالوا: ﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧ ﴾[2].

المثال الثالث: طلبهم بعث آبائهم الأولين:

من طلباتهم المتعنتة أيضاً ادّعاؤهم أن دليل صدق الرسول ـ ﷺ ـ عندهم ـ أن يبعث آباءهم الأولين.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ۝٣٤ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ۝٣٥ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣٦ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٥ ﴾[4].

ذكر القرطبي ـ رحمه الله ـ أن المَعْني بالخطاب في «فأتوا بآبائنا» النبي ـ ﷺ ـ وحده، وأن قائل هذا الكلام هو أبو جهل حيث قال: يا محمد إن كنت صادقاً في قولك فابعث لنا رجلين من آبائنا، أحدهما: قصي بن كلاب فإنه كان رجلاً صادقاً، لنسأله عما يكون بعد الموت[5].

المثال الرابع: طلب المشركين لست آيات حسية في سورة الإسراء:

قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ ﴾[6].

---

(١) سورة الفرقان، آية (٢١).

(٢) سورة الحجر، آية (٧).

(٣) سورة الدخان، آية (٣٤ ـ ٣٦).

(٤) سورة الجاثية، آية (٢٥).

(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن، ج ١٦/ ١٤٤.

(٦) سورة الإسراء، آية (٩٠ ـ ٩٢).

المثال الخامس: طلب اليهود إنزال كتاب عليهم من السماء.

قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً . . ﴾[1].

الرد على التحدي:

جاء رد القرآن على هذه الطلبات جميعها رداً حاسماً بعدم تحقيق ما طلبوا[2] بَيْد أن الله دحض كل تعنت عقب ذكره، وإليك هذه الردود على طلباتهم.

أولاً: الرد على أمثلة الضرب الأول (الآيات المطلقة):

الرد على المثال الأول: جاء الرد فيه بقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[3]. أي قل يا محمد لهؤلاء المتعنتين إن الله سبحانه قادر على أن يأتيكم بما سألتم من آيات ولكنكم لا تعلمون عاقبة كفركم بعد إنزال الله ما اقترحتم من آيات.

الرد على المثال الثاني: جاء الرد فيه بقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾[4]. أي قل لهم يا محمد إن أمر هذه الآيات هو من شأن الله وليس من شأني، كما نبّه المؤمنين الذين كانوا يرغبون في تلبية طلبات الجاحدين لإقامة الحجة عليهم إلى عدم جدوى إجابة الكفار إلى ما طلبوا من آيات، ودلل على ذلك بقوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾[5]. يقول ابن جرير ـ رحمه الله ـ: «أي أننا لو نزلنا إليهم الملائكة حتى يروها عياناً، وكلمهم الموتى بإحيائنا إياهم حجة لك، ودلالة على نبوتك، وأخبروهم أنك محق فيما تقول، وأن ما جئتهم به حق من عند الله وحشرنا عليهم كل شيء فجعلناهم قبلاً[6] ما

---

(١) سورة النساء، آية (١٥٣).

(٢) سيأتي في نهاية المطلب الحكمة في عدم إجابتهم إلى ما سألوا من آيات، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٩.

(٣) سورة الأنعام، آية (٣٧).

(٤) سورة الأنعام، آية (١٠٩).

(٥) سورة الأنعام، آية (١١١).

(٦) وردت عدة أقوال للسلف حول كلمة «قُبُلًا»، الأول: أنه جمع قبيل، وهو الصِّنف. الثاني: =

آمنوا ولا صدقوك ولا اتبعوك إلا أن يشاء الله ذلك لمن شاء منهم «ولكن أكثرهم يجهلون» يقول: ولكن أكثر هؤلاء المشركين يجهلون أن ذلك كذلك، يحسبون أن الإيمان إليهم، والكفر بأيديهم، متى شاؤوا آمنوا، ومتى شاؤوا كفروا. وليس ذلك كذلك، ذلك بيدي، لا يؤمن منهم إلا من هديته له فوفقته، ولا يكفر إلا من خذلته عن الرشد فأضللته»[1].

الرد على المثال الثالث: جاء الرد فيه بقوله تعالى: ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[2]. أي قل لهم يا محمد إن الله هو عالم الغيب ولا أدري إن كان سيظهر لكم خارقة أو لا، أما أنا فما كان لي أن أقترح على الله خارقة يُنْزلها عليكم، فانتظروا أمره إني معكم من المنتظرين.

الرد على المثال الرابع: جاء الرد فيه بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ﴾[3]. أي إن مهمتك يا محمد مقتصرة على الهداية والإنذار شأنك شأن كل رسل الله الذين بُعثوا لهداية قومهم، أما الخوارق فليست من اختصاصك، إنما أمرها إلى الله يظهرها حسب حكمته متى شاء[4].

الرد على المثال الخامس: جاء الرد فيه بقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ﴾[5] أي قل لهم يا محمد: (إن الآيات ليست هي التي تقود الناس إلى الإيمان، فللإيمان دواعيه الأصلية في النفوس، وأسبابه المؤدية إليه من فعل هذه النفوس.. فالله يهدي من ينيبون إليه. فالإنابة إلى الله هي التي جعلتهم أهلاً لهداه)[6].

الرد على المثال السادس: جاء الرد فيه بقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي

= أنه جمع قبيل أيضاً، إلا أنه الكفيل، الثالث: أنه بمعنى المقابل. (انظر: زاد المسير في علم التفسير، ج ٣/ ١٠٧).

(١) جامع البيان/ شاكر، ج ١٢/ ٤٦ ـ ٤٧.

(٢) سورة يونس، آية (٢٠).

(٣) سورة الرعد، آية (٧).

(٤) انظر في ظلال القرآن، ج ٤/ ٢٠٤٨.

(٥) سورة الرعد، آية (٢٧).

(٦) في ظلال القرآن، ج ٢/ ٢٠٦٠.

﴿ ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ ﴾[1] يقول أبو حيان* رحمه الله: (اقترح المشركون ما يختارون على ديدنهم في التعنت فأجيبوا بأن هذا القرآن الذي سبق التبشير به في الكتب الإلهية السابقة أعظم الآيات في الإعجاز وهو الآية الباقية إلى يوم القيامة)[2].

الرد على المثال السابع: جاء الرد فيه بقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[3].

وهذا الرد كالرد في المثال السابق، نبههم الله فيه على عظمة القرآن وغنَاه عن كل معجزة يطلبونها. يقول ابن كثير رحمه الله: «بيّن الله تعالى كثرة جهلهم وسخافة عقلهم، حيث طلبوا آيات تدل على صدق محمد ـ ﷺ ـ وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، الذي هو أعظم من كل معجزة، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته، بل عن معارضة سورة منه، أو لم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم وأنت رجل أُمّي لا تقرأ ولا تكتب، ولم تخالط أهل الكتاب، فجئتم بأخبار ما في الصحف الأولى ببيان الصواب مما اختلفوا فيه وبالحق الواضح البيّن الجلي؟!!»[4].

ثانياً: الرد على أمثلة الضرب الثاني (الآيات المحددة):

١ ـ الرد على طلبهم انزال المَلَك على رسول الله ـ ﷺ ـ:

جاء ردّ القرآن على هذا الطلب بقوله تعالى: ﴿ . . وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾[5].

---

(١) سورة طه، آية (١٣٣).

* هو محمد بن يوسف بن علي، أبو حيان الأندلسي الغرناطي إمام العربية في عصره، مفسر ومحدث ومؤرخ ومقرىء، اشتهر اسمه وطار صيته، وأخذ عنه أكابر عصره، ولد بغرناطة سنة أربعة وخمسين وستمائة ومات بالقاهرة سنة خمس وأربعين وسبعمائة. من تصانيفه: «البحر المحيط في التفسير» و«النهر»، مختصر التفسير وغيرها. (طبقات المفسرين للداوودي، ج ٢/ ٢٨٧ وما بعدها).

(٢) البحر المحيط، ج ٦/ ٢٩٢.

(٣) سورة العنكبوت، آية (٥١).

(٤) تفسير القرآن العظيم، (بتصرف يسير)، ج ٣/ ٤٢٨.

(٥) سورة الأنعام، آية (٨).

وهذا الرد تضمن شقين:

الشق الأول: قوله تعالى: ﴿لو أنزلنا ملكاً لقُضيَ الأمر ثم لا يُنظرون﴾.

فعلق الله بنزول الملك قضاء الأمر. وللعلماء حول معنى «القُضي الأمر» أقوال[1] اخترت ثلاثة منها هي:

القول الأول: أن سنة الله في الأمم أنهم إذا اقترحوا آية ثم لم يؤمنوا بها استحقوا عذاب الاستئصال كما حصل للأمم السابقة ـ الذين طلبوا آيات ـ ورسول الله أُرسل رحمة للعالمين لذلك لم يشأ الله أن يستأصل هذه الأمة ولهذا لم ينزل عليهم الملك[2].

القول الثاني: من سنة الله أن الملائكة حين ينزلون إلى الأرض على قوم متلبسين بالكفر والمعاصي إنما ينزلون للتدمير عليهم وتحقيق أمر الله من غير إمهال ولا إنظار. كما قال تعالى: ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ ﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾[4][5].

القول الثالث: ما ذكره الطاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ بقوله: «ولعل حكمة ذلك أن الله فطر الملائكة على الصلابة والغضب للحق بدون هوادة، وجعل الفطرة الملكية سريعة لتنفيذ الجزاء على وفق العمل، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾[6]، فلذلك حجزهم الله عن الاتصال بغير العباد المكرمين الذين شابهت نفوسهم الإنسانية النفوس الملكية، ولذلك حجبهم الله عن النزول إلى الأرض إلا في أحوال خاصة، كما قال تعالى عنهم: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾[7]، وكما قال: ﴿ما ننزل الملائكة إلا بالحق﴾ فلو أن الله أرسل ملائكة في الوسط البشري

---

(١) انظر جامع البيان/ شاكر، ج ١١/ ٢٦٧ ـ ٢٦٨، التفسير الكبير، ج ١٢/ ١٦١ ـ ١٦٢، تفسير المراغي، ج ٧/ ٨١.

(٢) انظر: جامع البيان / شاكر، ج ١١/ ٢٦٧، تفسير المنار، ج ٧/ ٣١٤.

(٣) سورة الحِجر، آية (٨).

(٤) سورة الفرقان، آية (٢٢).

(٥) انظر: في ظلال القرآن، ج ٢/ ١٠٤١، أضواء البيان ج ٢/ ١٨٤.

(٦) سورة الأنبياء، آية (٢٨).

(٧) سورة مريم، آية (٦٤).

لما أمهلوا أهل الضلال والفساد ولناجزوهم جزاء العذاب»[1].

الشق الثاني: قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾[2] أي لو شاء الله أن يرسل مع رسوله ملكاً يشهد له لجعله في صورة البشر حتى يتمكنوا من مخاطبته والإنتفاع بالأخذ عنه، وذلك لأن البشر لا يتحملون رؤية الملائكة على صورتهم الملائكية[3] وحينئذ يختلط عليهم الأمر إذا رأوه في صورة بشر ويشكون في أمره ويقولون أهذا ملك أم بشر. فلا ينفكون يقترحون جعله ملكاً. وإذا كان الأمر كذلك فلا فائدة من إرسال الرسل من الملائكة على هذا النحو، لأن الله جعل رسله مصابيح هدى ولم يجعل أمرهم مشتبهاً ومشكلاً[4].

٢ ـ الرد على طلبهم إنزال الملائكة عليهم:

رد الله على هذا الطلب بأمرين:

الأول: نبههم الله سبحانه وتعالى أن إنزال الملائكة ليس بحسب أهوائهم واقتراحاتهم، إنما يكون بالحق. قال تعالى: ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾[5] يقول ابن عطية في معنى «إلا بالحق» أي كما يجب ويحق من الوحي والمنافع التي أراها الله لعباده، لا على اقتراح كافر، ولا باختيار معترض»[6]. وختم الآية ببيان عاقبة إنزال

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، ج ٧/ ١٤٤.

(٢) سورة الأنعام، آية (٩).

(٣) الرسل مع تهيئة الله لهم لرؤية الملائكة كانوا يعانون عند لقياهم، يدل على ذلك ما جاء في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما وهو يتحدث عن فترة الوحي فقال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ في حديثه: «فبَيْنَا أنا أمشي إذا سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فَجُئِثْتُ منه رُعباً، فرجعت فقلت زمّلوني زمّلوني فدثروني»، فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها المدثر﴾ سورة المدثر/ ١ ـ ٥ (صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة المدثر، ج ٤/ ١٨٧٥. «جُئثت» من جأث، أي: ذُعرت وخفت. (النهاية، ج ١/ ٢٣٢).

(٤) انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ج ١/ ٣٣٨، فتح القدير للشوكاني ج ٢/ ١٠١، تفسير المنار، ج ٧/ ٣١٥، أضواء البيان ج ٢/ ١٨٤.

(٥) سورة الحجر، آية (٨).

(٦) المحرر الوجيز، ج ٨/ ٢٨٤.

الملائكة حسب اقتراحهم فقال تعالى: ﴿وما كانوا إذاً منظرين﴾ ومعنى هذه الجملة كقوله تعالى: ﴿ولو أنزلنا ملكاً لقُضيَ الأمر ثم لا يُنظرون﴾[1].

الثاني: بيّن الله لهم أن اليوم الذي يتحقق لهم فيه رؤية الملائكة ـ كما طلبوا ـ لن يكون يوم خير عليهم بل سيكون يوم شؤم وبلاء. قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾[2]. وقد ذكر العلماء أن اليومين اللذين ينطبق عليهما هذا الوصف هما: وقت الموت ويوم القيامة.

يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «أي هم لا يرون الملائكة في يوم خير لهم بل يوم يرونهم لا بشرى يومئذ لهم، وذلك يصدق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار، والغضب من الجبار... ثم قال: وقال آخرون: بل المراد يوم القيامة... ولا منافاة بين هذا وبين ما تقدم فإن الملائكة في هذين اليومين، يوم الممات ويوم المعاد تتجلى للمؤمنين وللكافرين، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان، وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران فلا بشرى يومئذ للمجرمين «ويقولون حجراً محجوراً» أي تقول الملائكة للكافرين حرام محرم عليكم الفلاح اليوم»[3].

٣ ـ الرد على طلبهم بعث آبائهم الأولين:

جاء رد القرآن على هذا الطلب رداً عقلياً وبدهياً إذ قال لهم: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[4] أي قل لهم يا محمد ـ ﷺ ـ إن الذي أوجدكم من العدم أول مرة قادر على إعادتكم بعد موتكم. فاستدل على المعاد بالبدء[5].

٤ ـ الرد على المثال الرابع: المتضمن طلب ست آيات حسية هي:

١ ـ ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ ﴾ أي ماءً غزيراً.

---

(١) انظر أقوال العلماء في معنى «القضي الأمر» ص ٢٢٥.
(٢) سورة الفرقان، آية (٢٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم، ج ٣/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦.
(٤) سورة الجاثية، آية (٢٦).
(٥) تقدم الحديث عن هذا النوع من الاستدلال بالتفصيل في ص ١٩٢.

٢ ـ ﴿أو يكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً﴾ أي يكون لك بستان من نخيل وعنب فتفجر وسطها أنهار الماء.

٣ ـ ﴿أو تُسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً﴾ أي تسقط علينا قطعاً كما كنت تخوفنا.

٤ ـ ﴿أوتأتي بالله والملائكة قبيلاً﴾ أي تحضر لنا الله والملائكة فنراهم عياناً.

٥ ـ ﴿أو يكون لك بيت من زخرف﴾ أي من ذهب.

٦ ـ ﴿أو ترقى في السماء، ولن نؤمن لرقُيّك حتى تُنزل علينا كتاباً نقرؤه﴾ أي تصعد يا محمد إلى السماء بسلم، ولن نصدقك لمجرد صعودك حتى تعود ومعك كتاب من الله يدل على صدقك نقرؤه[1].

---

(١) وردت هذه الطلبات في الحوار الذي دار بين الرسول ـ ﷺ ـ وزعماء قريش. فقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير والواحدي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عتبة وشيبة وأبا سفيان، والنضر بن الحارث، وأبا البختري والوليد بن المغيرة وأبا جهل، وعبد الله بن أبي أمية، وأمية بن خلف ورؤساء قريش، اجتمعوا عند ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد وخاصموه حتى تعذروا فيه. فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، فجاءهم سريعاً ـ وهو يظن أنه بدا لهم في أمره بَداءَ، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم، ويعز عليه عنتَهم ـ حتى جلس إليهم فقالوا: يا محمد، إنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وسفّهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرَّقت الجماعة، وما بقي أمر قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت بهذا لتطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا ما تكون به أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سوّدناك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملّكناك علينا، وإن كان هذا الرّئيُّ الذي يأتيك تراه قد غلب عليك ـ وكانوا يسمون التابع من الجن الرئي ـ بذلنا أموالنا في طلب الطِّب لك حتى نبرئك منه أن نعذر فيك. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به لطلب أموالكم ولا للشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله عز وجل بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا منّي ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم». قالوا له: يا محمد، فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلاداً، ولا أقل مالاً، ولا أشد عيشاً منا، فسل لنا ربك ـ الذي بعثك بما بعثك ـ فليسير عنا هذه الجبال التي ضيّقت علينا، ويبسط لنا بلادنا، ويجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، =

جاء رد القرآن الكريم على هذه الاقتراحات مختصراً وشافياً حيث أمر الله رسوله - ﷺ - أن يرد عليهم بقوله: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾[1] أي نزه ربك يا محمد عن العجز وعن عبث هؤلاء الجهلة الذين لا يفرقون بين خصائص الألوهية ومقام العبودية، فيطالبونك بما هو خارج عن حدود مهمتك وفوق طاقتك البشرية.

ولقد كان رسول الله - ﷺ - في غاية الأدب مع الله سبحانه إذ قال لهم - قبل نزول الآية - «ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً».

٥ - الرد على طلب اليهود إنزال كتاب عليهم من السماء:

جاء في سبب نزول الآية عن محمد بن كعب القرظي[2] قال: جاء ناس من

= وليكن ممن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيخاً صدوقاً، فنسألهم عما تقول: أحق هو أم باطل؟ فإن صنعت ما سألناك صدقناك، وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولاً كما تقول. فقال رسول الله - ﷺ -: «ما بهذا بعثت، إنما جئتكم من عند الله سبحانه بما بعثني به، فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه أصبر لأمر الله». قالوا: فإن لم تفعل هذا فسل ربك أن يبعث ملكاً يصدقك، وسله فليجعل لك جناناً وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم في الأسواق كما نقوم، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم. فقال رسول الله - ﷺ -: «ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله تعالى بعثني بشيراً ونذيراً». قالوا: فأسقط علينا كسفاً من السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل. فقال رسول الله - ﷺ -: «ذلك إلى الله إن شاء فعل». فقال قائل منهم: لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً. وقال عبد الله بن أمية المخزومي - وهو ابن عاتكة بنت عبد المطلب ابن عمة النبي - ﷺ -: «لا أومن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً وترقى فيه، وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي بنسخة منشورة معك، ونفر من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول. فانصرف رسول الله - ﷺ - إلى أهله حزيناً لما فاته من متابعة قومه، ولما رأى من مباعدتهم منه. فأنزل الله تعالى: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تَفْجُرَ لنا من الأرض ينبوعاً..﴾، الآيات من سورة الإسراء، (٩٠ - ٩٣) - (أسباب نزول القرآن للواحدي، ص ٣٠٠ وما بعدها، وانظر: سيرة ابن هشام، ج ٣١٥/١ وما بعدها، جامع البيان، ج ١٥/ ١١٠ - ١١١).

(١) سورة الإسراء، آية (٩٣).

(٢) هو محمد بن كعب القرظي نسبة إلى بني قريظة وكان أبوه من سبي بني قريظة حلفاء الأوس =

اليهود إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقالوا: إن موسى عليه السلام جاءنا بالألواح من عند الله، فأتنا بالألواح حتى نصدقك، فأنزل الله هذه الآية[(١)](٢).

وهذا المثال يبين أن اليهود سلكوا نهج قريش في التعنت وهذا ليس غريباً صدوره عن اليهود، فتاريخهم مع أنبيائهم مليء بالتعنتات والمكابرات، ويكفي أن نذكر آية واحدة تدل على مدى معاناة أنبيائهم منهم وخاصة موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾(٣)، ولذلك اكتفى بالرد عليهم بتذكيرهم بنوع واحد من تعنتات أسلافهم، وهو تبجحهم بطلب رؤية الله(٤) فقال تعالى: ﴿ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾(٥).

وفي ختام هذا المطلب أرى أنه من المناسب أن أبين الحكَم في عدم الاستجابة لمقترحات الجاحدين وطلباتهم والاكتفاء بالقرآن الكريم دليلاً على صدق النبي ـ ﷺ ـ. وقبل أن أذكر هذا الحكَم أود أن أُذَكر ببدهية وهي:

يجب أن نعلم أن الله سبحانه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وأنه كان من السهل عليه ـ لو شاء ـ سبحانه أن ينزل عليهم آية تخضع لها الأعناق وتُلجيء الناس إلى الإيمان بالله ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾(٦)

= ولد في آخر خلافة علي سنة أربعين وسكن الكوفة ثم المدينة. حدّث عن جماعة من الصحابة كأبي أيوب، وأبي هريرة ومعاوية، وابن عباس، والبراء بن عازب، وجابر، وأنس وكان من أوعية العلم إلا أنه كان يرسل كثيراً ويروي عمن لم يلقهم.
قال عنه ابن سعد: كان ثقة عالماً كثير الحديث ورعاً، وقال عنه العجلي: ثقة مدني تابعي رجل صالح عالم بالقرآن، وقال عنه الذهبي كان من أئمة التفسير، اختلف في وفاته، أشهرها سنة ثمانين ومائة وعمره ثمان وسبعين سنة. (انظر سير أعلام النبلاء، ج ٥/ ٦٥).

(١) الآية هي: ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء..﴾ النساء/ ١٥٣.
(٢) جامع البيان/ شاكر، ج ٩/ ٣٥٦، وانظر: لباب النقول في أسباب النزول، ص ٨٥.
(٣) سورة الأعراف، آية (١٣٢).
(٤) الآية التي نصت على ذلك هي قوله تعالى: ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ البقرة / ٥٥.
(٥) سورة النساء، آية (١٥٣).
(٦) سورة الشعراء، آية (٤).

لكن الإسلام قد قرر أنه: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾[1] وأهم هذه الحكم ما يلي:

١ ـ لأنهم غير جادين في الإستدلال بهذه الطلبات والاقتراحات ـ لو لُبيّت ـ على صدق الرسول ـ ﷺ ـ:

إنما قصدهم التعجيز والتعنت. وفي ذلك يقول ابن كثير رحمه الله: «ولو علم الله منهم أنهم يسألون ذلك استرشاداً لأجيبوا إليه، ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفراً وعناداً..»[2] وقد أشارت عدة آيات إلى عدم جدوى إنزال الآيات عند الجاحدين والمستكبرين منها:

قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ۝٤ ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ۝٩٧ ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ۝١٥ ﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ۝٥٩ ﴾[6].

٢ ـ لإغناء القرآن عن كل معجزة يطلبونها:

لقد تضمن القرآن الكريم على معجزات تدل على صدق رسول الله ـ ﷺ ـ أوضح من كل ما يطلبه الجاحدون كما يقول سيد قطب رحمه الله: «لقد كان لهم في القرآن ذاته برهان أصدق من هذه البراهين المادية التي يطلبون فإن هذا القرآن شاهد

---

(١) سورة البقرة، آية (٢٥٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم، ج ٣/ ٦٧.
(٣) سورة الأنعام، آية (٤).
(٤) سورة يونس، آية (٩٦ ـ ٩٧).
(٥) سورة الحجر، آية (١٤ ـ ١٥).
(٦) سورة الإسراء، آية (٥٩).

بذاته، بتعبيره ثم بمحتوى هذا التعبير على أنه من عند الله..»[1].

ولذلك كان القرآن الكريم يحيلهم إلى القرآن نفسه عندما يطلبون الآيات الحسية[2]، بل إن معجزة القرآن أقوى من كل معجزة حسية أتى بها الأنبياء كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا .. ﴾[3] فهذه الآية تُصور لنا لوناً من ألوان إعجاز القرآن في ثوب حسي، إذ تُصوّر قوة تأثيره على الجمادات والأموات. ومعناها: لو فرض أن هناك كتاباً له قدرة بمجرد تلاوته على تسيير الجبال من أماكنها، أو تقطيع الأرض المتماسكة أو تكليم الموتى وإجابتهم لكان هذا القرآن[4].

٣ ـ لأن تأييد الرسول بآية واحدة كافٍ للدلالة على صدقه:

فالآية الواحدة لا تقل دلالتها على صدق الرسول عن الآيات الكثيرة التي لا يفتأ الجاحدون يطالبون بها، وذلك لأن العبرة بجنس الإعجاز لا بكثرة الآيات أو نوعها. يقول القاسمي رحمه الله: «ومما ينبغي أن يعلم أن الله إذا أرسل نبياً وأتى بآية دالة على صدقه قامت بها الحجة وظهرت بها المحجة، فمن طالبهم بآية ثانية لم تجب إجابتهم إلى ذلك، بل وقد لا ينبغي ذلك لأنه إذا جاء بآية ثانية طولب بثالثة، وإذا جاء بثالثة طولب برابعة فإن طلب المتعنتين لا أمد له، ومعلوم أنه من قامت عليه حجة بينة في مسألة علم وحق من حقوق العباد التي يتناصحون فيها، لو قال أنا لا أقبل حتى تقوم عليه حجة ثانية وثالثة، كان ظالماً متعدياً ولم يجب إجابته إلى ذلك...»[5].

٤ ـ قطعاً لسوء أدب الجاحدين مع الله بالتعدي على سلطانه:

يقول القرطبي رحمه الله: «ولو وجب على الله أن يأتيهم بكل ما يقترحونه من الآيات لوجب عليه أن يأتيهم بمن يختارونه من الرسل، ولوجب لكل إنسان أن يقول: لا أؤمن حتى أُوتي بآية خلاف ما طلب غيري. وهذا يؤول إلى أن يكون

(١) في ظلال القرآن، ج ٢/ ١٠٤٠.
(٢) مثل قوله تعالى: ﴿أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يُتلى عليهم..﴾ العنكبوت/ ٥١.
(٣) سورة الرعد، آية (٣١).
(٤) ذكر الزمخشري رحمه الله في كشافه: أن جواب «لو» محذوف تقديره «لكان هذا القرآن».
(٥) دلائل التوحيد، ص ١٩٢.

التدبير إلى الناس، وإنما التدبير إلى الله تعالى»[1].

٥ ـ رحمة الله ورسوله بالجاحدين:

فقد نجّاهم الله من عذاب الاستئصال بعدم الإجابة لمقترحاتهم، وذلك لأن سنته في الأمم السابقة أن يستأصل القوم الذين يقترحون آيات معينة ثم يكفرون بعد إتيانهم إياها. يقول السهيلي[2] رحمه الله: «.. إن التكذيب بالآيات على نحو ما سألوه من إزالة الجبال عنهم، وإنزال الملائكة، يوجب في حكم الله ألا يلبث الكافرين بها، وأن يعاجلهم بالنقمة، كما فعل بقوم صالح وبآل فرعون، فلو أُعطيت قريش ما سألوه من الآيات وجاءهم بما اقترحوا ثم كذبوا لم يلبثوا، ولكن الله أكرم محمداً ـ ﷺ ـ في الأمة التي أرسله إليهم، إذ قد سبق في علمه أن يكذّب به من يكذّب ويصدّق من يصدّق، وابتعثه رحمة للعالمين برّهم وفاجرهم، أما البرّ فرحمته إياهم في الدنيا والآخرة، وأما الفاجر فإنهم أمنوا من الخسف والغرق وإرسال حاصب عليهم من السماء...»[3] ومن هنا ندرك رحمة الرسول بكفار قريش في عدم استجابته لطلبهم أن يجعل لهم الصفا ذهباً. فقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «سأل أهل مكة النبي ـ ﷺ ـ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحّي الجبال عنهم فيزرعوا فيها، فقيل له: «إن شئت أن نستأني بهم، وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أُهلكوا كما أُهلكت من قبلهم» قال: «لا بل أستأنى بهم» فأنزل الله عز وجل هذه الآية:

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج ١٠/٣٣١، وانظر: تفسير التحرير والتنوير ج ٧/١٤٤.

(٢) هو الحافظ العلامة البارع أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أصبغ الخثعمي، الأندلسي، المالكي، الضرير، وُلد بأشبيلية سنة ثمان وخمس مائة، عمي وهو ابن سبع عشرة سنة. أخذ العلم عن القاضي أبي بكر بن العربي وغيره، ونبغ في القراءات والحديث والنحو والأدب والتاريخ، وقد نمى خبر نبوغه إلى مراكش، فطلبه واليها وأحسن إليه وأقبل عليه، وأقام بها نحو من ثلاثة أعوام. وتوفي بها في شعبان سنة إحدى وثمانين وخمس مائة وله عدة مؤلفات: أشهرها: «الروض الأنف» وهو شرح لسيرة ابن هشام. وله: «الأعلام بما أبهم في القرآن من الأسماء الأعلام» و«كتاب الفرائض» (انظر تذكرة الحفاظ للذهبي، ج ١٣٤٨/٤، معجم المؤلفين، ج ١٤٧/٥).

(٣) الروض الأنف، لعبد الرحمن بن عبد الله السهلي، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد (دار المعرفة، ١٣٩٨ هـ، ج ٢/ ٥٠).

﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾[(١)(٢)].

٦ ـ لمناسبة معجزة القرآن لكفار قريش ولخلود الرسالة:

فقد جرت سنة الله في الدعوات أن كل رسول كان يأتي بمعجزة مناسبة لحال قومه، أي لما برعوا وتفوقوا فيه. فلما كان كفار قريش متفوقين في أفانين الكلام، تحداهم الله بهذا القرآن الذي بلغ الذروة في الفصاحة والبلاغة. يقول الإمام الماوردي[(٣)] رحمه الله: «إن معجزة كل رسول موافق للأغلب من أحوال عصره، والشائع المنتشر في ناس دهره، لأن موسى عليه السلام حين بُعث في عصر السحرة خص من فلق البحر يبساً وقلب العصا حية ما بهر كل ساحر وأذل كل كافر، وبعث عيسى عليه السلام في عصر الطب فخص من إبراء الزَّمْنى وإحياء الموتى بما أدهش كل طبيب وأذل كل لبيب. ولما بُعث محمد ـ ﷺ ـ في عصر الفصاحة والبلاغة خص بالقرآن في إيجازه وإعجازه بما عجز عنه الفصحاء، وأذعن له البلغاء، وتبلد فيه الشعراء»[(٤)].

أما مناسبة معجزة القرآن لخلود الرسالة، فقد كان محمد ـ ﷺ ـ آخر الرسل وخاتمهم، لذلك وجب أن تكون معجزته معجزة خالدة ومتجددة تدل على صدقه إلى

---

(١) سورة الإسراء، آية (٥٩).

(٢) مسند أحمد ج ١/٢٥٨، رواه الحاكم في المستدرك ج ٢/٣٦٢، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وانظر: أسباب نزول القرآن للواحدي، ص ٢٩٥، لباب النقول في أسباب النزول، ص ١٣٧.

(٣) هو الإمام العلامة، أقضى القضاة أبو الحسن، علي بن محمد بن حبيب البصري، الماوردي، الشافعي صاحب التصانيف. ولد في البصرة وانتقل إلى بغداد ومات بها سنة خمسين وأربع مائة، وقد بلغ عمره ستاً وثمانين سنة. ولي القضاء ببلدان شتى كان يقول ببعض أقوال المعتزلة لذلك اتُّهم بالاعتزال. قال عنه الذهبي: صدوق في نفسه لكنه معتزلي، وقال ابن حجر: ولا ينبغي أن يطلق عليه اسم الاعتزال. وربما قال ابن حجر ذلك لأنه لم يكن يوافقهم في القول بخلق القرآن والمعتزلة لا يطلقون اسم الاعتزال إلا على من وافقهم في كل أصولهم الخمسة. من مصنفاته: تفسيره: «النكت والعيون»، و «أدب الدنيا والدين»، و «الأحكام السلطانية». (انظر: سير أعلام النبلاء، ج ١٨/ ٦٤، ميزان الاعتدال، ج ٣/ ١٥٥، لسان الميزان، ج ٤/ ٢٦٠).

(٤) أعلام النبوة، لأبي الحسن الماوردي، ص ٥٣.

أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهذا ما لا يكون لو كانت معجزته حسية، وذلك لأن أثر المعجزات الحسية قاصر ـ في الغالب ـ على من يراها، ولهذا اندثرت معجزات الأنبياء الحسية بذهابهم، ولولا أن القرآن ذكرها لما كان إلى معرفتها سبيل. يقول العلامة الزرقاني[1] رحمه الله: «وهنا نلفت النظر إلى أن القرآن بما اشتمل عليه من هذه المعجزات الكثيرة، قد كُتب له الخلود، فلم يذهب بذهاب الأيام، ولم يمت بموت الرسول ـ ﷺ ـ بل هو قائم في فم الدنيا يحاج كل مكذب، ويتحدى كل منكر ويدعو أمم العالم جمعاء إلى ما فيه من هداية الإسلام وسعادة الإنسان. ومن هذا يظهر الفرق جلياً بين معجزات نبي الإسلام ـ ﷺ ـ ومعجزات إخوانه الأنبياء عليهم أزكى الصلاة وأتم السلام، فمعجزات محمد في القرآن وحده آلاف مؤلفة، وهي متمتعة بالبقاء إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم حتى يرث الله الأرض ومن عليها. أما معجزات سائر الرسل فمحددة العدد، قصيرة الأمد، ذهبت بذهاب زمانهم، وماتت بموتهم، ومن يطلبها الآن، لا يجدها إلا في خبر كان، ولا يسلم له شاهد بها إلا هذا القرآن؟ وتلك نعمة يمنها القرآن على سائر الكتب والرسل وما يصح من الأديان كافة»[2].

المطلب الثالث: اقتراحاتهم المتعلقة بالقرآن على سبيل التعجيز:

من صور التعنت تلك الاقتراحات التي ظل الجاحدون يقترحونها على رسول الله ـ ﷺ ـ بدون داع سوى التعجيز والمماحكة. فبالرغم من إفحام القرآن لهم استمروا في اقتراحهم حتى بشأن القرآن نفسه غير عابئين بردود القرآن المفحمة. وسأكتفي بذكر ثلاثة من مقترحاتهم المتعلقة بالقرآن الكريم هي:

أولاً: اقتراحهم إنزال القرآن جملة واحدة.

ثانياً: اقتراحهم الإتيان بقرآن غير هذا أو إبداله.

ثالثاً: اقتراحهم إنزال هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم.

---

(١) هو محمد عبد العظيم الزرقاني، من علماء الأزهر بمصر، تخرج بكلية أصول الدين، وعمل بها مدرساً لعلوم القرآن والحديث، توفي بالقاهرة سنة ١٣٦٧ هـ، ومن كتبه: «مناهل العرفان في علوم القرآن» (الأعلام، ج ٦/ ٢١٠).

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن، ج ٢/ ٢٣٢.

أولاً: اقتراحهم إنزال القرآن جملة واحدة:

لقد وجد الجاحدون في نزول القرآن منجماً فرصة للاعتراض ثم الاقتراح، اعترضوا على إنزاله مفرقاً واقترحوا نزوله جملة واحدة. ولقد سجل القرآن الكريم هذا الاعتراض، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً . . ﴾[1] ولم يذكر الكفار أي مبرر لهذا الاقتراح - فضلاً أن يكون مقبولاً - إلا ما ذكره جمهور المفسرين على أن في الآية إضماراً، فيكون معناها: (هلا أُنزل عليه هذا الكتاب الذي أوحي إليه جملة واحدة، كما نزلت الكتب قبله جملة واحدة[2] كالتوارة والإنجيل والزبور وغيرها من الكتب الإلهية)[3].

وقد رد الله على هذا الاعتراض ودحضه بقوله: ﴿ . . كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾[4]. وقد تضمن هذا الرد ثلاث حكم لمجيء القرآن منجماً وهي:

١ - تثبيت فؤاد النبي - ﷺ -، وأشار إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿كذلك لنثبت به فؤادك﴾ أي كذلك أنزلناه عليك مفرقاً لنقوي به قلبك. ووجه ذلك، أن النبي - ﷺ - وجّه دعوته إلى قوم غلاظ الأكباد جفاة الطبع، جُبلوا على العناد والمكابرة، والتمسك بموروثات الآباء والأجداد.. ولما كان لب دعوته - ﷺ - توحيد الله عز وجل ومحاربة الشرك بمختلف صوره وأشكاله، فقد اصطدمت هذه المبادىء مع مبادىء

(١) سورة الفرقان، آية (٣٢) وقد اختُلف في المراد بالكفار في الآية على قولين: أحدهما: إنهم كفار قريش، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وقيل: إنهم اليهود (انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج ٧/٢٨) والأرجح قول ابن عباس، لأن السورة مكية ولأن السياق السابق واللاحق للآية كله عن كفار قريش.

(٢) انظر أدلة الجمهور على ذلك في الإتقان، ج ١/ ١٢٢ - ١٢٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ج ٣/ ٣٣٠ وهذا المعنى يشكل إذا قيل المراد بالكفار كفار قريش، ووجه الإشكال: كيف عرفوا أن الكتب السماوية السابقة نزلت جملة واحدة؟ ويدفع هذا الإشكال بأنه قد يكون قد نمى إلى سمعهم أن الكتب السماوية السابقة نزلت جملة واحدة خاصة وأن بعضهم كان قد تنصر وصارت له صلة بالكتب السابقة، أو يكون من مؤامرات اليهود في تحريض كفار قريش للاعتراض على صفة النزول هذه.

(٤) سورة الفرقان، آية (٣٢ - ٣٣).

الجاهلية القائمة على الشرك وتعدد الآلهة. وللأسف بقدر ما كان رسول الله - ﷺ - حريصاً على هدايتهم بقدر ما كانوا حريصين على إبطال أمره، لذلك كانت تمر به أوقات عصيبة يكون فيها أحوج ما يكون إلى ما يثبت قلبه ويملأه أملاً وطمأنينة وسكينة، ولم تكن هناك وسيلة أكثر فاعلية من نزول الوحي عليه الفينة بعد الفينة بما يثبت قلبه على الحق، ويشحذ عزمه للمضي قدماً في طريقه. فكانت الآيات تنزل تذكرة بسنة الله في الدعوات السابقة وتقص عليه قصص الأنبياء مع قومهم. وتنزل الآيات توجهه إلى التصرف الحكيم، وتنزل آيات تؤيده وتدافع عنه، وتنزل آيات تعده بالنصر والتمكين، وتنزل آيات تتوعد المؤذين له فكان نزول الوحي في كل مرة بمثابة شحنة روحية تبدد ما قد يكون ألمّ به من حزن أو قلق أو ألم، وتنير له الطريق وترسم له معالمه[(١)].

٢ - تيسير حفظ القرآن عليه وفهمه. أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ورتلناه ترتيلاً﴾ قال الطبري رحمه الله: الترتيل في القراءة الترسل والتثبت يقول: علمناكه شيئاً بعد شيء حتى تحفظه[(٢)] ووجه ذلك أن القرآن نزل على أمة أُمية بمن فيها رسولها: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾[(٣)]. وقال عن الرسول - ﷺ -: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ . . ﴾[(٤)] وأُمة هذا وضعها من الصعب عليها أن تحفظ القرآن وتفهمه لو نزل عليها جملة واحدة، فكان نزوله منجماً خير عون لها لحفظه وفهمه، يقول الزركشي[(٥)] رحمه الله: «فإنه عليه السلام كان أُمياً

---

(١) انظر مناهل العرفان، ج ١/٥٤ - ٥٥، بحوث في الدين. الوحي. القرآن. لبلتاجي ص ١٧٤ - ١٧٥، مباحث في علوم القرآن، للقطان ص ١٠٧ - ١٠٨.
(٢) جامع البيان (بتصرف يسير) ج ١٩/٨.
(٣) سورة الجمعة، آية (٢).
(٤) سورة الأعراف، آية (١٥٧).
(٥) هو الإمام العلامة المصنف المحرر بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله المصري الزركشي الشافعي، وُلد سنة خمس وأربعين وسبعمائة. أخذ العلم عن العَلَمين جمال الدين الأسنوي وسراج الدين البلقيني كما رحل إلى الشام وسمع من علمائها، نبغ في الأصول والفقه والتفسير والحديث والأدب، انقطع للعلم واشتغل بالتدريس والإفتاء، وولي مشيخة خانقاه كريم الدين بالقرافة الصغرى، من تصانيفه: «تكملة شرح المنهاج للإمام الأسنوي»، و «النكت على البخاري»، و «البحر المحيط في أصول الفقه»، و «شرح جمع الجوامع

لا يقرأ ولا يكتب، ففرّق عليه ليبسر عليه حفظه، بخلاف غيره من الأنبياء، فإنه كان كاتباً قارئاً، فيمكنه حفظ الجميع إذا نزل جملة»[1] وقد بيّن الله هذه الحكمة في سورة الإسراء بقوله: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾[2] أي نزلناه عليك مفرقاً لتقرأه على الناس على تؤده ومهل، فإن ذلك أقرب إلى الفهم وأسهل على الحفظ وأدعى إلى الالتزام ولو نزل جملة واحدة بما فيه من الفرائض والأحكام لثقل عليهم الفهم والالتزام. فكانت صفة النزول هذه خير وسيلة لتربية الأمة والتدرج في تشريع الأحكام.

٣ ـ مسايرة الحوادث والنوازل[3]. أشار إلى ذلك قوله تعالى: **﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾** ويندرج تحت هذه الحكمة عدة صور:

أ ـ بيان حكم الله في الأقضية والوقائع. فقد كان عهد النبي ـ ﷺ ـ عهد تشريع وبيان، فإذا حدثت حادثة أو وقعت واقعة وافْتُقر فيها إلى حكم الله نزل جبريل عليه السلام بالحُكْم، كما حصل في حادثة الظهار واللعان والإفك وغيرها.

ب ـ إجابة أسئلة السائلين. فلقد كانت الأسئلة ترد على رسول الله ـ ﷺ ـ من المسلمين ومن الكفار على حد سواء، وسواء كانت الأسئلة استرشادية كأسئلة المسلمين عن المحيض وعن الخمر والميسر وعن الأهلّة.. أو كان تعنتية أو تثبتية كأسئلة المشركين واليهود عن الساعة وعن الروح وعن ذي القرنين.. فلا بد من الإجابة عليها. وطبيعي أن هذه الأسئلة لم تقع في وقت واحد.

ج ـ تنبيه المسلمين من وقت لآخر على أخطائهم، فالأخطاء أمر متوقع لا سيما أن الأمة ناشئة والمبادىء جديدة عليها، فكانت الآيات تنزل للتنبيه على الأخطاء تارة وللتحذير من المخالفة تارة أخرى ولتصحيح المفاهيم المختلة عند وقوعها، كما حصل يوم أُحد عندما خالف الرماة أمر الرسول ـ ﷺ ـ وقعت الهزيمة فأنزل الله

= للسبكي» في مجلدين.. توفي بمصر في رجب سنة أربع وتسعين وسبعمائة (شذرات الذهب، ج ٦/ ٣٣٥).

(١) البرهان في علوم القرآن، ج ١/ ٢٣١.

(٢) سورة الإسراء، آية (١٠٦).

(٣) هذه الحكمة بصورها الأربع مقتبسة من مناهل العرفان بتصرف ج ١/ ٥٨ ـ ٦٠، وانظر: المدخل لدراسة القرآن الكريم، لأبي شهبة، ص ٧٦ ـ ٨٠.

آيات[1] تعالج الموقف وتنبه على الأخطاء وتبين عاقبة عصيان أمر الله ورسوله. وكذلك يوم حنين، أُعجب المسلمون بكثرتهم حتى قال قائل: «لن نهزم اليوم من قلة» فحصل ما حصل، ولولا لُطف الله لكانت الهزيمة وأنزل الله على إثرها آيات[2] ينبّه المسلمين فيها على خطورة الغرور والاعتداد بالعدد والعدة مبيناً لهم أنه سبب من أسباب الهزيمة.

د ـ تحذير المسلمين من المنافقين وكشف حالهم وهتك أستارهم. فقد كان أمرهم خافياً على المسلمين بسبب تظاهرهم بالإسلام واختلاطهم بالمسلمين، مستغلين ذلك في الكيد للإسلام وكشف أسرار المسلمين لأعدائهم. فكان القرآن ينزل في مناسبات مختلفة يكشف حقيقتهم ويفضح مكائدهم ويظهر دسائسهم، كما في سورة «التوبة» و «المنافقون» وغيرهما.

ثانياً: اقتراحهم الإتيان بقرآن غير هذا أو إبداله[3]:

الصورة الثانية من صور تعنت المشركين المتعلقة بالقرآن هي: مطالبتهم الرسول ـ ﷺ ـ أن يأتيهم بقرآن غير هذا أو يُبدّله. وقد نص الله على هذا الاقتراح بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ .. ﴾[4]. وهذا الاقتراح كسابقه لم يقدم المشركون معه أدنى مبرر له، مما يؤكد ما

(١) قوله تعالى: ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تُحبون...﴾ سورة آل عمران، آية ١٥٢ وما بعدها.

(٢) قوله تعالى: ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تُغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحُبت ثم وليتم مدبرين. ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين﴾ سورة التوبة، آية (٢٥ ـ ٢٦).

(٣) ذكر الفخر الرازي رحمه الله أن في هذا الطلب إشكالاً، وذلك أن إبدال القرآن بغيره يعني الإتيان بغير هذا القرآن. ثم أجاب عن ذلك بقوله: (والجواب: أن أحد الأمرين غير الآخر، فالإتيان بكتاب آخر، لا على ترتيب هذا القرآن ولا على نظمه، يكون إتياناً بقرآن آخر، وأما إذا أتى بهذا القرآن إلا أنه وضع مكان ذم بعض الأشياء مدحها، ومكان آية رحمة آية عذاب، كان هذا تبديلاً، أو نقول: الإتيان بقرآن غير هذا هو أن يأتيهم بكتاب آخر سوى هذا الكتاب مع كونه هذا الكتاب باقياً بحاله، والتبديل هو أن يغير هذا الكتاب)، التفسير الكبير، ج ١٧/ ٥٥ ـ ٥٦.

(٤) سورة يونس، آية (١٥).

قلناه مراراً: أن المشركين لا يطالبون الآيات ولا يقترحون المقترحات من أجل التثبت والاهتداء بل من أجل التعنت والتعجيز أو السخرية والاستهزاء. ولقد أكد الله لرسوله ذلك التعنت بأنه لو أنزل عليه كتاباً ـ كما سألوا ـ وتأكدوا من نزوله من عند الله بأعلى درجات اليقين ـ الملامسة ـ لما سلّموا لك يا محمد، ولكان موقفهم الإنكار واتهامك بالسحر! قال تعالى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾[1]. إذاً ما فائدة الإتيان بقرآن غير هذا أو إبداله؟ أليس نفس الشك سيتطرق إليه، والشبهة نفسها سَتَرِد عليه؟! لقد حاول الفخر الرازي رحمه الله أن يستلهم السبب من وراء طلبهم هذا، فقال: «اعلم أن إقدام الكفار على هذا الالتماس يحتمل وجهين».

أحدهما: أنهم ذكروا ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء، مثل أن يقولوا: إنك لو جئتنا بقرآن غير هذا القرآن وبدّلته لآمنا بك، وغرضهم من هذا الكلام السخرية والتَطيّر.

الثاني: أن يكونوا قالوه على سبيل الجد، وذلك أيضاً يحتمل وجوهاً[2]:

أحدها: أن يكونوا قالوا ذلك على سبيل التجربة والامتحان، حتى إنه إن فعل ذلك، علموا أنه كان كذاباً في قوله: إن هذا القرآن نزل عليه من عند الله.

ثانيها: أن يكون المقصود من هذا الالتماس أن هذا القرآن نزل مشتملاً على ذم آلهتهم والطعن في طرائقهم، وهم كانوا يتأذون منها، فالتمسوا كتاباً آخر ليس فيه ذلك»[3].

ولقد رد الله على هذين الطلبين بأمر رسوله ـ ﷺ ـ أن ينفي استطاعته إبدال هذا القرآن من تلقاء نفسه[4] لأنه ليس إلا رسول مبلغ متبع لما أُوحي إليه، خائف من عذاب ربه إن عصاه ـ بتبديل كلامه ـ كما تطالبونه أيها الجاهلون. قال تعالى:

---

(١) سورة الأنعام، آية (٧).

(٢) ذكر ثلاثة أوجه، وقد اكتفيت بوجهين لأني لم أر للوجه الثالث وجاهة، كما نوه هو ـ أيضاً ـ عن ذلك بقوله: «وهذا الوجه أبعد الوجوه».

(٣) التفسير الكبير، ج ١٧/ ٥٦.

(٤) اكتفى الله بالرد على طلب الإبدال، لأنه الأسهل. فإذا انتفى الأسهل فمن باب أولى انتفاء الأصعب ـ الإتيان بقرآن آخر.

﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾[1] ثم استشهد على رده هذا بحجة بيّنة، وهي أن مشيئة الله هي التي اقتضت أن أكون لكم رسولاً، ولولا ذلك لما كنت لكم رسولاً، وما تلوت عليكم هذا الكتاب ولا أعلمكم الله به، بدليل أني مكثت بين ظهرانيكم أربعين سنة لم أدع خلالها النبوة ولم أتل عليكم كتاباً لأني لم أكن أملكه ولا أستطيعه، أفلا تعقلون أن ذلك أوضح دليل على أنه من عند الله؟! قال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[2].

ثالثاً: اقتراحهم نزول القرآن على رجل من القريتين عظيم[3]:

يبدو أن الكفار اضطروا مرغمين إلى التسليم على أن هذا القرآن من عند الله. ولم يكن لهم بُد من ذلك أمام براهين القرآن الساطعة وحججه الدامغة، إلا أنهم إمعاناً في التعنت وحفظاً لماء وجوههم، اقترحوا نزول القرآن على غير محمد - ﷺ -، فقالوا: ما حكاه القرآن الكريم: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾[4]، أي هلا أُنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم بدلاً من محمد - ﷺ -، كما جاء في بعض الروايات أن كفار قريش كانوا يقولون: (إن الله تعالى ما وجد رسولاً إلى خلقه إلا يتيم أبي طالب!)[5] وقد ذكر الله احتقارهم لرسوله - ﷺ - في أكثر من آية، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ ﴾[6] وقولهم: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾[7]، ومقصودهم في هذه الآية: إنكار أن يخص الله رسوله بإنزال الوحي عليه من بينهم، لزعمهم أن فيهم من هو أحق

(١) سورة يونس، آية (١٥).

(٢) سورة يونس، آية (١٦).

(٣) اتفق المفسرون على أن القريتين هما: مكة والطائف. أما الرجل ففيه أقوال كثيرة، أشهرها أنه الوليد بن المغيرة بمكة أو عروة بن مسعود الثقفي بالطائف. (انظر تفسير القرآن العظيم، ج ٤/ ١٣٧).

(٤) سورة الزخرف، آية (٣١).

(٥) التفسير الكبير، ج ١٧/ ١٥.

(٦) سورة الفرقان، آية (٤١).

(٧) سورة ص، آية (٨).

بالوحي منه، لكثرة ماله وجاهه وشرفه فيهم[1] وهذا يدل على أن الكفار أدركوا أن منصب الرسالة منصب عظيم إلا أنهم رأوا أنه ما يليق بمحمد ـ اليتيم ـ أن ينال هذا الشرف وهو مع ذلك ليس بزعيم قبيلة، ولا رئيس عشيرة، ولا صاحب ثروة. يقول الفخر الرازي ـ رحمه الله ـ: «وهؤلاء المساكين قالوا: منصب رسالة الله منصب شريف لا يليق إلا برجل شريف، وقد صدّقوا في ذلك، إلا أنهم ضموا إليه مقدمة فاسدة وهي أن الشريف هو الذي يكون كثير المال والجاه، ومحمد ليس كذلك فلا تليق رسالة الله به، وإنما يليق هذا المنصب برجل عظيم الجاه كثير المال في إحدى القريتين وهي مكة والطائف»[2].

وهذا دليل على جهالة القوم وسخافتهم إذ ظنوا أن الحظوة والمكانة عند الله تُنال بكثرة المال والجاه في الدنيا، وهو خطأ، لأن الله تعالى قال: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ ﴾[3] ولذلك رد الله عليهم باستنكار ذلك التصور بقوله: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾[4]، فالأمر إلى الله ليس إليهم: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾[5]، هو الذي يصطفي من خلقه من يصلح للرسالة: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[6]، (أما أولئك الذين يتطلعون إلى مقام الرسالة، أو يطلبون أن يؤتوا مثل ما أوتي الرسول.. هم أولاً من طبيعة لا تصلح أساساً لهذا الأمر. فهم يتخذون من ذواتهم محوراً للوجود الكوني! والرسل من طبيعة أخرى. طبيعة من يتلقى الرسالة مستسلماً، ويهب لها نفسه، وينسى فيها ذاته، ويؤتاها من غير تطلع ولا ارتقاب: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾[7].. ثم هم بعد ذلك جهّال لا يدركون خطورة هذا الأمر الهائل، ولا يعلمون أن الله وحده هو الذي يقدّر بعلمه على اختيار الرجل الصالح)[8].

(١) أضواء البيان (بتصرف)، ج ٧/ ٢٤٤.
(٢) التفسير الكبير، ج ٢٧/ ٢٠٩.
(٣) سورة سبأ، آية (٣٧).
(٤) سورة الزخرف، آية (٣٢).
(٥) سورة الأنعام، آية (١٢٤).
(٦) سورة الحج، آية (٧٥).
(٧) سورة القصص، آية (٨٦).
(٨) في ظلال القرآن، ج ٣/ ١٢٠٣.

فالرسالة إذن لا تُنال بالتشهي ولا بالأماني، كما لا تُنال ـ بالمزايا المادية الأرضية، بل هي منحة من الله لا يتوسل إليها بسبب ولا نسب (ولقد اختار الله لها من يعلم أنه لها أهل. . ولعله ـ سبحانه ـ لم يشأ أن يجعل لهذه الرسالة سنداً من خارج طبيعتها، ولا قوة من خارج حقيقتها، فاختار رجلاً ميزته الكبرى. . الخلق. . وهو من طبيعة هذه الدعوة. . وسمته البارزة. . التجرد. . وهو من حقيقة هذه الدعوة. . ولم يختره زعيم قبيلة، ولا رئيس عشيرة، ولا صاحب جاه، ولا صاحب ثراء كي لا تلتبس قيمة واحدة من قيم هذه الأرض بهذه الدعوة النازلة من السماء. ولكي لا تزدان هذه الدعوة بحلية من حلي هذه الأرض ليس من حقيقتها في شيء. ولكي لا يكون هناك مؤثر مصاحب لها خارج عن ذاتها المجردة. ولكي لا يدخلها طامع ولا يتنزه عنها متعفف)[1].

وقد أكدت الآيات الرد على الاقتراح العابث، والأمنية الفارغة، بتذكيرهم ببعض المسلمات لديهم، فهم لا يملكون التَحكّم في تفاوت الناس في مستوياتهم المعيشية وأوضاعهم الاجتماعية ومواهبهم العقلية، فهذا فقير وذاك غني، وهذا ضعيف وذاك قوي، وهذا ذكي وذاك غبي، وهذا رفيع وذاك وضيع. . فإذا كان الأمر كذلك ـ أي لا يملكون التحكم في القضايا الدنيوية ـ وهي تافهة وحقيرة ـ فكيف يطمحون في التحكم في القضايا الدينية وهي سامية وعظيمة؟! وصدق الله: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[2] يقول ابن جزي[3] رحمه الله: (أي كما قسمنا المعايش في الدنيا كذلك قسمنا المواهب الدينية، وإذا كنا لم نهمل الحظوظ الحقيرة الفانية، فأولى وأحرى ألا نهمل الحظوظ الشريفة الباقية»[4] وإذا كان ابن

---

(١) في ظلال القرآن، ج ٥/ ٢١٨٦.

(٢) سورة الزخرف، آية (٣٢).

(٣) هو محمد بن أحمد بن جُزَيّ الكلبي المالكي، يكنى أبا القاسم، من أهل غرناطة، عكف على العلم واشتغل بالنظر والتدوين، كان فقيهاً حافظاً. نبغ في الأصول والقراءات والحديث والتفسير والأدب. ألّف الكثير في شتى الفنون، منها: تفسيره «التسهيل لعلوم التنزيل»، «أصول القراء الستة غير نافع»، «تقريب الوصول إلى علم الأصول»، استشهد عام إحدى وأربعين وسبعمائة (طبقات المفسرين ـ للداوودي، ج ٢/ ٨٥).

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل لمحمد بن أحمد بن جزي الكلبي، ج ٤/٢٨، (دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة، ١٤٠٣ هـ).

جزي ـ رحمه الله ـ قد أظهر أن عدم إهمال الله لأمور الدنيا التافهة أدل على اهتمامه بالأمور الدينية السامية، فإن الرازي ـ رحمه الله ـ قد أظهر أن عجز البشر عن تغيير التفاوت في أمور دنياهم أدل على عجزهم عن التصرف في التفاوت في أمور الدين والنبوة بقوله: «وإذا كان الله قد أوقع التفاوت في مناصب الدنيا ولم يقدر أحد من الخلق على تغييره، فالتفاوت الذي أوقعه في مناصب الدين والنبوة أولى على أن لا يقدروا على التصرف فيه»[1].

وخلاصة الأمر أن سنة الاصطفاء للنبوة لا تخضع للتفاوت في الأمور المعاشية والاجتماعية كما ظن الكفار بل هي منّة يمن الله بها على من يشاء من عباده. قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[2].

المطلب الخامس: ادعاؤهم وجود حواجز نفسية بينهم وبين الرسول ـ ﷺ ـ:

من صور اعتراض الكفار عن متابعة النبي ـ ﷺ ـ اعتذارهم بأعذار واهية، ومنها زعمهم أن هناك حواجز وموانع تحول بينهم وبين الاستجابة لدعوته قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝ ﴾[3] فقد ذكروا في هذه الآية ثلاثة أمور جعلوها مبررات لهم في عدم استجابتهم للرسول ـ ﷺ ـ وهي:

١ ـ «قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه»[4].

٢ ـ «وفي آذاننا وقر»[5].

---

(١) التفسير الكبير (بتصرف يسير)، ج ٢٧/٢٠٩.

(٢) سورة الحج، آية (٧٥).

(٣) سورة فصلت، آية (٥).

(٤) الأكنة: جمع كنان، والكن ما يحفظ فيه الشيء فهو كالوعاء، ومنه كنانة النبل وبها فسر مجاهد الآية. والكنان أيضاً بمعنى الغطاء الذي يُغطى به الشيء ويُحجب (انظر: المفردات ص ٤٤٢، والمحرر الوجيز، ج ١٣/٧٨).
وتفسير الأكنة بالأغطية هو الذي عليه جمهور المفسرين، (روح المعاني ج ٢٤/٩٦) فيكون المعنى: أن قلوبنا في غطاء عن تفهم ما تورده علينا كما قالت مدين لشعيب: «يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول». هود/ ٩١ (المفردات، ص ٤٤٢، وانظر أضواء البيان، ج ٧/١٠٨).

(٥) الوقْر: هو الثقل في الأذن يُقال وقرت أُذنه تَقِرُّ وتوْقَر.

٣ ـ «ومن بيننا وبينك حجاب»[١].

ومقصودهم أن جميع منافذ المعرفة لديهم محجوبة، فلا سبيل لنفاذ شيء من الهدى إليهم، لذلك لا فائدة من دعوته إياهم. يقول ابن حبان ـ رحمه الله ـ: «لما كان القلب محل المعرفة والسمع والبصر معينان على تحصيل المعارف، ذكروا أن هذه الثلاثة محجوبة عن أن يصل إليها ما يلقيه الرسول ـ ﷺ ـ شيء»[٢]، وكذلك زعم اليهود أن قلوبهم محجوبة عن الرسول ـ ﷺ ـ. قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ .. ﴾[٣]، (أي قلوبنا في أكنة وأغطية)[٤] يعنون بذلك أنه بسبب هذه الحُجب لا نفهم ما تقول ولا نعيه فلا تتعب نفسك بدعوتنا إلى دينك.

وجاء رد القرآن على هذه الدعاوى بتوجيه الرسول ـ ﷺ ـ أن يقول لهم:

= والوقرُ: الحِملُ للحمار، وللبغل، كالوَسْق ـ حمل ـ للبعير (المفردات، ص ٥٢٩) فمادة الوقر تحمل معنى الثقل والصمم، فيكون مرادهم بقولهم: «في آذاننا وقر» أي أن في آذاننا صمم وثقل يمنع من استماع قولك. وهذا تشبيه لإظهار شدة كراهيتهم واستثقالهم لسماعه.

(١) الحِجاب والحَجْب: المنع من الوصول (المفردات ص ١٠٨) عللو صدهم عن النبي ـ ﷺ ـ بوجود حاجز حال بينهما. يقول ابن عطية: والحجاب الذي أشاروا إليه هو مخالفته إياهم، (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن عطية، تحقيق عبد الله الأنصاري ـ رئاسة المحاكم الشرعية بقطر ـ الدوحة ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٩٨ هـ) ج ١٣/ ٧٩.
وقد أبرز الأسلوب القرآني تعنت الكفار في دعوى الحجاب المزعوم، وذلك بزيادة من في قوله تعالى: ﴿ومن بيننا وبينك حجاب﴾ فقد ذكر الزمخشري أن «من» هذه تفيد أن الحجاب مستوعب للمسافة بين الطرفين، كأنهم قالوا: إن الحجاب ابتدأ من جهتنا فلا نستطيع التوصل لما عندك وكذلك من جهتك فلا تستطيع التوصل لما عندنا، فنحن معذورون في عدم اتباعك لوجود هذا الحجاب المستوعب للمسافة بيننا، والمقصود المبالغة بالتباين المفرط فلذلك جيء بمن، (انظر الكشاف، ج ٣/ ٣٨٢، التفسير الكبير، ج ٢٧/ ٩٧، البحر المحيط، ج ٧/ ٤٨٤، حاشية الصاوي، ج ٤/ ١٨، روح المعاني، ج ٢٤/ ٩٦).

(٢) البحر المحيط، ج ٧/ ٤٨٤.

(٣) سورة البقرة، آية (٨٨).
الغُلْف: جمع أغلف وهو الذي في غلاف وغطاء، كما يقال للرجل الذي لم يختن «أغلف» والمرأة «غلفاء» وكما يقال للسيف إذا كان في غلافه «سيف أغلف، قوس غلفاء»، (جامع البيان / شاكر، ج ٢/ ٣٢٤).

(٤) نفس المصدر السابق.

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ﴾[1].

وللمفسرين في بيان هذا الرد قولان:

الأول: أي إني بشر مثلكم فلا أستطيع حملكم على الإيمان قسراً إن أصررتم على عدم الإيمان بدعوى وجود حواجز بيني وبينكم، لأن ذلك ليس من شأني ولا من اختصاصي، فما أنا إلا رسول مبلغ أدعوكم إلى التوحيد وآمركم بالاستقامة على أمر ربكم والاستغفار من شركم وذنوبكم[2].

الثاني: أي لست ملكاً ولا جنياً حتى تدّعوا وجود حواجز بيني وبينكم بل أنا بشر من جنسكم اصطفاني الله بالوحي وأرسلني إليكم، ولست أدعوكم إلى ما يخالف العقل بل أدعوكم إلى التوحيد الذي دلت عليه دلائل العقل وشهدت له شواهد السمع[3].

وجاء رد القرآن على اليهود في الآية نفسها بقوله تعالى: ﴿ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾[4] يقول صاحب المنار «وقد رد الله تعالى عليهم بما يُشْعر بكذبهم وعنادهم فقال: «بل لعنهم الله بكفرهم» أي إن قلوبهم ليست غُلفاً لا تفهم الحق بطبعها، وإنما أبعدهم الله تعالى من رحمته بسبب كفرهم بالأنبياء السابقين، وبالكتاب الذي تركوا العمل به وحرّفوه اتّباعاً لأهوائهم، فهم قد أنسوا بالكفر وانطبعوا عليه، فكان ذلك سبباً في حرمانهم من قبول الرحمة الكبرى بإباحة دعوة خاتم النبيين»[5].

المطلب السادس: ادعاؤهم أن اتباعهم للرسول ـ ﷺ ـ يسلب عنهم الأمن والاستقرار:

من أعجب الأمور الدالة على تأصّل العناد في قلوب المشركين وشدة تعنتهم،

---

(١) سورة فصلت، آية (٦).

(٢) انظر: التفسير الكبير، ج ٩٨/٢٧.

(٣) انظر: تفسير البيضاوي، ج ٤٤/٥، حاشية الصاوي على تفسير الجلالين لأحمد الصاوي، المالكي (دار الفكر)، ج ١٨/٤، روح المعاني، ج ٩٧/٢٤.

(٤) سورة البقرة، آية (٨٨).

(٥) تفسير المنار، ج ٣٧٨/١، وانظر: أضواء البيان، ج ١٠٩/٧ وما بعدها.

قَلْبهم للحقائق الثابتة عن وجهها. فقد زعموا أن اعتناق الدين واتباع الحق ـ مصدر الأمن والطمأنينة والرزق والبركة ـ[1] هو مصدر الخوف والقلق! قال تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ . . ﴾[2].

جاء في سبب نزول هذه الآية: (أن الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف القرشي قال للنبي ـ ﷺ ـ: إنا لنعلم أن قولك حق، ولكن يمنعنا أن نتبع الهدى معك، ونؤمن بك، مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا لإجماعهم على خلافنا، ولا طاقة لنا بهم. فأنزل الله تعالى هذه الآية)[3].

يا له من منطق منكوس ويا له من عذر أقبح من فعل!! «إنه ما حدث قط في تاريخ البشرية أن استقامت جماعة على هدى الله إلا منحها القوة والأمان والمنعة والسيادة في نهاية المطاف[4]»[5] فكيف يزعم بعد ذلك هؤلاء السفهاء أن اتباع الحق هو سبب الخوف؟! ألا كبُرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً! إن هؤلاء الذين يخافون أن يتخطفهم الناس لا يدركون ـ بسبب شركهم ـ حقيقة عقدية، وهي أن الله سبحانه هو الحافظ وحده، وهو الحامي وحده، وأن قوى الأرض كلها لا تملك أن تمتد إليهم بسوء وهم في حمى الله، كما أن قوى الأرض جميعاً لا تستطيع نصرهم إن خذلهم الله. ولو كان الإيمان بالله قد خالط بشاشة قلوبهم لعلموا أن الأمن لا يكون إلا في جوار الله، وأن الخوف لا يكون إلا في البعد عن هداه[6].

---

(١) دليل ذلك قوله تعالى: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون. أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون. أوَأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون. أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾. الأعراف / ٩٦ ـ ٩٩.

(٢) سورة القصص، آية (٥٧).

(٣) أسباب نزول القرآن للواحدي ص ٣٥٣، جامع البيان، ج ٢٠/ ٦٠، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٣/ ٣٠٠، التفسير الكبير، ج ٢٥/ ٣، لباب النقول ص ١٦٥.

(٤) قيد سيد قطب رحمه الله كلامه بقوله: «في نهاية المطاف» لأن الجماعة المسلمة قد تتعرض للخوف والابتلاء في فترة الإعداد لحمل الرسالة، كما قال تعالى ممتناً عليهم: ﴿واذكروا إذ أنتم قليلٌ مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون﴾. الأنفال / ٢٦.

(٥) في ظلال القرآن، ج ٥/ ٢٧٠٤.

(٦) انظر في ظلال القرآن، ج ٥/ ٢٧٠٣.

ولقد جاء رد القرآن الكريم على هذا العذر الموهوم من ثلاثة وجوه[1]:

الوجه الأول: في الآية نفسها قال تعالى: ﴿ .. أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ .. ﴾[2] فقد أنكر عليهم هذه الدعوى العارية عن الصحة مدللاً بطلانها بالاستشهاد بواقع حالهم حيث الأمن الذي ينعمون به بسبب مجاورتهم لبيت الله مع كونهم مشركين! فلقد كان العرب في الجاهلية مشتغلين بالنهب والسلب وإغارة بعضهم على بعض ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾[3] وأهل مكة آمنون في بلدهم ببركة دعاء أبيهم إبراهيم عليه السلام ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾[4]. آمنون في أسفارهم لا يتعرض لهم أحد بسوء لكونهم أهل الحرم وسدنة البيت ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤ ﴾[5] أفمن أمّنهم وهم عصاة، يدع الناس يتخطفونهم وهم تقاة! يقول الألوسي رحمه الله: «وحاصل الرد: أنه لا وجه لخوفهم من التخطف إن آمنوا، فإنهم لا يخافون منه وهم عبدة أصنام، فكيف يخافون إذا آمنوا وضموا حرمة الإيمان إلى حرمة المقام»[6].

الوجه الثاني: في الآية التالية قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥٨ ﴾[7].

وحاصل هذا الوجه (أنه تعالى لمّا بيّن لأهل مكة ما خُصوا به من النعم، أتبعه بما أنزل الله تعالى بالأمم الذين كانوا مغمورين في نعم الدنيا، فلما كذبوا الرسل أزال الله عنهم تلك النعم. والمقصود: أن الكفار لما قالوا: إنا لا نؤمن خوفاً من زوال نعمة الدنيا، بين الله تعالى لهم أن الإصرار على عدم قبول الإيمان هو الذي يزيل هذه

---

(١) لفت النظر إلى هذه الأوجه الثلاثة، الفخر الرازي في تفسيره، ج ٢٥/٣ ـ ٦.

(٢) سورة القصص، آية (٥٧).

(٣) سورة العنكبوت، آية (٦٧).

(٤) سورة البقرة، آية (١٢٦).

(٥) سورة قريش.

(٦) روح المعاني، ج ٩٧/٢٠.

(٧) سورة القصص، آية (٥٨).

النعم، لا الإقدام على الإيمان)[1] ويقول القرطبي رحمه الله في بيان هذا الوجه: «بيّن الله لمن توهم أنه لو آمن لقاتلته العرب أن الخوف في ترك الإيمان أكثر، فكم من قوم كفروا ثم حلّ بهم البوار؟!»[2].

الوجه الثالث: في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[3].

وحاصل هذا الوجه: (أنه لمّا كان خلاصة شبهتهم أنهم قالوا: تركنا الدين لئلا تفوتنا الدنيا، بيّن الله أن ذلك خطأ عظيم، لأن ما عند الله خير وأبقى. أما إنه خير فلوجهين:

أحدهما: إن المنافع هناك أعظم.

ثانيهما: إنها خالصة عن الشوائب، ومنافع الدنيا مشوبة بالمضار بل المضار فيها أكثر.

وأما إنها أبقى، فلأنها دائمة غير منقطعة، ومنافع الدنيا منقطعة، ومتى قوبل المتناهي بغير المتناهي كان عدماً فكيف ونصيب كل أحد بالقياس إلى منافع الدنيا كلها كالذرة بالقياس إلى البحر، فظهر من هذا أن منافع الدنيا لا نسبة لها إلى منافع الآخرة البتة، فكان من الجهل العظيم ترك منافع الآخرة لاستبقاء منافع الدنيا.. وختم الآية بقوله: **﴿أفلا تعقلون﴾** لأن من لا يُرجّح منافع الآخرة على منافع الدنيا بعد هذه المقارنة يصبح كأنه خارج عن حد العقل.

ثم أكد خيرية وبقاء ما عند الله بمقارنة حال المؤمن بالكافر في الآخرة فقال تعالى: ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ ﴾[4].

---

(١) التفسير الكبير، ج ٢٥/ ٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج ١٣/ ٣٠٠.

(٣) سورة القصص، آية (٦٠).

(٤) سورة القصص، آية (٦١) «من المحضرين» قال مجاهد وقتادة: من المعذبين، (تفسير القرآن العظيم، ج ٣/ ٤٠٧).

وحاصله: أنا لو قدَّرنا أن نعم الله كانت تنتهي إلى الانقطاع والفناء وما كانت تتصل بالعذاب الدائم لكان صريح العقل يقتضي ترجيح نعم الآخرة على نعم الدنيا، فكيف إذا اتصلت نعم الدنيا بعقاب الآخرة؟ فأي عقل يرتاب في أن نعم الآخرة راجحة عليها؟!

والمقصود: أنهم لما قالوا: تركنا الدين للدنيا فقال الله لهم لو لم يحصل عقب دنياكم مضرة العقاب لكان يقتضي ترجيح منافع الآخرة على منافع الدنيا، فكيف وهذه الدنيا يحصل بعدها العقاب الدائم..)[1].

بل ذهب سيد قطب رحمه الله إلى أبعد من هذا حيث رجّح اتباع الهدى حتى لو افتُرض صحة كلامهم، فقال: «فحتى لو كان ذلك كذلك فهو خير من أن يكونوا في الآخرة من المحضرين! فكيف واتباع هدى الله معه الأمن في الدنيا والتمكين، ومعه العطاء في الآخرة والأمان؟ ألا إنه لا يترك هدى الله إذن إلا الغافلون الذين لا يدركون حقيقة القوى في هذا الكون. ولا يعرفون أين تكون المخافة وأين يكون الأمن. وإلا الخاسرون الذين لا يحسنون الاختيار لأنفسهم ولا يتقون البوار»[2].

المطلب السابع: استعجالهم نزول العذاب:

ذكرت في الباب الأول أن استعجال المكذبين للعذاب من سنن الكافرين في الدعوات السابقة، وعرفنا كذلك أن مرد استعجالهم له هو الجهل والاستهزاء، والتعنت والمكابرة، والتحدي واستبعاد وقوعه. ولقد سجل القرآن الكريم في عدة آيات استعجال كفار قريش للعذاب أيضاً، ومن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾[3]. جاء في سبب نزول هذه الآية عن أنس رضي الله عنه قال: قال أبو جهل: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك، فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم. فنزلت: «وما كان الله ليعذبهم وأنت

---

(١) التفسير الكبير (بتصرف)، ج ٢٥/ ٦.

(٢) في ظلال القرآن، ج ٥/ ٢٧٠٥.

(٣) سورة الأنفال، آية (٣٢).

فيهم﴾ - إلى قوله - ﴿وهم يصدون عن المسجد الحرام﴾ الآية)[1]. ومن الآيات كذلك:

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾[2].

وقوله تعالى على لسان كفار قريش: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾[5].

وحيث إن تحقُّق ما يستعجلونه يعني هلاكهم واستئصالهم فقد كان القرآن الكريم يتعجب من حماقتهم هذه ويستنكر استعجالهم هذا كما في قوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ ۚ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾[6].

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾﴾[7].

وقوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾[8].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة الأنفال، ج ٤/ ١٧٠٥، وجاء في بعض الروايات أن القائل هو النضر بن الحارث وفي بعضها أن القائل كفار قريش. ولا منافة بين الروايات لاحتمال صدور الكلام من أبي جهل ومن النضر ومن كفار قريش فرادى أو مجتمعين. (انظر جامع البيان/ شاكر، ج ١٣/ ٥٠٥، وما بعدها، انظر أسباب نزول القرآن للواحدي، ٢٣٢.

(٢) سورة الرعد، آية (٦)، «المَثُلات»: العقوبات في غيرهم ممن قد مضى. (معاني القرآن للفراء، ج ٢/ ٥٩).

(٣) سورة الإسراء، آية (٩٢).

(٤) سورة العنكبوت، آية (٥٣).

(٥) سورة ص، آية (١٦)، «القط»: هو الكتاب وقيل هو الحظ والنصيب، ومرادهم استعجال العذاب الذي كان يتوعدهم به الرسول - ﷺ -. (تفسير القرآن العظيم، ج ٤/ ٣٢).

(٦) سورة يونس، آية (٥١).

(٧) سورة هود، آية (٨).

(٨) سورة الشعراء، آية (٢٠٤).

أما رد القرآن على استعجال المكذبين للعذاب فيمكن تلخيصه في ثلاثة أمور:

الأول: أن وجود النبي - ﷺ - بينهم يدعوهم كان مانعاً من نزول العذاب بهم:

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ . . ﴾[1].

لقد أشاد الله في رده في هذا المقطع بشأن رسوله - ﷺ - وببركة وجوده بين ظهراني المشركين، إذ كان أحد موانع نزول العذاب بهم - مع استحقاقهم له - وهذه سنة الله مع جميع الأنبياء السابقين، فإنه لم يعذب أهل قرية ما دام رسولهم بين ظهرانيهم يدعوهم، وذلك لأن الأنبياء بُعثوا رحمة للناس، فإذا اضْطروا للخروج من القرية استحقت عذاب الله، جزاءً وفاقاً. يقول سيد قطب رحمه الله: «إنها رحمة الله تمهلهم عسى أن يستجيب للهدى منهم من تخالط بشاشة الإيمان قلبه - ولو بعد حين - وما دام الرسول - ﷺ - بينهم، يدعوهم، فهنالك توقع لاستجابة البعض منهم، فهم إكراماً لوجود رسول الله بينهم يمهلون»[2].

الثاني: أن استغفارهم كان مانعاً من نزول العذاب بهم:

يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣ ﴾[3].

بيّن الله في هذا المقطع أن الاستغفار هو الأمان الثاني في عدم نزول العذاب بهم. فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان فيهم أمانان، نبي الله - ﷺ - والاستغفار، قال: فذهب النبي - ﷺ - وبقي الاستغفار)[4].

وقد أشكل على بعض السلف رضي الله عنهم مَن المعنِي بـ «وهم يستغفرون» أهم المسلمون أم المشركون؟ ووجه الإشكال أن سياق الحديث عن المشركين والاستغفار من خصائص المسلمين، لأن المشركين لا يستغفرون، مما اضْطر بعضهم إلى تفكيك الضمائر في الآية فجعل ضمائر الغيبة من «يعذبهم» و «فيهم» و «معذبهم» للمشركين، وجعل ضمير «وهم يستغفرون» للمسلمين[5]. وقد ذكر ابن جرير رحمه

---

(١) سورة الأنفال، آية (٣٣).

(٢) في ظلال القرآن، ج ٣/ ١٥٠٥.

(٣) سورة الأنفال، آية (٣٣).

(٤) جامع البيان / شاكر، ج ١٣/ ٥١٢.

(٥) انظر تفسير التحرير والتنوير، ج ٩/ ٣٣٤.

الله سبعة أقوال للسلف في تأويل معنى الآية[1] هي:

الأول: أن المعنى: وما كان الله ليعذبهم والمسلمين بين ظهرانيهم يستغفرون وهو مروي عن ابن أبزى[2] والضحاك فاللفظ عام والمراد به بعضهم وهم المسلمون.

الثاني: أن المعنى: وما كان الله ليعذب هؤلاء المشركين وهم يقولون: «يا رب غفرانك» وما أشبه ذلك من معاني الإستغفار بالقول. وهو مروي عن ابن عباس وابن إسحاق.

الثالث: أن المعنى: وما كان الله ليعذب المشركين لو استغفروا. وهو مروي عن قتادة والسدي.

الرابع: أن المعنى: وما كان الله ليعذبهم وهم يسلمون. فيكون معنى الاستغفار مرادف لمعنى الإسلام. وهو مروي عن عكرمة ومجاهد.

الخامس: أن المعنى: وما كان الله ليعذبهم وفيهم من سبق له من الله الدخول في الإسلام. وهو مروي عن ابن عباس.

السادس: أن المعنى: وما كان الله معذبهم وهم يصلون، فيكون معنى الاستغفار الصلاة، وهو مروي عن ابن عباس ومجاهد.

السابع: أن المعنى على ظاهره: أي وما كان الله ليعذب المشركين وهم يستغفرون ثم نسخ بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[3] وهو مروي عن عكرمة والحسن البصري.

---

(١) انظر الأقوال بالتفصيل في جامع البيان/ شاكر ج ١٣/ ٥٠٩ ـ ٥١٧.

(٢) هو عبد الرحمن بن أبزى الخزاعي، مولى نافع بن عبد الحارث، ذكر البخاري والترمذي وآخرون أن له صحبة وقال أبو حاتم أدرك النبي ـ ﷺ ـ وصلى خلفه. روى عن النبي ـ ﷺ ـ وعن أبيه وأبي بكر وعمر وعلي وغيرهم وروى عنه الشعبي وعلقمة وغيرهم. سكن الكوفة وقيل أن علياً استعمله على خراسان. وكان قارئاً للقرآن عالماً بالفرائض. قال عنه الذهبي: له صحبة، ورواية، وفقه، وعلم وعاش إلى نيف وسبعين. (انظر الإصابة، ج ٤/ ١٤٩، وسير أعلام النبلاء، ج ٣/ ٢٠١).

(٣) سورة الأنفال، آية (٣٤).

وقد رجح ابن جرير ـ بعد ذكر هذه الأقوال ـ القول الثالث وبين أن لهذا التركيب شاهد من كلام العرب، فهو كقول القائل: «ما كنت لأحسن إليك وأنت تسيء إليّ» يراد بذلك: لا أحسن إليك إذا أسأت إليّ، ولو أسأت إليّ لم أحسن إليك، ولكن أحسن إليك لأنك لا تسيء إليّ. وكذلك المعنى هنا. ثم ذكر مسوغ ترجيحه لهذا المعنى وهو أن سياق الحديث هو عن كفار قريش الذين استعجلوا عذاب الله فأجابهم الله بأن المانع من نزول العذاب هو أحد أمرين: وجود النبي ـ ﷺ ـ بين ظهرانيهم أو استغفارهم من الشرك والذنوب[1].

وهذا الرأي الذي تبنّاه ابن جرير يؤيده القرآن الكريم عند ذكره لدعوة نوح عليه السلام وهو يدعو قومه المشركين، حيث قال لهم: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ ﴾[2] والمعنى توبوا إلى ربكم بالاستغفار من الشرك فإنه غفار لجميع الذنوب، وكذلك كفار قريش لو تابوا من شركهم لغفر الله ذنوبهم وعصمهم من عذابه. وكذلك دعّم ابن جرير رحمه الله اختياره هذا بالرد على الأقوال المرجوحة عنده[3].

الثالث: أن الله قد وقّت لنزول العذاب أجلاً مسمى:

يقول تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[4]. لقد قرَّرَ الله في رده هذا أن أفعاله سبحانه لا تصدر إلا عن حكمة، ومن ذلك نزول عذابه بالمكذبين. وما كان الله ليبطل حكمته من أجل حماقة الجاهلين المستعجلين للعذاب. إن الله قد نهى رسوله أن يستخف به المبطلون بقوله: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[5] فكيف يعقل بعد ذلك أن يُعجّل الله عليهم العذاب فيُنزله قبل وقته؟! يقول الرازي رحمه الله:

ثم إن الله أجابهم بأن العذاب لا يأتيهم بسؤالهم، ولا يعجل باستعجالهم، لأنه

---

(١) انظر: جامع البيان / شاكر، ج ١٣/٥١٧.

(٢) سورة نوح، آية (١٠).

(٣) انظر هذه المناقشة في جامع البيان / شاكر ج ١٣/٥١٨.

(٤) سورة العنكبوت، آية (٥٣).

(٥) سورة الروم، آية (٦٠).

أجلّه لحكمة ورحمة. فلكونه حكيماً لا يغيّر قضاءه، ولكونه رحيماً لا يستجيب لحماقتهم، ولولا تلك الحكمة والرحمة لعاجلهم الله بالعذاب[1].

المبحث الثالث

إحباط المكائد التي تُحاك لقتله - ﷺ -

من صور دفاع الله عن نبيه إحباط المكائد التي يحيكها المكذبون لقتل رسوله - ﷺ -. فبعد أن عجز أعداء الإسلام عن فتن رسول الله - ﷺ - عن رسالته بالترغيب والترهيب، وبالتعنت والتشكيك فكروا في استخدام «آخر ورقة بأيديهم» فكروا في تصفيته جسدياً باغتياله في جنح الليل، ظناً منهم أن ذلك أفضل السبل لتقويض أركان هذه الدعوة. لكن الله الذي يعلم السر وأخفى كان يكلؤ نبيه بالعناية والرعاية ويطلعه على المؤامرات التي يبيتونها ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ؟﴾[2].

ولقد كان رسول الله - ﷺ - يحرسه أصحابه - كذلك - إلى أن أنزل الله قوله: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[3] فعندما نزلت هذه الآية زاد يقينه بأنه مَكْفي، ولذلك تفاعل مع هذه الآية تفاعلاً يدل على كمال ثقته وطمأنينته إلى وعد الله إذ أمر حراسه بالانصراف. فقد أخرج الحاكم وصححه عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان النبي - ﷺ - يُحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿والله يعصمك من الناس﴾ فأخرج النبي - ﷺ - رأسه من القبّة فقال لهم: «أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله»)[4]. (إن هذا وأيم الله ضمان لا يملكه بشر، ولو كان ملكاً محجباً تسير الحفظة من بين يديه ومن خلفه. فكم رأينا ورأى الناس من الملوك والعظماء من اختطفتهم يد الغيلة وهم في مواكبهم تحيطهم الجنود والأعوان)[5].

---

(١) التفسير الكبير (بتصرف)، ج ٢٥/ ٨١.

(٢) سورة الزُّمر، آية (٣٦).

(٣) سورة المائدة، آية (٦٧).

(٤) مستدرك الحاكم، وقال الحاكم هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي (ج٢/ ٣١٣)، ورواه الترمذي في كتاب التفسير، وقال هذا حديث غريب، ج ٥/ ٢٥١.

(٥) النبأ العظيم، ص ٢٥.

ولقد تعددت محاولات أعداء الرسول - ﷺ - من مشركين ويهود ومنافقين لقتله بمكة وبالمدينة[1] إلا أن معظم هذه المحاولات ثبت بالسنة وفي السيرة، لذلك سأكتفي بإيراد محاولات اغتياله في حادثة الهجرة لثبوتها بالقرآن[2].

إحباط الله محاولات قتل النبي - ﷺ - في حادثة الهجرة:

عندما رأى المشركون أصحاب رسول الله - ﷺ - يهاجرون إلى المدينة، حتى لم يبق في مكة من أصحاب النبي إلا مستضعف لا يستطيع الهجرة، قرَّروا إيذاءه بأحد ثلاثة أمور: إما حبسه، أو قتله، أو إخراجه ثم استقر رأيهم باقتراح «فرعون هذه الأمة»[3]. ومباركة إبليس اللعين على قتله والتخلص منه[4]. وقد سجل القرآن هذه المؤامرة في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾[5].

ولقد حفظ الله رسوله بعنايته ففوت عليهم فرص قتله في ثلاثة مواضع أثناء الهجرة هي:

المحاولة الأولى: ليلة الهجرة:

كان من بنود المؤامرة التي تمت في دار الندوة لاغتيال النبي - ﷺ - انتخاب

---

(١) ألف الشيخ أحمد الجدع كتاباً نفيساً سماه «والله يعصمك من الناس» ضمنه محاولات اغتيال النبي - ﷺ - وعرضه عرضاً تاريخياً.

(٢) اختلف المفسرون في نزول قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم..﴾ المائدة/ ١١ فذهب بعضهم إلى أنها نزلت في محاولة بني النضير قتل النبي، وذكر آخرون أنها نزلت في محاولة غورث بن الحارث اغتيال النبي - ﷺ -. ولمّا لم أجد ترجيحاً قوياً يؤيد نزول هذه الآية في هذه الحادثة أو تلك آثرت عدم إيرادها هنا، بل رأيت علماء محققين مثل الطاهر بن عاشور ومحمد عبده رحمهما الله ينكران نزول هذه الآية في أي من الحادثتين ذاكرين مسوغات هذا الإنكار، (انظر: الدر المنثور، ج ٣/ ٣٥ - ٣٨، وتفسير المنار، ج ٦/ ٢٧٧، وتفسير التحرير والتنوير، ج ٦/ ١٣٨.

(٣) هو أبو جهل.

(٤) انظر تفصيلات قصة المشاورة التي جرت في دار الندوة في سيرة ابن هشام، ج ٢/ ٩٢ وما بعدها، وجامع البيان / شاكر، ج ١٣/ ٤٩٤، ودلائل النبوة للبيهقي، ج ٢/ ٤٦٧ وما بعدها.

(٥) سورة الأنفال، آية (٣٠)، انظر: لباب النقول، ص ١٠٩.

مجموعة من الفتيان من قبائل شتى ليضربوه بسيوفهم ضربة رجل واحد فيتفرق دمه بين القبائل. وعندما اجتمع الفتيان المنتَخَبين! ببابه ليلة الهجرة لتنفيذ المؤامرة، أرسل الله إليه جبريل عليه السلام ليخبره بالمؤامرة، آمراً إياه أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيْت فيه[1] لذلك أمر رسول الله - ﷺ - علياً أن ينام على فراشه ويتسجى ببردة[2] موهماً إياهم أنه محمد - ﷺ -. وخرج رسول الله - ﷺ - من بين أيديهم وهو يتلو قوله تعالى: ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ .. ﴾ إلى قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ ﴾[3] ونثر على رؤوسهم التراب وانصرف لشأنه وبقي القوم على بابه ينتظرون خروجه لاغتياله!![4].

المحاولة الثانية: في غار ثور:

انطلق رسول الله - ﷺ - وصاحبه في اليوم التالي لمؤامرة البارحة إلى غار ثور، كما جاء في رواية البخاري عن عائشة رضي الله عنها وفيها: (..قالت: ثم لحق رسول الله - ﷺ - وأبو بكر بغار في جبل ثور فكَمنا فيه ثلاث ليال)[5] ولقد اتخذ رسول الله - ﷺ - في هذه المرحلة من الهجرة - من الدار إلى الغار - كافة التدابير

---

(١) انظر سيرة ابن هشام، ج ٢/ ٩٥.

(٢) ثبت هذا المقطع بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «شرى عليّ رضي الله عنه نفسه ولبس ثوب النبي - ﷺ - ثم نام مكانه. وكان المشركون يرمقون رسول الله - ﷺ - وقد كان رسول الله - ﷺ - ألبسه بردة وكانت قريش تريد أن تقتل النبي - ﷺ - فجعلوا يرمقون علياً ويرونه النبي - ﷺ - وقد لبس بردة، وجعل عليّ رضي الله عنه يتضوّر [يتلوّى ويتقلب] فإذا هو عليّ، فقالوا: إنك للئيم، إنك لتتضوّر وكان صاحبك لا يتضوّر، ولقد استنكرناه منك. (رواه الحاكم في المستدرك، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، ج ٣/ ٤.

(٣) سورة يس، آية (١ - ٩).

(٤) انظر سيرة ابن هشام، ج ٢/ ٩٦.

(٥) جزء من حديث البخاري الطويل عن هجرة النبي - ﷺ - كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي - ﷺ - وأصحابه إلى المدينة، ج ٣/ ١٤١٥.

البشرية الممكنة لتضليل كفار قريش[1]، ومع ذلك استطاعوا الاهتداء إلى مكانه، وعند ذلك تدخّل اللطف الإلهي لحماية رسول الله من قتل أكيد ـ حسب الظاهر ـ فعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: (كنت مع النبي ـ ﷺ ـ في الغار، فرفعت رأسي فإذا أنا بأقدام القوم، فقلت: يا نبي الله، لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا، قال: اسكت يا أبا بكر، اثنان الله ثالثهما) وفي رواية، فقال «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما»[2].

لقد حال الله بين المشركين وبين رسوله وهم يقفون على رأسه بدون أي سبب مادي[3] في حين فشلت كل الأسباب المادية التي اتخذها الرسول ـ ﷺ ـ لحماية نفسه! مما يؤكد تولي الله عصمة نبيه من القتل.

---

(١) من هذه التدابير ما يلي:
- خروجه في نحر الظهيرة، وهو وقت يقيل فيه الناس عادة.
- خروجه من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته، أي أنه خرج من الباب الفرعي الذي تكون الحركة قليلة من ناحيته.
- اتجاهه إلى غار ثور الذي يقع في جنوب مكة، أي في اتجاه معاكس تماماً لطريق المدينة وفيه من التمويه ما فيه.
- بقاؤه بالغار ثلاث ليال حتى يخف الطلب.

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي وأصحابه، ج ٣/ ١٤٢٧، وباب مناقب المهاجرين وفضلهم، ج ٣/ ١٣٣٧.

(٣) المشهور بين الناس أن حماية الرسول في الغار كانت بواسطة حمامتين وحشيتين باضتا على فم الغار ونَسْج عنكبوت غطى الباب. وقصة الحمامة ونسج العنكبوت مشهورة كذلك في كتب السيرة، وحدوثها غير مستبعد من حيث قدرة الله الذي لا يعجزه شيء إلا أن الخبر من الناحية الحديثية لا يثبت. والحديث مروي في مسند أحمد عن ابن عباس، وفيه: (.. فاقتصوا أثره، فلما بلغوا الجبل خلط عليهم، فصعدوا في الجبل، . فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه)، قال العلامة أحمد شاكر في شرح المسند (ج ٣/ ٨٧): في اسناده نظر، من أجل عثمان الجزري، قاله تبعاً للهيثمي في مجمع الزوائد حيث قال: «وفيه عثمان بن عمرو الجزري، وثقه ابن حبان، وضعفه غيره، وبقية رجاله رجال الصحيح»، ج ٧/ ٢٧. والمضعفون للجزري هم: أبو حاتم، قال عنه: يكتب حديثه ولا يحتج به (الجرح والتعديل ج ٦/ ١٦٢) وذكره العقيلي في =

المحاولة الثالثة: من الغار إلى المدينة:

جن جنون كفار قريش عندما تأكدوا من إفلات رسول الله ـ ﷺ ـ من بين أيديهم، لذلك أعلنوا «حالة استنفار عام» بحثاً عن النبي ـ ﷺ ـ وأطمَعوا العرب في مكة ومن حولها في مكافأة عظيمة لمن يأتي بمحمد ـ ﷺ ـ حياً أو ميتاً!! إذ رصدوا لذلك مكافأة قدرها مائة ناقة.

وسرى الركبان بالخبر، وانتشر بين رجال القبائل انتشار النار في الهشيم، فاطلق الفرسان وقُصاص الأثر إلى السهول والوديان، والجبال والصحاري، بحثاً عن رسول الله ـ ﷺ ـ.

ومرة أخرى يتخذ رسول الله ـ ﷺ ـ ما يستطيع من الأسباب المادية حيث استأجر من قبل دليلاً[1] أميناً وخبيراً بالطرق الوعرة المهجورة. فسلك بهم هذا الدليل الخبير طريق الساحل[2] ومع ذلك استطاع واحد من الفرسان ـ الطامعين في الجائزة العظيمة ـ أن يدركهم. وعند ذلك تدخّل اللطف الإلهي للمرة الثالثة ليحوط النبي

= الضعفاء وقال: لا يتابع على حديثه (الضعفاء الكبير للعقيلي ج ٣/ ٢٠٤) وقال عنه ابن حجر في التقريب: وفيه ضعف، ص ٣٨٦. وبهذا يتحصل أن الخبر ضعيف حديثياً (والله أعلم) غير أن الإمامين: ابن كثير وابن حجر رحمهما الله قد حكما على الحديث بالحسن. ففي البداية والنهاية بعد أن ذكر الحديث ـ قال: «وهذا إسناده حسن وهو من أجود ما رُوي في قصة نسج العنكبوت على فم الغار، وذلك من حماية الله رسوله ـ ﷺ ـ» ج ٣/ ١٨١، وفي الفتح قال ابن حجر رحمه الله: «وذكر أحمد من حديث ابن عباس بإسناد حسن... وأورد الحديث»، فتح الباري، ج ٧/ ٢٧٨. أما ذكر الحمامتين فقد ورد في حديث رواه الحافظ ابن عساكر عن زيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة وأنس بن مالك، وفيه: (وأن الله بعث العنكبوت فنسجت ما بينهما فسترت وجه رسول الله ـ ﷺ ـ، وأمر حمامتين وحشيتين فأقبلتا يدفان حتى وقعتا بين العنكبوت والشجرة...) قال ابن كثير ـ بعد أن أورد هذا الحديث: «وهذا حديث غريب جداً من هذا الوجه»، البداية والنهاية، ج ٣/ ١٨٢.

(١) ذكر ابن اسحاق أن اسم الدليل: عبد الله بن أرقط، وقال ابن هشام: ويقال عبد الله بن أريقط، (سيرة ابن هشام، ج ٢/ ١٠٢).

(٢) ذكر ابن إسحاق تفصيلات الرحلة، انظره في سيرة ابن هشام، ج ٢/ ١٠٤ وما بعدها.

بالرعاية ولينقذه من قتل آكد من المرتين السابقتين ـ حسب الظاهر ـ. وهذا الفارس هو سراقة بن مالك[١] ولندع سراقة نفسه يقص قصته وكفاية الله لرسوله منه. قال سراقة رضي الله عنه:

(فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج، أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال يا سراقة: إني رأيت آنفاً أسودة[٢] بالساحل، أُراها محمداً وأصحابه، قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً، انطلقوا بأعيننا، ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت، فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أَكَمَةٍ[٣]، فتحبسها علي، وأخذت رمحي، فخرجت به من ظهر البيت، فحَطَطْت[٤] بزُجِّه[٥] الأرض وخفضت[٦] عاليه، حتى أتيت فرسي فركبتها، فرفعتها[٧] تُقَرِّب بي[٨]، حتى دنوت منهم، فعثرت بي فرسي، فخررت عنها، فقمت فأهويت يدي إلى كنانتي، فاستخرجت منها الأزلام[٩]

---

(١) هو سراقة بن مالك بن جعشم الكناني المدلجي، يكنى أبا سفيان، اشتهر بملاحقة النبي ـ ﷺ ـ يوم الهجرة ـ قبل إسلامه ـ يعتبر من مسلمة الفتح، روى عن النبي ـ ﷺ ـ وروى عنه جابر بن عبد الله وابن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص وسعيد بن المسيب وطاووس وعطاء وابنه محمد بن سراقة وأخوه مالك بن مالك وابن أخيه عبد الرحمن بن مالك وغيرهم. مات في صدر خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة ٢٤ هـ، (انظر: الإصابة، ج ٣/ ٦٩، وتهذيب التهذيب، ج ٣/ ٤٥٦).

(٢) أسودة: أشخاصاً.

(٣) أكمة: رابية مرتفعة عن الأرض.

(٤) فحططت: أمكنت أسفله.

(٥) بُزجه: الزج الحديدة التي في أسفل الرمح.

(٦) (خفضت): أي أمسكه بيده وجرَّ زجُّه على الأرض فخطها به لئلا يظهر بريقه لمن بَعُد منه، وذلك خشية أن يشركه أحد في الجعالة.

(٧) (فرفعتها): أسرعت بها السير.

(٨) (تقرب بي): التقريب السير دون العدو وفوق العادة، وقيل أن ترفع الفرس يديها معاً وتضعها معاً.

(٩) (الآزلام): هي الأقداح وهي السهام التي لا ريش لها ولا نصل، مكتوب عليها: لا، نعم، فكانوا في الجاهلية إذا أرادوا أمراً ضربوا بها، فإن خرج «لا» تركوا، وإن خرج «نعم» فعلوا.

فاستقسمت[(١)] بها: أضُرهُم أم لا، فخرج الذي أكره، فركبت فرسي، وعصيت الأزلام، تُقَرِّب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله - ﷺ - وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، ساخت يدا فرسي في الأرض، حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها، ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تُخرج يدها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عُثَان[(٢)]، ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام، فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم، أن سيَظهر أمرُ رسول الله - ﷺ -. فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرْزَآني[(٣)]، ولم يسألاني، إلا أن قال: أخف عنا. فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رُقعة من أديم ثم مضى رسول الله - ﷺ -[(٤)].

إن فشل هذه المحاولات لقتله - ﷺ - لهو أكبر دليل على إحاطة الله رسوله بالرعاية وعصمته من كيد أعدائه المتربصين به.

وهكذا يتضح من خلال هذا الفصل أن الله عزّ وجل تولى بنفسه حماية رسوله - ﷺ - من القتل، والرد على التهم الباطلة التي وُجهت إليه، بالإضافة إلى تلقينه الحجج الدامغة للافتراءات والأباطيل، بينما كان من تقدمه من الرسل يدافعون عن أنفسهم ويردون على أعدائهم[(٥)].

---

(١) (فاستقسمت بها): من الإستقسام، وهو طلب معرفة ما قسم. «فخرج الذي أكره» أي لا تضرهم ولا تقدر عليهم.

(٢) (عثان): الدخان من غير نار.

(٣) (فلم يرزآني): أي لم ينقصاني مما معي شيئاً لأنهم لم يقبلوا عرضه. (فتح الباري لابن حجر، ج ٧/ ٢٨٤).

(٤) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي - ﷺ - وأصحابه إلى المدينة، ج ٣/ ١٤٢٠.

(٥) قال نوح عليه السلام رداً على تهمة قومه له بالضلال: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ ﴾

=

ولقد كان لهذا الدفاع المباشر أعظم الأثر في تثبيت النبي - ﷺ - في صراعه مع الباطل.

وفي الفصل الثاني سأعرض أسلوباً آخر لتثبيت النبي - ﷺ - وذلك عن طريق توجيهه للتصرف الحكيم في مواجهة المكذبين.

= وقال هود عليه السلام رداً على تهمة قومه له بالسفاهة: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

بينما قال الله مدافعاً عن رسوله: ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾. والآيات كثيرة في ذلك.

الفصل الثاني

توجيه الله رسوله - ﷺ - في مواجهة المكذبين

كانت إحدى صور تثبيت النبي - ﷺ - تعهّد ربه له بالتوجيه والإرشاد إلى التصرف الحكيم لمواجهة المكذبين. فقد كان القرآن ينزل عليه مرة بعد أخرى يبيّن له ما ينبغي فعله أو تركه. ولقد كان لهذه التوجيهات أثرها النفسي الكبير في مواساة رسول الله - ﷺ - وتثبيته. ومن أهم هذه التوجيهات ما يلي:

١ - نهيه - ﷺ - عن الحزن على المكذبين وقصر مهمته على التبليغ.

٢ - نهيه - ﷺ - عن الشك.

٣ - أمره - ﷺ - بالصبر والإعراض عن المكذبين.

وقد جعلت هذه التوجيهات الثلاثة عناوين لمباحث هذا الفصل.

المبحث الأول

نهيه - ﷺ - عن الحزن على المكذبين وقصر مهمته على التبليغ

كانت بعثة رسول الله - ﷺ - كالأنبياء قبله - رحمة للعباد والبلاد، ولقد وصف الله رسوله بالرحمة في آيات كثيرة[١] وتجسدت هذه الرحمة في شدة حرصه على

---

(١) انظر الباب الثالث، مبحث: وصفه - ﷺ - بالرأفة والرحمة ص ٣١٧.

هداية قومه حتى قال الله مشفقاً عليه: (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين)[1].

ولقد ضرب رسول الله - ﷺ - مثلاً يجسد حرصه على هداية قومه بقوله: (مثلي كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي في النار يقعن فيها. وجعل يحجزهن ويغلبنّه فيقتحّمْن فيها. قال فذلكم مثلي ومثلكم. أنا آخذ بحجزكم عن النار هلمّ عن النار هلمّ عن النار فتغلبوني وتقحّمون فيها)[2].

أما سيرته - عليه الصلاة والسلام - فقد كانت دليلاً عملياً لرحمته وشفقته حيث سخّر جهده كله لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، فما إن يسمع باجتماع كبراء قريش حتى ينطلق إليه ليعرض عليهم دعوته، وكم كان يجهد نفسه في الموسم بتطوافه على القبائل القادمة من أنحاء الجزيرة العربية المترامية الأطراف، ويذهب إلى خيامهم ليعرض عليهم الإسلام ويتلو عليهم القرآن، فمنهم من كان يعتذر إليه بلطف، ومنهم من كان يزجره ويُغلِّظ عليه الرد، وما كان ذلك ليصده عن دعوته. وقصة محاولته هداية عمه أبي طالب إلى آخر لحظة من حياته مشهورة[3]. وشدة حرصه على هداية الناس هو الذي منعه من الدعاء على المكذبين، (فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قدم طفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه على النبي - ﷺ - فقالوا يا رسول الله، إن دوساً عصت وأبت، فادع الله عليها، فقيل هلكت دوس، قال: اللهم اهد دوساً وأت بهم)[4] ومنعه كذلك عن قبول عرض ملك الجبال بإنزال العذاب على المكذبين معللاً ذلك برجائه ظهور جيل جديد من ذرية المكذبين يوحّد الله ويعبده (فعن عائشة رضي الله عنها قالت للنبي - ﷺ -: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت

---

(١) سورة يوسف، آية (١٠٣).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الفضائل باب شفقته - ﷺ - على أمته، (ج ٤/ ١٧٨٩)، (الفراش) هو الذي يطير كالبعوض، (بحجزكم): الحجز جمع حجزه، وهي معقد الإزار والسراويل (تقحمون): التقحم هو الإقدام والوقوع في الأمور الشاقة من غير تثبُّت.

(٣) انظر سيرة ابن هشام، ج ٢/ ٢٧.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب: الدعاء للمشركين بالهدي ليتألفهم، (ج ٣/ ١٠٧٣).

وأنا مهموم على وجهي، فلم استفق إلا وأنا بقرن الثعالب[١]، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردّوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال، لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلّم عليّ، ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟[٢] فقال النبي - ﷺ - بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئاً)[٣].

ومن المؤسف أن هذا الحرص من رسول الله قوبل بالتعنُّت والاستهزاء من قبل المشركين. وكان رسول الله - ﷺ - بحكم بشريته - يحزُنه إعراض قومه عن دعوته ويؤلمه استهزاؤهم به.

لذلك كانت الآيات تنزل عليه مسلية ومواسية.

فتارة تنهاه عن الحزن مقترناً ذلك بالتقليل من شأن المكذبين كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ ﴾[٤].

أو بتأكيد عزة الإسلام واستغنائه عن الجاحدين: كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ ﴾[٥].

أو بالتذكير بمعية الله له، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾[٦].

---

(١) قرن الثعالب: هو قرن المنازل ميقات أهل نجد تلقاء مكة على يوم وليلة (معجم البلدان، الياقوت الحموي - دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٣٩٩)، ج ٤/ ٣٣٢.

(٢) الأخشبين: هما جبلا مكة: أبو قبيس والجبل المقابل له وهو قُعَيْقعان (شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام لأبي الطيب الفاسي - تحقيق د. عمر عبد السلام - دار الكتاب العربي - بيروت - الأولى - ١٤٠٥)، ج ١/ ٢٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب: إذا قال أحدكم آمين، ج ٣/ ١١٨٠ وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما لاقى النبي من أذى المشركين والمنافقين، (ج ٣/ ١٤٢٠).

(٤) سورة آل عمران، آية (١٧٦).

(٥) سورة يونس، آية (٦٥).

(٦) سورة النحل، آية (١٢٧ - ١٢٨).

أو بتوعد المكذبين بعذاب جهنم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ ﴾(١).

وتارة تنزل الآيات تنهاه عن إهلاك نفسه أسفاً على المكذبين. قال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾(٢).

قال ابن كثير رحمه الله: «قال تعالى مسلياً رسوله صلوات الله وسلامه عليه في حزنه على المشركين لتركهم الإيمان وبُعدهم عنه، كما قال تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾(٣)، باخع أي مهلك نفسك بحزنك عليهم ولهذا قال: «فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث» يعني القرآن «أسفاً». . . والمعنى لا تأسف عليهم بل أبلغهم رسالة الله فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تذهب نفسك عليهم حسرات»(٤).

وتارة تنزل الآيات تنهاه أن يضيق صدره بسبب تكذيبهم واستهزائهم وتعنّتهم. كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ . . . ﴾(٥).

ظاهر هذه الآية قد يوهم أمراً لا يليق بالرسول ـ ﷺ ـ وهو تركه تبليغ بعض الوحي إرضاءً للكفار ـ وقد جلّى هذا الأمر ابن عطية رحمه الله بقوله: «وليس المعنى

---

(١) سورة لقمان، آية (٢٣ ـ ٢٤).

(٢) سورة الكهف، آية (٦) يقول الراغب: البخع: قتل النفس غماً، (المفردات، ص ٣٨)، وأصل البخع المبالغة في الشيء. ومنه «أتاكم أهل اليمن هم أرق قلوباً وألين أفئدة وأبخع طاعة: أي أبلغ طاعة. يقال: بخع الذبيحة: إذا بالغ في ذبحها، وهو أن يقطع عظم رقبتها ويبلغ بالذبح البخاع، أي العرق الذي في الصلب. ذكره الزمخشري (انظر الفائق في غريب الحديث، لجار الله محمود بن عمر الزمخشري ـ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية ـ ج ١/ ٨٢، والنهاية ج ١/ ١٠٢).

(٣) سورة الشعراء، آية (٣).

(٤) تفسير القرآن العظيم، ج ٣/ ٧٦.

(٥) سورة هود، آية (١٢).

أنه ـ ﷺ ـ همّ بشيء من هذا فزُجر عنه، فإنه لم يُرد قط ترك شيء مما أُوحي إليه، ولا ضاق صدره، وإنما كان يضيق صدره بأقوالهم وأفعالهم وبعدهم عن الإيمان»[1]. فالآية إذن جاءت مسلية للرسول ـ ﷺ ـ ناهية إياه عن الضيق بما يقوله المبطلون.

ويؤكد ابن كثير رحمه الله هذا المعنى بقوله: هذه تسلية من الله لرسوله ـ ﷺ ـ عما كان يلقاه من تعنّت المشركين، فأمره وأرشده إلى عدم الضيق منهم والحذر منهم أن يصدوه أو يثنوه عن دعائهم إلى الله عز وجل[2].

وهذه الآية تبين لنا مدى المعاناة النفسية التي كان النبي ـ ﷺ ـ يعانيها من مغالطات كفار قريش وإعناتهم له، والتي كان يخففها نزول أمثال هذه الآية. يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ: «وهذه الآية تشي بجو تلك الفترة الحرجة في تاريخ الدعوة، وما كان يعتور صدر رسول الله ـ ﷺ ـ من الضيق. كما تشي بثقل المواجهة للجاهلية المتمردة المعاندة، في الوقت الذي هلك فيه العشير والنصير، وغمرت الوحشة قلب رسول الله ـ ﷺ ـ وغشي الكرب على قلوب المؤمنين القلائل في هذه الجاهلية المحيطة، ومن بين كلمات الآية نحس جواً مكروباً تتنزل فيه هذه الكلمات الربانية بالبشاشة، وتكسب فيه الطمأنينة، وتريح الأعصاب والقلوب»![3].

وأحياناً تنزل الآيات تنهاه عن التحسر والأسى على المكذبين.

قال تعالى: ﴿ ... فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ ... فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ... ﴾[5].

لأن من لم يرفع لدعوة الحق رأساً لا يستحق التحسر والأسى عليه.

ومما كان يخفف الحزن والأسى عن النبي ـ ﷺ ـ إضافة إلى ما ذكرت ـ تلك الآيات التي كانت تنزل عليه موضحة له أن مهمته الأساس هي: البلاغ والبيان، وليس

---

(١) المحرر الوجيز، ج ٧/ ٢٤٩.

(٢) انظر التفسير العظيم، ج ٢/ ٤٥٥.

(٣) في ظلال القرآن، ج ٤/ ١٨٦١.

(٤) سورة المائدة، آية (٦٨).

(٥) سورة فاطر، آية (٨).

هداية[1] الناس أو إكراههم على الإيمان، لأن ذلك من خصائص المولى جل وعلا.
ومن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿ ... فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾[6].

وقوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾[7].

المبحث الثاني

نهيه ـ ﷺ ـ عن الشك

من توجيهات الله لرسوله في مواجهة المكذبين نهيه عن الشك. ولقد جاء هذا النهي على ضربين يقتضي أحدهما الآخر:

---

(١) المراد بالهداية هنا: الهداية الخاصة والتي بمعنى: التوفيق والسداد.
(٢) سورة آل عمران، آية (٢٠).
(٣) سورة يونس، آية (٩٩).
(٤) سورة النحل، آية (٨٢).
(٥) سورة القصص، آية (٥٦).
(٦) سورة فاطر، آية (٢٣ ـ ٢٤).
(٧) سورة الغاشية، آية (٢١ ـ ٢٢).

الضرب الأول: نهيه عن الامتراء[1] في أن ما جاءه هو الحق من عند الله ـ وهو الأكثر ـ وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾[2].

ويقول تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾[3].

ويقول تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾[4].

ويقول تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[5].

الضرب الثاني: نهيه عن الامتراء في ضلال المكذبين.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ ﴾[6].

وهذه الآيات منها المكي ومنها المدني مما يدل على أن محاولة تشكيك الرسول ـ ﷺ ـ وفتنه كان قدراً مشتركاً بين كفار قريش وأهل الكتاب من يهود ونصارى، كما يلاحظ أن هذه الآيات جاءت تعقيباً على قضايا بعينها أثارها

---

(١) الامتراء: أصله مري، والمرية: التردد في الأمر، وهو أخص من الشك (مفردات الراغب، ص ٤٦٧). وفي اللسان: الامتراء في الشيء: الشك فيه وكذلك التماري، (ج ١٥/ ٢٧٨، مادة «مري»). ويقول الطاهر بن عاشور: الامتراء: الشك فيما لاشبهة فيه، فهو أخص من الشك، (تفسير التحرير والتنوير، ج ١١/ ٢٨٦).

(٢) سورة البقرة، آية (١٤٦ ـ ١٤٧).

(٣) سورة يونس، آية (٩٤).

(٤) سورة آل عمران، آية (٥٩ ـ ٦٠).

(٥) سورة هود، آية (١٧).

(٦) سورة هود، آية (١٠٩).

الجاحدون لتشكيك رسول الله ـ ﷺ ـ لذلك كان يقترن بالنهي عن الشك التأكيد له بأنه على الحق وأن ما جاءه هو الحق.

ففي الآية الأولى: جاء النهي عن الشك تعقيباً على حادثة تحويل القبلة. والتي حاول اليهود استغلالها للتشكيك وإثارة البلبلة بين المسلمين، فقال الله له: ﴿**الحق من ربك فلا تكونن من الممترين**﴾. يقول ابن جرير ـ رحمه الله ـ «يعني تعالى ذكره: اعلم يا محمد أن الحق ما أعلمك ربك وأتاك من عنده، لا ما يقول لك اليهود والنصارى، وهذا خبر من الله تعالى لنبيه عليه السلام عن أن القبلة التي وجهه نحوها، هي القبلة الحق التي كان عليها إبراهيم خليل الرحمن... ﴿**فلا تكونن من الممترين...**﴾ أي من الشاكّين في أن القبلة التي وجهتك نحوها قبلة إبراهيم خليلي عليه السلام..»[1].

وجاءت الآية الثالثة ضمن الآيات التي نزلت رداً على نصارى نجران الذين قدموا إلى المدينة يحاجّون بالباطل ويجادلون في أمر عيسى ـ عليه السلام ـ فقال الله له بعد أن قصّ عليه حقيقة أمر عيسى عليه السلام ﴿**الحق من ربك فلا تكونن من الممترين**﴾ أي: (الذي أنبأتك به من خبر عيسى، وأن مثله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له «كن» هو الحق من ربك.. «فلا تكن من الممترين» يعني: فلا تكون من الشاكين في أن ذلك كذلك)[2].

ويقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تعقيبه على آية المباهلة[3] التي بعد هذه الآية: «وكان سبب نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا في وفد نجران: أن النصارى لما قدموا فجعلوا يحاجُّون في عيسى ويزعمون فيه ما يزعمون من النبوة والإلهية، فأنزل الله صدر هذه السورة رداً عليهم، كما ذكره ابن إسحاق وغيره»[4].

وجاءت الآية الرابعة تعقيباً على حديث عن تحدي القرآن للكفار في الإتيان

---

(١) جامع البيان/ شاكر (بتصرف يسير)، ج ٣/ ١٩٠.
(٢) جامع البيان/ شاكر، ج ٦/ ٤٧٢.
(٣) الآية هي قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ ﴾.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ج ١/ ٣٧٦، وانظر: سيرة ابن هشام ج ٢/ ٢٠٤، وما بعدها، أسباب نزول القرآن، ص ٩٨ ـ ٩٩.

بعشر سور من مثله، وعن إعجازه الدال على صدق الرسول ـ ﷺ ـ فعلى الرغم من انهزام القوم أمام تحدي القرآن ظلوا متمسكين بباطلهم كافرين بالرسول والقرآن فقال الله له: ﴿فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك..﴾ يقول ابن جرير ـ رحمه الله ـ: «أي فلا تك في شك منه، من أن موعد من كفر بالقرآن من الأحزاب النار، وأن هذا القرآن الذي أنزلناه إليك من عند الله»[١].

وجاءت الآية الثانية والخامسة تعقيباً على قصص الأنبياء السابقين وكأنها تشير إلى أن أولئك الأنبياء كانوا على الحق بالرغم من كثرة المكذبين لهم وهو كذلك على الحق وأنه رسول الله مهما كذبه المكذبون فما ينبغي له أن يشك في كونه على الحق وفي كونهم على الباطل.

والسؤال الذي يفرض نفسه، هل شك النبي ـ ﷺ ـ حتى ينهاه الله عن ذلك؟

اتفق المفسرون عند تفسيرهم للآيات التي تنهى النبي ـ ﷺ ـ عن الشك ـ ولا سيما الآية الرابعة والتسعون من سورة يونس[٢]، والتي قد يُفهم من ظاهرها أن الرسول ـ ﷺ ـ شك فأمر بسؤال أهل الكتاب ـ أن الرسول ـ ﷺ ـ لم يشك، إلا أنهم اختلفوا في توجيه الخطاب الوارد في الآية وأشهر أقوالهم ما يلي:

القول الأول: أن الخطاب موجه إلى النبي في الظاهر والمراد سواه من كل من يمكن أن يشك أو يعارض[٣] أي أن الخطاب جاء على نحو قول المثل العربي المشهور: «إياك أعني واسمعي يا جارة»[٤] وقد رجّح هذا القول الرازي وذكر مسوغات ترجيحه قائلاً: «والذي يدل على صحة ما ذكرناه وجوه:

الأول: قوله تعالى في آخر السورة: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾[٥].

---

(١) جامع البيان/ شاكر، ج ١٥/ ٢٧٩.

(٢) هي قوله تعالى: ﴿فإن كنت في شكٍ مما أنزلنا إليك فسئل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ج ٧/ ٢١٧، التفسير الكبير، ج ١٧/ ١٦٠، الجامع لأحكام القرآن، ٨/ ٣٨٢.

(٤) يضرب هذا المثل: عند توجيه الكلام إلى شخص ويراد غيره.

(٥) سورة يونس، آية (١٠٤).

فبين أن المذكور في أول الآية على سبيل الرمز هم المذكورون في هذه الآية على سبيل التصريح.

الثاني: أن الرسول - ﷺ - لو كان شاكاً في نبوة نفسه لكان شك غيره في نبوته أولى، وهذا يوجب سقوط الشريعة بالكلية.

الثالث: أنه بتقدير أن يكون شاكاً في نبوة نفسه، فكيف يزول ذلك الشك بإخبار أهل الكتاب عن نبوّته مع أنهم في الأكثر كفار»[١] لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

وعلى هذا يكون تقدير الكلام (أي إن كنت في قوم أهل شك مما أنزلنا إليك، أي يشكّون في وقوع هذه القصص.. فاسأل أهل الكتاب سؤال تقرير وإشهاد عن صفة تلك الأخبار يخبروا بمثل ما أخبرتهم به، فيزول الشك من نفوس أهل الشك... فالمقصود من الآية إقامة الحجة على المشركين بشهادة أهل الكتاب من اليهود والنصارى قطعاً لمعذرتهم)[٢].

القول الثاني: أن نسبة الشك إلى الرسول - ﷺ - هو على سبيل الفرض[٣] وهذا أسلوب عربي لنفي احتمال وقوع الشيء يقول المراغي[٤]: «وقد جرت عادة العرب أن يقدّروا الشك في الشيء ليبنوا عليه ما ينفي احتمال وقوعه»[٥] كما أن تعليق الحكم بالشرط لا يستلزم تحقيق وقوعه ولا إمكانه، بل يمكن أن يفترض وقوع الشيء المحال، ولا يلزم منه جواز الوقوع[٦].

والأدلة على ذلك كثيرة في القرآن نفسه. كقوله تعالى - بعد ذكر طائفة من

---

(١) التفسير الكبير، ج ١٧/ ١٦٠ - ١٦١.

(٢) تفسير التحرير والتنوير، ج ١١/ ٢٨٤.

(٣) انظر: التفسير الكبير، ج ١٧/ ١٦١، الجواب الصحيح، ج ١/ ٣٣٥، تفسير المنار، ج ١١/ ٤٨٠.

(٤) هو أحمد بن مصطفى المراغي، مفسر مصري من العلماء، تخرج بدار العلوم سنة ١٩٠٩ م ثم كان مدرس الشريعة الإسلامية بها، عين أستاذاً للعربية والشريعة الإسلامية بكلية غوردون بالخرطوم، توفي بالقاهرة سنة ١٣٧١ هـ، من كتبه: «تفسير المراغي»، «الوجيز في أصول الفقه»، «علوم البلاغة» (الأعلام، ج ١/ ٢٥٨).

(٥) تفسير المراغي، ج ١١/ ١٥٤.

(٦) انظر: البحر المحيط، ج ٥/ ١٩١، الجواب الصحيح، ج ١/ ٣٣٥.

الأنبياء ﴿ . . . وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾[1] يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «فأخبر أنهم لو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون، مع انتفاء الشرك عنهم بل مع امتناعه لأنهم قد ماتوا، ولأن الأنبياء معصومون من الشرك»[2].

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾[3].

ومنها قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾[4] فهذا من باب افتراض المحال لأن الله سبحانه منزّه عن الولد ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ ﴾[5] يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ «أي لو فُرض هذا لعبدته على ذلك لأني عبد من عبيده مطيع لجميع ما يأمرني به ليس عندي استكبار ولا إباء عن عبادته، فلو فُرض هذا لكان هذا، ولكن هذا ممتنع في حقه تعالى. والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضاً، كما قال عزّ وجل: ﴿ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ ﴾[6]»[7]. وبمثل هذا يجاب عن الآية، فيكون معناها: لو فُرض أنه حصل لك شك لكان الواجب عليك أن تسأل الذين يتلون الكتاب من قبلك. فلما لم يسألهم دلّ على أنه لم يحصل له شك. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لم يشك رسول الله ـ ﷺ ـ ولم يسأل»[8] ويقول الزمخشري: «فالغرض وصف الأحبار بالرسوخ في العلم بصحة ما أُنزل على رسول الله لا وصف رسول الله ـ ﷺ ـ بالشك فيه»[9].

القول الثالث: أن الخطاب من باب التهييج والتثبيت وقطع أطماع المشركين

---

(١) سورة الأنعام، آية (٨٨).

(٢) الجواب الصحيح، ج ١/ ٣٣٥.

(٣) سورة الزمر، آية (٦٥).

(٤) سورة الزخرف، آية (٨١).

(٥) سورة الإخلاص، آية (٣).

(٦) سورة الزمر، آية (٤).

(٧) تفسير القرآن العظيم، ج ٤/ ١٤٦.

(٨) الدر المنثور، ج ٤/ ٣٨٩.

(٩) الكشاف، ج ٢/ ٢٠٣.

عن أن يفتنوه[1]. فالمقصود من هذا الخطاب ـ حسب هذا الرأي ـ تحريض رسول الله ـ ﷺ ـ للثبات على الحق وتشجيعه للاستمرار على يقينه. وهذا الأسلوب كقولك للطالب المجتهد في دراسته وتحصيله «اجتهد وإياك والكسل» فالمقصود حضه وتشجيعه كي يستمر على اجتهاده ومثابرته لا الاعتقاد بأنه مقصر، وهذا كذلك. وذكر القاسمي ـ رحمه الله ـ قاعدة ضابطة لهذا الأسلوب، فقال: «النهي عن الشيء، إن كان لمن تلبّس به فمعناه تركه، وإن كان لغيره فمعناه الثبات على عدمه وألا يصدر منه في المستقبل كما هنا»[2].

القول الرابع: أن القصد من الخطاب التعريض بالشاكين والممترين والمكذبين، يقول الطاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ: «ويكون سوق هذه المحاورة إلى النبي ـ ﷺ ـ على طريقة التعريض، لقصد أن يسمع ذلك المشركين فيكون استقرار حاصل المحاورة في نفوسهم أمكن مما لو ألقى إليهم مواجهة»[3].

ويُفصّل الشوكاني ـ رحمه الله ـ في بيان أثر التعريض في هذه الآية بالممترين والمكذبين قائلاً: «وفي هذا التعريض من الزجر للممترين والمكذبين ما هو أبلغ وأوقع من النهي لهم أنفسهم، لأنه إذا كان بحيث يُنْهى عنه من لا يُتصور صدوره عنه، فكيف بمن يمكن منه ذلك؟!»[4].

وهكذا يظهر مما سبق من أقوال المفسرين، اجماعهم على أن رسول الله ـ ﷺ ـ لم يشك ولم يمتر، وما تلك الآيات التي تنهاه عن الامتراء إلا توجيهات ربانية لحضه على الاستمرار في عدم شكه وزيادة يقينه، والتسرية عنه فيما يلاقيه من صدود وإعراض.

---

(١) انظر: الكشاف، ج ٢/ ٢٠٣، تفسير البيضاوي، ج ٣/ ١٠٠، فتح القدير للشوكاني، ج ٢/ ٤٧٤، محاسن التأويل، ج ٩/ ٨٠.
(٢) محاسن التأويل، ج ٩/ ٨١.
(٣) تفسير التحرير والتنوير، ج ١١/ ٢٨٥، وانظر تفسير المنار، ج ١١/ ٤٨١.
(٤) فتح القدير، ج ٢/ ٤٧٤.

المبحث الثالث

أمره - ﷺ - بالصبر والإعراض عن المكذبين

تكرر توجيهه سبحانه وتعالى لرسوله - ﷺ - في أمره بالصبر في عشرين موضعاً من القرآن الكريم[1]، أغلبها بلفظ «اصبر» ومرتان بلفظ «اصطبر». وعند البحث نجد أن كل هذه الآيات نزلت في العهد المكي عندما كان الصراع محتدماً بين الحق والباطل، وكان المسلمون يومئذ أضعف من الكفار كما قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ ﴾[2] في هذه الظروف العصيبة من تاريخ الدعوة كانت آيات الصبر تنزل تترى.

والملاحظ في الآيات أن أمر الله لنبيه - ﷺ - بالصبر نادراً ما يأتي مجرداً، بل في معظم الأحيان يأتي مقترناً بأمر آخر أو نهي أو تعليل ويمكن تقسيم أوامر الله لنبيه بالصبر إلى ما يلي:

أولاً: أمره بالصبر على ما يقولون وهجرهم هجراً جميلاً:

تكررت عبارة «اصبر على ما يقولون» أربع مرات[3] في القرآن، وهذا التكرار يدل على مبالغة الكفار في إطلاق الكلمات الجارحة، فقد كانوا يقولون عن الرسول - ﷺ - ساحر ومجنون وشاعر وكذاب... ويقولون عن القرآن أساطير الأولين وإفك مفترى... ومع ذلك كان الله يأمره بالصبر وعدم الرد عليهم أو مقابلتهم بالمثل. وليس هذا فقط - مع ثقَله على النفس - بل كان يأمره زيادة على ذلك أن يكون صبره صبراً جميلاً، وأن يكون هجره هجراً جميلاً («والصبر الجميل» هو الذي لا جزع فيه ولا شكوى لغير الله)[4] أما قوله تعالى: ﴿ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ ﴾[5] «أي لا تتعرض

---

(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، لمحمد فؤاد عبد الباقي (دار القلم - بيروت)، ص ٤٠٠.

(٢) سورة الأنفال، آية (٢٦).

(٣) سورة طه، آية (١٣٠)، ص، آية (١٧)، سورة ق، آية (٣٩)، سورة المزمل، آية (١٠).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ج ١٨/ ٢٨٤.

(٥) سورة المزمل، آية (١٠).

لهم، ولا تشتغل بمكافأتهم، فإن في ذلك ترك الدعاء إلى الله»[1].

إنها توجيهات ربانية لا يطيق تنفيذها إلا أصحاب القلوب الكبيرة التي تسع جهالات القوم، وتَتحمَّل أذاهم وتمتص حماسهم.

ثانياً: أمره بالصبر مع التأكيد له بتحقيق وعد الله له بالنصر:

من أنواع الفتن التي يتعرض لها المسلم تأخر نصر الله تعالى في مقابل تمادي أهل الباطل في إيذاء المؤمنين، مما يحمله على استبطاء النصر ـ مع تحققه[2].

قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾[3].

---

(١) نفس المصدر السابق، ج ١٩/ ٤٤.

(٢) ذكر سيد قطب رحمه الله ـ حكماً لتأخر النصر فقال:

ـ والنصر قد يبطىء لأن بُنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها، ولم يتم بعد تمامها، ولم تحشد بعد طاقاتها.

ـ وقد يبطىء النصر حتى تبذل الأمةُ المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة بحيث لا يبقى مما تملكه عزيزاً ولا غالياً إلا بذلته رخيصاً في سبيل الله.

ـ وقد يبطىء النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها لتدرك أن القوى المادية لا تكفل لها النصر بل النصر من عند الله تعالى.

ـ وقد يبطىء النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله.

ـ وقد يبطى النصر لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد من حظوظ نفسها.

ـ وقد يبطىء النصر لأن الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة فيه بقايا خير يريد الله أن يستخلص هذا الخير ليهلك بعد ذلك الشر المحض.

ـ وقد يبطىء النصر لأن الباطل لم ينكشف زيفه أمام الناس والله يريد إظهار الباطل عارياً للناس حتى لا ينخدع به أحد بعد ذلك.

ـ وقد يبطىء النصر لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة.

(من كتاب طريق الدعوة في ظلال القرآن ـ باختصار، ج ١/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠).

(٣) سورة البقرة، آية (٢١٤).

ومن هنا جاءت توجيهات الله لرسوله في عدة آيات بالصبر مقترناً بتأكيد الوعد له بالنصر.

قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[1].

قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٥٥﴾ ﴾[2].

قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾[3].

ففي هذه الآيات الثلاث أكد الله لرسوله تحقيق النصر له بقوله: ﴿إن وعد الله حق﴾ وهذا الوعد هو المذكور في الآيات السابقة لهذه الآيات.

ففي سورة الروم قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[4].

يقول أبو حيان ـ رحمه الله ـ: «والآية جاءت تأنيساً للرسول ـ ﷺ ـ وتسلية له، ووعداً له بالنصر، ووعيداً لأهل الكفر»[5].

وفي سورة غافر قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾[6].

يقول الرازي ـ رحمه الله ـ: «والآية وعد من الله تعالى لرسوله بأنه ينصره على أعدائه في الحياة الدنيا وفي الآخرة»[7].

---

(١) سورة الروم، آية (٦٠).
(٢) سورة غافر، آية (٥٥).
(٣) سورة غافر، آية (٧٧).
(٤) سورة الروم، آية (٤٧).
(٥) البحر المحيط، ج ٧/ ١٧٨.
(٦) سورة غافر، آية (٥١).
(٧) التفسير الكبير، ج ٢٧/ ٧٥.

لهذا فإن مما يعين على الصبر استشعار المسلم حتمية تحقق وعد الله، ولو بعد حين.

ثالثاً: أمره بالاقتداء بالأنبياء في صبرهم:

يقول تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡ ﴾(١) لقد كانت قصص الأنبياء السابقين من أهم وسائل تثبيت النبي ـ ﷺ ـ وقد مضى الحديث عن ذلك في الباب الأول كله. إلا أنني أضيف هنا أن الله لم يأمر رسوله ـ ﷺ ـ بالاقتداء بالأنبياء في خُلق على وجه التعيين إلا بالصبر، نعم لقد أمره بالاقتداء بهم على وجه العموم في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾(٢) إلا أن تخصيص الصبر هنا يدل على صعوبته مع شدة الحاجة إليه، إذ بدون الصبر لا يمكنه أداء مهمته الموكولة إليه كما يجب، لهذا نهى الله رسوله محمداً ـ ﷺ ـ عن الاقتداء بيونس عليه السلام في استعجاله على قومه وعدم صبره على تكذيبهم وخروجهم مغاضباً لهم قبل أن تنتهي مهمته، قال تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ ﴾(٣). ولقد قصّ الله على رسوله ـ ﷺ ـ مواقف الأنبياء وأتباعهم لأجل أن يقتدي هو وأتباعه بهم في صبرهم وتحمّل الأذى والاستهزاء.

من هذه المواقف ما يلي:

قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾(٤).

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ

---

(١) سورة الأحقاف، آية (٣٥)، قال ابن كثير: «ولا تستعجل لهم»، أي لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم فإنها نازلة بهم لا محالة، (تفسير القرآن العظيم، ج ٤/ ١٨٥).

(٢) سورة الأنعام، آية (٩٠).

(٣) سورة القلم، آية (٤٨).

(٤) سورة آل عمران، آية (١٤٦ ـ ١٤٨).

﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾[1].

وقوله تعالى على لسان الرسل: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾[2].

ولقد تآسى رسول الله - ﷺ - بمواقف الأنبياء السابقين فكان يذكرها لأصحابه كلما سنحت فرصة يذكّرهم بها. فمن ذلك ما رواه البخاري عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله - ﷺ - وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: **«كان الرجل فيمن كان قبلكم يُحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيُجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه. والله ليُتمَّن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»**[3] وعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال كأني أنظر إلى رسول الله - ﷺ - يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)[4] يقول النووي[5] - رحمه الله - «وهذا النبي المشار إليه من المتقدمين، وقد جرى لنبينا - ﷺ - مثل هذا يوم أحد[6] وقيل هو نوح عليه السلام»[7].

---

(١) سورة الأنعام، آية (٣٤).

(٢) سورة إبراهيم، آية (١٢).

(٣) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، ج ٣/ ١٣٢٢.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب الأنبياء - باب حديث الغار، ج ٣/ ١٢٨٢، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد، ج ٣/ ١٤١٧.

(٥) هو محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري بن حسن، الفقيه الشافعي الدمشقي الحافظ الزاهد القدوة أحد أعلام الأمة، ولد سنة إحدى وثلاثين وستمائة، كان يقرأ في كل يوم اثني عشر درساً على المشايخ شرحاً وتصحيحاً، من تصانيفه: «شرح صحيح مسلم» و «المجموع شرح المهذب» و «الأذكار»، و «رياض الصالحين» و «التقريب والتيسير» في مختصر الإرشاد، توفي سنة ست وسبعين وستمائة، (شذرات الذهب، ج ٥/ ٣٥٤ وما بعدها).

(٦) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٢/ ١٥٠.

(٧) فتح الباري، ج ٦/ ٦٠١.

وعن عبد الله قال قسّم رسول الله ـ ﷺ ـ قسمة، فقال رجل من القوم: إن هذه لقسمة ما يراد بها وجه الله عزّ وجل! قال: فأتيت النبي ـ ﷺ ـ فحدثته، قال: فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه فقال: (يرحم الله موسى، قد أُوذي بأكثر من ذلك فصبر)[1].

رابعاً: اقتران الأمر بالصبر بالأمر بالعبادة:

لما كان الصبر على مشاق الدعوة وتحمل الأذى يحتاجان إلى زاد خاص، فإن الملاحظ أن توجيهات الله لنبيه بالصبر كثيراً ما يقترن بها الأمر بالعبادة كما في قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾[2].

وقوله: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ ﴾[3].

يقول الشنقيطي ـ رحمه الله ـ «وأمره له بالتسبيح بعد أمره له بالصبر على أذى الكفار فيه دليل على أن التسبيح يعينه الله به على الصبر المأمور به، والصلاة داخلة في التسبيح المذكور»[4].

فالعبادات من تسبيح واستغفار وذكر ودعاء وصلاة ـ خاصة صلاة الليل ـ هي الزاد الذي يزود الداعية بالطاقة الروحية التي تحركه ويُفيض منها على من يدعوهم. ولعل من أهم حكَم فرض صلاة الليل على الرسول وأصحابه في فجر تاريخ الدعوة إلى الله أنه خير زاد لمواجهة الكبراء وتحمُّل الأذى والاستهزاء. يقول سيد قطب رحمه الله: «إن الله سبحانه حينما انتدب محمداً ـ ﷺ ـ للدور الكبير الشاق قال له: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا

---

(١) رواه أحمد في مسنده، ج ٤١١/١ قال عنه العلامة أحمد شاكر إسناده صحيح، (انظر شرح المسند لأحمد شاكر، ج ٦/ ٣٠).
(٢) سورة طه، آية (١٣٠).
(٣) سورة ق، آية (٣٩ ـ ٤٠).
(٤) أضواء البيان، ج ٧/ ٦٥٥.

﴿سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝﴾[1] فكان الإعداد للقول الثقيل والتكليف الشاق والدور العظيم هو قيام الليل وترتيل القرآن.. إنها العبادة التي تفتح القلب وتوثق الصلة وتيسر الأمر وتشرق النور وتفيض بالعزاء والسلوى والراحة والاطمئنان.. وقيام الليل هو الإعداد للمهمة الكبرى بوسائل الإعداد الإلهية المضمونة، قيام الليل أكثره، أكثر من نصف الليل، ودون ثلثيه، وأقله ثلث الليل. هكذا كان يقوم الداعية العظيم محمد - ﷺ - للصلاة وترتيل القرآن»[2].

وبالإضافة إلى كون العبادة زاد الداعية المحرك له فإن لها تأثيراً في زوال همومه وغمومه التي تسبب له ضيق الصدر الذي يؤدي به إلى الضجر وقلة الصبر، لهذا جاء الأمر الإلهي إلى الرسول - ﷺ - بالفزع إلى العبادة عند شعوره بالضيق مما يقول الكافرون، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ۝ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ۝﴾[3] يقول الشنقيطي - رحمه الله -: «اعلم أن ترتيبه جلّ وعلا الأمر بالتسبيح والسجود على ضيق صدره - ﷺ - بسبب ما يقولون له من السوء، دليل على أن الصلاة والتسبيح سبب لزوال ذلك المكروه، ولذا كان - ﷺ - إذا حزَبه أمر بادر إلى الصلاة. وقال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾[4]»[5].

هذه أهم التوجيهات المثبتة - في نظري - التي كان يتلقاها رسول الله - ﷺ - من ربه أثناء صراعه مع الباطل.

وفي الفصل الثالث سيكون الحديث عن تثبيته - ﷺ - بوسيلة أخرى هي تأييد الله له ونصره.

---

(١) سورة المزمل، آية (١ - ٥).

(٢) طريق الدعوة في ظلال القرآن، ج ٢/ (٢١٠ - ٢١١).

(٣) سورة الحجر، آية (٩٧ - ٩٩).

(٤) سورة البقرة، آية (٤٥).

(٥) أضواء البيان، ج ٣/ ٢٠٤.

الفصل الثالث

تأييد الله رسوله - ﷺ -

في مواجهة المكذبين

جرت سنة الله في الدعوات السابقة أن يؤيد رسله في صراعهم مع الباطل بالمعجزات وبالملائكة بصفة عامة وبجبريل بصفة خاصة، كما ذكر عن تأييده لعيسى ابن مريم بروح القدس - وهو جبريل عليه السلام: ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾[1].

ولقد حظي رسولنا محمد - ﷺ - بالحظ الأوفى من هذا النوع من التأييد، إذ ظل جبريل عليه السلام ينزل عليه ثلاثاً وعشرين سنة، وكانت كل نزلة لجبريل - بصرف النظر عن الآيات النازلة - تُعدَّ تأييداً من الله لرسوله - ﷺ -.

وسأقصر الحديث في هذا الفصل على ثلاث صور لتأييد الله رسوله من خلال الآيات النازلة عليه، جعلتها عناويناً لمباحث هذا الفصل وهي:

الأول: إهانة المكذبين بالنبي - ﷺ -.

الثاني: توعُّد الله المؤذين للرسول - ﷺ - بالعذاب.

الثالث: وعد الله رسوله - ﷺ - بالنصر والفتح المبين وتحقق ذلك.

---

(١) سورة البقرة، آية (٨٧).

المبحث الأول

إهانة الله المكذبين بالنبي - ﷺ -

العبادة هي المهمة الأساس للإنسان، من أجلها خُلق ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ ﴾[1] بل تُعدّ العبادة قَدْراً مشتركاً بين سائر المخلوقات، فما من مخلوق إلا وكلفه الله بنوع من العبادة، قال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾[3].

وعلى أساس العبادة يُكّرم المرء أو يُهان، ولهذا ختم الله الآية بقوله: ﴿ومن يهن الله فما له من مكرم﴾ فلا كرامة ولا مكانة لمن لا يخضع لأمر الله ومن هذا المنطلق كانت مقاييس القرآن الكريم في وزن الأشخاص تختلف عن مقاييس البشر. ففي عشرات الآيات نجد وصفاً للإنسان الكافر المكذب بآيات الله ورسله ينزل به عن رتبة البهائم العجماوات.

فتارة يصف القرآن المكذبين بالصم البكم العمي كما في:

قوله تعالى: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨ ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ ﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤٢ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ۝٤٣ ﴾[6].

---

(١) سورة الذاريات، آية (٥٦).

(٢) سورة الإسراء، آية (٤٤).

(٣) سورة الحج، آية (١٨).

(٤) سورة البقرة، آية (١٨).

(٥) سورة الأنعام، آية (٣٩).

(٦) سورة يونس، آية (٤٢ ـ ٤٣).

وسبب وصفهم بالصم البكم العمي مع سلامة حواسهم هذه: أن الله عز وجل وهبهم هذه الحواس لتكون وسيلة لسماع الحق ورؤيته والنطق به، فلما عطلوها عن هدفها الأساس فلم ينتفعوا بها للاستدلال على الحق، أصبحوا كالمحرومين من تلك الحواس. يقول الرازي ـ رحمه الله ـ: «اعلم أنه لما كان المعلوم من حالهم أنهم كانوا يسمعون وينطقون ويبصرون امتنع حمل ذلك على الحقيقة فلم يبق إلا تشبيه حالهم لشدة تمسكهم بالعناد وإعراضهم عما يطرق سمعهم من القرآن وما يظهره الرسول من الأدلة والآيات بمن هو أصم في الحقيقة فلا يسمع، وإذا لم يسمع لم يتمكن من الجواب، فلذلك جعله بمنزلة الأبكم، وإذا لم ينتفع بالأدلة ولم يبصر طريق الرشد فهو بمنزلة الأعمى»[1].

وتارة يشبههم بالموتى. فالحي بميزان الله هو المستجيب لأمره والميت، هو الرافض لأمره. قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[2] يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «أي إنما يستجيب لدعائك يا محمد من يسمع الكلام ويعيه ويفهمه كقوله: ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾[3]، وقوله: ﴿والموتى يبعثهم الله﴾ يعني بذلك الكفار لأنهم موتى القلوب فشبههم الله بأموات الأجساد. . . وهذا من باب التهكم بهم والإزدراء عليهم»[4].

وقد تكرر وصف الكفار بالموتى في أكثر من آية، كقوله تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾[5] وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾[6].

يقول ابن كثير رحمه الله: «هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمنين وهم الأحياء وللكافرين وهم الأموات»[7].

---

(١) التفسير الكبير، ج ٢/ ٧٦.
(٢) سورة الأنعام، آية (٣٦).
(٣) سورة يس، آية (٧٠).
(٤) تفسير القرآن العظيم، ج ٢/ ١٣٥.
(٥) سورة الأنعام، آية (١٢٢).
(٦) سورة فاطر، آية (٢٢).
(٧) تفسير القرآن العظيم، ج ٣/ ٥٦٠.

وتارة يضرب لهم المثل بالأنعام. وقد تكرر هذا كذلك، فمن ذلك قوله تعالى:

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً . . . ﴾[1] فهذا مثل ضربه الله عز وجل للكافر حين يدعى إلى الإسلام ببهيمة الأنعام حين يصيح بها الراعي فلا تسمع إلا دعاءه ونداءه من غير أن تفهم مراده، فهي لا تدري أيدعوها إلى روض معشب وماء عذب أم إلى المجزرة. قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: «ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً» أي كمثل البعير والحمار والشاة، إن قلت لبعضها كُلْ لا يعلم ما تقول، غير أنه يسمع صوتك، وكذلك الكافر إن أمرته بخير أو نهيته عن شر أو وعظته، لم يعقل ما تقول، غير أنه يسمع صوتك». وقد أورد ابن جرير - رحمه الله - عدة تأويلات لهذا المثل ثم رجح تأويل ابن عباس[2].

ولما كان الفارق الأساس بين الإنسان والحيوان، أن للإنسان إرادةً وهدفاً وتصوراً خاصاً للحياة وضعه خالق الحياة، فإن فقدان الإنسان لتلك الإرادة أو ذلك الهدف والتصور يعني فقدان أخص المزايا التي من أجلها كرّم الله الإنسان[3] ولهذا وصف الله من فقد هذه المزايا بأنه شر الدواب، بل وصفه بأنه أضل من الأنعام.

قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾[6].

والسؤال الذي يورد نفسه هنا لماذا عدّ الله الكافر أضل من الأنعام؟!

---

(١) سورة البقرة، آية (١٧١).

(٢) انظر جامع البيان / شاكر، ج ٣/ ٣٠٨ - ٣١٣.

(٣) في ظلال القرآن بتصرف، ج ٦/ ٣٢٩٠.

(٤) سورة الأنفال، آية (٢٢).

(٥) سورة الأنفال، آية (٥٥).

(٦) سورة الأعراف، آية (١٧٩).

ذكر المفسرون عدة أسباب لوصف الكافر بأنه أضل من الأنعام، أهمها ما يلي:

١ ـ لأن الأنعام تنقاد لأربابها التي تعلفها وتتعهدها، وتعرف من يحسن إليها ممن يسيىء إليها، وتطلب ما ينفعها، وتجتنب ما يضرها، وتهتدي لمراعيها ومشاربها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذي هو عدوهم، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع، ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار والمهالك[١].

٢ ـ لأن الحيوانات لا قدرة لها على تحصيل هذه الفضائل، والإنسان أُعطي القدرة على تحصيلها، ومن أعرض عن اكتساب الفضائل العظيمة مع القدرة على تحصيلها كان أخس حالاً ممن لم يكتسبها مع العجز عنها[٢].

٣ ـ لأن الأنعام تعرف ربها وتطيعه والكافر لا يعرف ربه وإن عرفه جحده.

٤ ـ لأن الأنعام تضل إذا لم يكن معها مرشد فأما إذا كان معها مرشد قلما تضل، وهؤلاء الكفار قد جاءهم الأنبياء وأُنزل عليهم الكتب وهم يزدادون في الضلال[٣].

٥ ـ لأن البهيمية تؤدي مهمتها التي وُجدت من أجلها على أكمل وجه والكافر لم يؤد مهمته الأساس من خلقه وهي عبادة الله.

وهكذا يظهر أن إهانة المكذبين ووصفهم بتلك الصفات إنما قُصد به تأييد الرسول عليه الصلاة والسلام وتسليته عما يلاقيه من صدود المكذبين، والتأكيد له بأن صدود المكذبين لم يكن بسبب تقصير منه في البيان والإعلام، أو غموض في الحجة والبرهان، إنما سبب ذلك فساد فطَرهم وقلوبهم. يقول سيد قطب رحمه الله: «وفي هذه الآيات تسرية عن رسول الله ـ ﷺ ـ مما يجده في نفسه من ضيق بهذا التكذيب لما معه من الحق، وبهذا العناد الصفيق بعد تكرار البيان والإعلام. وذلك بما يقرره له ربه من أن إباءهم الهدى لم يكن عن تقصير منه في الجهد ولا قصور فيما معه من الحق ولكن هؤلاء كالصم العمي. وما يفتح الآذان والعيون إلا الله. فهو شأن خارج عن طبيعة الدعوة والداعية داخل في اختصاص الله»[٤].

---

(١) تفسير الكشاف، ج ٣/ ٩٩.

(٢) التفسير الكبير، ج ١٥/ ٦٤.

(٣) نفس المرجع، ج ١٥/ ٦٥.

(٤) في ظلال القرآن، ج ٣/ ١٧٩٥.

المبحث الثاني

توعّد الله المؤذين للرسول - ﷺ - بالعذاب

أدرَكَت رسول الله - ﷺ - سنة الله في الدعوات منذ أول يوم أُمر بالجهر بالدعوة إلى الله، إذ تصدى له عمه أبو لهب بالشتيمة والتسفيه. أما عموم كفار قريش فلم يناوؤا رسول الله - ﷺ - العداء إلا بعد أن سفّه أحلامهم وعاب آلهتهم وضلل آباءهم كما ذكر ذلك ابن إسحاق، قال: «فلما بادى رسول الله - ﷺ - قومه بالإسلام، وصدع به كما أمره الله، لم يبعد منه قومه، ولم يردوا عليه - فيما بلغني - حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك أعظموه، وناكروه، وأجمعوا خلافه وعداوته إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام وهم قليل مستخفون»[1].

ومن ثَمَّ تعرّض رسول الله - ﷺ - وأصحابه الكرام لصنوف العذاب والأذى ما يعجز الإنسان عن وصفه.

ومع شدة الأذى والاضطهاد كان الله يحوط نبيه بالرعاية والتأييد من خلال الآيات التي كانت تنزل عليه مهددة أولئك المكذبين مما كان له أبلغ الأثر في تخفيف آلامه وتضميد جراحه. ولم يكتف القرآن بتوعد المكذبين بصفة عامة، بل عمد إلى أئمة الكفر، سادات قريش وكبرائها - الذين بالغوا في إيذاء النبي - ﷺ - ومرّغ أنوفهم وحطّم كبرياءهم، عندما أنزل فيهم قرآناً يُتلى، وصفهم فيه بأبشع الأوصاف وأقبح الصور التي تشمئز منها النفوس مع توعدهم في الآخرة بالعذاب الشديد.

وسأتحدث باختصار عن ثلاثة من أشد المؤذين لرسول الله - ﷺ - ذاكراً ما نزل فيهم من ذم ووعيد:

أولاً: ذم القرآن لأبي لهب وامرأته وتوعدهما بالعذاب:

يُعد أبو لهب أقرب المعادين لرسول الله - ﷺ - نسباً فهو صنو أبيه، ومع ذلك فهو أول من أظهر عداوته للنبي - ﷺ -.

---

(١) سيرة ابن هشام، ج ١/ ٢٧٥ - ٢٧٦.

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾[1] ورهطك منهم المخلصين، خرج رسول الله - ﷺ - حتى صعد الصفا، فهتف: يا صباحاه فقالوا من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل، أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. قال أبو لهب: تباً لك، ما جمعتنا إلا لهذا ثم قام. فنزلت ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ ﴾[2][3].

ومن جرائم أبي لهب ضد رسول الله - ﷺ - ما رواه طارق المحاربي[4] - رضي الله عنه - قال: رأيت رسول الله - ﷺ - بسوق ذي المجاز فمر وعليه جُبة له حمراء وهو ينادي بأعلى صوته: يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، ورجل يتبّعه بالحجارة وقد أدمى كعبيه وعرقوبيه وهو يقول: يا أيها الناس: لا تطيعوه فإنه كذاب، قلت: من هذا؟ قالوا: غلام من بني عبد المطلب، قلت: فمن هذا يتبعُه يرميه؟ قالوا هذا عمه عبد العزى - وهو أبو لهب[5].

وكانت امرأته - أم جميل - تشاركه في إيذاء رسول الله كما ذكر الله ذلك في القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿وامرأته حمّالة الحطب﴾ حيث كانت تحمل الشوك فتطرحه في طريق النبي - ﷺ - ليتعثر به[6]. ولشدة عداوتهما للرسول - ﷺ - أنزل الله فيهما سورة كاملة يذمهما فيها ويتوعدهما بنار جهنم، قال تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ

---

(١) سورة الشعراء، آية (٢١٤).

(٢) سورة المسد، آية (١).

(٣) تقدم تخريجه في ص ١٧٢.

(٤) هو طارق بن عبد الله المحاربي، من محارب خصفة. صحابي نزل الكوفة وروى عنه أبو الشعثاء وربعي بن خراش وغيرهم، قال البرقي له حديثان وقال ابن السكن ثلاثة، أخرج حديثه النسائي والترمذي، (الإصابة، ج ٣/ ٢٨٢).

(٥) كنز العمال في سنن الأقوال، لعلاء الدين علي الهندي (مؤسسة الرسالة - بيروت - الخامسة - ١٤٠٥ هـ)، ج ١٢/ ٤٤٩ وانظر: الروض الأنف، ج ٣/ ١٨٢، الجامع لأحكام القرآن، ج ٢٠/ ٢٣٦.

(٦) انظر جامع البيان، ج ٣٠/ ٢١٩.

وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ﴿٣﴾ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ﴿٥﴾﴾[1] ومعنى «جيدها» أي عنقها، «حبل من مسد» قال الفراء[2] : «هي السلسلة التي في النار»[3].

وقد حطَّمت هذه السورة كبرياء أبي لهب وامرأته، يدل على ذلك تصرفهما بعد نزول السورة. أما أبو لهب فعزّم على ولديه «عُتبة» و «عُتيبة» أن يطلقا ابنتي رسول الله ـ ﷺ ـ «رقية» و «أم كلثوم» اللتين كانتا تحتهما[4] وأما أم جميل فقد رأت أن تنتقم من رسول الله ـ ﷺ ـ فحال الله بينها وبينه. روى الحاكم عن أسماء[5] بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: (لما نزلت تبّت يدا أبي لهب أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة وفي يدها فهر[6] وهي تقول مذمماً أبينا[7]. ودينه قلينا[8]. وأمره عصينا. والنبي ـ ﷺ ـ في المسجد ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله قد أقبلت وأنا أخاف أن تراك فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: إنها لن تراني وقرأ قرآناً فاعتصم به كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ﴿٤٥﴾﴾[9]

---

(١) سورة المسد، آية (١ ـ ٥).

(٢) هو أبو زكريا، يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الكوفي النحوي صاحب الكسائي، سماه بعضهم أمير المؤمنين في النحو، وقال ثعلب: لولا الفراء لما كانت عربية ولسقطت لأنه خلصها. من أشهر كتبه: «معاني القرآن» وله كتاب «البهي» مات سنة سبع ومئتين، وله ثلاث وستون سنة، (سير أعلام النبلاء، ج ١٠/ ١١٨ وما بعدها).

(٣) معاني القرآن لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء (عالم الكتب ـ بيروت ـ الثالثة ـ ١٩٨٣ م)، ج ٣/ ٢٩٩.

(٤) انظر روح المعاني للألوسي، ج ٣٠/ ٢٦٢.

(٥) هي أسماء بنت أبي بكر الصديق والدة عبد الله بن الزبير، ولدت قبل الهجرة بسبع وعشرين سنة تزوجها الزبير بن العوام وهاجرت وهي حامل منه بعبد الله، لقبت بذات النطاقين، عاشت إلى أن ولي ابنها الخلافة وشهدت قتله وماتت بعده قيل بعده بعشرين يوماً. (الإصابة، ج ٨/ ٨).

(٦) الفِهْر حجر ملء الكف، (النهاية، ج ٣/ ٤٨١).

(٧) قال القرطبي: وكانت قريش تسمي رسول الله مذمّماً، يَسبُّونه، (الجامع لأحكام القرآن، ج ٢٠/ ٢٣٥).

(٨) قلينا: بغضنا من القلى، قال الراغب: القلى: شدة البغض (المفردات، ص ٤١٢).

(٩) سورة الإسراء، آية (٤٥).

فوقَفَت على أبي بكر ولم تر رسول الله ـ ﷺ ـ فقالت يا أبا بكر إني أُخبرت أن صاحبك هجاني، فقال: لا ورب هذا البيت ما هجاك، فولّت وهي تقول قد علمت قريش أني بنت سيدها)[1] .

ثانياً: ذم القرآن لأبي جهل وتوعده بالعذاب:

يأتي أبو جهل في مقدمة المعادين للإسلام والمؤذين لرسول الله ـ ﷺ ـ وكان عدو الله قد أوقف نفسه للصد عن دين الله وفتن اتباع النبي ـ ﷺ ـ كما قال ابن اسحاق «وكان أبو جهل إذا سمع بالرجل قد أسلم وله شرف ومنعة أنّبه وخزّاه[2]، وقال تركت دين أبيك وهو خير منك، لَنُسفهنّ حلمك ولنُفَيِّلَنَّ رأيك[3] ولنضعن شرفك، وإن كان تاجراً قال: والله لنُكسدَنّ تجارتك، ولنهلكنَّ مالك، وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به»[4].

ومن جرائمه في الصد عن سبيل الله وفتن المؤمنين وإيذاء الرسول ـ ﷺ ـ ما يلي:

ـ صدّه الوليد بن المغيرة عن الإسلام بافتراء الكذب[5].

ـ محاولته فتن ياسر وسمية ـ والدي عمار بن ياسر رضي الله عنهم ـ عن الإسلام، فلما عجز عن فتنهما قتلهما[6].

ـ استهزاؤه بأخبار القرآن الكريم. أخرج ابن جرير بسنده إلى ابن عباس رضي

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه وقال حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، ج ٢/ ٣٦١ وانظر تفسير القرآن العظيم، ج ٤/ ٦٠٤.

(٢) أنّبه: وبّخه وعنّفه ولامه، (اللسان، ج ١/ ٢١٦، مادة «أنب»)، خزاه: قهره (لسان العرب، مادة خزا، ج ١٤/ ٢٢٦).

(٣) لنفيلن رأيك: فيّل رأيه: ضعفه وخطأه (اللسان، ج ١١/ ٥٣٤، مادة «فيل»).

(٤) سيرة ابن هشام، ج ١/ ٣٤٢.

(٥) انظر الحادثة في ص ٢٩٣ من هذا البحث.

(٦) انظر دلائل النبوة للبيهقي، ج ٢/ ٢٨٢، السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة لمحمد أبي شهبة، (دار القلم ـ دمشق ـ الأولى ـ ١٤٠٩ هـ)، ج ١/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣.

الله عنهما قال: (لما سمع أبو جهل (عليها تسعة عشر)[1] قال لقريش: ثكلتكم أمهاتكم أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدَّهم[2] أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؟! فأوحي إلى رسول الله ـ ﷺ ـ أن يأتي أبا جهل فيأخذ بيده في بطحاء مكة فيقول له أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى، فلما فعل ذلك به رسول الله ـ ﷺ ـ قال أبو جهل والله لا تفعل أنت وربك شيئاً فأخزاه الله يوم بدر)[3].

وكان يقول إن محمداً يعدنا أن في جهنم الزقّوم، وإنما هو الثريد بالزبد والتمر، فتوعّده الله بقوله: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝ ﴾[4] قال القرطبي: (ومعنى «طعام الأثيم» أي ذي الإثم الفاجر، وهو أبو جهل)[5]. كما ذمّه الله وحقره بقوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝ ﴾[6]. روى ابن جرير عن قتادة قال: (نزلت في أبي جهل (خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم)[7] فقال أبو جهل: ما بين جبليها رجل أعز ولا أكرم مني فقال الله عز وجل: ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾)[8]. قال القرطبي رحمه الله: (أي يقول له الملك: ذق إنك أنت العزيز الكريم بزعمك. وقيل هو على معنى الاستخفاف والتوبيخ والاستهزاء والإهانة والتنقيص، أي قال له: إنك أنت الذليل المهان)[9]

ـ تهديده رسول الله ومحاولته قتله.

روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هل يعفّر محمد وجهه[10] بين

(١) سورة المدثر، آية (٣٠).

(٢) الدُّهمة: السواد، والمراد هنا: العدد الكثير (اللسان، ج ١٢/ ٢٠٩، مادة «دهم»، وانظر النهاية، ج ٢/ ١٤٥).

(٣) جامع البيان، ج ٢٩/ ١٠٠.

(٤) سورة الدخان، آية (٤٣ ـ ٤٤).

(٥) الجامع لأحكام القرآن، ج ١٦/ ١٥٠.

(٦) سورة الدخان، آية (٤٩).

(٧) سورة الدخان، آية (٤٧).

(٨) جامع البيان، ج ٢٤/ ٨٠، وانظر: أسباب نزول القرآن للواحدي، ص ٢٩٨، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٦/ ١٥١، الدر المنثور، ج ٧/ ٤١٩.

(٩) الجامع لأحكام القرآن، ج ١٦/ ١٥١.

(١٠) المراد هل يسجد ويلصق وجهه بالتراب.

أظهركم؟ قال: فقيل نعم. فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته أو لأعفّرن وجهه في التراب. قال فأتى رسول الله - ﷺ - وهو يصلي زعم ليطأ على رقبته. قال فما فجئهم[1] منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتّقي بيديه. قال فقيل له: ما لك؟ فقال إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة. فقال رسول الله - ﷺ -: «لو دنا مني لأختطفته الملائكة عضواً عضواً». قال فأنزل الله عز وجل - لا ندري(*) في حديث أبي هريرة أو شيء بلغه - ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾[2][3]. وهذه الآيات قد حطمت كبرياء أبي جهل كله، إذ كان يتفاخر بكثرة أعوانه قائلاً: «والله إنك لتعلم ما بها ناد أكثر مني، فلما أنزل الله ﴿فليدع ناديه سندع الزبانية﴾ وهم الملائكة الغلاظ الشداد، انخرس وعجز عن التحدي كما قال ابن عباس: «والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله تبارك وتعالى»[4].

ثالثاً: ذم القرآن للوليد بن المغيرة وتوعّده بالعذاب:

كان الوليد أحد زعماء قريش ورؤسائها المترفين، أمده الله بزينة الحياة الدنيا فأعطاه أصناف المال ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ ﴾[5] قال ابن عباس: «كان ماله ممدوداً ما بين مكة والطائف من الإبل والخيل والغنم والبساتين الكثيرة بالطائف والأشجار والأنهار والنقد الكثير»[6] ووهب له عشرة من البنين[7] - في مجتمع يكره

---

(١) فجئهم، بكسر الجيم ويقال أيضاً فجأهم، بفتحها. لغتان: أي بغتهم، (صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٧/ ١٤٠).

(٢) سورة العلق، آية (٦ - ١٩).

(*) هذا الاستفهام من الإمام مسلم.

(٣) صحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين، باب قوله: إن الإنسان ليطغى، ج ٤/ ٢١٥٤.

(٤) سنن الترمذي، كتاب التفسير - سورة العلق ج ٥/ ٤٤٤، قال الترمذي هذا حديث حسن غريب صحيح.

(٥) سورة المدثر، آية (١٢).

(٦) التفسير الكبير، ج ٣٠/ ١٩٨.

(٧) اختُلف في عدد أولاده على أربعة أقوال، المشهور أنهم عشرة، وقيل ثلاثة عشر، وقيل اثنا عشر، وقيل سبعة عشر، (انظر زاد المسير، ج ٨/ ٤٠٥).

البنات ويعتزّ بالبنين ـ ﴿ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ ﴾[1] ذكر المفسرون أنه كان له عشرة بنين يقيمون معه لا يفارقونه ويشهدون معه المحافل والمجامع[2] وعلاوة على ذلك انتهت إليه الرياسة فلا يقطع أمر دون مشورته ورأيه، قال تعالى: ﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴾[3] (أي بسطت له الرياسة والجاه العريض حتى لقب ريحانة قريش والوحيد، أي باستحقاق الرياسة والتقدم)[4].

وبدل أن تكون هذه النعم دافعاً لشكر واهب النعم، باتباع شرعه ونصرة دينه كانت سبباً في طغيانه وبغيه، بل إنه سخّر هذه النعم لمحاربة دين الله والصد عن سبيله، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ ﴾[5] أي عنيد لآياتنا مع كوننا أنعمنا عليه بهذه النعم.

وقد ذكر القرآن مثالاً على عناده ومكابرته للحق فقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾[6]. جاء في سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن جرير بسنده إلى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ (أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ـ ﷺ ـ فقرأ عليه القرآن فكأنه رقّ له، فبلغ ذلك أبا جهل فقال أي عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً، قال: لمَ؟ قال يعطونكه فإنك أتيت محمداً تتعرض لما قبلَه، قال: قد علمت قريش أني أكثرها مالاً، قال فقل فيه قولاً يعلم قومك أنك منكر لما قال وأنك كاره له، قال فما أقول فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برَجزه مني ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله لحلاوة وإنه ليَحْطمُ ما تحته وإنه ليعلو ولا يُعلى، قال والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه، قال فدعني حتى أفكر فيه، فلما فكّر قال هذا سحر يأثره عن غيره فنزلت:

---

(١) سورة المدثر، آية (١٣).
(٢) انظر التفسير الكبير، ج ١٩٩/٣٠، الجامع لأحكام القرآن، ج ٧٠/١٩، الكشاف ج ١٥٧/٤.
(٣) سورة المدثر، آية (١٤).
(٤) الفتوحات الإلهية، ج ٤٣٧/٤.
(٥) سورة المدثر، آية (١٦).
(٦) سورة المدثر، آية (١٨ ـ ٢٥).

﴿ذرني ومن خلقت وحيداً﴾ والآيات كلها)[١].

لقد نطق عدو الله الوليد بالصدق، فاعترف بأن ما جاء به محمد ـ ﷺ ـ حق لا يشبهه شيء مما يزعمون ويصرّون على رميه به، بل لشدة إدراكه للفرق الشاسع بين القرآن وما يصفونه به قال لهم ـ في مجلس آخر محذراً: «وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً ـ أي ساحر وكاهن ومجنون وشاعر ـ إلا عُرف أنه باطل»[٢]، لكن عدو الله لم يدم على رأيه ذلك، فسرعان ما نكص على عقبيه وانتكس على رأسه بسبب تسلط شياطين الإنس والجن عليه فعاد يطعن في القرآن بما نفاه عنه مستمرئاً الباطل، عابساً باسراً[٣] قائلاً: «وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر جاء بقول هو سحر، يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته»[٤].

ولما كان هذا الإفك والبهتان الذي أطلقه عدو الله على الرسول ـ ﷺ ـ والقرآن سبباً في صد الناس عن دين الله تعالى فقد توعّده الله بأشد أنواع العذاب ووصفه بأقبح صفاته في سورتي المدثر والقلم.

ففي سورة المدثر توعّده الله بالعذاب في عدة آيات هي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ ﴾[٤] في هذه الآية تهديد عظيم للوليد وتسلية وتكريم للرسول ـ ﷺ ـ حيث أخبره سبحانه بتكفّله بالانتصاف له من عدوه الوليد. يقول الشيخ محمد صادق عرجون ـ رحمه الله ـ: «والتهديد في هذه الآية بيّن في أسلوبها المعجز بروعة بيانه مع الإيجاز المحكم، فالله تعالى يقول لنبيه

---

(١) جامع البيان، ج ٢٩/٩٨، وأخرجه الحاكم في مستدركه وقال صحيح الإسناد، ٢/٥٠٧، أسباب نزول القرآن للواحدي، ص ٤٧٦.

(٢)، (٤) سيرة ابن هشام، ج ١/ ٢٨٤.

(٣) يقول الرازي ـ رحمه الله: اعلم أن قوله «عبس وبسر» يدل على أنه كان عارفاً في قلبه صدق محمد ـ ﷺ ـ إلا أنه كان يكفر به عناداً، ويدل على ذلك أنه بعد أن تفكّر وتأمل قدّر في نفسه كلاماً فلمّا عزم أن يظهره ظهرت العبوسة في وجهه، ولو كان معتقداً صحة ذلك الكلام لفرح باستنباطه وإدراكه، ولكنه لما لم يفرح به علمنا أنه كان يعلم ضعف تلك الشبهة، إلا أنه لشدة عناده ما كان يجد شبهة أجود من تلك. فلهذا السبب ظهرت العبوسة في وجهه، (التفسير الكبير، ج ٣٠/٢٠١).

(٤) سورة المدثر، آية (١١).

ـ ﷺ ـ يسلّيه ويخفف عنه عبء ما لقي ويلقى من شدائد المحن في دعوة هؤلاء الفجار من عبيد الوثنية المادية المتهاوية، فكأنه قيل له ـ ﷺ ـ: «لا تحمّل نفسك نَصَب التفكير في صد تيار الطغيان في هذا الفاجر الأثيم، ولا يَمْتلئنَّ قلبك هماً بدفع سفاهته وغروره، ولا تُشغلنّ بالك به، وامض في طريقك هادياً مرشداً، ودعني وإياه فأنا وحدي كفيل بردعه ردعاً ينزل به نكال الآخرة والأولى»[1].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ ﴾[2] هذا وعيد من الله تعالى للوليد بأن يذيقه نوعاً خاصاً من العذاب لا يطيق الوليد تحمّله جزاء عناده وصده عن سبيل الله وجحده لنعم الله. وللمفسرين قولان حول معنى «صعوداً». ذهب بعضهم إلى أن هذا تمثيل لما يلقى من العذاب الشاق الصعب الذي لا يُطاق[3].

والقول الثاني[4] أن الصعود حقيقي، حيث يُكلف صعود صخرة ملساء فإذا صار في أعلاها حُدر في جهنم فيهوي فيها، مستدلين بحديث أخرجه الترمذي والحاكم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «الويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره، والصعود جبل في النار فيتصعّد فيه سبعين خريفاً ثم يهوي وهو كذلك»[5].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ ﴾[6] في هذه الآية يتوعّد الله الوليد بأنه سيدخله سقر كي يصطلي بنارها، وسقر ـ كما يقول ابن عباس ـ اسم للطبقة السادسة من جهنم[7].

وفي سورة القلم[8] وصف الله الوليد بن المغيرة بتسع صفات قبيحة وصَمَته

(١) كتاب «محمد رسول الله»، لمحمد الصادق عرجون ـ (دار القلم ـ دمشق ـ الأولى ـ ١٤٠٥ هـ) ج ٢/ ٢٤٠.
(٢) سورة المدثر، آية (١٧).
(٣) الكشاف، ج ٤/١٥٨.
(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن، ج ١٩/ ٧٢.
(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، ج ٢/٥٠٧، وأخرجه الترمذي في جامعه. كتاب التفسير / سورة المدثر، وقال حديث غريب ج ٥/٤٢٩.
(٦) سورة المدثر، آية (٢٦).
(٧) التفسير الكبير، ج ٣٠/ ٢٠٢.
(٨) الآيات من (١٠ ـ ١٦).

بالعار والخزي بقية عمره. يقول القرطبي ـ رحمه الله ـ بعد ذكر هذه الصفات ـ «وهذا كله نزل في الوليد بن المغيرة، ولا نعلم أن الله تعالى بلغ من ذكر عيوب أحد ما بلغه منه، فألحق به عاراً لا يفارقه في الدنيا والآخرة، كالوسم على الخرطوم»[1].

وهذه الصفات هي:

أولاً: «حلاف»: وهو كثير الحلف بالحق والباطل[2].

ثانياً: «مهين»: من المهانة وهي: القلة والحقارة، يريد القلة في الرأي والتمييز، أو أراد الكذاب لأنه حقير عند الناس[3].

ثالثاً: «همّاز»: هو العيّاب الطعّان، كما قال المبرد: هو الذي يهمز الناس، أي يذكرهم بالمكروه وأثر ذلك يظهر العيب، وعن الحسن يلوي شدقيه في أقفية الناس[4].

رابعاً: «مشاء بنميم» أي يمشي بين الناس بالنميمة، وهي نقل الكلام السيىء من بعضهم إلى بعض ليفسد بينهم[5].

خامساً: «مناع للخير» وفيه قولان:

الأول: بخيل المال، ضنين به عن الحقوق[6].

الثاني: كان يمنع أهله من الخير وهو الإسلام، كان له عشرة من البنين، وكان يقول لهم ولمن قاربهم لئن تبع دين محمد منكم أحد لا

---

(1) اختلف المفسرون في المعنِي بهذه الصفات، لكن الإمام القرطبي نقل أن معظم المفسرين على أن المعني ببعض هذه الصفات هو الوليد بن المغيرة، (انظر الجامع لأحكام القرآن، ج ١٨/ ٢٣٧) ورجح الشيخ محمد الصادق عرجون بأن المعني بهذه الصفات هو الوليد بن المغيرة، لأن سائر الأوصاف المذكورة تنطبق عليه، ولا سيما قوله تعالى: ﴿أن كان ذا مال وبنين﴾ يقول: «فإنه لم يعرف من طواغيت الوثنية في قريش بشهرته بكثرة المال والبنين مثل ما عُرف وشُهر به الوليد بن المغيرة». (انظر كتاب محمد رسول الله، لعرجون، ج ٢/ ٢٤٦).

(2) الجامع لأحكام القرآن، ج ١٨/ ٢٣٧.

(3) الكشاف، ج ٤/ ١٢٧.

(4) الكشاف، ج ٤/ ١٢٧، التفسير الكبير، ج ٢٠/ ٨٤.

(5) زاد المسير، ج ٨/ ٣٣٢، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٨/ ٢٣٢.

(6) جامع البيان، ج ٢٩/ ١٥، زاد المسير، ج ٨/ ٣٣٢.

أنفعه بشيء أبداً، فمنعهم الإسلام، فهو الخير الذي منعهم[1] وكان الوليد متصفاً بذلك كله رغم كثرة ماله.

والملاحظ أن هذه الصفات الأربع (حلّاف، همّاز، مشّاء، منّاع) جاءت على وزن «فعال» بصيغة مبالغة لتدل على كثرة اتصافه بها.

سادساً: «معتد» قال مقاتل[2] ـ رحمه الله ـ معناه أنه ظلوم يتعدى الحق ويتجاوزه فيأتي بالظلم. ويقول الرازي ـ رحمه الله ـ: «يمكن حمله على جميع الأخلاق الذميمة، يعني أنه نهاية في جميع القبائح والفضائح»[3].

سابعاً: «أثيم» صيغة مبالغة على وزن «فعيل» بمعنى كثير الآثام.

ثامناً: «عُتُل» ورد في تفسيرها أقوال كثيرة قسمها الرازي إلى مجموعتين[4]:

أ ـ أنه ذم لخَلْقه. والأقوال هي: القوي الضخم، وواسع البطن، الأكول الشروب، القوي الشديد، الغليظ الجافي، اللئيم النفس، الشديد الأشر.

ب ـ أنه ذم لأخلاقه. والأقوال هي: الشديد الخصومة، الفظ العنيف، الفاحش السيىء الخلق.

وهذه الأقوال كلها قريبة من بعض فلا تنافي بينها فيكون قد ذُمّ في خَلْقه وخُلُقه.

تاسعاً: «زنيم» وردت عن ابن عباس رضي الله عنهما أربعة أقوال في «زنيم»: [5].

---

(١) التفسير الكبير، ج ٣٠/ ٨٤.

(٢) هو مقاتل بن سليمان الأزدي الخراساني، أبو الحسن البلخي المفسر، قال الذهبي لطخ بالتجسيم مع أنه كان من أوعية العلم بحراً في التفسير، وقال ابن حجر في التقريب: رمي بالتجسيم، مات سنة خمسين ومائة، من كتبه: «نظائر القرآن» و«التفسير الكبير» و«الآيات المتشابهات» (تقريب التهذيب، ٥٤٥، طبقات المفسرين للداوودي، ج ٢/ ٣٣٠ وما بعدها).

(٣) التفسير الكبير، ج ٣٠/ ٨٤.

(٤) التفسير الكبير، ج ٣٠/ ٨٤، وانظر زاد المسير، ج ٨/ ٣٣٢.

(٥) زاد المسير، ج ٨/ ٣٣٣.

الأول: إنه الدّعي في قريش وليس منهم، قال ابن الجوزي: وهذا معروف في اللغة أن الزنيم: هو الملتصق في القوم وليس منهم.

الثاني: إنه الذي يعرف بالشَّرِّ، كما تعرف الشاة بزنمتها.

الثالث: إنه الذي له زنمة مثل زنمة الشاة.

الرابع: إنه الظلوم.

ويمكن الجمع بين هذه الأقوال بالقول بأن الوليد كان متصفاً بكل هذه الصفات، فقد كان دعياً ملصقاً بقريش ولم يكن منهم، كما كان مشهوراً بالسوء والظلم بالإضافة إلى اتصافه بالعيب الجسمي.

ويبدو أن الصفتين الأخيرتين متلازمتان في الوجود، فالزنيم عتل، والعتل زنيم، إذ هما جماع الرذائل والقبائح، ففي صحيح مسلم جاء في وصف أهل النار قوله ـ ﷺ ـ: **«ألا أخبركم بأهل النار؟ قالوا: بلى، قال: كل عُتُلٍّ جواظ[1] مستكبر»** وفي رواية أخرى: **«كل جواظ زنيم متكبر»**[2] فعبر عن كل منهما بالأخرى بل قرن بين الصفتين في حديث رواه أحمد عن عبد الرحمن بن غنم قال[3]: قال رسول الله: **«لا يدخل الجنة الجوّاظ والجعظري[4] والعتل الزنيم»**[5].

---

(١) الجوّاظ: هو الجَمُوع المَنُوع، وقيل كثير اللحم المختال في مشيته، وقيل القصير البَطِين (شرح صحيح مسلم، ج ١٧/ ١٨٨، وانظر النهاية، ج ١/ ٣١٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون، ج ٤/ ٢١٩٠.

(٣) هو عبد الرحمن بن غنم الأشعري، اختُلف في صحبته، فأثبت له الصحبة البخاري وابن لهيعة والليث بن سعد وقال ابن يونس: كان ممن قدم على رسول الله من اليمن في السفينة. وذكره ابن سعد وابن حبان في ثقات التابعين، وقيل وُلد في عهد النبي ـ ﷺ ـ ولم يسمع منه. قال الذهبي ويحتمل أن تكون له صحبة، وساق ابن حجر بعض أحاديثه ثم قال وهذا يدل على صحة استماعه، مات سنة ثمان وسبعين، (الإصابة، ج ٤/ ١٧٨، سير أعلام النبلاء، ج ٤/ ٤٥، تهذيب التهذيب، ج ٦/ ٢٥٠).

(٤) الجعظري: على وزن الجعفري: الفظ: الغليظ المتكبر، (النهاية، ج ١/ ٢٧٦).

(٥) مسند أحمد، ج ٤/ ٢٢٧ قال صاحب الفتح الرباني لترتيب مسند أحمد ـ أحمد عبد الرحمن البنا، (دار الشهاب ـ القاهرة)، وإسناده حسن، ج ١٩/ ٢٢٧.

وفسّر النبي ـ ﷺ ـ هذا المُرَكب «العتل الزنيم» بقوله: «الشديد الخَلْق المصحح، الأكول الشروب، الواجد للطعام والشراب، الظلوم للناس، الرحيب الجوف»[1] يقول القرطبي ـ رحمه الله ـ: «فهذا التفسير من النبي ـ ﷺ ـ قد أربى على أقوال المفسرين»[2].

والظاهر أن هذين الوصمين هما أشد المعايب التي ذُم بها الوليد. يقول الرازي ـ رحمه الله ـ: «وقوله «بعد ذلك» معناه أنه بعد ما عدّ له من المثالب والنقائص فهو عتل زنيم، وهذا يدل على أن هذين الوصفين وهو كونه عتلاً زنيماً أشد معايبه، لأنه إذا كان جافياً غليظ الطبع قسا قلبه واجترأ على كل معصية»[3].

وبعد وصفه بهذه الصفات ألمح إلى سبب طغيانه وجحوده، وهو اغتراره بالمال والبنون قال تعالى: ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[4] وعقّب على ذلك بذكر جريمة من جرائمه وهي وصفه للقرآن بأنه تُرّهات وأباطيل سطرها الأولون. قال تعالى: ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ ﴾[5] وختم ذكره بتوعدّه أن يذله في الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾[6] يقول القاسمي ـ رحمه الله ـ: «هذه عدَة منه تعالى بغاية إذلاله، بعد تناهي كبْره وعُجْبه وزهوه وعتوه»[7].

وهناك تناسب بين ما توعد الله به الوليد من العذاب والإذلال وبين مبالغته في إيذاء النبي ـ ﷺ ـ، فكما أن الوليد بن المغيرة كان متميزاً بين قريش بعداوته لرسول الله ـ ﷺ ـ توعده الله أن يَسمَه على أنفه بعلامة يكون بها مميزاً بين أهل النار[8] فلا

---

(١) مسند أحمد، ج ٤/ ٢٢٧.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، ج ١٨/ ٢٣٣.
(٣) التفسير الكبير، ج ٣٠/ ٨٤.
(٤) سورة القلم، آية (١٤).
(٥) سورة القلم، آية (١٥).
(٦) سورة القلم، آية (١٦).
(٧) محاسن التأويل، لمحمد جمال الدين القاسمي ـ تصحيح: محمد فؤاد عبد الباقي، (دار الفكر ـ بيروت ـ الثانية ـ ١٣٩٨ هـ)، ج ١٦/ ٢٥٦.
(٨) ذهب بعض العلماء إلى أن الوعيد تحقق في الدنيا حيث خُطم أنفه يوم بدر فظلت تلك العلامة وصمة عار على أنفه، ذكره ابن جرير بسنده إلى ابن عباس (جامع البيان، =

يخفى أمره على أحد كما لا تخفى الحيوانات الموسومة، جزاءً وفاقاً. وفي وصف أنفه بالخرطوم مبالغة في الاستخفاف به والاستهانة بشأنه حيث أنزله الله منزلة البهائم، لأن أصل الخرطوم للخنزير والفيل، يقول الرازي ـ رحمه الله ـ: «وعبر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة، لأن السمة على الوجه شَين، فكيف على أكرم موضع من الوجه؟!»[1]. وقال أيضاً: «إن ذلك الكافر، إنما بالغ في عداوة الرسول وفي الطعن في الدين الحق بسبب الأنفة والحمية، فلما كان منشأ هذا الإنكار هو الأنفة والحمية، كان منشأ عذاب الآخرة هو هذه الأنفة والحمية، فعبر عن هذا الاختصاص بقوله: (سنسمه على الخرطوم)»[2].

وأخيراً أقول، لقد كان لتحطيم هذه الرؤوس البارزة أثر في تثبيت النبي ـ ﷺ ـ، إذ إن ذم الله لهم وتوعدهم بالعذاب يعني تأييد الله رسوله في صراعه مع الباطل والذي يمثله هؤلاء الزعماء!! فالتلازم بين توعدهم وتأييده ظاهر بيّن.

المبحث الثالث

وعد الله رسوله ـ ﷺ ـ بالنصر والفتح المبين وتحقق ذلك

من صور تأييد الله رسوله في صراعه مع الباطل، نزول تلك الآيات التي كانت تَعدُه بالنصر والتمكين وتبشره بالفتح المبين. ومن الحكمة الإلهية أن هذه البشارات وهذه الوعود نزلت في أشد فترات الضعف التي عاشها المسلمون يوم كانوا يصطلون بنار العذاب والإضطهاد من قبل المشركين، وكانت حياتهم كلها خوفاً وفزعاً. ففي هذه الظروف لم يكن أحد من المسلمين ـ المضطهدين ـ يتصوّر مجرد تصوّر أن ينجو بنفسه من ظلم هؤلاء المجرمين فضلاً أن يفكر في هزيمتهم أو قهرهم ووراثة أرضهم!! ولهذا لما نزل قول الله تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝٤٥ ﴾[3] قال

= ج ١٨/٢٩) ولا مانع من اجتماع الأمرين عليه في الدنيا والآخرة مبالغة في إذلاله والانتقام منه.

(١) التفسير الكبير، ج ٨٦/٣٠.

(٢) نفس المرجع السابق.

(٣) سورة القمر، آية (٤٥).

عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لما نزلت هذه الاية جعلت أقول: أي جمع يُهزم؟! أي جمع يُغلب؟! فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله - ﷺ - يثب في درعه وهو يقول: «**سيُهزم الجمع ويولون الدبر**» فعرفت تأويلها يومئذ)[1].

أما رسول الله - ﷺ - فقد كان - منذ فجر الدعوة - واثقاً بنصر الله عالماً بسنن الله في الدعوات، لذلك كان كثيراً ما يُذكّر أصحابه - المضطهدين بهذه السنن كلما اشتد عليهم البلاء وشقّ عليهم الصبر. فمن ذلك حديث خباب - المشهور - لمّا جاء إلى النبي - ﷺ - يشكو إليه معاناتهم ويطلب منه أن يستنصر لهم، فرد عليه الرسول - ﷺ - وبكل ثقة قائلاً: «**والله ليُتمَّنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون**»[2].

ولما هاجروا إلى المدينة فراراً بدينهم وظنوا أنهم أصبحوا في مأمن من الفتن، لم تلبث أن اندلعت الحروب المسلحة ورمتهم العرب عن قوس واحدة، فتضاعف خوفهم وأصبحوا لا يبيتون إلا في السلاح ولا يصبحون إلا فيه، حتى تمنّوا أن يأتي اليوم الذي يضعون فيه السلاح[3] وفي هذه الظروف العصيبة نزلت الآيات تعدهم بالاستخلاف في الأرض والتمكين لدينهم. روى الحاكم وصححه عن أُبي بن كعب قال: «لما قدم رسول الله - ﷺ - وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة. وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه فقالوا: أتُرَون أنا نعيش حيث نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله؟! فنزل قول الله تعالى:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٥٥ ﴾[4]»[5].

---

(١) جامع البيان، ج ٢٧/ ٦٤، تفسير القرآن العظيم، ج ٤/ ٢٨٦، الدر المنثور، ج ٧/ ٦٨١.

(٢) تقدم تخريجه في ص ٢٧٩.

(٣) انظر: النبأ العظيم، ص ٤٧.

(٤) سورة النور، آية (٥٥).

(٥) مستدرك الحاكم، ج ٢/ ٤٠١، وانظر: جامع البيان، ج ١٨/ ١٢٢، أسباب نزول القرآن، ص ٣٤٢.

وروى ابن أبي حاتم عن البراء رضي الله عنه قال: (فينا نزلت هذه الآية ونحن في خوف شديد)[1].

وفي يوم الحديبية خرج المسلمون معتمرين يؤمون البيت الحرام، فمنعهم المشركون من دخوله، وبذلك لم تتحقق ـ في ذلك العام ـ رؤيا رسول الله ـ ﷺ ـ التي حدّث بها أصحابه ـ أنه رأى في منامه أنه دخل مكة هو وأصحابه وطافوا بالبيت ثم حلَق بعضهم وقصّر بعضهم[2] ـ بل على العكس من ذلك عقدوا مع المشركين معاهدة الحديبية التي وجد بعض الصحابة في نفوسهم شيئاً من بنودها، إذ أحسوا بالغبن الفاحش والظلم في شروط الصلح، وظنوا أنهم بقبولهم لها إنما يرضون بالضيم، وكان أشد الناس معارضة لبنود المعاهدة: عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى قال لرسول الله ـ ﷺ ـ «فعلام نعطي الدنية في ديننا»[3] كما ظهر تألم عامة الصحابة بالموقف ـ كذلك ـ عندما تباطؤوا في تنفيذ أمر رسول الله ـ ﷺ ـ عندما قال لهم: «قوموا فانحروا ثم احلقوا» ـ ثلاث مرات ـ فما قام أحد حتى أشارت عليه أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ أن يخرج إليهم ولا يكلم أحداً حتى ينحر هديه ويحلق رأسه، فلما فعل ذلك سلّموا للأمر الواقع فنحروا هداياهم وأكب بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم أن يقتل بعضاً غماً[4].

في هذه الظروف الحرجة ـ والغم يسيطر على الجميع من بنود المعاهدة، والحزن بادٍ على الجميع من عدم دخول مكة، والمنافقون استغلوا الموقف للطعن في رؤيا النبي ـ ﷺ ـ أنزل الله آية يؤيد بها رؤيا نبيه ويبشره بأربع بشارات، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾[5]

---

(١) الدر المنثور، ج ٦/ ٢١٥.

(٢) انظر الدر المنثور، ج ٧/ ٥٣٨.

(٣) انظر سيرة ابن هشام، ج ٣/ ٣٦٦، ومعنى «نعطي الدنية»، الدنية من الدني: وهو الضعيف الخسيس، والمعنى: لماذا نرضى بالخصلة المذمومة، أي لماذا نرضى بالذل والهوان، (انظر: اللسان ج ١٤/ ٢٧١، مادة «دنا» والنهاية في غريب الحديث، ج ٢/ ١٣٧).

(٤) انظر الحادثة في صحيح البخاري ـ كتاب الشروط ـ باب الشروط في الجهاد ج ٢/ ٩٧٤، وانظر زاد المعاد، ج ٣/ ٢٩٥.

(٥) سورة الفتح، آية (٢٧).

وهذه البشارات هي:

الأولى: دخولهم المسجد الحرام.

الثانية: قضاؤهم للشعيرة كاملة.

الثالثة: ضمان الأمن لهم من لحظة دخول مكة إلى مغادرتها.

الرابعة: وعدهم فتحاً قريباً[1].

ولقد أنجز الله وعده لرسوله ـ ﷺ ـ فأظهر دينه وأعزّ جنده وهزم أعداءه، وتتابع عليه النصر في المواطن، ففتح له البلاد وقلوب العباد ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

ففي بدر ـ أول معركة مسلحة بين الحق والباطل ـ تحقق وعد الله تعالى لرسوله ـ ﷺ ـ بمكة يوم أنزل عليه ﴿سيُهزم الجمع ويولون الدبر» حيث قُتل سبعون من صناديد قريش وكبرائهم. وأُسر مثل هذا العدد، وولى بعضهم الأدبار.

ولقد كانت هزيمة قريش في هذه المعركة من هذه الفئة القليلة المستضعفة صدمة عنيفة، زلزلت كيان قريش وخسفت بمكانتهم السياسية وأذهبت هيبتهم من قلوب العرب على نقيض ما أرادوا[2]. لذلك امتنّ الله على عباده بهذا النصر، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾[3] وأطال القرآن الحديث عن هذه المعركة ـ لأهميتها ـ وذكر تفصيلات ما جرى في أكثر من عشرين آية، ذكَّرهم بنعمه عليهم وتأييده لهم يومئذ منها:

---

(1) اختُلف في المراد «بالفتح» فقيل: صلح الحديبية، وقيل فتح خيبر، وقيل فتح مكة، وقد استبعد ابن عطية القول بأنه «فتح مكة» لأنه لم يكن من دون دخول النبي ـ ﷺ ـ بل كان بعد ذلك بعام (المحرر الوجيز، ج ١٣/ ٤٧١ ورجح ابن جرير القول بأنه صلح الحديبية وفتح خيبر كليهما، (جامع البيان، ج ٢٦/ ٦٩).

(2) لما نجت عير أبي سفيان نصحهم أبو سفيان بالرجوع فأبى أبو جهل وقال: «والله لا نرجع حتى نَرِد بدراً فنقيم عليه ثلاثاً، فننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها»، سيرة ابن هشام، ج ٢/ ٢٥٨.

(3) سورة آل عمران، آية (١٢٣).

قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾(1).

وقوله تعالى: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾(2).

وقوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾(3).

وتحقق نصر الله يوم الأحزاب، يوم تكالبت قبائل العرب على المدينة في أكبر تجمّع عرفته العرب، وأحاطوا بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم، وتواطأ معهم اليهود والمنافقون في الداخل لاستئصال الرسول ـ ﷺ ـ ومن معه، فأعز الله جنده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، إذ أرسل عليهم ريحاً وجنوداً لم يرها المسلمون، كما قال تعالى ممتناً عليهم:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾(4).

وبذلك رد الله كيد أعدائه في نحورهم، قال تعالى: ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾(5).

---

(1) سورة الأنفال، آية (٩ ـ ١٢).
(2) سورة الأنفال، آية (١٧).
(3) سورة الأنفال، آية (٢٦).
(4) سورة الأحزاب، آية (٩).
(5) سورة الأحزاب، آية (٢٥).

كما عاقب الله اليهود على خيانتهم بقتلهم واستئصالهم من المدينة، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾[1].

وإذا كانت غزوة بدر قد أذهبت هيبة قريش، فإن هزيمة الأحزاب قد أدخلت الرّعب في نفوس العرب قاطبة من جيش رسول الله - ﷺ - مما جعل الرسول - ﷺ - يقول حين هُزمت الأحزاب: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا نحن نسير إليهم»[2].

وتحقق نصر الله كذلك بصلح الحديبية - الذي حسبه بعض المسلمين ضيماً وظلماً - وعدّه الله فتحاً مبيناً، إذ أنزل عليه وهو قافل إلى المدينة ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ ﴾[3]. روى الإمام أحمد والحاكم عن مُجَمِّع بن جارية الأنصاري[4] رضي الله عنه قال؛ أقبلنا مع رسول الله - ﷺ - من الحديبية حتى بلغ رسول الله - ﷺ - كراع الغميم[5] فإذا الناس يرسمون[6] نحو رسول الله - ﷺ - فقال بعض الناس لبعض ما للناس قالوا أوحى إلى رسول الله - ﷺ - فقال بعض الناس فحرّكنا حتى وجدنا رسول الله - ﷺ - عند كراع الغميم واقفاً، فلما اجتمع عليه الناس قرأ عليهم: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ فقال بعض الناس[7]: أو فتح هو؟! قال: «والذي نفسي بيده إنه

---

(١) سورة الأحزاب، آية (٢٦ - ٢٧).

(٢) صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب غزوة الخندق، ج ٤/ ١٥٠٩.

(٣) سورة الفتح، آية (١).

(٤) هو مجمع بن جارية الأنصاري الأوسي، أحد من جمع القرآن على عهد رسول الله إلا اليسير منه. كان أبوه جارية ممن اتخذ مسجد الضرار، وكان مجمع يصلي بهم فيه إماماً حتى أُحرق، لذلك رفض عمر بن الخطاب في خلافته أن يسمح له في الإمامة قائلاً: أليس كان إماماً للمنافقين؟ فدافع عن نفسه بقوله: والله الذي لا إله إلا هو ما علمت من أمرهم فأذن له بعد ذلك وبعثه إلى الكوفة ليعلمهم القرآن الكريم. مات في خلافة معاوية (الإصابة، ج ٦/ ٤٦، تهذيب التهذيب، ١٠/ ٤٧).

(٥) موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة، وهو واد أمام عسفان بثمانية أميال، (معجم البلدان، ج ٤/ ٤٤٣).

(٦) أي يذهبون إليه سراعاً (اللسان ج ١٢/ ٢٤٢ مادة «رسم»).

(٧) رُوي أن القائل هو عمر بن الخطاب، (الجامع لأحكام القرآن، ج ١٦/ ٢٦١).

لفتح»[1] حقاً لقد كان فتحاً بل من أعظم الفتوح التي حققها الله لرسوله ـ ﷺ ـ. كما قال ابن شهاب الزهري[2] عن هذا الفتح: «ما فتح الله في الإسلام فتحاً كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة وضعت الحرب وأمن الناس كلهم بعضهم بعضاً، فالتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، فلقد دخل تينك السنتين في الإسلام مثل من كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر»[3]. زاد القرطبي ـ رحمه الله ـ «ويدلك على ذلك أنهم كانوا سنة ست يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة، وكانوا بعد عام الحديبية سنة ثمان في عشرة آلاف».

وبعد ثمان سنوات من هجرة الرسول ـ ﷺ ـ من مكة مكرهاً مستضعفاً، تحقق وعد الله له يوم أنزل عليه في طريق هجرته مواسياً: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾[4]. قال ابن عباس: إلى مكة[5] فعاد إليها يوم الفتح فاتحاً مظفراً منهياً بذلك سلطان الشرك في مكة، ومحطماً كل العقبات التي كانت تحول بين الناس وبين الدخول في دين الله، فدخل الناس في دين الله أفواجاً ـ بمن فيهم من بقي من صناديد قريش.

وفي خلال سنتين من هذا الفتح دانت له الجزيرة وأطرافها وأظهر الله دينه على الدين كله، وتحقق وعد الله له بالكامل يوم أنزل عليه بمكة مسلياً قوله تعالى:

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي، ج ٢/ ٤٥٩، أحمد في المسند، ج ٣/ ٤٢٠ وانظر تفسير القرآن العظيم، ج ٤/ ١٩٧.

(٢) هو محمد بن مسلم بن شهاب الزهري من بني زهرة بن كلاب، أحد الأئمة الأعلام وعالم الحجاز والشام كان رأساً في علم الحديث، وهو أول من دون الحديث استجابة لأمر عمر بن عبد العزيز، قال عنه الليث ما رأيت عالماً أجمع من ابن شهاب ولا أكثر علماً منه. يحفظ نحواً من ألفي حديث، سمع من عبد الله بن عمر وأنس وجابر وغيرهم وروى عن عطاء بن أبي رباح وعمر بن عبد العزيز وغيرهم. مات في رمضان سنة خمس وعشرين ومائة، (سير أعلام النبلاء، ج ٥/ ٣٢٦ تهذيب التهذيب، ج ٩/ ٤٤٥).

(٣) جامع البيان، ج ٢٦/ ٦٨، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٦/ ٢٩١.

(٤) سورة القصص، آية (٨٥) وانظر لباب النقول في أسباب النزول ص ١٦٦، الدر المنثور، ج ٦/ ٤٤٥.

(٥) صحيح البخاري ـ باب «إن الذي فرض عليك القرآن» ج ٤/ ١٧٩٠، جامع البيان، ج ٢٠/ ٨٠.

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ۝٥١ ﴾[1]. وقد أجمل ابن كثير ـ رحمه الله ـ الانتصارات التي حققها الله لنبيه ـ ﷺ ـ بقوله: «وهكذا نصر الله نبيه محمداً ـ ﷺ ـ وأصحابه على من خالفه وناوأه وكذّبه وعاداه، فجعل كلمته هي العليا، ودينه هو الظاهر على سائر الأديان، وأمرَه بالهجرة من بين ظهراني قومه إلى المدينة النبوية، وجعل له فيها أنصاراً وأعواناً، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر، فنصره عليهم وخذلهم، وقتل صناديدهم، وأسر سَراتهم فاستاقهم مقرنين في الأصفاد، ثم منّ عليهم بأخذه الفداء منهم، ثم بعدٍ مدة قريبة فتح عليه مكة، فقرّت عينه ببلده، وهو البلد المحرم الحرام المشرَّف المعظَّم فأنقذه الله تعالى به مما كان فيه من الكفر والشرك، وخضعت له اليمن، ودانت له جزيرة العرب بكاملها، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، ثم قبضه الله إليه لما له عنده من الكرامة العظيمة، فأقام الله تبارك وتعالى أصحابه خلفاء بعده، فبلّغوا عنه دين الله عزّ وجل، ودعوا عباد الله تعالى إلى الله جلّ وعلا، وفتحوا البلاد والرساتيق[2] والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب، حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها، ثم لا يزال هذا الدين قائماً منصوراً ظاهراً إلى قيام الساعة»[3].

وهكذا تم تثبيت رسول الله ـ ﷺ ـ بإنزال القرآن عليه منجمّاً حيث كان القرآن ينزل عليه تارة مدافعاً وأخرى موجّهاً وثالثة مؤيداً، حتى أنجز مهمته كاملة وانتقل إلى جوار ربه راضياً مرضياً.

وفي الباب الثالث نجد بعض صور التكريم التي حظي بها رسول الله ـ ﷺ ـ في الدنيا وبعضها التي سوف يحظى بها في الآخرة.

---

(١) سورة غافر، آية (٥١).

(٢) الرساتيق جمع رستاق، فارسي معرّب: وهي السواد، (اللسان، ج ١٠/ ١١٦ مادة «رستق») والمراد بالسواد: رستاق العراق أي أرض العراق، وما حولها (معجم البلدان، ج ٣/ ٢٧٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ج ٤/ ٩٠ ـ ٩١.

الباب الثالث

إظهار القرآن الكريم مكانة النبي ﷺ وأثر ذلك في تثبيته وتكريمه

ويشتمل على خمسة فصول:

الفصل الأول: إبراز القرآن الكريم صفات الرسول ﷺ وخصائصه والثناء عليه.

الفصل الثاني: تفضيل النبي محمد ﷺ على سائر الأنبياء السابقين عليهم الصلاة والسلام.

الفصل الثالث: أمر المؤمنين طاعة النبي ﷺ.

الفصل الرابع: أمر المؤمنين الأدب مع النبي ﷺ.

الفصل الخامس: تأييده بالمعجزات وتلبية رغباته وإجابة دعائه واللطف في عتابه ﷺ.

تمهيد

عندما يتدبر الإنسان القرآن الكريم يجد عشرات الآيات التي تُشيد صراحة بمكانة النبي ﷺ وعظيم قدْره عند ربه عز وجل، كما يجد آيات أخرى تشير إلى تفضيله على سائر البشر، بمن فيهم الأنبياء السابقون عليهم السلام، سواءً في الدنيا أم الآخرة.

ولقد كان لهذه الإشارات أعظم الأثر في تكريم النبي ﷺ وتثبيته لإنجاز مهمته، ولا سيما أن هذه التزكية كانت تصدر من رب العالمين في أوقات اشتداد أذى قومه له وسفاهتهم عليه.

وسيكون الحديث في هذا الباب من خلال خمسة فصول، هي:

الفصل الأول: إبراز القرآن الكريم صفات الرسول ﷺ وخصائصه والثناء عليه.

الفصل الثاني: تفضيل النبي محمد ﷺ على سائر الأنبياء السابقين عليهم الصلاة والسلام.

الفصل الثالث: أمر المؤمنين طاعة النبي ﷺ.

الفصل الرابع: أمر المؤمنين الأدب مع النبي ﷺ.

الفصل الخامس: تأييده بالمعجزات وتلبية رغباته وإجابة دعائه واللطف في عتابه ﷺ.

الفصل الأول

إبراز القرآن الكريم صفات النبي ﷺ وخصائصه والثناء عليه

وفيه عشرة مباحث:

المبحث الأول: وصفه ﷺ بالعبودية.

المبحث الثاني: وصفه ﷺ بالخلق العظيم.

المبحث الثالث: وصفه ﷺ بالرأفة والرحمة.

المبحث الرابع: وصفه ﷺ بالسراج المنير.

المبحث الخامس: كون بعثته ﷺ منّة على المؤمنين.

المبحث السادس: كونه ﷺ خاتم النبيين.

المبحث السابع: شرح صدره ووضع وزره ورفع ذكره ﷺ.

المبحث الثامن: صلاة الله وملائكته عليه.

المبحث التاسع: ورود القسم مقترناً بذكره ﷺ.

المبحث العاشر: بيان أن النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

المبحث الأول

وصفه ﷺ بالعبودية

يُعد مقام العبودية لله هو أعلى المقامات التي يمكن أن يصل إليه الإنسان

ويتحقق به (وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته، ومن توهَّم أن المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه، أو أن الخروج عنها أكمل، فهو من أجهل الخلق بل من أضلهم، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[1] [2] فردَّ الله على من زعم أن الملائكة بنات الله ـ سبحانه ـ بقوله: ﴿بل عباد مكرمون﴾ أي إن الملائكة لا يخرجون عن كونهم عباداً لله، لكنهم عباد مكرمون لهم منازل عالية ومقامات سامية لتحقيقهم لمقام العبودية المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[3].

ولما كان الوصف بالعبودية وصفَ تكريم ومدحاً وثناءً، فقد وصف الله كل من اصطفى من عباده بالرسالة بذلك في آيات كثيرة[4].

أما رسولنا محمد ﷺ وصفه الله بالعبودية في أشرف المقامات.

فوصفه بالعبودية عند ذكر الإسراء به، قال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ﴾[5]

---

(١) سورة الأنبياء، آية (٢٦).

(٢) كتاب العبودية، لابن تيمية، ص ٨٠ (المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ الطبعة الخامسة ـ ١٣٩٩).

(٣) سورة الأنبياء، آية (٢٧).

(٤) قال تعالى في وصف إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام: ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾. ص

وقال في وصف داود عليه السلام: ﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ﴾. ص

وقال في وصف سليمان عليه السلام: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ ۚ نِعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ ﴾. ص

وقال في وصف أيوب عليه السلام: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ .. ﴾. ص

وقال عن نوح عليه السلام: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾ الإسراء.

وقال عن عيسى عليه السلام: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ ﴾ النساء.

(٥) سورة الإسراء، آية (١).

ووصفه بالعبودية أيضاً عند ذكر الإيحاء إليه، قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾[1].

ووصفه بالعبودية كذلك عند قيامه بأشرف العبادات، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ ﴾[2] إلى غير ذلك من الآيات.

المبحث الثاني

وصفه ﷺ بالخلق العظيم

لقد أكرم الله رسوله ﷺ أعظم تكريم عندما زكّاه وأثنى عليه فوصفه في كتابه العزيز بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[3] وقد بيّن الله استحقاقه[4] لهذا الوصف بعدة مؤكدات: جعل هذا الوصف جواباً للقسم في أول السورة، وأكده بحرف التوكيد «إن» وأتى بعلى الدالة على الاستعلاء والتمكن بدل كلمة «ذو».

وقد أدرك سموّ أخلاق الرسول ﷺ كل من تعامل معه أو جالسه، سواءٌ كان كافراً أم مؤمناً، صديقاً كان أو عدواً، رجلاً أم امرأة، غلاماً كان أو كهلاً، حراً كان أو عبداً، بل لقد شهدت الكتب السابقة بحسن خلقه قبل ولادته كما جاء وصفه في التوراة والإنجيل وغيرهما.

روى البخاري عن عطاء بن يسار قال: (لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال أجَلْ، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾. وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم الله به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها

---

(١) سورة النجم، آية (١٠).

(٢) سورة الجن، آية (١٩).

(٣) سورة القلم، آية (٤).

(٤) الضمير يعود على النبي ﷺ.

أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً)[1].

وقد تحقق هذا الوصف بالكامل، إذ كانت الأخلاق الحميدة سجية من سجاياه التي كانت تميزه عن غيره.

فمنذ صغره ونعومة أظفاره حفظه الله من قبائح الجاهلية ورزاياها، فلم يتدنس بدنسها، ولم يقترف شيئاً مما يخدش الحياء ـ في مجتمع لا يقيم وزناً للحياء.

يقول الإمام القرطبي رحمه الله: «حفظه الله من صغره وتولى تأديبه بنفسه ولم يكلْه في شيء من ذلك لغيره، ولم يزل الله يفعل به حتى كرّه إليه أحوال الجاهلية، وحماه منها فلم يجر عليه شيء منها، كل ذلك لُطف به وعطف عليه وجمع للمحاسن لديه»[2].

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما هممت بما كان أهل الجاهلية يهمون به إلا مرتين من الدهر، كلاهما يعصمني الله تعالى منهما. قلت ليلة لفتى كان معي من قريش في أعلى مكة في أغنام لأهلها ترعى: أبصر لي غنمي؛ حتى أسمر هذه الليلة كما تسمر الفتيان، قال نعم. فخرجت، فلما جئت أدنى دار من دور مكة سمعت غناء وصوت دفوف وزمر، فقلت ما هذا؟ قالوا فلان تزوج فلانة، لرجل من قريش تزوج امرأة، فلهوت بذلك الغناء والصوت حتى غلبتني عيني فنمت فما أيقظني إلا مس الشمس. فرجعت فسمعت مثل ذلك فقيل لي مثل ما قيل لي، فلهوت بما سمعت وغلبتني عيني؛ فما أيقظني إلا مس الشمس، ثم رجعت إلى صاحبي فقال ما فعلت؟ فقلت ما فعلت شيئاً. قال رسول الله ﷺ: فوالله ما هممت بعدها أبداً بسوء مما يعمل أهل الجاهلية حتى أكرمني الله تعالى بنبوته)[3].

وكذلك أُشتهر بالصدق والأمانة بين قومه حتى حاز على لقب الصادق الأمين،

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب البيوع ـ باب كراهية الصخب في السوق، ج ٢/٧٤٧، وانظر دلائل البيهقي، ج ١/ ٣٧٤.

(٢) فيض القدير، للمناوي، ج ١/ ٢٢٤.

(٣) أخرجه الحاكم في مستدركه، وقال صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، ج ٤/ ٢٤٥ وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٨/ ٢٢٦) وعزاه البزار، وقال: رجاله ثقات.

فاؤتمن على أنفس الأشياء وأغلاها قبل أن يُوحى إليه، فكيف بعد الوحي والرسالة؟! ورسالته ذاتها دعوة إلى مكارم الأخلاق، كما قال عليه الصلاة والسلام:

«بعثت لاتمم مكارم الأخلاق» وفي لفظ (صالح الأخلاق)[١] فكان ذلك سبباً في زيادة زكاة نفسه ورفعة خلقه. ولقد وصفته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ـ عندما سئلت عن خلقه ﷺ ـ بقولها: (كان خلقه القرآن، يرضى برضاه، ويسخط بسخطه)[٢] ومعنى هذا الكلام أن رسول الله ﷺ قد كيّف حياته على هدي القرآن الكريم، فكان ممتثلاً لكل ما يدعو إليه القرآن الكريم، مجتنباً لكل ما ينهى عنه.

وعلى هذا يمكن القول أن كل خلق ذُكر في القرآن فهو من أخلاق النبي ﷺ يستوي في ذلك ما وُصف به النبي ﷺ أو وُجّه إليه أو أمر المؤمنون به.

كقوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[٥].

وقوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه وقال صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، ج ٢/ ٦١٣ وأورده السيوطي في الجامع الصغير وعزاه إلى البخاري في الأدب والحاكم والبيهقي في الشعب ورمز له بالصحة (فيض القدير، ج ٢/ ٥٧٢).

(٢) أخرجه البيهقي بسنده في دلائل النبوة، ج ١/ ٣٠٩، وهو جزء من حديث طويل أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ـ باب جامع صلاة الليل، ج ١/ ٥١٢.

(٣) سورة الأعراف، آية (١٩٩).

(٤) سورة التوبة، آية (١٢٨).

(٥) سورة النحل، آية (٩٠ ـ ٩١).

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾[1].

ولو أردنا أن نذكر أخلاق رسول الله ﷺ على التفصيل لطال بنا المقام، لذلك أكتفي بالإشارة إلى بعض ما ذكره ألصق الناس به وأكثرهم له عِشْرة وهم أزواجه وخدمُه. فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: (ما ضرب رسول الله ﷺ بيده شيئاً قط: لا امرأة ولا خادماً، إلا أن يجاهد في سبيل الله. ولا نِيلَ منه شيء قط فينتقم من صاحبه، إلا أن يُنْتهك شيء من محارم الله تعالى فينتقم لله)[2].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (لقد خدمت رسول الله ﷺ، عشر سنين فوالله ما قال لي أُفٍّ قطُّ، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلت كذا؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا)[3].

وعنه أيضاً قال: (لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً، ولا لعاناً، ولا سباباً كان يقول عند المَعْتَبة: «ما لهُ تَرِبَ جَبِينُه»[4].

هذا غيض من فيض من أخلاق رسول الله ﷺ التي استحق عليها تزكية ربه له ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ وسيأتي مزيد تفصيل عن خلق الرحمة بصفة خاصة في المطلب التالي.

المبحث الثالث

وصفه ﷺ بالرأفة والرحمة

من المعلوم أن وصف النبي ﷺ بالرأفة والرحمة يندرج تحت وصفه بالخلق

---

(١) سورة المؤمنون، آية (١ ـ ٩).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب الفضائل ـ باب مباعدته ﷺ للآثام، ج ٤/ ١٨١٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب الفضائل ـ باب كان رسول الله أحسن الناس خلقاً، ج ٤/ ١٨٠٤.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب الأدب ـ باب ما ينهى من السباب واللعن، ج ٥/ ٢٢٤٧. وهي كلمة تجري على اللسان ولا يراد حقيقتها ونظيرها قوله: تربت يمينك وكأنها كلمة تقال للحض لا للدعاء (انظر فتح الباري، ج ١٠/ ٤٦٨).

العظيم، ولكن لاختصاص النبي ﷺ بجوانب من الرحمة لم يشاركه فيها أحد من الأنبياء السابقين، رأيت أن أفرد هذا الخلق بحديث خاص.

ذكرت في أكثر من مناسبة أن بعثة الأنبياء السابقين كانت رحمة لمن آمن بهم واتبَعهم، أما النبي ﷺ فقد شملت رحمته كل ذي كبد رطبة[1] من حيوان وإنسان، مؤمن أو كافر. فلا عجب أن يُعبِّر الرسول ﷺ عن جوهر رسالته بقوله: «**يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة**»[2] يقول المناوي رحمه الله: «أي ذو رحمة أو مبالغ في الرحمة حتى كأني عينها لأن الرحمة ما يترتب عليه النفع ونحوه، وذاته كذلك»[3].

وتبرز رحمة رسول الله ﷺ في ثلاث نواح:

أولاً: رحمته بأتباعه المؤمنين:

لقد كان أنعم الناس برحمة رسول الله ﷺ هم أتباعه الذين آمنوا به، لذلك قال الله تعالى ممتناً عليهم به: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[4].

ولقد عاش المسلمون الأولون يستظلون بظلال تلك الرحمة الوارفة وينعمون بالمحبة والمودة التي يفيض بها قلب المصطفى الكبير، وكان لهم بمنزلة الوالد العطوف، قال ﷺ: «**إنما أنا لكم بمنزلة الوالد، أعلمكم...**»[5]. يقول المناوي رحمه الله: «أي في الشفقة وفي تعليم ما لا بد منه، فكما يعلّم الأب ولده الأدب فأنا أعلمكم ما لكم وما عليكم...»[6].

---

(١) إشارة إلى حديث الرسول ﷺ والذي جاء فيه «**في كل كبد رطبة أجر**» أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب السلام، باب فضل ساقي البهائم المحترمة، ج ٤/ ١٧١٦.

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه وقال صحيح على شرطهما ووافقه الذهبي، ج ١/ ٣٥؛ وأورده السيوطي في جامعه ورمز له بالصحة، (فيض القدير، ج ٢/ ٥٧٢).

(٣) فيض القدير، للمناوي، ج ٢/ ٥٧٢.

(٤) سورة التوبة، آية (١٢٨).

(٥) أخرجه أحمد في مسنده، ج ٢/ ٢٥٠، وأبو داود في سننه ـ كتاب الطهارة، باب كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة، ج ١/ ١٨؛ وأورده السيوطي في جامعه وعزاه إلى أحمد وأبي داود والنسائي وغيرهم، ورمز له بالصحة (فيض القدير، ج ٢/ ٥٧٠).

(٦) فيض القدير للمناوي (بتصرف يسير)، ج ٢/ ٥٧٠.

ومن صور شفقته ورحمته ﷺ بأتباعه ما يلي:

١ ـ ادخاره لدعوته المستجابة لأمته يوم القيامة:

قال رسول الله ﷺ: «**لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجّل كل نبي دعوته وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة...**»[١].

٢ ـ قيامه ليلة كاملة يبكي ويدعو لأمته:

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: (صلى رسول الله ﷺ ليلة، فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها، ويسجد بها: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾[٢]. فلما أصبح قلت: يا رسول الله، ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت؟! قال: «**إني سألت ربي الشفاعة لأمتي فأعطانيها، وهي آتلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئاً**»)[٣].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ تلا قول الله في إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾[٤] وقال عيسى عليه السلام: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾[٥] فرفع يديه فقال: «**اللهم أمتي أمتي وبكى**»، فقال الله تعالى: يا جبريل اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فسَلْه ما يبكيك؟ فأتاه جبريل فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم: فقال الله: يا جبريل، اذهب إلى محمد ﷺ، فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك)[٦].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمته، ج ١/١٨٨، أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب الدعوات ـ باب لكل نبي دعوة مستجابة، ج ٥/٢٣٢٣.

(٢) سورة المائدة، آية (١١٨).

(٣) الدر المنثور، ج ٣/ ٢٤٠.

(٤) سورة إبراهيم، آية (٣٦).

(٥) سورة المائدة، آية (١١٨).

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان ـ باب دعاء النبي ﷺ لأمته وبكائه شفقة عليهم، ج ١/١٩١.

٣ ـ تجوّزه في الصلاة إذا سمع بكاء الطفل؛ حتى لا تفتن أمه:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إني لأدخل الصلاة وأنا أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبيِّ فأتجوّز في صلاتي مما أعلم من شدة وجْد أمه من بكائه**»[١].

ثانياً: رحمته بأعدائه المناوئين له:

عرفنا أن بعثة الرسل السابقين كانت رحمة لاتباعهم فقط، أي بمعنى أن الله يُنجّي الرسول وأتباعه، أما المكذبين فقد جرت سنة الله أن يصيبهم بالخسف والمسخ والهلاك... في حين أن الله عافى المكذبين لرسوله ﷺ من هلاك الاستئصال والخسف والمسخ، لكون النبي ﷺ بُعث رحمة للعالمين، مؤمنهم وكافرهم. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾[٢] يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «من آمن بالله واليوم الآخر كُتب له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عُوفي مما أصاب الأمم من الخسف والقذف»[٣].

ولقد كان رسول الله ﷺ رحيماً بأعدائه حريصاً على هدايتهم، بل كان يدعو لهم بالهداية ويأبى أن يدعو عليهم بالهلاك ويتحاشى أن يتسبب في إهلاكهم.

ومن صور رحمته بأعدائه ما يلي:

١ ـ عدم دعائه على قبيلة دوس[٤].

٢ ـ عدم قبوله عَرْض ملك الجبال بإطباق الأخشبين على المكذبين[٥].

٣ ـ عدم استجابته للمكذبين في مطالبتهم له أن يسأل ربه قلْب الصفا لهم ذهباً[٦].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب الجماعة والإمامة، باب من أخفَّ الصلاة عند بكاء الصبي، ج ١/ ٢٥٠.
(٢) سورة الأنبياء، آية (١٠٧).
(٣) جامع البيان، ج ١٧/ ٨٣.
(٤) تقدم ذكر الحديث في ص ٢٦٤ من البحث.
(٥) تقدم ذكر الحديث في ص ٢٦٥ من البحث.
(٦) تقدم ذكر الحديث في ص ٢٣٣ من البحث.

ثالثاً: رحمته بالبهائم العجماوات:

لم تقف رحمة الرسول ﷺ عند الآدميين، بل تعدت ذلك وشملت الحيوانات العجماوات؛ إذ نهى رسول الله ﷺ عن كثير من العادات الجاهلية التي كانت تسيء إلى الحيوانات وتضرّهم. ومن صور رحمته بالبهائم ما يلي:

١ ـ نهيه عن قطع اللحم من الحيوان الحي:

عن أبي واقد الليثي[١] رضي الله عنه قال: كان الناس في الجاهلية قبل الإسلام يجبون أسنمة الإبل ويقطعون إليات الغنم فيأكلونها ويحملون منها الودك[٢]، فلما قَدِم النبي ﷺ سألوه عن ذلك، فقال: **«ما قطع من البهيمة وهي حية فهو ميت»**[٣].

٢ ـ حثه على الرفق بالشاة وإراحتها عند ذبحها:

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً أضجع شاة يريد أن يذبحها وهو يحد شفرته فقال النبي ﷺ: **«أتريد أن تميتها موتات؟! هلا حددت شفرتك قبل أن تضجعها»**[٤].

وعن أبي يعلى شداد بن أوس[٥] رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله**

---

(١) اختلف في اسمه ووفاته كثيراً. فقيل اسمه الحارث بن مالك بن عوف، وقيل بن الحارث بن أسيد، أشجع بني عامر بن ليث، كان حليفاً لبني أسد، قال ابن سعد: أسلم قديماً وكان يحمل لواء بني ليث ضمرة وسعد بن بكر يوم الفتح، وقيل بل إنه من مسلمة الفتح، لذلك أنكر أبو نعيم على من قال أنه شهد بدراً، وادّعى بأن واقداً شهد على نفسه أنه كان بحنين، وقال ونحن حديثو عهد بكفر، كما نص الزهري على أنه أسلم يوم الفتح ورجحه ابن حجر. مات سنة خمس وثمانين، وقيل مات في خلافة معاوية وقيل غير ذلك. [انظر الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٧/ ٢١٢].

(٢) الودك: دَسَمُ اللحم (مختار الصحاح محمد بن أبي بكر الرازي ـ مكتبة لبنان، ١٩٨٦).

(٣) أخرجه الحاكم في مستدركه وقال صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، ج ٤/ ١٢٤.

(٤) أخرجه الحاكم في مستدركه وقال هذا صحيح على شرط البخاري وأقره الذهبي، ج ٤/ ٢٣١.

(٥) هو شداد بن أوس بن ثابت الخزرجي ابن أخي حسان بن ثابت، يكنى بأبي يعلي، قال البخاري: يقال شهد شداد بدراً ولم يصح. روى عن النبي ﷺ وعن كعب الأحبار وروى عنه إبناه يعلي ومحمد وآخرون. كانت له عبادة واجتهاد في العمل. سكن حمص ومات سنة ثمان وخمسين بفلسطين ودفن ببيت المقدس. [انظر الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٣/ ١٩٥].

كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتْلة، وإذا ذبحتهم فأحسنوا الذِبْحة، وليُحدَّ أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته»[1].

٣ ـ نهيه عن اتخاذ الحيوانات غرضاً ـ أي هدفاً:

عن عكرمة قال مر ابن عباس رضي الله عنهما بقوم قد نصبوا حمامة يرمونها، فقال: نهى رسول الله ﷺ أن يُتَّخذ الروح غرضاً[2].

٤ ـ أمره برد فراخ الطائر الملهوف على أولاده:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حُمَّرة[3] معها فرخان، فأخذنا فَرْخَيها، فجاءت الحُمَّرة، فجعلت تفرش ـ ترفرف ـ فجاء النبي ﷺ فقال: «من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها»[4].

هذه الصور غيض من فيض من رحمته ﷺ، وكلها تشهد بأن الرسول ﷺ بحق «رحمة مهداة» وسعت حتى البهائم العجماوات.

المبحث الرابع

وصفه ﷺ بالسراج المنير

من صفات الكمال التي وصف الله بها نبيه ﷺ في سورة الأحزاب وصفه

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصيد والذبائح ـ باب الأمر بإحسان الذبح والقتل، ج ٣/١٥٤٨.

(٢) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير ـ تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الثانية، ج ١١/ ٢٧٥، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد وعزاه إلى معجمي الطبراني الأوسط والكبير، وقال: وإسناده حسن؛ ج ٤/ ٣١.

(٣) الحُمَّرة: بضم الحاء وتشديد الميم وقد تخفف: طائر صغير كالعصفور [النهاية، ج ١/ ٤٣٩].

(٤) رواه أبو داود في سننه (دار الحديث للطباعة ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٨٨ هـ)، كتاب الجهاد، باب كراهية حرق العدو بالنار، ج ٣/ ١٢٥ وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (مكتب التربية العربي لدول الخليج بإشراف المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ الأولى ـ ١٤٠٩ هـ) ج ٢/ ٥٠٨.

بالسراج المنير، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ۝٤٦ ﴾[١].

وفي اللسان «السراج» هو المصباح الزاهر الذي يُسرَج بالليل[٢].

والمعلوم أن نور السراج ذاتي، بمعنى أنه يتولد من نفسه ليضيء لغيره، لذلك وصف الله الشمس بأنها سراج، لأن نورها ذاتي خلافاً للقمر الذي نوره مكتسب، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ۝١٦ ﴾[٣] ووجه الشبه بين الرسول ﷺ والسراج المنير واضح وبيّن؛ فكما أن السراج يُستضاء بنوره لإزالة الظلمات الحسية، كذلك الرسول ﷺ يهتدى به لإزالة ظلمات الجهل والكفر والضلال. يقول الزمخشري رحمه الله: «شبهه بالسراج لأن الله جلَّى به ظلمات الشرك واهتدى به الضالون، كما يُجلّى ظلام الليل بالسراج المنير ويُهتدى به»[٤].

وقد يكون المراد بهذا التشبيه بيان أن أمر الرسول ﷺ ظاهر كظهور نور الشمس لا يخفى على أحد، وهو ما ذهب إليه ابن كثير رحمه الله فقال: «أي وأمرك ظاهر فيما جئت به من الحق كالشمس في إشراقها وإضاءتها لا يجحدها إلا معاند»[٥].

وفي سورة المائدة وصفه الله بالنور، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝١٥ ﴾[٦]. فقوله: ﴿قد جاءكم من الله نور﴾ بدل من قوله: ﴿قد جاءكم رسولنا﴾ وهو بدل اشتمال؛ لأن مجيء الرسول ﷺ اشتمل على مجيء الهدى والقرآن»[٧] وهو ما ذهب إليه الزجاج[٨]

---

(١) سورة الأحزاب، آية (٤٥ ـ ٤٦).

(٢) اللسان، ج ٢/ ٢٩٧ مادة «سرج».

(٣) سورة نوح، آية (١٦).

(٤) الكشاف، ج ٣/ ٤٣٢.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ج ٣/ ٥٠٥.

(٦) سورة المائدة، آية (١٥).

(٧) تفسير التحرير والتنوير، ج ٦/ ١٥١.

(٨) هو الإمام أبو إسحاق، إبراهيم بن محمد بن السرّي الزَّجاج البغدادي، نحويٌّ زمانه لزم المبرّد، =

وقتاده، إذ فسرا النور بمحمد ﷺ[1] واختاره ابن جرير رحمه الله فقال:

«قد جاءكم من الله نور» يعني بالنور، محمداً ﷺ الذي أنار الله به الحق، وأظهر به الإسلام، ومحق به الشرك، فهو نور لمن استنار به يبيّن الحق. ومن إنارته الحق، تبينُه لليهود كثيراً مما كانوا يخفون من الكتاب»[2] ومن ثمَّ أوضحت الآية التي بعدها مهمة هذا النور الكريم في ثلاثة أمور هي:

١ - إرشاد من اتبعه إلى طريق النجاة من عذاب الله.

قال تعالى: ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾[3].

٢ - الإخراج من ظلمات الجهل والكفر إلى نور المعرفة والإيمان.

قال تعالى: ﴿ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ﴾[4].

٣ - الهداية إلى الدين الحق، وهو الإسلام.

قال تعالى: ﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾[5].

هذا وقد جمع الله لنبيه ﷺ إلى جانب النور المعنوي - نور هدايته - نوراً حسيّاً، وهو نور جماله، فقد أجمع الذين تشرفوا برؤية النبي ﷺ أنه كان وضيء الوجه، يتلألأ نور جماله كأنه القمر ليلة البدر. ويكفينا الرجوع إلى أي كتاب في الشمائل المحمدية[6] أو إلى أي باب في مناقب النبي ﷺ في كتب السنة لنقف على النصوص الكثيرة والدقيقة في وصف النبي ﷺ، ويكفي هنا ذكر ما يلي:

= فكان يعطيه من عمل الزُّجاج كل يوم درهماً، له تأليف جمّة منها: كتاب «معاني القرآن» و «القروض» و «الاشتقاق» مات سنة إحدى عشرة وثلاث مئة. (سير أعلام النبلاء، ج ١٤/ ٣٦٠).

(١) انظر: زاد المسير، ج ٢/ ٣١٩، فتح القدير للشوكاني، ج ٢/ ٢٣.

(٢) جامع البيان / شاكر، ج ١٠/ ١٤٣.

(٣) سورة المائدة، آية (١٦).

(٤) سورة المائدة، آية (١٦).

(٥) سورة المائدة، آية (١٦).

(٦) مثل كتاب «الشمائل المحمدية» للإمام الترمذي وكتاب «الوفاء بأحوال المصطفى» لابن الجوزي، وكتاب «شمائل الرسول ﷺ» لابن كثير.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ما رأيت أحسن من رسول الله ﷺ كأن الشمس تجري في وجهه»[1].

وعن جابر بن سمرة[2] رضي الله عنه قال: «رأيت رسول الله ﷺ في ليلة إضْحيان[3] وعليه حُلَّة حمراء، فجعلت انظر إليه وإلى القمر، فلهو عندي أحسن من القمر»[4].

وسأل رجل البراء[5] بن عازب: «أكان وجه رسول الله مثل السيف؟ قال لا، بل مثل القمر»[6] إلى غير ذلك من الأحاديث.

المبحث الخامس

كون بعثته ﷺ منّة على المؤمنين

كانت بعثة رسول الله ﷺ نعمة كبرى من الله عز وجل وتفضلاً منه على العالمين، إذ كان سبباً في إخراجهم من الظلمات إلى النور وهدايتهم إلى الصراط المستقيم، لذلك امتن الله عليهم ببعثته إليهم، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾[7].

---

(١) «شمائل الرسول ﷺ» لابن كثير، ص ١٥.

(٢) هو جابر بن سمرة بن جنادة بن جندب، حليف بني زهرة وأمه خالدة بنت أبي وقاص أخت سعد بن أبي وقاص، له ولأبيه صحبة، أخرج له أصحاب الصحيح، نزل الكوفة وابتنى بها داراً، توفي في ولاية بشر على العراق سنة أربع وسبعين. (الإصابة، ج ١/ ٢٢١).

(٣) إضْحِيان: أي مقمرة (النهاية، ج ٣/ ٧٨).

(٤) الشمائل المحمدية، للترمذي، ص ٢٦ (تحقيق محمد عفيف الزعبي ـ دار العلم للطباعة والنشر ـ جده ـ الأولى ـ ١٤٠٣ هـ).

(٥) هو البراء بن عازب بن الحارث بن مالك بن الأوس الأنصاري الأوسي، يكنى أبا عمارة، استُصغِر يوم بدر وشهد أحداً، وشهد مع الرسول ﷺ خمس عشرة غزوة. شهد مع علي الجمل وصفّين وقتال الخوارج، نزل الكوفة وابتنى بها داراً ومات في امارة مصعب بن الزبير وقيل سنة اثنتين وسبعين. (الإصابة، ج ١/ ١٤٧).

(٦) صحيح البخاري ـ كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، ج ٣/ ١٣٠٤.

(٧) سورة آل عمران، آية (١٦٤).

ولمّا لم ينتفع بهذه النعمة إلا أهل الإسلام لذلك خصوا بالذكر. وقد تضمنت الآية عدة أمور تؤكد منّة الله عليهم في إرسال محمد ﷺ.

الأمر الأول: أنه «من أنفسهم» أي من جنسهم البشري ويتكلم بلسانهم العربي، وفي هذا زيادة منّة على العرب بصفة خاصة، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[1]. فالذكر بمعنى الشرف، وقوم النبي ﷺ هم قريش وسائر العرب، فإنهم نالوا بالإسلام شرف الدنيا والآخرة[2].

الأمر الثاني: أنه «يتلو عليهم الكتاب» أي يقرأ عليهم القرآن الكريم، فكان سبباً في تعلمهم القراءة بعد أن كانوا أمة أمية جاهلة لا عهد لها بكتابة أو قراءة، فأكرمها الله بذلك. قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾[3].

الأمر الثالث: أنه «يزكيهم» ومعناه يطهرهم من دنس الكفر والمعاصي ومن أعراف الجاهلية وأرجاسها، فقد كان العرب، بل البشرية كلها تعيش - قبل مبعث النبي ﷺ - في مرحلة هي من أحط مراحل التاريخ البشري[4] في كل الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فضلاً عن الانحطاط الخلقي والفساد الديني. ويكفي أن أشير إلى وضع العرب يومئذ لندرك نعمة الله تعالى ببعثة هذا الرسول إليهم. ولندع جعفر* بن أبي طالب رضي الله عنه يحدثنا عن هذه الفترة، فقد قال بين يدي النجاشي رضي الله عنه: (أيها الملك كنّا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام،

---

(١) سورة الزخرف، آية (٤٤).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، ج ٤/ ٢٩.

(٣) سورة الجمعة، آية (٢).

(٤) للوقوف على الوصف الدقيق لحالة الأمم في تلك الفترة، انظر الكتاب القيم لأبي الحسن علي الندوي، «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» ص ٣٦ - ٩٤ (دار القلم - الكويت - الطبعة الثالثة، ١٤٠٢ هـ).

* هو جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ، أحد السابقين إلى الإسلام، يكبر علياً بعشر سنين، هاجر إلى الحبشة وبقي بها مع المسلمين المهاجرين حتى قدم المدينة عام خيبر. كان محباً للمساكين حتى كنّاه رسول الله أبا المساكين، استُشهد في معركة مؤتة مجاهداً للروم. (الإصابة، ج ١/ ٢٤٨).

ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القويُّ منا الضعيف فكُنَّا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده، ونعبده، ونَخْلَعَ ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدْق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرَّحم، وحُسْن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقَذْف المُحْصَنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام. . .)[1].

ولهذا ختم الله الآية بتذكيرهم بتلك الفترة التي بُعث فيها الرسول ﷺ، فقال: ﴿وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾.

الأمر الرابع: أنه «يعلمهم الكتاب والحكمة» أي يعلمهم أحكام القرآن بقوله وبفعله لذلك فسر العلماء الحكمة بالسنة، يقول الإمام الشافعي رحمه الله: «سمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة: سنة رسول الله ﷺ لأن القرآن ذُكر وأُتبعَتْهُ الحكمةُ، وذكر الله مَنَّهُ على خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة، فلم يجز ـ والله أعلم ـ أن يقال الحكمة ها هنا إلا سنَّةُ رسول الله»[2].

وظاهرٌ أن الامتنان على المؤمنين ببعثة الرسول ﷺ إليهم هو من أعظم الثناء عليه، إذ بلغ من عظمته ومكانته أن يُمتن به على المؤمنين.

المبحث السادس

كونه ﷺ خاتم النبيين

تميّز نبينا محمد ﷺ على سائر الأنبياء بكونه آخر الأنبياء والمرسلين، إذ ختم الله ببعثته الرسالات الإلهية، فلا رسول بعده ولا نبيّ، قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ . . ﴾[3].

---

(١) سيرة ابن هشام، ج ١/٣٥٨ ـ ٣٥٩.
(٢) الرسالة، للإمام الشافعي، ص ٧٨ (تحقيق العلامة أحمد شاكر، دار الكتب العلمية ـ بيروت).
(٣) سورة الأحزاب، آية (٤٠).

وقد أجمع المفسرون على أن هذه الآية نص صريح على ختم النبوات بمحمد ﷺ. يقول ابن كثير رحمه الله: «فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بالطريق الأوْلى والأحرى، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة؛ فإن كل رسول نبي ولا ينعكس»[١].

كما أكد النبي ﷺ ـ نفسه ـ هذا الأمر في أكثر من حديث، منها: قوله ﷺ: «إن لي أسماءً. أنا محمد. وأنا أحمد. وأنا الماحي الذي يمْحُو الله بي الكفر. وأنا الحاشر يُحشر الناس على قدمي. وأنا العاقب الذي ليس بعده أحد»[٢].

ومنها قوله ﷺ: «إني عبد الله وخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته...»[٣].

ولختم الرسالات برسالته ﷺ عدة مقتضيات، أهمها:

١ ـ أن تكون رسالته كاملة وتامة:

فقد أتم الله الرسالات برسالة محمد ﷺ، فلم يبق بالتالي أي حاجة[٤] إلى بعثة رسول آخر يتم رسالة النبي ﷺ، كيف وقد أنزل الله على رسوله ﷺ في يوم عرفة ـ أكبر تجمعات المسلمين لأداء شعيرة من شعائره ـ آية يمتن بها على المسلمين

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ج ٣/ ٥٠١.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الفضائل ـ باب في أسمائه ﷺ، ج ٤/ ١٨٢٨، صحيح البخاري ـ كتاب التفسير، سورة الصف، ج ٤/ ١٨٥٨.

(٣) رواه الحاكم في مستدركه وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، ج ٢/ ٦٠٠، وأخرجه البيهقي في الدلائل، ج ١/ ٨٠ وقوله: «إن آدم لمنجدل في طينته» يريد أنه كان كذلك في قضاء الله وتقديره، قبل أن يكون أبو البشر.

(٤) ذكر أبو الأعلى المودودي رحمه الله أربعة أسباب تدعو إلى إرسال نبي في أمة من الأمم. وحيث إن هذه الأسباب قد زالت ببعثة النبي ﷺ فلا حاجة للأمة الإسلامية ولا لأية أمة أخرى في العالم إلى أن يُرسل إليها نبي جديد بعد محمد ﷺ. وهذه الأسباب هي باختصار ما يلي:

أ ـ أن لا تكون هذه الأمة قد أرسل إليها نبي من قبل أو وصل إليها تعاليم نبي مبعوث في أمة غيرها.

ب ـ أن تكون تعاليم النبي المتقدم قد انمحت أو امتدت إليها يد التحريف.

جـ ـ أن لا تكون تعاليم النبي المتقدم كاملة وشاملة.

د ـ أن تقتضي الحاجة إرسال رسول مع النبي المتقدم أو بعده ليعَضده ويعزّزه، [انظر كتاب «ما هي القاديانية» لأبي الأعلى المودودي، ص ٢٠٢]. (دار القلم ـ بيروت ـ ١٤٠١ هـ).

بإكمال الدين لهم وإتمام النعمة عليهم وارتضاء الإسلام لهم ديناً، قال تعالى: ﴿ .. ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[1].

يقول ابن كثير رحمه الله: «هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون إلى دين غيره ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء وبعثه إلى الإنس والجن فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف كما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾[2] أي صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأوامر والنواهي فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة ولهذا قال تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ أي فارضوه أنتم لأنفسكم فإنه الدين الذي أحبه الله ورضيه وبعث به أفضل الرسل الكرام، وأنزل به أشرف كتبه»[3].

وقد صوّر النبي ﷺ اكتمال الرسالات ببعثته بقوله: «إن مثَلي ومَثَلَ الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتاً، فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويَعْجبون له ويقولون: هلا وُضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين»[4]. وبهذا أضحت رسالة نبينا محمد ﷺ كاملة لا يعتريها نقص، وجديده لا تحتاج إلى تطوير فللّه الحمد والمنّة.

٢ ـ أن تكون رسالته عامة وشاملة:

لا يمكن تصوّر ختم الرسالات بدون هذا المقتضى؛ ذلك أن الناس ـ في كل زمان ومكان ـ يفتقرون إلى هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فبدون تعاليمهم يعيش الناس حياة ضنك ومشقة، وحيث إن رسول الله ﷺ هو خاتم النبيين، فلا بد إذن أن تكون رسالته عامة لكل الناس، وشاملة لكل الأماكن والأزمان، قال تعالى:

---

(١) سورة المائدة، آية (٣).

(٢) سورة الأنعام، آية (١١٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ج ٢/ ١٤.

(٤) صحيح البخاري ـ كتاب المناقب ـ باب خاتم النبيين ﷺ، ج ٣/ ١٣٠٠، صحيح مسلم كتاب الفضائل ـ باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين، ج ٤/ ١٧٩٠.

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا .. ﴾[1] فرسالته ﷺ ليست محلية ولا إقليمية، ودعوته ليست قومية ولا عرقية، بل هي رسالة عالمية، ودعوة ربانية صالحة لكل الأجيال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

٣ ـ أن تكون رسالته محفوظة من التبديل والتحريف:

لمّا كان معنى خاتم النبيين: أي لا نبي يبعث بعد رسول الله ﷺ، كان لزاماً أن تظل شريعته ﷺ محفوظة من التبديل والتحريف، وقد عهد الله إلى البشر من قبل حفظ كتبه فلم يلتزموا، بل غيروا وبدّلوا، لذلك تعهد الله بحفظ القرآن من التحريف والتبديل، ولم يكله إلى أحد من البشر. قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾[2]. يقول الزمخشري رحمه الله: «وهو حافظ له في كل وقت من كل زيادة ونقصان، وتحريف وتبديل، بخلاف الكتب المتقدمة فإنه لم يتولّ حفظها، وإنما استحفظها الربانيين والأحبار، فاختلفوا فيما بينهم بغياً، فكان التحريف، ولم يكل القرآن إلى غير حفظه»[3].

المبحث السابع

إخبار القرآن الكريم بشرح صدره ووضع وزره ورفع ذكره ﷺ

أثنى الله على رسوله ﷺ في سورة الشرح ومنّ عليه بثلاث نِعَم، هي: شرح صدره، ووضع وزره، ورفع ذكره. فعن شرح صدر النبي ﷺ قال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ ﴾[4] والاستفهام هنا تقريري يُقصد به إثبات المنفي وهو شرح الصدر، أي لقد شرحنا[5] لك صدرك. ففي هذه الآية يمتن الله على عبده محمد ﷺ بأنه شرح له صدره دون سؤال أو طلب، إكراماً له وإظهاراً لمكانته عند ربه وتفضيلاً له على

---

(١) سورة الأعراف، آية (١٥٨).

(٢) سورة الحجر، آية (٩).

(٣) الكشاف، ج ٢/ ٣١١.

(٤) سورة الشرح، آية (١).

(٥) أصل الشرح في اللغة، بسط اللحم ونحوه، يقال شرحت اللحم وشرَّحتُه. والشريحة القطعة من =

سائر الأنبياء (وتفيد لام التعليل في «لك» بأن الله فعل ذلك لأجله ﷺ تكريماً له)[١] في حين أن موسى عليه السلام هو الذي طلب من ربه أن يشرح له صدره عندما أرسله إلى فرعون ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴾[٢]. وقد ذهب أكثر العلماء إلى أن الشرح المعنوي هو المقصود في الآية لا الشرح البدني[٣] وأشهر أقوالهم في ذلك ما يلي:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي شرح صدره بنور الإسلام[٤].

وقال الحسن البصري رحمه الله: شرح صدره بأن ملأه حُكْماً وعلماً[٥].

وقال سهل التستري[٦] رحمه الله: شرح صدره بنور الرسالة[٧].

وقال الزمخشري رحمه الله: ومعنى شرحنا صدرك: فسحناه حتى وسع هموم النبوة ودعوة الثقلين جميعاً، أو حتى احتمل المكاره والتي يتعرض لك بها كفار قومك وغيرهم، أو فسحناه بما أودعناه من العلوم والحكم وأزلنا عنه الضيق والحرج

= اللحم المرققة، وفي الحجاز، شرْح الصدر: أي بسطُهُ بنور إلهي وسكينة من عنده ورَوْح منه. [انظر المفردات، ص ٢٥٨، اللسان، ج ٢/ ٤٩٧].

(١) تفسير التحرير والتنوير، ج ٣٠/ ٤٠٩.

(٢) سورة طه، آية (٢٥).

(٣) القائلون بأن الشرح بدني، يفسرون قوله تعالى: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ بحادثة شق الصدر التي وقعت للنبي ﷺ. وممن قال بذلك أنس بن مالك رضي الله عنه. فقد أخرج البيهقي في الدلائل عن إبراهيم بن طهمان قال: سألت سعيداً عن قوله تعالى: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ فحدثني به عن قتادة عن أنس قال: شق بطنه من عند صدره إلى أسفل بطنه فاستخرج منه قلبه، فغسل في طست من ذهب، ثم مليء إيماناً وحكمة، ثم أعيد مكانه [دلائل النبوة للبيهقي، ج ٢/ ٦] والظاهر أن الإمام الترمذي ينحو إلى ذلك، حيث أخرج حديث شق الصدر في تفسيره لهذه السورة. (انظر جامع الترمذي ـ كتاب تفسير القرآن ـ باب «ومن سورة ألم نشرح» ج ٥/ ٤٤٢).

(٤)، (٥)، (٧) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض، ج ١/ ٦٠ [دار الفيحاء ـ عمان ـ الطبعة الثانية ـ ١٤٠٧ هـ].

(٦) هو أبو محمد سهل بن عبد الله التستري، شيخ العارفين، وأحد أئمة الزهد والورع، له مواعظ وأحوال وكرامات، سماه الذهبي: الزاهد المحدث، لقي في الحج ذا النون المصري وصحبه. مات في المحرم سنة ثلاث وثمانين ومئتين، وعاش ثمانين سنة أو أكثر. (سير أعلام النبلاء، ج ١٣/ ٣٣٠، شذرات الذهب، ج ٢/ ١٨٢).

الذي يكون مع العمى والجهل[1].

وقال الرازي رحمه الله: المراد من شرح الصدر أنه ﷺ: انفتح حتى إنه كان يتسع لجميع المهمات. لا يقلق ولا يضجر ولا يتغير، بل هو في حالتي البؤس والفرح منشرح الصدر، منشغل بأداء ما كُلّف به. والشرح: التوسعة؛ ومعناه: الإراحة من الهموم. والعرب تسمي الغم والهم ضيق الصدر، كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾[2][3].

وقال أبو حيان رحمه الله: شرح الصدر: تنويره بالحكمة، وتوسيعه لتلقي ما يوحى إليه[4].

وقال ابن كثير رحمه الله: شرحنا لك صدرك: أي نورناه وجعلناه فسيحاً رحيباً واسعاً، كقوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾[5] وكما شرح الله صدره كذلك جعل شرعه فسيحاً واسعاً سهلاً لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق[6].

وفي الحقيقة لا منافاة بين هذه الأقوال، فكلها تدور حول الانشراح والطمأنينة وتنوّر القلب بنور الرسالة، لذلك، فعلى أي معنى من هذه المعاني حملنا شرح الصدر فهو مدح وثناء لكل من اتصف بذلك.

أما الخصيصة الثانية التي امتن الله بها على رسوله ﷺ فهي: وضع وزره، قال تعالى: ﴿ووضعنا عنك وزرك﴾[7][8].

وللعلماء أقوال كثيرة[9] حول معنى الآية أشهرها ما يلي:

---

(١) الكشاف، ج ٤/ ٢٢٠.
(٢) سورة الحجر، آية (٩٧).
(٣) التفسير الكبير، ج ٣٢/ ٣.
(٤) البحر المحيط، ج ٨/ ٤٧٨.
(٥) سورة الأنعام، آية (١٢٥).
(٦) تفسير القرآن العظيم، ج ٣/ ٥٦٠.
(٧) الوَزَر: الملجأ الذي يلتجأ إليه من الجبل، والوِزرُ: الثقل، تشبيهاً بوَزر الجبل، وسمي الوزير، وزيراً لتحمله ثقل أميره وشغله. (المفردات ص ٥٢١) والوِزْر: الذنب، لثقله، وجمعها أوزار، والآثام تسمى أوزاراً لأنها أحمال تثقِله. (اللسان، ج ٥/ ٢٨٢، مادة «وزر»).
(٨) سورة الشرح، آية (٢).
(٩) ذكر الرازي في تفسيره تسعة أقوال، انظرها في ج ٣٢/ ٥٠٤.

أولاً: قال ابن عباس والحسن وقتادة وغيرهم واختاره ابن جرير: أي حططنا عنك الذي سلف في الجاهلية[1] وقد بيّن القرطبي رحمه الله أن ما سلف في الجاهلية معظم ما كان عليه قومه، وإن لم يكن عبد صنماً ولا وثناً[2].

ثانياً: قال الزجاج: المعنى أنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر[3] واختاره ابن كثير وقال هو بمعنى ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾[4][5].

ثالثاً: ذهب آخرون منهم أبو عبيدة[6] إلى أن المراد بهذا تخفيف أعباء النبوة التي يثقل القيام بها الظهر، فَسَّهل الله له ذلك حتى تيسر عليه الأمر[7] واختاره سيد قطب وبينّه بقوله: «ووضعنا عنك عبئك الذي أثقل ظهرك حتى كاد يحطمه من ثقله... وضعناه عنك بشرح صدرك له فخف وهان. وبتوفيقك وتيسيرك للدعوة ومداخل القلوب. وبالوحي الذي يكشف لك عن الحقيقة ويعينك على التسلل بها إلى النفوس في يسر وهوادة ولين»[8].

رابعاً: قال أبو حيان: هو كناية عن عصمته من الذنوب وتطهيره من الأدناس، عَبَّر عن ذلك بالحط على سبيل المبالغة في انتفاء ذلك. كما يقول القائل: رفعت عنك مشقة الزيارة، لمن لم يصدر منه زيارة على طريق المبالغة في انتفاء الزيارة منه[9].

ولعل القول الثالث أوْلَها بالصواب لأمرين:

١ - أن الآية جاءت في معرض الامتنان على الرسول ﷺ. ولا شك أن أعباء

---

(١) تفسير البغوي، ج ٤/ ٥٠١، زاد المسير، ج ٩/ ١٦٢، وانظر: جامع البيان، ج ٣٠/ ١٥٠.

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن، ج ٢٠/ ١٠٥.

(٣) زاد المسير في علم التفسير، ج ٩/ ١٦٢.

(٤) سورة الفتح، آية (٢).

(٥) تفسير القرآن العظيم، ج ٤/ ٥٦٠.

(٦) هو مَعْمر بن المثنى اللغوي البصري، مولى بن تيمْ، هو أول من صنف «غريب الحديث» كان أعلمَ من الأصمعي وأبي زيد بالأنساب والأيام. كان شعوبياً، وقيل كان يرى رأي الخوارج، تصانيفه تقارب المائتين، منها: «غريب القرآن» و «مجاز القرآن» و «معاني القرآن». ولد سنة عشر ومائة، ومات سنة تسع ومائتين وقد قارب المائة [طبقات المفسرين، ج ٢/ ٣٢٦].

(٧) زاد المسير في علم التفسير، ج ٩/ ١٦٣، الجامع لأحكام القرآن، ج ٢٠/ ١٠٦.

(٨) في ظلال القرآن، ج ٦/ ٣٩٢٩.

(٩) البحر المحيط، ج ٨/ ٤٨٨.

النبوة ـ من تلَقي الوحي وتبليغه والتزكية والتعليم، ومواجهة الباطل ودحره، وتَحمّل التكذيب والسخرية والاستهزاء. . . ـ من أثقل المهمات وأصعب الأمور. لذلك فامتنان الله عليه بسبب تسهيل مهماته وتوفيقه أقرب لمقاصد السورة وموضوعاتها[1] من غيره.

٢ ـ أن الله وصف الوِزرَ بقوله: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ ﴾[2] ونقض[3] الظهر إنما يكون بسبب الحمل الثقيل حسياً، وكذلك معنوياً لا يليق بذلك الوصف إلا الشيء العظيم وأعباء الرسالة أولى بهذا الوصف.

أما الخصيصة الثالثة فهي: رفع ذكره، قال تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ ﴾[4] وهذه الخصيصة من أعظم نعم الله التي تُظهر مكانة رسوله عنده، إذ رفع ذكره في الدنيا والآخرة. وحَسْبه رفعة لمكانته، اقتران اسمه باسم الله عز وجل في شهادة التوحيد. وقد ذكر المفسرون عدة معاني لرفع ذكره ﷺ ولا منافاة بينها، أهمها ما يلي:

أولها: قال ابن عباس رضي الله عنه: «يقول له لا ذكرتُ إلا ذكرتَ معي في الآذان والإقامة والتشهد، ويوم الجمعة على المنابر، ويوم الفطر، ويوم الأضحى، وأيام التشريق، ويوم عرفة، وعند الجمار، وعلى الصفا والمروة، وفي خطبة النكاح، وفي مشارق الأرض ومغاربها، ولو أن رجلاً عَبَدَ الله جلّ ثناؤه وصدّق بالجنة والنار وكل شيء، ولم يشهد أن محمداً رسول الله لم ينتفع بشيء، وكان كافراً[5] ونحواً من هذا ما قاله قتادة رحمه الله، قال: «رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادي أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله»[6].

---

(١) انظر في ظلال القرآن، ج ٦/ ٣٩٢٩، صفوة التفاسير، ج ٣/ ٥٧٥.

(٢) سورة الشرح، آية (٣).

(٣) النقيض هو الصوت ويكون لمفاصل الإنسان والفراريج والعقرب والضفدع. . .، يقال تنقضت عظامه، إذا صوّتت وانقض الحِمْل ظهره: ثقله وجعله يُنْقِضُ من ثِقله، أي يصوِّتُ [اللسان؛ ج ٧/ ٢٤٣].

(٤) سورة الشرح، آية (٤).

(٥) الجامع لأحكام القرآن، ج ٢٠/ ١٠٦.

(٦) تفسير البغوي، ج ٤/ ٥٠٢.

ثانيها: قال القرطبي رحمه الله: «أي أعْلَيْنا ذكرك، فذكرناك في الكتب المنزلة على الأنبياء قبلك، وأمرناهم بالبشارة بك، ولا دين وإلا دينُك يظهر عليه»[1].

ثالثها: قيل: رفعنا ذكرك عند الملائكة في السماء، وفي الأرض عند المؤمنين، ونرفع في الآخرة ذكرك بما نعطيك من المقام المحمود وكرائم الدرجات[2].

رابعها: قيل: رفعه بأخْذ ميثاقه على النبيين وإلزامهم الإيمان به والإقرار بفضله[3].

خامسها: قال الطاهر بن عاشور رحمه الله: «جعل ذكره بين الناس بصفات الكمال، وذلك بما نزّل من القرآن ثناء عليه وكرامة. وبإلهام الناس التحدث بما جبله الله عليه من المحامد منذ نشأته»[4].

المبحث الثامن

صلاة[5] الله وملائكته على النبي ﷺ

شرّف الله رسوله وبيّن منزلته للعالمين عندما أخبرهم في كتابه الخالد بأنه سبحانه يصلي عليه وكذلك ملائكته، ومن ثم أمر المؤمنين بالصلاة عليه قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾[6]، فالمقصود من الآية إظهار علو مكانة النبي ﷺ في الملأ الأعلى.

(١)، (٢) الجامع لأحكام القرآن، ج ٢٠/ ١٠٧.

(٣) تفسير البغوي، ج ٤/ ٥٠٢.

(٤) تفسير التحرير والتنوير، ج ٣٠/ ٤١١.

(٥) أصل الصلاة في اللغة: الدعاء لقوله تعالى: «وصل عليهم» (التوبة/ ١٠٣) أي: ادع لهم، وقيل الصلاة في اللغة: مشتركة بين الدعاء والتعظيم والرحمة والبركة (المصباح المنير في غريب الحديث الكبير للرافعي، لأحمد محمد الفيومي ـ دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨ هـ ج ١/ ٤٠٩) ويقول الجرجاني: (.. والصلاة أيضاً: طلب التعظيم لجانب الرسول ﷺ في الدنيا والآخرة) كتاب التعريفات للشريف الجرجاني، ص ١٣٤، (دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٣ هـ).

(٦) سورة الأحزاب، آية (٥٦).

يقول ابن كثير رحمه الله: «والمقصود من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه»[١].

وقد دل أسلوب القرآن الكريم على أن هذه الصلاة مستمرة ومتجددة، حيث أتى بصيغة الفعل المضارع في قوله: «يصلون» والتي تفيد التجدد والاستمرار.

وللعلماء عدة أقوال في المراد بصلاة الله على نبيه ﷺ، أشهرها ما يلي:

القول الأول: صلاة الله: رحمته، وصلاة الملائكة: الدعاء. وهو قول أكثر العلماء، وقد نقل عن المبرد وابن عطية والقرطبي وغيرهم[٢].

القول الثاني: صلاة الله: مغفرته، وصلاة الملائكة: الاستغفار. وهو قول مقاتل[٣].

القول الثالث: صلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة: الدعاء. قاله أبو العالية[٤].

القول الرابع: الصلاة بمعنى: البركة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: إن الله وملائكته يباركون على النبي ﷺ. واختاره ابن جرير[٥] قال ابن حجر ومعناه: أي يدعون له بالبركة، فيوافق قول أبي العالية، لكنه أخص منه[٦].

وقد أورد ابن القيم رحمه الله هذه الأقوال الأربعة في كتابه[٧] وضعف القول الأول والثاني ذاكراً خمسة عشر وجهاً لتضعيفه لهما[٨].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ج ٣/ ٥١٤.
(٢) انظر الشفا، ج ٢/ ١٣٧، المحرر الوجيز، ج ١٢/ ١١٢، الجامع لأحكام القرآن، ج ٤/ ٢٣٢.
(٣) انظر فتح القدير للشوكاني، ج ٤/ ٣٠١.
(٤) تفسير البغوي، ج ٣/ ٥٤٢، الشفا، ج ٢/ ١٣٨.
(٥) انظر الشفا، ج ٢/ ١٣٧، جامع البيان، ج ٢٢/ ٣١.
(٦) فتح الباري، ج ٨/ ٣٩٣.
(٧) جلاء الأفهام في الصلاة على خير الأنام (تحقيق: طه يوسف شاهين، دار القلم ـ بيروت، وكالة المطبوعات ـ الكويت، الطبعة الثانية ـ ١٩٨١ م).
(٨) انظر: جلاء الأفهام، ص ٧٨ ـ ٨٤.

وقال عن القول الرابع: «وهذا لا ينافي تفسيرها بالثناء وإرادة التكريم والتعظيم، فإن التبريك من الله يتضمن ذلك، ولهذا قُرن بين الصلاة والتبريك عليه»[1] [2].

ورجّح القول الثالث أثناء رده على القولين الأولين كما رجحه الإمام شمس الدين السخاوي[3] في كتابه[4].

ولعله من المناسب أن أذكر وجهين لتضعيف ابن القيم رحمه الله للقولين الأولين وترجيحه لهذا القول. يقول رحمه الله:

«(أحدها) أن الله سبحانه فرق بين صلاته على عباده ورحمته فقال: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[5] فعطف الرحمة على الصلاة فاقتضى ذلك تغايرهما، هذا أصل العطف»[6].

(الثاني): «إن الله سبحانه فرق بين صلاته وصلاة ملائكته وجمعهما في فعل واحد، فقال: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾ وهذه الصلاة لا يجوز أن تكون هي الرحمة، وإنما هي ثناؤه سبحانه وثناء ملائكته عليه»[7].

أما أمر المؤمنين بالصلاة على الرسول ﷺ في الآية، فالمراد به الصلاة التي

---

(١) يقصد في الصلاة الإبراهيمية.

(٢) جلاء الأفهام، ص ٨٤.

(٣) هو الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، نسبة إلى سخا قرية من قرى مصر، ولد في ربيع الأول سنة ٨٣١ هـ برع في الفقه والعربية والقراءة والحديث، سمع الكثير من شيخه الحافظ ابن حجر العسقلاني، جاور المدينة إلى أن توفي بها في شعبان سنة ٩٠٣ هـ من تصانيفه: «فتح المغيث بشرح ألفيه العراقي»، «المقاصد الحسنة في بيان الأحاديث المشتهرة على الألسنة» (انظر: شذرات الذهب، ج ٨/ ١٥).

(٤) «القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع»، ص ١٣ (دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٧ هـ).

(٥) سورة البقرة، آية (١٥٥ ـ ١٥٧).

(٦) جلاء الأفهام، ص ٧٨.

(٧) جلاء الأفهام، ص ٧٩.

علمنا رسول الله ﷺ كيف نصلي عليه[1]. وهي طلب المزيد من الثناء من الله عز وجل لرسوله ﷺ. وقد ذهب إلى هذا القول ابن القيم رحمه الله حيث قال: «الصلاة المأمور بها فيها هي الطلب من الله ما أخبر به عن صلاته وصلاة ملائكته، وهي ثناء عليه وإظهار لفضله وشرفه وإرادة تكريمه وتقريبه. فهي تتضمن الخبر والطلب وسمي هذا السؤال والدعاء منا نحن صلاة عليه لوجهين:

(أحدهما): أنه يتضمن ثناء المصلي عليه والإشادة بذكر شرفه. وفضله والإرادة والمحبة كذلك من الله تعالى. فقد تضمنت الخبر، والطلب.

(والوجه الثاني): أن ذلك سمي منا صلاة لسؤالنا من الله أن يصلي عليه. فصلاة الله عليه ثناؤه وإرادته لرفع ذكره وتقريبه وصلاتنا نحن عليه سؤالنا الله تعالى أن يفعل ذلك به»[2].

المبحث التاسع

ورود القسم مقترناً بذكره ﷺ

من أساليب القرآن الكريم لإظهار مكانة رسول الله ﷺ ورود القسم مقترناً بذكره ﷺ، لأن القسم من الأساليب البيانية المستخدمة لتأكيد أمر أو نفيه، أو للإشعار بعظمة المقسم به، أو لبيان رفعة منزلة المُقسم به عند المُقسم، وللتحبب وتطيب خاطر المقسم له. . .[3].

وأبرز أنواع القسم الدالة على رفعة النبي ﷺ ومكانته عند ربه، إقسام الله بحياته

---

(1) كما في حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه وغيره قال: خرج علينا رسول الله ﷺ. فقلنا: قد عرفنا كيف نسلم عليك. فكيف نصلي عليك؟ قال «قولوا: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد. كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد. اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد. كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد (صحيح مسلم كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد، ج ١/ ٣٠٥).

(٢) جلاء الأفهام، ص ٨٠ ـ ٨١.

(٣) انظر: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله، لعبد الرحمن حبنكة الميداني، ص ٤٦٣ (دار القلم ـ دمشق ـ الطبعة الثانية ـ ١٤٠٩ هـ).

ﷺ في قوله تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾[١] وذلك لأن (المتعارف بين العقلاء أن الأقسام لا تقع إلا على المعظّمين والمبجّلين والمكرّمين، فتبين بهذا جلالة الرسول ﷺ وتعظيم أمره)[٢].

والمفسرون متفقون على أن المقسم بحياته في الآية هو الرسول محمد ﷺ. يقول ابن القيم رحمه الله: «أكثر المفسرين من السلف والخلف ـ بل لا يعرف عن السلف فيه نزاعٌ ـ أن هذا قسم من الله بحياة رسول الله ﷺ. وهذا من أعظم فضائله أن يقسم الرب عز وجل بحياته، وهذه مزية لا تعرف لغيره»[٣] وقد ورد عن غير واحد من السلف أن الله ما أقسم بحياة أحد غير رسول الله محمد ﷺ.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ما خلق الله تعالى وما ذرأ[٤] وما برأ[٥] نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله تعالى أقسم بحياة أحد غيره»[٦].

وقال العز بن عبد السلام[٧] رحمه الله «والإقسام بحياة المُقسَم بحياته يدل على شرف حياته وعزتها عند المُقسِم بها، وأن حياته ﷺ لجديرة أن يُقسم بها لما فيها من البركة العامة والخاصة، ولم يثبت هذا لغيره ﷺ»[٨].

---

(١) سورة الحجر، آية (٧٢).

(٢) دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني، ج ١/٦٣ (تحقيق: محمد رواس قلعه جي، وعبد البر عباس ـ دار النفائس ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ـ ١٤٠٦ هـ).

(٣) التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، ص ٣١٠ (تحقيق: طه يوسف شاهين ـ مكتبة ابن تيمية).

(٤) ذرأ: خلق، وكأن الذرء مختص بخلق الذرية، (اللسان، ج ١/٧٩، النهاية، ج ٢/١٥٦).

(٥) برأ: من برأ الله الخلق أي خلقهم ومنه اسم الله البارىء: المصور، وهو الذي خلق الخلق لا عن مثال (اللسان، ج ١/٣١).

(٦) الشفا، ج ١/٨٧.

(٧) هو عبد العزيز بن عبد السلام الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء لمواقفه الجريئة مع الحكام ولد ونشأ في دمشق سنة ٥٧٧ هـ تولى الخطابة والتدريس بزاوية الغزالي، ثم الخطابة بالجامع الأموي، توفي بالقاهرة سنة ٦٦٠ هـ، ومن كتبه، «قواعد الشريعة» و «قواعد الأحكام في إصلاح الأنام»، (انظر: الأعلام، ج ٤/٢١).

(٨) بداية السُوْل في تفضيل الرسول ﷺ، للعز بن عبد السلام، ص ٣٧ (تحقيق: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ـ المكتب الإسلامي ـ دمشق ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة ـ ١٤٠٦ هـ).

ومن أنواع القسم المقترن بذكره ﷺ إقسام الله له في عدة مناسبات:

أقسم الله له في صدر سورة القلم بـ «ن» و «القلم» و «ما يسطرون» لينفي عنه ما رماه به المبطلون بالجنون.

فقال تعالى: ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ ﴾[1].

بل وأكد نفي التهمة عنه بجعل جواب القسم قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾[2].

ومعلوم بالبداهة أن الخُلق المستقيم ينافي الجنون، فكيف بأكمل الخُلق وأعظمه؟!!

وأقسم الله له في صدر سورة الضحى بـ «الضحى» و «الليل» لنفي الإشاعة التي أثيرت بأن الله قلاه ـ أي أبغضه ـ عندما تأخر عنه الوحي وفتر، فأنزل الله عليه: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾[3]. بل تعدى الأمر إبطال الشبهة إلى وعد الله له بعطاء جزيل يرضى عنه ﷺ. قل تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥ ﴾[4].

وأقسم الله له في صدر سورة النجم بـ «النجم» لينفي عنه الضلالة والغواية واتباع الهوى، وليؤكد للمكذبين تلقّيه الوحي عن جبريل عليه السلام عن رب العالمين.

فقال تعالى: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ﴾[5].

وأقسم الله في صدر سورة يس بالرسول ﷺ وبالقرآن الحكيم على أنه مرسل حقاً من عنده، وبأنه على صراط مستقيم. قال تعالى: ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ

---

(١) سورة القلم، آية (١ ـ ٢).
(٢) سورة القلم، آية (٤).
(٣) سورة الضحى، آية (١ ـ ٣)، وانظر: أسباب نزول القرآن للواحدي، ص ٤٨٩.
(٤) سورة الضحى، آية (٥).
(٥) سورة النجم، آية (١ ـ ٥).

﴿لِمَنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝﴾[١].

يقول القرطبي رحمه الله: «أقسم الله تعالى باسمه وكتابه أنه لمن المرسلين بوحيه إلى عباده، وعلى صراط مستقيم»[٢].

ويقول النقاش[٣]: «لم يقسم الله تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا له ﷺ»[٤].

المبحث العاشر

بيان أن النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم

لقد بوأ الله رسوله منزلة عاليةً في نفوس المؤمنين إذ جعله أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وتبعاً لمكانته عدّ الله نساءه أمهات للمؤمنين، فقال تعالى:

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ . . ﴾[٥].

وذكر ابن كثير رحمه الله سبب استحقاق النبي ﷺ لهذه المنزلة الرفيعة التي أنزله الله إياها، فقال: «قد علم الله تعالى شفقة رسوله ﷺ على أمته ونصحه لهم فجعله أولى بهم من أنفسهم وحكمه فيهم كان مقدماً على اختيارهم لأنفسهم»[٦].

---

(١) سورة يس، آية (١ ـ ٥).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ج ١٥/ ٥.

(٣) هو العلامة المفسّر، شيخ القراء، أبو بكر محمد بن الحسن الموصلي البغدادي النّقاش. ولد سنة ست وستين ومئتين، كان في القراءات أقوى منه في الروايات، اعتمد الداني في «التيسير» على رواياته للقراءات. من مؤلفاته: «شفاء الصدور» في التفسير، و «الإشارة في غريب القرآن» و «القراءات بعللها». توفي سنة إحدى وخمسين وثلاث مئة. (سير أعلام النبلاء، ج ١٥/ ٥٧٣).

(٤) الشفا، ج ١/ ٩٠.

(٥) سورة الأحزاب، آية (٦).

(٦) تفسير القرآن العظيم، ج ٣/ ٤٧٦.

كيف لا يستحق رسول الله ﷺ هذه المنزلة وهو أرحم بالناس من أنفسهم؛ نفوسهم تدعوهم إلى الهلاك وهو يدعوهم إلى النجاة. وما أروع المثل الذي ضربه ﷺ لبيان ذلك. يقول ﷺ: **«مثلي كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويعلبنّه، فيتَقَحَّمن فيها. قال: فذلكم مثلي ومثلكم أنا آخذ بحجزكم عن النار هلّم عن النار، هلّم عن النار، فتغلبوني وتقحمون فيها»**(1). كيف لا يستحق هذه المنزلة وهو - بأبي وأمي - يتحمّل الغُرْم ونتمتع نحن بالغُنْم!!.

يقول ﷺ: **«ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة»، اقرؤوا إن شئتم: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ فأيما مؤمن مات وترك مالاً فليرثه عصبته، من كانوا، ومن ترك ديناً أو ضياعاً(2) فليأتني فأنا مولاه)**(3).

وأطلق الله هذه الأولوية ولم يقيّدها بشيء محدد ليكون الرسول ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم في كل شيء.

ولهذه الأولوية مقتضيات. يقول الزمخشري رحمه الله: «يجب عليهم أن يكون أحب إليهم من أنفسهم، وحكمه أنفذ عليهم من حكمها، وحقه آثر لديهم من حقوقها، وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها، وأن يبذلوها دونه ويجعلوها فداءه إذا أعضل خطب، ووقاءه إذا لقحت حرب، وأن لا يتبعوا ما تدعوهم إليه نفوسهم، ولا ما تصرفهم عنه، ويتبعوا كل ما دعاهم إليه رسول الله ﷺ وينصرفوا عما صرفهم عنه، لأن كل ما دعا إليه فهو إرشاد لهم إلى نيل النجاة والظفر بسعادة الدارين، وما صرفهم عنه فأخذ بحجزهم لئلا يتهافتوا فيما يرمي بهم إلى الشقاوة وعذاب النار»(4).

وبناءً على هذا المقتضى قال رسول الله ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»**(5).

---

(1) تقدم تخريجه في ص ٢٦٤.

(2) الضياع: العيال. وأصله مصدر ضاع يضيع ضياعاً، فسمى العيال بالمصدر [النهاية، ج ٣/ ١٠٧].

(3) صحيح البخاري - كتاب الاستقراض، باب الصلاة على من ترك ديناً، ج ٢/ ٨٤٥.

(4) الكشاف، ج ٣/ ٢٢٨.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حبُ الرسول ﷺ من الإيمان، ج ١/ ١٤ =

ومن هذا المنطلق نهاهم الله عز وجل أن يضنوا بأنفسهم عن نفسه ﷺ. فقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ . . ﴾[1].

يقول الزمخشري رحمه الله: «أمروا بأن يصحبوه على البأساء والضراء وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط واغتباط، وأن يلقوا أنفسهم من الشدائد ما تلقاه نفسه، علماً بأنها أعزّ نفس عند الله وأكرمها عليه، فإذا تعرضت مع كرامتها وعزتها للخوض في شدّة وهول وجب على سائر الأنفس أن تتهافت فيما تعرضت له ولا يكترث لها أصحابها ولا يقيموا لها وزناً وتكون أخف شيء عليهم وأهونه، فضلاً عن أن يربئوا بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبتها يضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه، وهذا نهي بليغ مع تقبيح لأمرهم وتوبيخ لهم عليه وتهييج لمتابعته بأنفة وحمية»[2].

= وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب محبة الرسول أكثر من الأهل والولد والوالد، ج ١/ ٦٧.

(١) سورة التوبة، آية (١٢٠).

(٢) الكشاف، ج ٢/ ١٧٧.

الفصل الثاني

تفضيل النبي محمد ﷺ على سائر الأنبياء السابقين

ذكر القرآن الكريم أن الله عز وجل فاضل بين الأنبياء عليهم السلام. ففي سورة البقرة، قال تعالى: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾[١].

وقال في سورة الإسراء: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ . . ﴾[٢].

وتأكيداً لهذه المفاضلة قال رسول الله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة. وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع**»[٣].

غير أن بعض الأحاديث الصحيحة كوّنت أشكالاً مع هذا المبدأ، ومن ذلك:

قول النبي ﷺ: «**لا تفضلوا بين أنبياء الله. .**»[٤].

وفي رواية: (لا تخيروا بين الأنبياء)[٥].

---

(١) سورة البقرة، آية (٢٥٣).

(٢) سورة الإسراء، آية (٥٥).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق، ج ٤/ ١٧٨٢، وأخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في التخيير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ج ٥/ ٥١.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى ﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾، ج ٣/ ١٢٥٤، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ، ج ٤/ ١٨٤٤.

(٥) سنن أبي داود، كتاب السنة، باب في التخيير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ج ٥/ ٥١.

وقوله: (لا تخيروني على موسى)[1].

وقوله: «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى»[2].

ولقد انبرى العلماء رحمهم الله لإزالة هذا الإشكال والتوفيق بين النصوص، فوُفقوا إلى عدة أقوال: أشهرها ما يلي:

يقول ابن كثير رحمه الله: «والجواب من وجوه:

أحدها: أن هذا النهي كان قبل أن يعلم بالتفضيل.

الثاني: أن هذا قاله من باب الهضم والتواضع.

الثالث: أن هذا نهي عن التفضيل في مثل هذه الحال التي تحاكموا فيها عند التخاصم والتشاجر[3].

الرابع: لا تفضلوا بمجرد الآراء والعصبية.

الخامس: ليس مقام التفضيل إليكم وإنما هو إلى الله عز وجل وعليكم الانقياد والتسليم له والإيمان به»[4].

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب الأنبياء، باب وفاة موسى وذكره بعد، ج ٣/ ١٢٥١، وأخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ، ج ٤/ ١٨٤٤.

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾، ج ٣/ ١٢٥٥، وأخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب في ذكر يونس عليه السلام، ج ٤/ ١٨٤٦.

(٣) مناسبة ورود النهي كما رواها أبو هريرة رضي الله عنه قال: استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفى محمداً ﷺ على العالمين، في قسم يُقسم به [أي في أمر يحلف عليه]، فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم عند ذلك يده فلطم اليهودي، فذهب اليهودي إلى النبي ﷺ فأخبره الذي كان من أمره وأمر المسلم، فقال: (لا تخيّروني على موسى، فإن الناس يصعقون، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش ـ وفي رواية: «آخذ بقائمة من قوائم العرش» ـ فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي، أو كان ممّن استثنى الله) صحيح البخاري كتاب الأنبياء، باب وفاة موسى وذكره، ج ٣/ ١٢٥١.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ج ١/ ٣١١، وانظر: الشفا، ج ١/ ٤٣٩ ـ ٤٤١.

السادس: منع التفضيل في حق النبوة والرسالة، فإن الأنبياء فيها على حد واحد، إذ هي شيء واحد لا يتفاضل، وإنما التفاضل في أمور أخرى[1].

السابع: إنما نهي عن ذلك من يقول برأيه لا من يقوله بدليل، أو من يقوله بحيث يؤدي إلى تنقيص المفضول، أو يؤدي إلى الخصومة والتنازع، أو المراد لا تفضلوا بجميع أنواع الفضائل بحيث لا يترك للمفضول فضيلة[2].

الثامن: الأخبار الواردة في النهي عن التخيير إنما هي في مجادلة أهل الكتاب وتفضيل بعض الأنبياء على بعض بالمخايرة، لأن المخايرة إذا وقعت بين أهل دينين لا يؤمن أن يخرج أحدهما إلى الإزدراء بالآخر، فيفضي إلى الكفر، فأما إذا كان التخيير مستنداً إلى مقابلة الفضائل لتحصيل الرجحان فلا يدخل في النهي[3].

وكل قول من هذه الأقوال يمكن عدّه توفيقاً معقولاً للتعارض الظاهر، لكني اختار القول السابع لشموليته لمعظم الأقوال (والله أعلم).

وأهم الخصائص التي اقتضت أفضلية النبي محمد ﷺ على سائر الأنبياء والمرسلين، هي:

الأول: أخذ الميثاق على الأنبياء بتصديقه.

الثاني: تقديمه في الذكر على من تقدمه بالرسالة.

الثالث: مخاطبة الأنبياء عليهم السلام بأسمائهم وتلقيبه بالرسالة والنبوة.

الرابع: عموم رسالته ﷺ وخصوص رسالة الأنبياء السابقين.

الخامس: انفراده ﷺ على سائر الأنبياء بمقامات في الآخرة.

---

(١) ذكره القاضي عياض في الشفا (ج ١/ ٤٤١) واختاره القرطبي وانتصر له (الجامع لأحكام القرآن، ج ٣/ ٢٦٢).

(٢) ذكره ابن حجر في فتح الباري، ج ٦/ ٥١٤.

(٣) ذكره ابن حجر في الفتح ونسبه إلى الحليمي، ج ٦/ ٥١٤.

المبحث الأول

أخذ الميثاق على الأنبياء بالإيمان به ونُصرته

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾[1].

فهذه الآية ذكرت أن الله عز وجل أخذ الميثاق على جميع الأنبياء بأن يؤمنوا بمحمد ﷺ ويتبعوه وينصروه ـ إن أدركوه.

يقول علي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهما: «لم يبعث الله عز وجل نبياً، آدم فمن بعده، إلا أخذ عليه العهد في محمد: لئن بُعث وهو حيّ ليؤمنن به ولينصرنّه، ويأمرُه فيأخذ العهد على قومه»[2].

ويؤيد ما ذكراه قول النبي ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني**»[3] فأخْذ هذا الميثاق عليهم يدل على مكانته وأفضليته عليهم، حتى إن الله ليأخذ عليهم الميثاق في الأمر المفترض. يقول أبو نعيم[4] رحمه الله: «ومن فضائله: أخذُ الله الميثاق على جميع أنبيائه: إن جاءهم رسول الله آمنوا به ونصروه، فلم يكن ليدركَ أحدُ منهم الرسولَ إلا وجب عليه الإيمان به والنصرة له

---

(١) سورة آل عمران، آية (٨١).

(٢) جامع البيان/ شاكر، ج ٦/ ٥٥٥، تفسير البغوي، ج ١/ ٣٢٢، تفسير القرآن العظيم، ج ١/ ٣٨٦.

(٣) رواه أبو نعيم في دلائل النبوة، ج ١/ ٤٦، وحسنه الشيخ الألباني، انظر: مشكاة المصابيح لمحمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني (المكتب الإسلامي - بيروت ودمشق ـ الثالثة ـ ١٤٠٥ هـ) ـ كتاب الإيمان ـ باب الاعتصام بالكتاب والسنة، ج ١/ ٦٣.

(٤) هو الإمام الحافظ، الثقة، شيخ الإسلام أبو نعيم، أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني صاحب «الحلية»، ولد سنة ست وثلاثين وثلاث مئة، كان حافظاً مبرزاً عالي الإسناد، له مصنفات جليلة منها «حلية الأولياء» و «المستخرج على الصحيحين»، و «دلائل النبوة» و «تاريخ أصبهان» وغيرها. مات سنة ثلاثين وأربع مئة وله أربع وتسعون سنة. (انظر: سير أعلام النبلاء، ج ١٧/ ٤٥٣ وما بعدها).

لأخذ الميثاق منه، فجعْلهم كلّهم أتباعاً له يلزمهم الانقياد والطاعة له ـ لو أدركوه»[1].

ويقول صاحب المنار: ويكون المراد من أخْذ الميثاق عليهم بيان مرتبته ﷺ مع النبيين إذا فُرض أنه وُجد في عصرهم، فالواجب أن يكون الرئيس المتبوع لهم، فما قولك إذاً في أتباعهم لا سيما بعد زمنهم؟[2].

المبحث الثاني

تقديمه في الذكر على من تقدمه بالرسالة

الملفت للنظر عند ورود ذكر الأنبياء في القرآن الكريم ـ بصفة عامة وأولو العزم منهم بصفة خاصة، أن الله عز وجل يقدم ذكر النبي محمد ﷺ عليهم، مع أنه آخرهم بعثة.

ففي سورة النساء قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ ﴾[3].

وفي سورة الأحزاب قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ ﴾[4].

وفي سورة الشورى قال تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ . . ﴾[5] ولا شك أن لهذا التقديم دلالة على تفضيله على سائر الرسل عليهم الصلاة والسلام.

---

(١) دلائل النبوة، لأبي نعيم، ج ١/ ٤٦.
(٢) تفسير المنار (بتصرف)، ج ٣/ ٣٥١.
(٣) سورة النساء، آية (١٦٣).
(٤) سورة الأحزاب، آية (٧).
(٥) سورة الشورى، آية (١٣)، الملاحظ في هذه الآية تقديم ذكر نوح عليه السلام على نبينا محمد ﷺ، وقد اجتهد الزمخشري رحمه الله في بيان سبب ذلك فقال رحمه الله: مورد هذه الآية على طريقة خلاف طريقة تلك [آية الأحزاب] وذلك أن الله تعالى إنما أوردها لوصف دين الإسلام بالأصالة والاستقامة، فكأنه قال شرع لكم الدين الأصيل الذي بعث عليه نوح في العهد القديم، وبعث عليه محمد خاتم الأنبياء في العهد الحديث، وبعث عليه من توسط بينهما من الأنبياء المشاهير [الكشاف، ج ٣/ ٢٢٩].

روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال في كلام بكى[1] به النبي ﷺ، فقال: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عند الله أن بعثك آخر الأنبياء، وذكرك في أولهم، فقال تعالى: ﴿وإذ أخذنا من النبيّن ميثاقهم ومنك ومن نوح﴾»[2].

وقال السمرقندي[3]: «في هذا تفضيل نبينا ﷺ لتخصيصه بالذكر قبلهم وهو آخرهم بعثاً»[4].

المبحث الثالث

مخاطبة الأنبياء عليهم السلام بأسمائهم وتلقيبه بالرسالة والنبوة

من الملفت للنظر ـ كذلك ـ أن الله عز وجل ذكر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأسمائهم المجردة، سواءٌ أكان نداءً لهم أم إخباراً عنهم، في حين لقّب نبيه محمداً ﷺ عند ذكره بلقب الرسالة والنبوة، ولذلك أيضاً دلالة على تفضيله على سائر الأنبياء عليهم الصلاة وأتم التسليم. يقول أبو نعيم رحمه الله:

ومن فضائله: إخبار الله عز وجل عن إجلال قدر نبيه ﷺ، وتبجيله، وتعظيمه، وذلك أنّه ما خاطبه في كتابه، ولا أخبر عنه إلاّ بالكناية التي هي النبوة والرسالة التي لا أجلّ منها فخراً، ولا أعظم خطراً، وخاطب غيره من الأنبياء وقومهم وأخبر عنهم بأسمائهم، ولم يذكرهم بالكناية التي هي غاية المرتبة، إلاّ أن يكون الرسول ﷺ في جملتهم بمشاركته معهم في الخطاب والخبر، فأمّا في حال الإنفراد فما ذكرهم إلاّ بأسمائهم والكناية عن الاسم غايةُ التعظيم للمخاطب المُجلّل والمدعُو العظيم، لأنّ من بُلغ به غاية التعظيم كُنّي عن اسمه، إن كان ملكاً قيل له يا أيها الملك، وإن كان أميراً قيل له: يا أيها الأمير... ففضّل الله عز وجل نبيه ﷺ وبلغ به غاية الرتبة وأعالي

---

(1) أي رثى.

(2) الشفا، ج ١/١١٣.

(3) هو الإمام الكبير صاحب الأقوال المفيدة والتصانيف المشهورة المعروف بإمام الهدى أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي، نسبة إلى سمرقند، من تصانيفه: «تفسير القرآن العظيم» و«تنبيه الغافلين» و«النوازل في الفقه». توفي سنة خمس وسبعين وثلاث مئة [طبقات المفسرين للداوودي، ج ٢/٣٤٦].

(4) الشفا، ج ١/١١٤.

الرفعة فقال لنبيه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) ﴾[2].

وخاطب آدم ومن دونه من النبيين بأسمائهم وكذلك أخبر عنهم فنادى آدم عليه السلام بقوله: ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾[3] وأخبر عنه بقوله: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ (١٢١) ﴾[4] ونادى نوحاً عليه السلام بقوله: ﴿ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا .. ﴾[5] وأخبر عنه بقوله: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ ﴾[6]. ونادى إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ ﴾[7] وأخبر عنه بقوله: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ ﴾[8] ونادى موسى عليه السلام بقوله: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾[9] وأخبر عنه بقوله: ﴿ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾[10].

ونادى عيسى عليه السلام بقوله: ﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ ﴾[11] وأخبر عنه بقوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[12].

وقال مثل ذلك في هود، وصالح، وداود، وسليمان، وزكريا، ويحيى عليهم الصلاة والسلام. ويلاحظ كذلك عند ورود اسم محمد ﷺ، العلم، أنه يُوصف بالرسالة. قال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾[13] وقال تعالى:

---

(١) سورة المائدة، آية (٦٧).
(٢) سورة الأحزاب، آية (٤٥).
(٣) سورة البقرة، آية (٣٥).
(٤) سورة طه، آية (١٢١).
(٥) سورة هود، آية (٤٨).
(٦) سورة هود، آية (٤٢).
(٧) سورة هود، آية (٧٦).
(٨) سورة البقرة، آية (١٢٧).
(٩) سورة الأعراف، آية (١٤٤).
(١٠) سورة القصص، آية (١٥).
(١١) سورة المائدة، آية (١١٠).
(١٢) سورة الصف، آية (٦).
(١٣) سورة آل عمران، آية (١٤٤).

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾[2].

ولما جمع بين الخليلين سمى إبراهيم عليه السلام وكنى محمداً ﷺ فقال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ ﴾[3] فكان ذلك دليلاً على جلاله ورفعة منزلته ونباهته عنده[4].

المبحث الرابع

عموم رسالته ﷺ وخصوص رسالة الأنبياء السابقين

كانت رسالات الأنبياء السابقين رسالات قومية، تخص أقوامهم الذين أرسلوا فيهم، لذلك كان كل رسول يوجّه خطابه إلى قومه. قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾[6]
وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾[7]
وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾[8].

أما رسالة محمد ﷺ فهي رسالة عالمية شملت الإنس والجن. قال تعالى:

---

(١) سورة الأحزاب، آية (٤٠).
(٢) سورة الفتح، آية (٢٩).
(٣) سورة آل عمران، آية (٦٨).
(٤) دلائل النبوة، لأبي نعيم (بتصرف واختصار)، ج ١/ ٤٠ ـ ٤٢.
(٥) سورة الأعراف، آية (٥٩).
(٦) سورة الأعراف، آية (٦٥).
(٧) سورة الأعراف، آية (٧٣).
(٨) سورة الأعراف، آية (٨٥).

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾[١].

وقد فهم المفسرون من هذه الآية وأمثالها[٢] عالمية دعوة رسول الله ﷺ. يقول ابن جرير رحمه الله: «يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ: قل يا محمد للناس كلهم إني رسول الله إليكم جميعاً، لا إلى بعضكم دون بعض، كما كان من قبلي من الرسل مرسلاً إلى بعض الناس دون بعض. فمن كان منهم أرسل كذلك، فإن رسالتي ليست إلى بعضكم دون بعض، ولكنها إلى جميعكم»[٣].

ويقول ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ قل يا محمد: يا أيها الناس، وهذا خطاب للأحمر والأسود، والعربي والعجمي، إني رسول الله إليكم جميعاً: أي جميعكم، وهذا من شرفه وعظمته ﷺ أنه خاتم النبيين وأنه مبعوث إلى الناس كافة. . . وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى الناس كلهم»[٤].

وقد عدّ رسول الله ﷺ ـ نفسه ـ هذه الميزة إحدى الخصائص التي فُضّل بها على سائر الأنبياء والمرسلين. ففي الحديث الصحيح قال رسول الله ﷺ: «**أعطيت خمساً، لم يعطهم أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلّت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة**»[٥]. وفي رواية مسلم: (. . كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، **وبعثت إلى كل أحمر وأسود**. .)[٦].

---

(١) سورة الأعراف، آية (١٥٨).

(٢) كقوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾

(٣) جامع البيان/ شاكر، ج ١٣/ ١٧٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم (بتصرف يسير)، ج ٢/ ٢٦٥.

(٥) صحيح البخاري ـ كتاب التيمم، ج ١/ ١٢٨.

(٦) صحيح مسلم ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ج ١/ ٣٧٠.

المبحث الخامس

انفراده ﷺ عن سائر الأنبياء بمقامات في الآخرة

كما تميز رسولنا ﷺ على سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الدنيا. فقد انفرد ببعض المقامات التي ميزته في الآخرة كذلك، إلا أن معظم هذه المقامات ثبت بالأحاديث وليس بالقرآن[١].

لذلك سوف يقتصر الحديث في هذا المبحث عن ثلاثة أمور أظهر القرآن الكريم من خلالها مكانة رسول الله ﷺ في الآخرة، وهي مطالب هذا المبحث:

المطلب الأول: إعطاؤه مقاماً محموداً.

المطلب الثاني: إعطاؤه الكوثر.

المطلب الثالث: شهادته على الأمم يوم القيامة.

---

(١) من هذه المقامات الكثيرة ما يلي:
- هو أول من يبعث يوم القيامة.
- هو أول من يجيز على الصراط يوم القيامة.
- هو أول من يقرع باب الجنة.
- هو أول من يدخل الجنة.
- هو أول شافع ومشفع.
- هو سيد الأولين والآخرين يوم القيامة.
- هو إمام الأنبياء وخطيبهم يوم القيامة.
- هو أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة.
- كل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تحت لوائه يوم القيامة.

انظر تفصيلات ذلك في كتاب الشفا، الباب الثالث: فيما ورد من صحيح الأخبار ومشهورها بعظم قدره عند ربه ومنزلته وما خصه به في الدارين من كرامته ﷺ، ج ١/ ٣٢٥ وما بعدها، وانظر كذلك: كتاب «عظيم قدره ﷺ ورفعة مكانته عند ربه عز وجل» لخليل إبراهيم ملا خاطر، ص ٨٥ وما بعدها [دار القبلة للثقافة الإسلامية، المملكة العربية السعودية ـ جده ـ الطبعة الخامسة ـ ١٤٠٤ هـ].

المطلب الأول: إعطاؤه مقاماً محموداً:

وعد الله رسوله ﷺ أن يبعثه مقاماً محموداً، فقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾[1] وقد فسر جمهور الصحابة[2] المقام المحمود بأنه الشفاعة، لأنه هو المقام الذي يحمده لأجله جميع أهل الموقف. ففي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبيناهم كذلك استغاثوا بآدم عليه السلام، ثم بموسى عليه السلام، ثم بمحمد ﷺ. . . فيشفع ليُقضى بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب، فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً، يحمده أهل الجمع كلهم)[3].

وقد ورد حديث الشفاعة مطولاً عند البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ، آدم فمن سواه إلاّ تحت لوائي، وأنا أول من ينشق عنه الأرض ولا فخر».

قال: «فيفزع الناس ثلاث فزعات، فيأتون آدم فيقولون: أنت أبونا آدم فاشفع لنا إلى ربك، فيقول: إني أذنبت ذنباً أهبطت منه إلى الأرض، ولكن ائتو نوحاً، فيأتون نُوحاً فيقول: إني دعوت على أهل الأرض دعوة فأهلكوا، ولكن اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم فيقول: إني كذبت ثلاث كذبات». ثم قال رسول الله ﷺ:

«ما منها كذبة إلا ما حَلَّ[4] بها عن دين الله، ولكن ائتوا موسى، فيأتون موسى فيقول: إني قد قتلت نفساً، ولكن ائتوا عيسى، فيأتون عيسى فيقول: إني عُبدت من دون الله، ولكن ائتوا محمداً ﷺ» قال: «فيأتوني فأنطلق معهم».

---

(١) سورة الإسراء، آية (٧٩).

(٢) منهم: ابن مسعود، وابن عباس، وأبي هريرة، وابن عمر، وسلمان الفارسي، وجابر بن عبد الله، وحذيفة بن اليمان وغيرهم. [انظر: زاد المسير، ج ٥/٧٦، والدر المنثور، ج ٥/ ٣٢٤].

(٣) صحيح البخاري ـ كتاب الزكاة ـ باب من سأل الناس تكثراً، ج ٢/ ٥٣٦.

(٤) إلا ما حلَّ: أي إلا ما دافع وجال، من المحال بالكسر وهو الكيد، وقيل المكر وقيل القوة والشدة (انظر: النهاية في غريب الحديث، ج ٤/ ٣٠٣ مادة «محل»).

قال ابن جدعان[1]: (قال أنس: فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ: «فآخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها[2]،[3] فيقال من هذا؟ فيقال: محمد، فيفتحون لي ويرحبون بي، فيقولون: مرحباً، فأخر ساجداً، فيلهمني الله من الثناء والحمد، فيقال لي: ارفع رأسك وسل تعط واشفع تشفع، وقل يسمع لقولك، وهو المقام المحمود الذي قال الله: ﴿**عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً**﴾»[4].

فهذا المقام الذي سوف يقفه رسولنا محمد ﷺ لهو أوضح دليل على رفعة منزلته عند ربه.

ومما يلفت النظر في الحديث تَنَقُّل الناس من رسول إلى رسول ليشفع لهم مع أنه كان بالإمكان أن يرشدهم آدم عليه السلام منذ البداية إلى محمد ﷺ ليشفع لهم، لكن قضى الله أن يتدافع الأنبياء الشفاعة حتى تنتهي إلى محمد ﷺ ليظهر فضله على جميع الأنبياء إذ لو جاؤوا إلى رسولنا ﷺ ابتداءً وشفع لهم لما ظهرت منزلته في ذلك الموقف، ولربما ظن الناس أن أي رسول كان يمكن أن يشفع لهم فيستوون في نظرهم، لكن اعتذارهم جميعاً من دونه، هو دليل واضح على أنه سيدهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين[5].

---

(١) هو الإمام العالم الكبير أبو الحسن القرشي التيمي البصري ولد في دولة يزيد، وولد أعمى كقتادة، وكان من أوعية العلم على تشيع قليل فيه، وسوء حفظ يغضه من درجة الاتقان. مات سنة إحدى وثلاثين ومئة (انظر: سير أعلام النبلاء، ج ٥/ ٢٠٦ وما بعدها).

(٢) فأقعقعها: أي أحركها لتصوت، والقعقعة حكاية الشيء يسمع له صوت (النهاية في غريب الحديث، ج ٤/ ٨٨، مادة «قعقع»).

(٣) هذا القدر من الحديث أخذه ابن جدعان من حديث أنس لا من حديث أبي سعيد ولذا صرح به، أما قوله: فيقال من هذا.. إلى آخر الحديث فهو من حديث أبي سعيد (تحفة الأحوذي، ج ٨/ ٥٨٧).

(٤) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح وقال هذا حديث حسن صحيح، كتاب تفسير القرآن / سورة الإسراء، ج ٥/ ٣٠٨. وانظر صحيح البخاري ـ كتاب التفسير/ سورة الإسراء، ج ٤/ ١٧٤٥ وما بعدها، وصحيح مسلم ـ كتاب الإيمان ـ باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، ج ١/ ١٨٤ وما بعد

(٥) انظر كتاب الهدي النبوي في الرقائق، ص ٢٣٧، لشرف القضاة (دار الفرقان ـ عمان ـ الأردن ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٨ هـ).

المطلب الثاني: إعطاؤه الكوثر[1]:

امتن الله على رسوله ﷺ بإعطائه الكوثر، فقال تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾[2] وجاء ذكر هذه المنّة رداً على كفار قريش وتطييباً لنفس رسول الله من الكلمات الجارحة التي كان كفار قريش يطلقونها على عواهنها، لمزاً وتعييراً لرسول الله ﷺ.

فعندما مات أبناؤه الذكور عيروه بأنه أبتر ـ أي منقطع الذكر ـ فأنزل الله هذه السورة، روى الواحدي عن ابن عباس قال: نزلت في العاص بن وائل، وذلك: أنه رأى رسول الله ـ ﷺ ـ يخرجُ من المسجد، وهو يدخل، فالتقيا عند باب بني سهم، وتحدثا وأناس من صناديد قريش في المسجد جلوس. فلما دخل العاص قالوا له: من الذي كنت تحدث؟ قال: ذاك الأبتر، يعني رسول الله ﷺ. وكان قد توفي قبل ذلك عبد الله ابن رسول الله ﷺ، وكان من خديجة، وكانوا يسمُّون من ليس له ابن: أبتر. فأنزل الله تعالى هذه السورة[3].

وفي رواية: كان العاص بن وائل السهمي إذا ذكر رسول الله ﷺ قال: دعوه، فإنما هو رجل أبتر لا عقب له، لو هلك انقطع ذكره واسترحتم منه فأنزل الله السورة[4]. وقد اختلف في المراد بالكوثر على أقوال كثيرة[5] وأشهرها قولان:

الأول: أنه النهر الذي أعطيه رسول الله ﷺ في الجنة:

وهذا القول هو المشهور والمستفيض عند السلف والخلف[6] وهو قول عائشة

---

(١) كوثر: على وزن فوعل من الكثرة، والواو زائدة، ومعناه الخير الكثير (النهاية، ج ٤ /٢٠٨)
وقال ابن حجر رحمه الله: الكوثر: فوعل من الكثرة، سمي بها النهر لكثرة مائة وآنيته وعظم قدره وخيره (فتح الباري، ج ٨/ ٦٠٣).

(٢) سورة الكوثر، آية (١).

(٣) أسباب نزول القرآن، ص ٥٠٣، وانظر: تفسير البغوي، ج ٤/ ٥٣٤، والتفسير الكبير، ج ٢٢/ ١٣٢، الجامع لأحكام القرآن، ج ٢٠/ ٢٢٢.

(٤) نفس المرجع السابق.

(٥) ذكر الرازي في تفسيره خمسة عشر قولاً في المراد بالكوثر، انظر: ج ٢٢/ ١٢٤ وما بعدها.

(٦) قاله الرازي في التفسير الكبير، ج ٣٢/ ١٢٤.

وأُبيّ عمر وأنس وأبو العالية وغيرهم. وقد استُدل لهذا القول بالأحاديث الصحيحة، منها:

ما رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: بينما أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف، فقلت ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، فإذا طيبه ـ أو طينه ـ مسك أذْفَر[1].

وعن عائشة رضي الله عنها: أنها سئلت عن قوله تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ قالت: هو نهر أعطيه نبيكم ﷺ، شاطئاه عليه دُرٌّ مُجوف آنيته كعدد النجوم[2].

وعن ابن عمر قال: لما نزلت ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ قال رسول الله ﷺ: **«هو نهر في الجنة، حافتاه من ذهب، يجري على جنادل الدُّر والياقوت، شرابه أحلى من العسل وأشد بياضاً من اللبن، وأبرد من الثلج، وأطيب من ريح المسك»**[3].

الثاني: أنه الخير الذي أعطاه الله إياه:

وهو تفسير ابن عباس رضي الله عنهما، وهو تفسير موافق لأصل كلمة «كوثر» في اللغة، كما ذهب إلى هذا القول جماعة من التابعين منهم: سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وقتادة وغيرهم[4].

ففي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الكوثر: هو الخير الذي أعطاه الله إياه. قال أبو بشر[5]. قلت لسعيد بن جبير: فإن الناس يزعمون

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب الرقاق ـ باب في الحوض، ج ٥/ ٢٤٠٦، أذْفَر: طيب الريح (النهاية، ج ٨/ ١٦١ مادة «ذفر»).

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ سورة الكوثر، ج ٤/ ١٩٠٠.
شاطئاه: حافتاه، در مجوف: أي القباب التي على جوانبه، آنيته: أوعيته (فتح الباري، ج ٨/ ٦٠٤).

(٣) مسند أحمد / شاكر، ج ٤/ ١٥٩، قال عنه أحمد شاكر وإسناده صحيح. جنادل: جمع جندل، وهي صخرة مثل رأس الإنسان. (لسان العرب، ج ١١/ ١٢٩، مادة «جندل»).

(٤) انظر جامع البيان، ج ٣٠/ ٢٠٩.

(٥) هو جعفر بن أبي وحشية إياس اليَشكري البَصري ثم الواسطي أحد الأئمة والحفاظ وثقه أبو =

أنه نهر في الجنة؟ قال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه إياه[١].

وهذان القولان لا تضاد بينهما وكلاهما حق إلا أن تقديم تفسير رسول الله أولى وهو اختيار جمهور المفسرين وفي مقدمتهم ابن جرير رحمه الله إذ قال: «وأولى هذه الأقوال بالصواب عندي قول من قال هو اسم النهر الذي أعطيه رسول الله ﷺ في الجنة، وصفه الله بالكثرة لعظم قدره»[٢]. ومال إلى هذا الحافظ ابن حجر رحمه الله فقال: «وحاصل ما قاله سعيد بن جبير أن قول ابن عباس إنه الخير الكثير لا يخالف قول غيره إن المراد به نهر في الجنة، لأن النهر فرد من أفراد الخير الكثير، ولعل سعيداً أومأ إلى أن تأويل ابن عباس أولى لعمومه، لكن ثبت تخصيصه بالنهر من لفظ النبي ﷺ فلا معدل عنه»[٣].

ويمكن استخلاص أوصاف هذا النهر من أحاديث القول الأول وهي:

- في جماله: «حافتاه قباب در مجوف».
- وفي كثرة أوانيه: «عدد آنيته كعدد النجوم».
- وفي طعمه: «شرابه أحلى من العسل».
- وفي لونه: «وأشد بياضاً من اللبن».

وفي حرارته: «وأبرد من الثلج».

- وفي رائحته: «وأطيب من ريح المسك».

ولتطابق أوصاف نهر الكوثر والحوض قد يُظن أن الكوثر هو الحوض، وليس كذلك لأن الكوثر يكون في الجنة كما في رواية «بينا أسير في الجنة» أما الحوض فهو خارج الجنة يذاد عنه[٤] بعض المسلمين، ولا شك أن ذلك قبل دخول الجنة. أما

= حاتم وغيره وضعفه غيره، مات سنة خمس وعشرين ومئة (انظر: سير أعلام النبلاء، ج ٥/ ٤٦٥ وما بعدها).

(١) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ سورة الكوثر، ج ٤/ ١٩٠٠.

(٢) جامع البيان، ج ٣٠/ ٢٠٩.

(٣) فتح الباري، ج ٨/ ٦٠٤.

(٤) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: أنا فرطكم على الحوض، وليرفعن =

الصلة التي بينهما فهي أن ماء الحوض مصدره الكوثر، وقد أشار إلى ذلك ابن حجر رحمه الله إذ قال: «وقوله تعالى: ﴿إن أعطيناك الكوثر﴾ أشار إلى أن المراد بالكوثر النهر الذي يصب في الحوض، فهو مادة الحوض»[1].

المطلب الثالث: شهادته على الأمم يوم القيامة:

من المقامات الجليلة التي سوف يقفها رسول الله ﷺ يوم القيامة والتي تدل على مكانته وعلو منزلته يومئذ، هو مقام الشهادة. وقد وصف الله رسوله ﷺ بصفة الشهادة ـ شاهداً وشهيداً ـ في عدة آيات منها: قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿ . . . وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ . . ﴾[5]. وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾[6].

ويظهر من الآيات السابقة أن شهادة الرسول ﷺ يوم القيامة نوعان:

١ ـ شهادة خاصة   ٢ ـ شهادة عامة.

وقد شمل قوله تعالى: ﴿. . إنا أرسلناك شاهداً﴾ النوعين كليهما إذ جعل لفظه «شاهداً» مطلقة، لذلك قال ابن عطية رحمه الله في تفسيرها: معناه: «شاهداً على أمتك بالتبليغ إليهم، وعلى سائر الأمم في تبليغ أنبيائهم»[7].

= رجال منكم ثم ليُختلَجن دوني، فأقول: يا رب أصحابي فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك (صحيح البخاري ـ كتاب الرقاق ـ باب في الحوض، ج ٥/ ٢٤٠٥).

(١) فتح الباري، ج ١١/ ٤٧٥.

(٢) سورة البقرة، آية (١٤٣).

(٣) سورة النساء، آية (٤١).

(٤) سورة النحل، آية (٨٩).

(٥) سورة الحج، آية (٧٨).

(٦) سورة الأحزاب، آية (٤٥).

(٧) المحرر الوجيز، ج ١٢/ ٨٠.

أولاً: شهادته الخاصة:

وهذه الشهادة يشترك معه فيها سائر الأنبياء عليهم السلام، إذ سيشهد كل رسول على قومه الذين أرسل إليهم، وتُحمَل الشهادة في الآيتين الثانية والثالثة على ذلك.

أما عن ماذا سيشهد الأنبياء على أممهم، فقد ذكر ابن الجوزي رحمه الله أربعة أقوال[1] للسلف في ذلك:

الأول: يشهد عليهم بأنه قد بلغ أمته.

الثاني: يشهد بإيمانهم.

الثالث: يشهد بأعمالهم.

الرابع: يشهد لهم وعليهم.

ثانياً: شهادة العامة:

وهذه شهادته يظهر من خلالها بوضوح مكانة رسول الله ﷺ، إذ ينفرد وأمته بها على سائر الأنبياء والأمم، إذ الشهادة نوع من الولاية والهيمنة، وهي المراد في الآيتين الأولى والرابعة.

وهذه الشهادة تتم عندما تَتَهم الأممُ رُسلَها بعدم تبليغهم رسالة ربهم، عندها يدلي رسولنا وأُمتّه بشهادتهم لصالح الرسل. ففي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلَّغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلَّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلَّغ»، ﴿ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾. فذلك قوله جل ذكره: ﴿وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾**[2].

وفي رواية ابن ماجة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله

---

(١) انظر: زاد المسير، ج ٢/ ٨٦.

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ سورة البقرة، ج ٤/ ١٦٣٢.

ﷺ: «يجيء النبي ومعه الرجلان، ويجيء النبي ومعه الثلاثة. وأكثر من ذلك وأقل، فيقال له: هل بلّغت قومك؟ فيقول: نعم فيُدعى قومه، فيقال: هل بلّغكم؟ فيقولون: لا. فيقال: من شهد لك؟ فيقول: محمد وأمته. فتدعى أمة محمد فيقال: هل بلغ هذا؟ فيقولون: نعم. فيقول: وما عِلْمُكم بذلك؟ فيقولون: أخبرنا نبينا بذلك أن الرسل قد بلّغوا، فصدقناه. قال: فذلكم قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾»[1].

(١) صحيح سنن ابن ماجه، للألباني، كتاب الزهد ـ باب صفة أمة محمد، ج ٢/ ٤٢٥.

الفصل الثالث

أمر المؤمنين طاعة النبي ﷺ

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: الدعوة إلى الإيمان بالرسول ﷺ.

المبحث الثاني: الدعوة إلى طاعة رسول الله ﷺ وامتثال أمره، والتحذير عن معصيته ومخالفة أمره.

المبحث الثالث: إيجاب الاقتداء والتأسي برسول الله ﷺ.

المبحث الرابع: بيان ثمار اتباع النبي ﷺ وعواقب مخالفته.

المبحث الأول

الدعوة إلى الإيمان بالرسول[1] ﷺ

الإيمان بالرسول ﷺ هو أحد أركان الإيمان، والذي تبرز من خلاله مكانة النبي ﷺ، فقد قرن الله بين الإيمان به والإيمان برسوله في آيات كثيرة ليؤكد ضرورة الإيمان بالرسول ﷺ فلا يغني الإيمان بالله عن الإيمان بالرسول ﷺ بل لا يتأتى، إذ لا طريق لمعرفة مراد الله إلا عن طريق الرسول ﷺ. يقول الإمام الشافعي رحمه الله:

(١) قال القاضي عياض: «والإيمان به ﷺ، هو تصديق نبوته ورسالة الله له، وتصديقه في جميع ما جاء به وما قاله.. ومطابقة تصديق القلب بذلك شهادةُ اللسان بأنه رسول الله ﷺ.. فإذا اجتمع التصديق به بالقلب والنطق بالشهادة بذلك باللسان تمَّ الإيمان به والتصديق له. (الشفا، ج ٢/ ١٠).

«جعل ابتداء الإيمان، الذي ما سواه تَبَع له: الإيمان بالله ثم برسوله: فلو آمن عبد به ولم يؤمن برسوله لم يقع عليه اسم الإيمان أبداً، حتى يؤمن برسوله معه»[1] ولذلك نفى الله الإيمان عمن لم يحقق الإيمان بالرسول ﷺ، فقال:

﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾[2] يستوي في ذلك كون المرء من أهل الديانات السابقة أو من أهل الأوثان، لا بد له من الإيمان بالرسول محمد ﷺ بعينه، وإلا عُدّ كافراً مهما آمن برسل الله السابقين، ومن هنا قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده! لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار»[3].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ ﴾[4]. يقول الإمام القرطبي رحمه الله: «نص سبحانه على أن التفريق بين الله ورسله كفر، وإنما كان كفراً لأن الله سبحانه فرض على الناس أن يعبدوه بما شرع لهم على ألسنة الرسل، فإذا جحدوا الرسل ردّوا عليهم شرائعهم ولم يقبلوها منهم، فكانوا ممتنعين من التزام العبودية التي أمروا بالتزامها؛ فكان كجحد الصانع سبحانه، وجحد الصانع كفر لما فيه من ترك التزام الطاعة والعبودية. وكذلك التفريق بين رسله في الإيمان بهم كفر»[5] والمراد بقوله: «نؤمن ببعض ونكفر ببعض» كل من اليهود والنصارى، إذ توقف اليهود عند الإيمان بموسى عليه السلام وكفروا بعيسى ومحمد عليهما السلام، وتوقف النصارى عند الإيمان بعيسى عليه السلام وكفروا بمحمد ﷺ. وأكد كفرهم بقوله: ﴿أولئك هم الكافرون حقاً﴾ لإزالة التوهم أنهم مؤمنون لقولهم: «نؤمن ببعض» إذ إن ذلك غير نافع لهم ولا مجدٍ. لذلك وردت آيات كثيرة تدعو أهل الكتاب وغيرهم إلى الإيمان بالرسول ﷺ. منها:

---

(١) الرسالة للشافعي (بتصرف يسير)، ص ٧٥.

(٢) سورة الفتح، آية (١٣).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ، ج ١/ ١٣٤.

(٤) سورة النساء، آية (١٥٠ ـ ١٥١).

(٥) الجامع لأحكام القرآن، ج ٦/ ٥.

دعوة اليهود والنصارى إلى الإيمان به:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٩﴾ ﴾[1].

ومنها دعوة الناس جميعاً إلى الإيمان به:

قال تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾[2].

ومنها دعوة المسلمين إلى الإيمان به:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ .. ﴾[3].

المبحث الثاني

الدعوة إلى طاعة رسول الله ﷺ وامتثال أمره والتحذير عن معصيته ومخالفة أمره

تكررت الدعوة إلى طاعة رسول الله ﷺ وامتثال أمره في آيات كثيرة جداً، وفي مناسبات مختلفة، ولعل السبب أن طاعة الرسول ﷺ هي الدليل العملي على الإيمان به، إذ لا معنى للإيمان به بدون طاعته، باتباع أمره واجتناب نهيه. قال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١﴾ ﴾[4]. فجعل آية الإيمان طاعة الله ورسوله.

وقد تنوعت أساليب القرآن الكريم في الدعوة إلى هذه الطاعة كالتالي:

---

(١) سورة المائدة، آية (١٩).

(٢) سورة الأعراف، آية (١٥٨).

(٣) سورة النساء، آية (١٣٦).

(٤) سورة الأنفال، آية (١).

أولاً: نداء المؤمنين باسم الإيمان لطاعة الرسول ﷺ.

من أساليب القرآن التربوية، عند أمْر المؤمنين بطاعة أو نهيهم عن معصية: استجاش عاطفتهم الإيمانية، حيث يناديهم بنداء التكريم الحبيب إلى نفوسهم. ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ ثم يأتي الأمر أو النهي، فكأنه يذكرهم بهذا النداء بمقتضيات الإيمان، يقول لهم يا أيها المؤمنون إن مقتضى الإيمان يدعوكم إلى فعل كذا أو ترك كذا. يقول ابن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فأعرها سمعك، فإنه خير يأمر به أوشر ينهى عنه»[1]. من هنا نجد أن الله عز وجل صدّر كثيراً من الآيات الداعية إلى طاعة رسوله ﷺ بقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ منها:

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴾[4].

ثانياً: إفراد الأمر بطاعة رسوله ﷺ:

كثيراً ما تقترن طاعة الرسول ﷺ بطاعة الله عز وجل، كقوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٣٢ ﴾[5] ولذلك دلالته، فهو يدل على أن طاعة الرسول ﷺ يجب أن تكون بنفس قوة طاعة الله خاصة في الأمور المستقلة التي ثبت تشريعها عن طريق رسول الله ﷺ. ومع ذلك نجد آيات أخرى أفردت الأمر بطاعة الرسول ﷺ، منها: قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٥٦ ﴾[6]. فأمر سبحانه بهاتين الشعيرتين العظيمتين وعطف عليها الأمر بطاعة

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ج ٢/ ٤.

(٢) سورة النساء، آية (٥٩).

(٣) سورة الأنفال، آية (٢٠).

(٤) سورة محمد، آية (٣٣).

(٥) سورة آل عمران، آية (١٣٢).

(٦) سورة النور، آية (٥٦).

رسول الله ﷺ، كأنه يشير إلى وجوب أداء هاتين الشعيرتين على وفق ما بين رسول الله ﷺ وشرّع، وبدون ذلك لا يتأتى الأداء الصحيح لهما، أو ربما كان لبيان أن طاعة الرسول ﷺ واجبة بنفس قوة وجوب الصلاة والزكاة(١). وكذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾(٢) ووجه الدلالة أن الله تعالى أفرد طاعته وأفرد طاعة رسوله ﷺ وعطف عليهما طاعة أولي الأمر، وذلك لأن طاعة الله مستقلة وكذلك طاعة رسوله ﷺ مستقلة، بينما طاعة أولي الأمر مقيدة بطاعتهم لله ورسوله.

يقول ابن القيم رحمه الله: «فأمر تعالى بطاعته وطاعة رسوله وأعاد الفعل إعلاماً بأن طاعة الرسول تجب استقلالاً من غير عرض ما أمر به على الكتاب، بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقاً، سواء كان ما أمر به في الكتاب أو لم يكن فيه، فإنه أوتي الكتاب ومثله معه، ولم يأمر بطاعة أولي الأمر استقلالاً بل حذف الفعل وجعل طاعته في ضمن طاعة الرسول؛ إيذاناً بأنهم يطاعون تبعاً لطاعة الرسول، فمن أمر منهم بطاعة الرسول وجب طاعته، ومن أمر بخلاف ما جاء به الرسول فلا سمع له ولا طاعة، كما صح عنه ﷺ أنه قال: **«لا طاعة في معصية الله. إنما الطاعة في المعروف»**(٣)»(٤) بل ذهب القرآن إلى أبعد من إفراد الرسول ﷺ بالطاعة إذ جعل طاعة الرسول ﷺ عين طاعة الله، فقال تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ ﴾(٥) وما ذلك إلا لأن رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى بل هو وحي يوحى، ولهذا قال رسول الله ﷺ: **«من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعصي الأمير فقد عصاني»**(٦).

---

(١) انظر السنة ومكانتها في ضوء القرآن الكريم للدكتور: محمد حبيب الله مختار، ص ٣٨، (المكتبة النبوية ـ كراتشي ـ باكستان ١٤٠٧ هـ).

(٢) سورة النساء، (٥٩).

(٣) جزء من حديث النفر الذين أمرهم أن يلقوا بأنفسهم في النار. انظر صحيح مسلم ـ كتاب الأمارة ـ باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصيته، ج ٣/ ١٤٦٩.

(٤) اعلام الموقعين، لابن القيم، ج ١/ ٤٨ (تحقيق طه عبد الرؤوف ـ دار الجيل ـ بيروت ـ ١٩٧٣).

(٥) سورة النساء، آية (٨٠).

(٦) صحيح البخاري ـ كتاب الجهاد ـ باب يقاتل من وراء الإمام ويتقى به، ج ٣/ ١٠٨٠، وأخرجه =

ثالثاً: جعل طريق محبة الله عز وجل محصورة في طاعة رسوله ﷺ.

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾(١). تعد هذه الآية أعظم امتحان من الله لكل من يدعي محبته، إذ جعلها الله كاشفة للصادق من الكاذب في ادعاء المحبة، فجعلت المحب الصادق هو المتبع لرسول الله ﷺ.

يقول ابن كثير رحمه الله: «هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله... ـ ثم قال ـ وقال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية»(٢).

رابعاً: التحذير من سوء عاقبة مخالفة أمر النبي ﷺ:

قال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ .. ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾(٤). فحذر الله في هاتين الآيتين المؤمنين عن مخالفة أمر النبي ﷺ، ونكّر «أمره» ليشمل التحذير مخالفة كل ما شرعه الرسول ﷺ وأوجبه يقول ابن كثير رحمه الله: «فليحذر وليخشى من خالف شريعة الرسول باطناً وظاهراً «أن تصيبهم فتنة» أي في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة «أو يصيبهم عذاب أليم» أي في الدنيا بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك»(٥).

ومن هنا فهم الإمام مالك رحمه الله أن تغيير المعالم التي سنّها رسول الله ﷺ تعرّض صاحبها إلى الفتنة. فقد أورد القاضي أبو بكر بن العربي: أن رجلاً أتى الإمام مالك، فقال: يا أبا عبد الله؛ من أين أُحْرِم؟ فقال: منْ ذي الحليفة من حيث أحرم

= مسلم في صحيحه ـ كتاب الأمارة ـ باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصيته، ج ٣/ ١٤٦٦.

(١) سورة آل عمران، آية (٣١).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ج ١/ ٣٦٦.

(٣) سورة المائدة، آية (٩٢).

(٤) سورة النور، آية (٦٣).

(٥) تفسير القرآن العظيم، ج ٣/ ٣١٩.

رسول الله ﷺ. فقال: إني أريد أن أحرم من المسجد، فقال: لا تفعل.

قال: إني أريدُ أن أحرم من المسجد من عند القبر. قال: لا تفعل فإني أخشى عليك الفتنة. قال: وأي فتنة في هذا؟ إنما هي أميال أزيدها. قال وأي فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصّر عنها رسول الله ﷺ! إني سمعت الله يقول: (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم)[1].

خامساً: نفي الإيمان عمن لم يُحكّم رسول الله ﷺ في التنازع:

يقول تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾[2].

تضمنت هذه الآية ثلاثة شروط للاتصاف بالإيمان هي:

١ ـ تحكيم النبي ﷺ فيما يقع بينهم من تنازع واختلاف.

٢ ـ عدم الضيق بحكم رسول الله باطناً.

٣ ـ قبول حكم رسول الله والتزامه ظاهراً.

يقول ابن القيم رحمه الله: «أقسم الله سبحانه بنفسه على نفي الإيمان عن العباد حتى يحكّموا رسوله في كل ما شجر بينهم من الدقيق والجليل، ولم يكتف في إيمانهم بهذا التحكيم بمجرده حتى ينتفي عن صدورهم الحرج والضيق عن قضائه وحكمه، ولم يكتف منهم أيضاً بذلك حتى يسلموا تسليماً، وينقادوا انقياداً. قال تعالى: **﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾** فأخبر سبحانه أنه ليس لمؤمن أن يختار بعد قضائه وقضاء رسوله، ومن تخيَّر بعد ذلك فقد ضل ضلالاً مبيناً»[3].

وبمعرفة سبب نزول الآية يظهر بجلاء الصلة الوثيقة بين الإيمان وطاعة رسول الله ﷺ. وقد ورد في سبب نزول الآية روايتان:

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي، ج ٣/ ١٤١٣.

(٢) سورة النساء، آية (٦٥).

(٣) اعلام الموقعين، ج ١/ ٥١.

إحداهما: رواها الإمام البخاري وغيره:

عن عروة قال: خاصم الزبير رجلاً من الأنصار في شريج[1] من الحرة فقال النبي ﷺ: «**اسْق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك**».

فقال الأنصاري: يا رسول الله، أن كان ابن عمتك، فتلون وجهه ثم قال: «**اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر، ثم أرسل الماء إلى جارك**». واستوعى[2] النبي ﷺ للزبير حقه في صريح الكلام، حين أحفظه* الأنصاري، كان أشار عليهما بأمر لهما فيه سعة. قال الزبير: فما أحسب هذه الآيات إلاّ نزلت في ذلك (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم)[3].

والأخرى: رواها الطبري بسنده:

عن مجاهد في قوله: «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً». قال: «هذا الرجل اليهودي والرجل المسلم اللذان تحاكما إلى كعب بن الأشرف»[4].

وقد أيدّ الطبري هذه الرواية وانتصر لها وجعلها السبب الأساس لنزول الآية، فقال رحمه الله: «قال أبو جعفر: وهذا القول ـ أعني قول من قال: عني به المحتكمان إلى الطاغوت اللذان وصف الله شأنهما في قوله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾[5] ـ أولى بالصواب، لأن قوله: ﴿فلا وربك لا

---

(١) الشّرْجة: مسيل الماء من الحرَّة إلى السهل (النهاية، ج ٢/ ٤٥٦).

(٢) استوعى: أي استوفاه كله، مأخوذ من الوعاء (النهاية، ج ٥/ ٢٠٨).

* أحفظه: أغضبه.

(٣) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ سورة النساء ـ باب قوله تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك﴾ ج ٤/ ١٦٧٤.

(٤) جامع البيان/ شاكر، ج ٨/ ٥٢٣.

(٥) سورة النساء، آية (٦٠) ذكر ابن جرير سبب نزول هذه الآية بسنده عن مجاهد قال: تنازع رجل من المنافقين ورجل من اليهود، فقال المنافق: اذهب بنا إلى كعب بن الأشرف. وقال =

يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾ في سياق قصة الذين ابتدأ الله الخبر عنهم بقوله: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك﴾، ولا دلالة تدل على انقطاع قصتهم، فإلحاق بعض ذلك ببعض - ما لم تأت دلالة على انقطاعه - أولى»[1].

وقد مال القاضي ابن العربي إلى رأي الطبري ذاكراً مسوغ ترجيحه فقال رحمه الله: «اختار الطبري أن يكون نزول الآية في المنافق واليهودي ثم تتناول بعمومها قصة الزبير، وهو الصحيح، وكلُّ من اتهم رسول الله ﷺ في الحكم فهو كافر، لكن الأنصاري زلَّ زلَّةً فأعرض عنه النبي ﷺ، وأقال عثْرته لعلمه بصحة يقينه وأنها كانت فلتة، وليس ذلك[2] لأحد بعد النبي ﷺ. وكل من لم يرض بحكم الحاكم بعده فهو عاص آثم»[3]. واختار هذا القول كذلك الفخر الرازي رحمه الله[4].

ويؤيد هذا الاختيار كذلك كون الصيغة التي أوردها الزبير رضي الله عنه ليست من الصيغ الجازمة على أنها سبب في النزول، حيث قال: «فما أحسب هذه الآيات إلا نزلت في ذلك» وهذه صيغة محتملة - كما ذكر العلماء[5].

= اليهودي: اذهب بنا إلى النبي ﷺ. فقال الله تبارك وتعالى: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون﴾ الآية والتي تليها فيهم أيضاً (جامع البيان/ شاكر، ج ٨/ ٥١٢).

(١) جامع البيان/ شاكر، ج ٨/ ٥٢٤.

(٢) يبدو أن المراد بـ ذلك» أي الحكم بصحة يقينه.

(٣) أحكام القرآن، لابن العربي، ج ١/ ٤٥٦.

(٤) انظر التفسير الكبير، ج ١٠/ ١٦٣.

(٥) انظر مباحث في علوم القرآن لشيخنا القطان، ص ٨٥.

المبحث الثالث

إيجاب الاقتداء والتأسي برسول الله ﷺ

قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[1].

جاءت هذه الآية عتاباً للمتخلفين عن القتال مع رسول الله ﷺ في غزوة الأحزاب، حيث وجهتهم إلى ما كان ينبغي عليهم من الاقتداء برسول الله ﷺ في ثباته وبذل نفسه لنصرة دين الله عز وجل[2]. والآية وإن كان لها هذا السبب الخاص إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ـ كما قرره العلماء ـ ومن هنا فإن الآية دعوة عامة للتأسي برسول الله ﷺ في كل شيء ـ مما ليس من خصوصياته ـ ومن هنا قال الإمام ابن كثير رحمه الله: «هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله، ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه عز وجل صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين. ولهذا قال تعالى للذين تقلقوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ أي هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ﷺ!!»[3].

وتدعيماً لأهمية التأسي بالرسول ﷺ ربطت الآية بين التأسي بالرسول ﷺ والإيمان بالله وباليوم الآخر، إذ قال تعالى: ﴿لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ أي إن كان يرجو لقاء الله ويطمع فيما عنده من ثواب ونعيم، ويخشى اليوم الآخر وما فيه من أهوال وأحوال، وجب عليه التأسي برسول الله ﷺ والحرص على ذلك[4].

---

(١) سورة الأحزاب، آية (٢١).
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، ج ١٤/ ١٥٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ج ٣/ ٤٨٣.
(٤) انظر: تفسير البغوي، ج ٣/ ٥١٩، والجامع لأحكام القرآن، ج ١٤/ ١٥٦.

يقول الآمدي[1] رحمه الله تعليقاً على الآية: «جعل الله التأسي بالنبي عليه السلام من لوازم رجاء الله تعالى واليوم الآخر، ويلزم من عدم التأسي عدم الملزوم، وهو الرجاء لله واليوم الآخر، وذلك كفر[2]»[3].

ولمّا كان معنى التأسي هو: فعل مثل ما فعل على الوجه الذي فعل من أجل أنه فعل[4] لذلك حرص أصحاب رسول الله ﷺ على تتبع أفعاله وأقواله وعباداته وشمائله حتى لو لم يدركوا وجه الحكمة في ذلك.

ومن هذه الأمثلة:

ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ يصلي بأصحابه إذ خلع نعليه فوضعهما عن يساره، فلما رأى ذلك القوم القوْا نعالهم، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته قال: (ما حملكم على إلقاء نعالكم)؟ قالوا: رأيناك القيت نعليْك فألقينا نعالنا، فقال رسول الله ﷺ: **«إن جبريل أتاني فأخبرني أن فيها قذراً أو قال أذى»**[5] فالصحابة رضوان الله عليهم ما انتظروا انتهاء الصلاة ليسألوه ﷺ عن سبب خلعه لنعْليه، بل بادروا بفعل نفس الفعل اقتداءً برسول الله ﷺ وتأسياً به.

ومن الأمثلة الفردية على التأسي برسول الله ﷺ ما رواه البخاري ومسلم عن

---

(١) هو العلامة السيف الآمدي أبو الحسن علي بن أبي علي التغلبي الحنبلي ثم الشافعي المتكلم صاحب التصانيف، ولد بآمد سنة نيف وخمسين وخمس مئة وقرأ القراءات والفقه وتبحر في العلوم، وتفرد بعلم المعقولات والمنطق والكلام، من تصانيفه: «الأحكام في أصول الأحكام» و «أبكار الأفكار» و «منتهى السول في الأصول».
مات سنة إحدى وثلاثين وست مئة. (انظر: سير أعلام النبلاء، ج ٢٢/ ٣٦٤ وما بعدها، وشذرات الذهب، ج ٥/ ١٤٤).

(٢) الكفر محمول على رفض التأسي بالنبي ﷺ في الأمور الواجبة، أما عدم التأسي به في المندوبات والمباحات فلا يُوقع في الكفر (والله أعلم).

(٣) الأحكام في أصول الأحكام، للآمدي، ج ١/ ١٨٦ (تعليق الشيخ عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي ـ بيروت ودمشق ـ الطبعة الثانية، ١٤٠٢ هـ).

(٤) الأحكام في أصول الأحكام، للآمدي، ج ١/ ١٨٦.

(٥) رواه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب: الصلاة في النَّعل، ج ١/ ٤٢٦. وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، ج ١/ ١٢٨.

عبد الله بن سرجس[1] قال: رأيت الأصلع (يعني عمر بن الخطاب) رضي الله عنه يُقبّل الحجر [أي الأسود] ويقول: والله إني لأُقبّلك، وإني أعلم أنك حجر، وأنك لا تضر ولا تنفع. ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ قبّلك ما قبّلتُك[2]. ففي هذه الرواية يبين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن دافعه في التقبيل هو التأسي برسول الله ﷺ فقط لا غير.

وموقف شبيه بهذا ثبت أيضاً عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

فعن علي بن ربيعة[3] قال: شهدت علياً أتى بدابّة ليرْكبها، فلما وضع رجلَهُ في الرّكب قال: بسم الله ثلاثاً، فلما استوى على ظهرها قال: الحمد لله، ثم قال: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[4] ثم قال: الحمد لله ثلاثاً، والله أكبرُ ثلاثاً، سبحانك إني قد ظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ثم ضحك قلت: من أي شيء ضحكت يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت رسول الله ﷺ صنع كما صنعت ثم ضحك، فقلت: من أي شيء ضحكت يا رسول الله؟ قال: إن ربك ليعجب من عبده إذا قال رب اغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب غيرك[5].

---

(١) هو عبد الله بن سرْجس المُزني، من حلفاء بني مخزوم، قال البخاري وابن حيان: له صحبة وصح أن رسول الله ﷺ استغفر له، وحديث الاستغفار رواه مسلم (انظر: الإصابة، ج ٤/ ٧٥ ـ ٧٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب الحج ـ باب استحباب تقبيل الحجر الأسود في الطواف، ج ٢/ ٩٢٥، وأخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب الحج ـ باب تقبيل الحجر، ج ٢/ ٥٨٣.

(٣) هو أبو المغيرة علي بن ربيعة الوالبي، الكوفي من العلماء الأثبات، تابعي حدّث عن علي وابن عمر والمغيرة بن شعبة وروى عنه أبو إسحاق، وعاصم بن أبي النجود وآخرون. وثّقه يحيى بن معين. (انظر: سير أعلام النبلاء، ج ٤/ ٤٨٩).

(٤) سورة الزخرف، آية (١٣ ـ ١٤).

(٥) رواه الترمذي في سننه وقال حديث حسن صحيح ـ كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا ركب الناقة (ج ٥/ ٥٠١)، وأخرجه الحاكم في مستدركه، وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي، (ج ٢/ ٩٩).

المبحث الرابع

بيان ثمار اتباع النبي ﷺ وعواقب مخالفته

من أساليب القرآن التربوية في الأمر والنهي، أسلوبا الترغيب والترهيب، الترغيب في الطاعة بإبراز الثمار الطيبة للإئتمار في الدنيا والآخرة، والترهيب عن المعصية بإبراز العواقب الوخيمة للمخالفة في الدنيا والآخرة كذلك.

وبإلقاء نظرة سريعة في الآيات التي دعت إلى طاعة الله ورسوله، أو حذرت عن معصية الله ورسوله نجدها غالباً ما تختم بثمار الطاعة أو عواقب المخالفة كالتالي:

أولاً: ثمار طاعة الله ورسوله ﷺ:

١ ـ الهداية: قال تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ﴾[2] أي إن تطيعوا رسوله تهتدوا.

ومن معاني الهداية: الرشاد[3]، ومن هنا أقر الرسول ﷺ الأعرابي الذي قال بين يديه: «من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصي الله ورسوله فقد غوى»[4].

٢ ـ الفوز العظيم: قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾[5] وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾[6].

---

(١) سورة الأعراف، آية (١٥٨).

(٢) سورة النور، آية (٥٤).

(٣) انظر اللسان، ج ٥/ ٣٥٣ مادة «هدي».

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب الجمعة ـ باب تخفيف الصلاة والخطبة، ج ٢/ ٥٩٤.

(٥) سورة النور، آية (٥٢).

(٦) سورة الأحزاب، آية (٧١).

٣ ـ الرحمة: قال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[٢].

٤ ـ محبة الله وغفران الذنوب: قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾[٣].

٥ ـ دخول الجنّات: قال تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾[٤].

ومن هنا قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنّة إلا من أبى» قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى»[٥].

٦ ـ رفعة المنزلة في الآخرة: قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾[٦].

ثانياً: عواقب معصية الله ورسوله ﷺ:

١ ـ الضلال: قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴾[٧] والضلال ضد الرشاد وهو الغواية والتخبط في المواقف والتصرفات، ولذلك كانت العصمة من الضلال في الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله. كما أكد رسول الله ﷺ ذلك في حجة الوداع عندما قال: «إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا

---

(١) سورة آل عمران، آية (١٣٢).
(٢) سورة النور، آية (٥٦).
(٣) سورة آل عمران، آية (٣١).
(٤) سورة النساء، آية (١٣).
(٥) صحيح البخاري ـ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ـ باب الاقتداء بسنُن رسول الله ﷺ، ج ٦/ ٢٦٥٥.
(٦) سورة النساء، آية (٦٩).
(٧) سورة الأحزاب، آية (٣٦).

أبداً، كتاب الله وسنة نبيه ﷺ»[1].

٢ ـ الفتنة: قال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾[2] فجعل عاقبة مخالفة أمر النبي ﷺ الإصابة بالفتنة، وجعل الفتنة مطلقة لتشمل كل أنواع الفتن.

٣ ـ دخول النار: قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ ﴾[4].

٤ ـ الندم والحسرة: قال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾[5]وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾[7].

تجسد هذه الآيات عمق ألم الندم لأنهم عصوا رسول الله، حتى إن الندم ليبلغ ببعضهم تمني انشقاق الأرض وابتلاعهم هرباً من مواجهة المصير. يا له من موقف خزي وعار!! نعوذ بالله من حال العصاة.

---

(١) رواه الحاكم في مستدركه (ج ١/ ٩٣) وأصله في الصحيحين، وله شاهد برواية أبي هريرة. قال عنه الشيخ الألباني إسناده حسن (مشكاة المصابيح، ج ١/ ٦٦).

(٢) سورة النور، آية (٦٣).

(٣) سورة النساء، آية (١٤).

(٤) سورة الجن، آية (٢٣).

(٥) سورة النساء، آية (٤٢).

(٦) سورة الفرقان، آية (٢٧ ـ ٢٨).

(٧) سورة الأحزاب، آية (٦٦).

الفصل الرابع

أمر المؤمنين الأدب مع النبي ﷺ

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: نهى المؤمنين عن مناداته باسمه المجرد.

المبحث الثاني: نهى المؤمنين عن التقدم بين يدي الله ورسوله.

المبحث الثالث: نهى المؤمنين عن رفع أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ.

المبحث الرابع: نهى المؤمنين عن مضايقته بكثرة مناجاته.

المبحث الخامس: توجيه المؤمنين لآداب دخول بيوت النبي ﷺ والتعامل مع زوجاته.

المبحث الأول

نهي المؤمنين عن مناداة النبي ﷺ باسمه المجرد

يقول الله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾[1] أمر الله المؤمنين في هذه الآية أن يتأدبوا مع رسول الله ﷺ، وذلك بأن نهاهم عن مناداته باسمه المجرد، إذ إن ذلك يتنافى مع سمو مكانته وعلو قدره. كما أرشدهم أن ينادوه

---

(١) سورة النور، آية (٦٣).

بلقب الرسالة والنبوة لما فيهما من توقير واحترام. يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «كانوا يقولون يا محمد، يا أبا القاسم، فنهاهم الله عز وجل عن ذلك، إعظاماً لنبيه ﷺ، قال: فقولوا يا نبي الله، يا رسول الله»[1].

وقال قتادة رحمه الله: «أمر الله أن يُهاب نبيه ﷺ وأن يعظَّم وأن يُسوَّد»[2]. وقد بين سيد قطب رحمه الله أهمية تأدبهم مع النبي ﷺ - عند مناداتهم له - على العملية التربوية. فقال: «فلا بد من امتلاء القلوب بالتوقير لرسول الله - ﷺ - حتى تستشعر توقير كل كلمة منه وكل توجيه. وهي لفتة ضرورية. فلا بد للمربي من وقار، ولا بد للقائد من هيبة. وفرق بين أن يكون هو متواضعاً هيناً ليناً؛ وأن ينسوا هم أنه مربيهم فيدعوه دعاء بعضهم لبعض. . يجب أن تبقى للمربي منزلة في نفوس من يربيهم يرتفع بها عليهم في قرارة شعورهم، ويستحيون هم أن يتجاوزوا معها حدود التبجيل والتوقير»[3].

المبحث الثاني
النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله ﷺ

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[4]. تضمنت هذه الآية توجيهاً للمؤمنين بالأدب مع رسول الله ﷺ في التعامل معه، فنهتهم عن التقدم بين يدي الله ورسوله.

وقد وردت أقوال كثيرة للسلف عن معنى الآية، أشهرها ما يلي:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أي لا تقولوا خلاف الكتاب والسنّة»[5].

---

(١)، (٢) تفسير القرآن العظيم، ج ٣/ ٣١٨.
(٣) في ظلال القرآن، ج ٤/ ٢٥٣٥.
(٤) سورة الحجرات، آية (١).
(٥) جامع البيان، ج ٢٦/ ٧٤.

وقال مجاهد رحمه الله: «أي لا تفتأوا على رسول الله ﷺ بشيء حتى يقضيه الله على لسانه ﷺ»[١].

وقال الضحاك رحمه الله: «يعني في القتال وشرائع الدين، لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله»[٢].

وقال ابن جرير رحمه الله: «أي لا تعجلوا بقضاء أمر في حروبكم أو دينكم قبل أن يقضي الله لكم فيه ورسوله فتقضوا بخلاف أمر الله وأمر رسوله، محكي عن العرب: فلان يقدّم بين يدي إمامه بمعنى يعجل بالأمر والنهي دونه»[٣].

وقال القرطبي رحمه الله: «أي لا تقدموا قولاً ولا فعلاً بين يدي الله وقول رسوله وفعله فيما سبيلُه أن تأخذوه عنه من أمر الدين والدنيا. ومن قدّم قوله أو فعله على الرسول ﷺ فقد قدّمه على الله تعالى؛ لأن الرسول ﷺ إنما يأمر عن الله عز وجل»[٤].

وقال ابن كثير رحمه الله: «أي لا تسرعوا في الأشياء بين يديه، أي قبله، بل كونوا تبعاً في جميع الأمور»[٥].

ومنهم من ذهب إلى أنه نهي عن التقدم في أمور معينة لما ورد في سبب نزول الآية[٦]، منها:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «إنه في النهي عن صوم يوم الشك، أي لا

---

(١) جامع البيان، ج ٢٦/ ٧٤، تفسير البغوي، ج ٤/ ٢٠٩.
(٢) تفسير البغوي، ج ٤/ ٢٠٩.
(٣) جامع البيان، ج ٢٦/ ٧٤.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، ج ١٦/ ٣٠٠.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ج ٤/ ٢٢٠.
(٦) ذكر القاضي أبو بكر ابن العربي خمسة أسباب لنزول الآية ثم قال: وهذه الأقوال كلها صحيحة تدخل تحت العموم، فالله أعلم ما كان السبب المثير للآية منها، ولعلها نزلت دون سبب. (انظر أحكام القرآن لابن العربي، ج ٤/ ١٧١٢١٢ وما بعدها) وانظر: الجامع لأحكام القرآن، ج ١٦/ ٣٠٠ ـ ٣٠١.

تصوموا قبل أن يصوم نبيكم»[1].

وعن جابر قال: «إنه في الذبح يوم الأضحى، أي لا تذبحوا قبل أن يذبح النبي ﷺ»[2].

وهذه الأقوال كلها لا تعارض بينها، فكلها يدخل تحت الأمور المنهي عنها. لذلك اختار القول القائل بأن «تُقَدِّموا» مضارع «قدّم» المتعدي، وحذف مفعوله لقصد التعميم[3] فيتناول النهي كل ما يمكن أن يقع فيه التقدم قولاً أو فعلاً.

ولقد تفاعل أصحاب رسول الله ﷺ مع هذه الآية وتأدبوا بأدبها أفراداً وجماعات، من ذلك ما رواه أحمد وأبو داود والترمذي لما بعث رسول الله ﷺ معاذاً إلى اليمن قال له: كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟ قال: أقضي بكتاب الله، قال: فإن لم تجد في كتاب الله؟ قال: فبسنّة رسول الله ﷺ، قال: فإن لم تجد في سنّة رسول الله ﷺ ولا في كتاب الله؟ قال: اجتهد رأيي ولو آلو[4]، فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال: الحمد لله الذي وفّق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله[5].

---

(١)، (٢) تفسير البغوي، ج ٤/ ٢٠٩.

(٣) انظر: الكشاف ج ٤/ ٢.

(٤) لا آلو: لا أقصر في الاجتهاد، ومنه قول الرجل: ما آلوت عن الجهد في حاجتك (أساس البلاغة، للزمخشري، ص ٢٠، مادة «ألو» ـ دار بيروت، ١٤٠٤ هـ).

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأقضية، باب اجتهاد الرأي في القضاء، ج ٤/ ١٨ وأخرجه أحمد في مسنده، ج ٥/ ٢٣٦، والترمذي في سننه، كتاب الأحكام، باب ما جاء في القاضي كيف يقضي، ج ٣/ ٦١٦.

وقد ضعف بعض العلماء هذا الحديث بسبب جهالة الحارث بن عمرو الوارد في السند والذي يروي كذلك عن أصحاب معاذ وهم مجهولون كذلك. وقد رد العلماء على المضعفين للحديث وأجابوا عما أثير من شبهة حول الحديث، ومن ذلك تلقى الأمة سلفاً وخلفاً له بالقبول وبينوا كذلك أن الحارث بن عمرو ليس بمجهول العين ولا الوصف، لأنه من كبار التابعين في طبقة شيوخ أبي عون الثقفي المتوفي سنة ١١٦ هـ ولم ينقل أهل الشأن جرحاً مفسراً في حقه (انظر تعليق الشيخ شعيب الأرنؤوط على الحديث في هامش كتاب العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، لابن الوزير اليماني، ج ١/ ٢٥٨ (تحقيق شعيب الأرنؤوط، دار البشير ـ عمان ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٥ هـ) وانظر رد ابن الوزير في الكتاب نفسه على الطعون الموجهة للحديث، ج ١/ ٢٨٢. وللإمام ابن القيم كلام نفيس في الرد على الطعون لجهالة أصحاب معاذ، انظره في أعلام الموقعين، ج ١/ ٢٠٢.

فنجد أن معاذاً أخّر رأيه إلى ما بعد كتاب الله وسنّة رسوله لئلا يتقدّم بين يدي الله ورسوله بحكم.

ومن ذلك عندما سأل رسول الله ﷺ أصحابه في حجة الوداع عن اليوم وعن الشهر وعن المكان الذي هم فيه ـ وهم يعلمونه حق العلم ـ تحرجوا أن يجيبوا لئلا يكون ذلك نوعاً من التقدم بين يدي الله ورسوله واكتفوا بقولهم: الله ورسوله أعلم.

ففي صحيح البخاري، عن أبي بكرة[1] رضي الله عنه قال: خطبنا النبي ﷺ يوم النحر، قال: **«أتدرون أي يوم هذا»** قلنا الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسمِّيه بغير اسمه، قال: **«أليس يوم النَّحر»** قلنا: بلى، قال: **«أي شهر هذا»**. قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننَّا أنه سيسمِّيه بغير اسمه، فقال: **«أليس ذا الحجة»**. قلنا: بلى، قال: **«أي بلدٍ هذا»**. قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسمِّيه بغير اسمه، قال: **«أليست بالبلدة الحرام»**. قلنا: بلى، قال: **«فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، إلى يوم تلقون ربكم، ألا هل بلَّغتُ»**. قالوا نعم، قال: **«اللهم اشهد، فليبلِّغ الشاهد الغائب، فرب مُبلَّغ أوعى من سامع، فلا ترجعوا بعدي كُفَّاراً، يضربُ بعضكم رقاب بعض»**[2].

المبحث الثالث

نهي المؤمنين عن رفع أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢ ﴾[3]. تضمنت هذه الآية أدباً

---

(١) هو مولى النبي ﷺ، اسمه نفيع بن الحارث، وقيل نفيع بن مسروح، تدلى في حصار الطائف ببَكْرة، وفر إلى النبي ﷺ وأسلم على يديه، فاشتهر بأبي بكرة وكان من فضلاء الصحابة وسكن البصرة، روى عن النبي ﷺ وروى عنه أولاده الأربعة. (انظر الإصابة، ج ٦/ ٢٥٢) وسير أعلام النبلاء، ج ٣/ ٥).

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب الحج ـ باب: الخطبة أيام منى، ج ٢/ ٦٢٠.

(٣) سورة الحجرات، آية (٢).

ثالثاً في تعامل المسلمين مع الرسول ﷺ فنهتهم عن أمرين:

أحدهما: عن رفع صوتهم بحضرته بحيث تعلو أصواتهم صوته في المجلس.

الثاني: عن مخاطبته بجفاء وجلافة كما يفعل بعضهم مع بعض.

وذلك لأن رفع الصوت بحضرة الكبراء والعظماء يدل على قلة الاحتشام وعدم الاحترام. فإذا كان ذلك كذلك، فرسول الله ﷺ أولى بهذا التبجيل والتوقير، فضلاً عن كونه واجباً ومطلوباً.

يقول الزمخشري في معنى الآية: «أي اخفضوا أصواتكم بحضرته، فإذا نطق ونطقتم فعليكم أن لا تبلغوا بأصواتكم وراء الحد الذي يبلغه بصوته وأن تغضوا منها بحيث يكون كلامه عالياً لكلامكم، وجهره باهراً لجهركم حتى تكون مزيته عليكم لائحة وسابقته واضحة، وامتيازه عن جمهوركم ظاهراً كالشمس في رابعة النهار، لا أن تغمروا صوته بلغطكم وتبهروا منطقه بصخبكم، وبقوله: «ولا تجهروا له بالقول» إنكم إذا كلمتموه وهو صامت فإياكم والعدول عما نهيتم عنه من رفع الصوت بل عليكم أن لا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم، وأن تتعمدوا في مخاطبته القول اللين القريب من الهمس الذي يضاد الجهر كما تكون مخاطبة المهيب المعظم عاملين بقوله عز اسمه ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾[1]»[2].

وختم الله الآية بترهيب من مغبة مخالفة أمر الله بعدم التزام الأدب المذكور في الآية، فقال: ﴿أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾ أي لئلا تحبط أعمالكم أو مخافة أن تحبط أعمالكم[3] فجعل علة الحبوط اقتراف المنهي عنه.

والعلماء متفقون على أن رفع الصوت أو الجهر المحذّر منه هو ما صدر عن غير تعمد لإيذاء النبي ﷺ، ولذلك قال: ﴿وأنتم لا تشعرون﴾ أي في غفلة عن أن هذا الفعل قد يبطل الأعمال الصالحة. أما الإيذاء الذي يصدر عن تعمد للإساءة إلى النبي

---

(١) سورة الفتح، آية (٩).

(٢) الكشاف [بتصرف يسير]، ج ٤/٣ ـ ٤، وانظر: الجامع لأحكام القرآن، ج ١٦/٣٠٦ ـ ٣٠٧.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ج ١٣/٤٨٦، التفسير الكبير، ج ٢٨/١١٤، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٦/٣٠٦.

ﷺ، كأن يكون رفع الصوت أو الجهر له بالقول من أجل الاستخفاف أو الاستهانة به فهو كفر بلا خلاف، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[1].

يقول الزمخشري رحمه الله: «وليس الغرض برفع الصوت ولا الجهر به ما يقصد به الاستخفاف والاستهانة، لأن ذلك كفر والمخاطبون مؤمنون، وإنما الغرض صوت هو في نفسه المسموع من جرسه غير مناسب لما يهاب به العظماء ويوقر الكبراء، فيتكلف الغض منه إلى حد يظهر فيه التعزير والتوقير»[2].

ومن هنا قال ابن أبي مليكة[3]: «كاد الخيّران أن يهلكا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركبُ بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر، قال نافع: لا أحفظ اسمه، فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلاّ خلافي، قال: ما أردت خلافك، فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾**[4].

ولا شك أن كلاً من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لم يتعمدا رفع أصواتهما على النبي ﷺ ولم يفكرا البتة في إيذاء النبي ﷺ، ولذلك تفاعل كل من أبي بكر وعمر ـ بصفة خاصة ـ مع هذه الآية والتي بعدها، إذ آل أبو بكر على نفسه أن لا يكلم رسول الله ﷺ إلا كأخ السرار ـ أي كصاحب سر ـ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم

---

(١) سورة التوبة، آية (٦٥ ـ ٦٦).

(٢) الكشاف (بتصرف يسير)، ج ٤/ ٤، وانظر الجامع لأحكام القرآن، ج ١٦/ ٣٠٧.

(٣) هو الإمام الحجة الحافظ عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة، ولد في خلافة علي أو قبلها، وكان عالماً فقيهاً صاحب حديث واتقان، معدود في طبقة عطاء، ولي القضاء والأذان لابن الزبير، مات سنة سبع عشرة ومئة، (انظر سير أعلام النبلاء، ج ٥/ ٩٠).

(٤) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ سورة الحجرات، ج ٤/ ١٨٣٣، وانظر: أسباب نزول القرآن للواحدي، ص ٤٠٧.

للتقوى﴾[1] قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخي السرار حتى ألقى الله[2].

وكذلك تفاعل عمر رضي الله عنه مع هذه الآية. يقول ابن الزبير: «فما كان عمر يُسمع رسول الله بعد هذه الآية حتى يستفهمه»[3].

أما ثابت[4] بن قيس فقد تفاعل مع هذه الآية تفاعلاً عجيباً، إذ كان جهوري الصوت فظن أن الآية نزلت فيه فخاف من حبوط عمله واعتزل الناس وأخذ يبكي على نفسه حتى افتقده رسول الله ﷺ فأرسل في طلبه مع بشارة عظيمة.

روى البخاري، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل: يا رسول الله، أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده جالساً في بيته، منكساً رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر، كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ، فقد حبط عمله، وهو من أهل النار. فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا، فقال موسى: فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة فقال: (اذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة)[5].

ولقد وعى المسلمون هذا الأدب جيداً وطبّقوه في حياة النبي ﷺ، وتمسكوا به كذلك بعد وفاته إذ كانوا يرون حرمة رسول الله بعد وفاته كحرمته في حياته. يقول ابن العربي رحمه الله: «حُرمة النبي ﷺ ميتاً كحُرمته حياً، وكلامُه المأثور بعد موته في الرفعة مثل كلامه المسموع من لفظه، فإذا قُرِىء كلامُه وجب على كل حاضر ألا يرفع

---

(١) سورة الحجرات، آية (٣).

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه (ج ٢/ ٤٦٢) وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وانظر الدر المنثور ج ٧/ ٥٤٨.

(٣) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ سورة الحجرات، ج ٤/ ١٨٣٣.

(٤) هو أبو محمد، ثابت بن قيس بن شماس بن زهير بن مالك الأنصاري الخزرجي، خطيب رسول الله ﷺ، شهد أُحداً وما بعدها، وبشره رسول الله ﷺ بالجنة في قصة شهيرة شهد اليمامة فلما انكشف الناس قال ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ثم دعا: اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ومما صنع هؤلاء ثم قاتل حتى قتل وأجاز أبو بكر وصيته التي رآها رجل مسلم في منامه. (الإصابة، ج ١/ ٢٠٣).

(٥) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ سورة الحجرات، ج ٤/ ١٨٣٣.

صوته عليه، ولا يُعْرِض عنه، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به»[1].

ويقول ابن كثير كذلك: «قال العلماء يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ كما كان يكره في حياته عليه الصلاة والسلام لأنه محترم حياً وفي قبره ﷺ دائماً»[2]. ومن هنا شدَّد عمر بن الخطاب رضي الله عنه النكير على الرجلين اللذين ارتفعت أصواتهما في مسجد رسول الله فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف، فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً[3].

المبحث الرابع

نهي المؤمنين عن مضايقة النبي ﷺ بكثرة مناجاته

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾[4].

تضمنت هذه الآية توجيهاً للمؤمنين للأدب مع رسول الله باحترام وقته وعدم شغله بكثرة المسائل، وترك مضايقته بكثرة المناجاة. يقول ابن عباس رضي الله عنهما في الآية: «إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقّوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه ﷺ»[5].

وبهذا الحكم أظهر الله للمؤمنين مكانة رسوله ﷺ، وخفف عنه ما كان يشق عليه، كما ميّز السائلين لحاجة من السائلين لغير حاجة عندما أمر بتقديم الصدقة بين يدي مناجاته، فأحجم أكثر السائلين لأنهم كانوا يسألون لغير حاجة ملحة. يقول الرازي رحمه الله: «هذا التكليف يشتمل على أنواع من الفوائد[6] منها: «

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي، ج ٤/ ١٧١٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ج ٤/ ٢٢٢.

(٣) انظر نفس المرجع السابق.

(٤) سورة المجادلة، آية (١٢).

(٥) الجامع لأحكام القرآن، ج ١٧/ ٣٠، وانظر: الدر المنثور، ج ٨/ ٨٣.

(٦) ذكر الرازي ست فوائد اقتصرت على ذكر ثلاث منها.

١ ـ إعظام الرسول عليه السلام، وإعظام مناجاته، فإن الإنسان إذا وجد الشيء مع المشقة استعظمه، وإن وجده بالسهولة استحقره.

٢ ـ نفع كثير من الفقراء بتلك الصدقة المقدمة قبل المناجاة.

٣ ـ التخفيف عن الرسول ﷺ، لأن أرباب الحاجات كانوا يلحون على الرسول ﷺ، ويشغلون أوقاته التي هي مقسومة على الإبلاغ إلى الأمة وعلى العبادة»[١].

ولمّا كان من بين الراغبين في المناجاة والسؤال أناس صادقون لكن ضيق ذات اليد كانت تمنعهم وتحول دون سؤالهم؛ خفف الله عنهم تلك الصدقة وأسقطها بنسخها، بعد أن وعوا الدرس الذي أُريد منهم أن يفهموه، فحصل بذلك المقصود فأنزل الله تعالى: ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[٢].

يقول ابن العربي رحمه الله: «وعلم الله أن أهل الباطل لا يقدّمون بين يدي نجواهم صدقة، فانتهى أهل الباطل عن النجوى، وشق ذلك على أصحاب الحوائج والمؤمنين، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، وقالوا: لا نطيقه، فخفف الله ذلك عنهم ونسختها آية ﴿فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم﴾ الآية»[٣].

وهكذا نُسخ حكم الآية بعد أن كادت أن تشق عليهم[٤]، وبقيت الآية تتلى، كلما قرؤوها تذكروا رحمة الله برفع الحرج عنهم وازدادوا حباً لنبيهم وتقديراً لمكانته وتأدباً معه.

---

(١) التفسير الكبير، ج ٢٩/ ٢٧١.
(٢) سورة المجادلة، آية (١٣).
(٣) أحكام القرآن لابن العربي (بتصرف يسير)، ج ٤/ ١٧٦٢.
(٤) يدل على ذلك أن التكليف الوارد في الآية لم يعمل به أحد سوى علي بن أبي طالب رضي الله عنه حتى نسخ. فقد قال رضي الله عنه إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد ولا يعمل بها أحد بعدي آية النجوى ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة﴾ الآية قال كان عندي دينار فبعته بعشرة دراهم فناجيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فكنت كلما ناجيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم قدمت بين يدي نجواي درهماً ثم نسخت فلم يعمل بها أحد فنزلت ﴿ءأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات﴾ الآية، أخرجه الحاكم في مستدرك، (ج ٢/ ٤٨٢) وقال صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

المبحث الخامس
توجيه المؤمنين لآداب دخول بيوت النبي ﷺ والتعامل مع زوجاته

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾[1].

ورد في هذه الآية أربعة آداب هي:

أولاً: النهي عن دخول بيوته ﷺ بغير إذن:

أشارت الآية إلى هذا الأدب بقوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه﴾**[2].

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن هذا نهي عام أريد به الخصوص، خص به أولئك المتحينون الذين كانوا يترقبون وقت طبخ الطعام ثم يتعرضون لبيوت النبي ﷺ للأكل بدون دعوة.

ذكر ابن كثير رحمه الله عن مجاهد وقتادة رحمهما الله في معنى الآية: (أي لا ترقبوا الطعام إذا طبخ حتى إذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول فإن هذا مما يكرهه الله ويذمه)[3].

---

(١) سورة الأحزاب، آية (٥٣ ـ ٥٤).

(٢) أنى الشيء أنياً وإنى وأنىً، وهو أنيٌ: حان وأدرك، وأنّى الماء: سخن وبلغ في الحرارة، وبلغ الشيء إناه وأناه أي غايته والإنّى: النضج. (اللسان، ج ١٤/٤٨، مادة «أنى») ويقول الزمخشري: وإنى الطعام: إدراكه، يقال أنى الطعام إنى، كقولك قلاه قلى ومنه قوله تعالى ﴿حميم آن﴾: بالغ إناه (الكشاف، ج ٣/ ٢٤٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ج ٣/ ٥١٣.

وقد نقل البغوي وابن عطية عن ابن عباس نزول الآية في المتحينين، حيث قال: نزلت في ناس من المسلمين كانوا يتحينون طعام رسول الله ﷺ، فيدخلون عليه قبل الطعام إلى أن يدرك ثم يأكلون ولا يخرجون، وكان رسول الله ﷺ يتأذى بهم[(١)].

وذهب الألوسي إلى مثل هذا، يقول رحمه الله: «فالنهي مخصوص بمن دخل بغير دعوة وجلس منتظراً للطعام من غير حاجة، فلا تفيد النهي عن الدخول بإذن لغير طعام ولا عن الجلوس واللبث بعد الطعام لمهم آخر، ولو اعتبر الخطاب عاماً لكان الدخول واللبث المذكوران منهياً عنهما، ولا قائل به»[(٢)].

وأرى ـ والله أعلم ـ أن الخطاب عام يشمل كافة المؤمنين المأذون لهم، ومن باب أولى المتحينين، فالمتحينون أدَّبهم بأن لا يأتوا بدون دعوة، والمدعوون أدَّبهم بأن لا يستعجلوا الحضور قبل إنضاج الطعام لئلا يوقعوا أهل البيت في حرج أو يعيقوا تحركهم بسبب محدودية بيوت النبي ﷺ. وقد وجدت أن القاسمي رحمه الله قد نبه إلى النقطة الثانية إذ قال رحمه الله: «قد يكون معنى قوله: «غير ناظرين إناه» نهياً لهم أن يدخلوا ـ مع كونهم مأذوناً لهم ومدعوين ـ قبل الميعاد المضروب لهم حضورهم فيه، عجلة وانتظاراً لنضج الطعام. فإن ذلك مما يؤذي قلب صاحب الدعوة، لشغل هذه الحصة معهم بلا فائدة، إلا ضيق صدر الداعي وأهله، وشغل وقته وتوليد حديث، وتكلفاً لكلام لاضرورة له، وإطالة زمن الحجاب على نسائه. وما ذلك إلا من شؤم التعجيل قبل الوقت. ولذلك قال تعالى: ﴿ولكن إذا دعيتم فادخلوا﴾ أي إذا دعيتم إلى الدخول في وقته. فادخلوا فيه لا قبله ولا بعده. و «لكن» استدراك من النهي عن الدخول، مع الإذن المطلق الذي هو الدعوة بتعليم أدب آخر. وإفادة شرط مهم، وهو الإشارة إلى أن للدعوة حيناً ووقتاً يجب أن يراعى زمنه»[(٣)].

ويؤيد هذا العموم سبب النزول الصحيح الذي أخرجه البخاري ومسلم[(٤)].

---

(١) تفسير البغوي، ج ٣/ ٥٤٠، المحرر الوجيز، ج ١٢/ ١٠١.

(٢) روح المعاني، ج ٢٢/ ٧٠.

(٣) محاسن التأويل، ج ١٣/ ٢٩٢.

(٤) انظر الرواية كاملة في الأدب التالي.

ثانياً: الأمر بالانتشار بعد الطعام:

أشار إلى ذلك بقوله تعالى: **﴿فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث﴾** وقد جاء هذا المقطع رداً مباشراً على أولئك النفر الثلاثة الذين مكثوا في بيت رسول الله بعد انتهاء وليمة عرسه من زينب بنت جحش حتى شق ذلك عليه.

روى البخاري ومسلم، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا، ثم جلسوا يتحدثون، وإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام قام من قام وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا، فانطلقت فجئت، فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل، فألقى الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي﴾**(١).

فقد تضمن هذا المقطع أدباً آخر، وهو أمر المؤمنين بوجوب الانصراف بعد تناول الطعام في بيته ﷺ وعدم المكوث من أجل الاستئناس بالحديث ـ كما فعل أولئك النفر.

وقد صارحهم الله بأن هذا الفعل كان يؤذي رسول الله ﷺ، ولكنه كان يتحمّلهم لكرمه وحيائه فلا يقول لهم: قوموا واخرجوا. لذلك تولى الله الدفاع عنه، وعلّمهم الأدب، وألزمهم بالخروج بعد انقضاء المقصود.

يقول الزجاج رحمه الله: «كان النبي ﷺ يحتمل إطالتهم كرماً منه فيصبر على الأذى في ذلك، فعلَّم الله من يحضره الأدب فصار أدباً لهم ولمن بعدهم»(٢).

ثالثاً: نهي المؤمنين عن محادثة زوجاته ﷺ إلا من وراء حجاب:

أشار إلى ذلك بقوله تعالى: **﴿وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب﴾** هذا هو الأدب الثالث في الآية وهو يتعلق بأدب الحديث مع زوجات النبي ﷺ. فقد نهاهم الله عز وجل عن الحديث معهن مواجهة إلا من وراء حجاب، وعلل

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ سورة الأحزاب، ج ١٧٩٩/٤، وأخرجه مسلم في كتاب النكاح، باب زواج زينب بنت جحش، ج ٢/ ١٠٥٠، وانظر أسباب نزول القرآن، ص ٣٧٨.

(٢) فتح البيان، ج ٤٠١/٧.

ذلك بقوله تعالى: ﴿ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن﴾: أي إن هذا الحكم أقوى طهارة لقلوبكم وقلوبهن مع كون قلوب الفريقين طاهرة بالتقوى وتعظيم حرمات الله وحرمة النبي ﷺ[1].

وبعد أن أدّب الله المؤمنين بهذه الآداب الثلاثة، أكدها بما يحملهم على المحافظة عليها بقوله: ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله﴾ أي ما صح ولا جاز ذلك. وإنما يكون إيذاؤه بمخالفة هذه الآداب. ويجوز أن يكون هذا التحذير تمهيداً للأدب الرابع، لكونه أعظم هذه الآداب وهو:

رابعاً: تحريم نكاح زوجاته من بعده:

أشار إلى هذا الأدب بقوله: ﴿ولا تنكحوا أزواجه من بعده أبداً﴾. لما كانت زوجات النبي ﷺ في مقام أمهات المؤمنين لقوله تعالى: ﴿ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ﴾[2] حرّم الله على المؤمنين نكاحهن بعد نبيه ﷺ على التأبيد، احتراماً لمكانة النبي ﷺ وبعداً عن إيذائه، ولذلك ختم الآية بتهويل هذا الفعل وبيان شناعته وقبحه[3] فقال تعالى: ﴿إن ذلكم كان عند الله عظيماً﴾.

يقول الزمخشري رحمه الله: «وسمى نكاحهن بعده عظيماً عنده، وهو من أعلام تعظيم الله لرسوله وإيجاب حرمته حياً وميتاً»[4].

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (بتصرف)، ج ٢٢/ ٩١.
(٢) سورة الأحزاب، آية (٦).
(٣) من هنا أنكر معظم المفسرين الرواية التي ذُكرت بأن هذه الآية نزلت في طلحة بن عبيد الله وزعمت الرواية أنه قال: لو مات رسول الله لتزوجت عائشة رضي الله عنها. (انظر: المحرر الوجيز، ج ١٢/ ١٠٤، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٤/ ٢٢٩، روح المعاني ج ٢٢/ ٧٤ التحرير والتنوير، ج ٢٢/ ٩٣).
(٤) الكشاف ج ٣/ ٢٤٥.

الفصل الخامس

تأييده بالمعجزات وتلبية رغبانه وإجابة دعائه واللطف في عتابه ﷺ

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: تأييد النبي ﷺ بالمعجزات.

المبحث الثاني: تحويل القبلة إلى المسجد الحرام.

المبحث الثالث: إجابة دعاء النبي ﷺ.

المبحث الرابع: اللطف في عتاب النبي ﷺ.

المبحث الأول

تأييد النبي ﷺ بالمعجزات

القرآن الكريم هو معجزة الرسول ﷺ الأساس الدالة على نبوته كما قال عليه الصلاة والسلام: «**وإنما كان الذي أوتيته وحياً**»[١] ومع ذلك فقد أيَّـد الله رسوله ﷺ بمعجزات حسية، بعضها يحمل معنى الحجة والبرهان، وبعضها يحمل معنى المنّة والإكرام.

وهذه المعجزات ورد ذكر بعضها في القرآن الكريم وأغلبها ورد في السنة المطهرة[٢]. وحيث إن البحث هو في القرآن، فسيكون الحديث عن معجزتين حسيَّتين

---

(١) تقدم تخريجه في ص ١٢٥.

(٢) من أمثلة هذه المعجزات ما يلي:

=

ورد ذكرهما في القرآن الكريم، هما: إنشقاق القمر، والإسراء والمعراج.

أولاً: إنشقاق القمر:

ثبتت معجزة إنشقاق القمر للرسول ﷺ بنص القرآن الكريم، وصريح الأحاديث الصحيحة. ففي أول سورة القمر، قال تعالى: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ ﴾[1].

أما الأحاديث، فمنها:

ما رواه البخاري[2] عن عبد الله بن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقين، فقال النبي ﷺ: اشهدوا[3].

وفي رواية مسلم[4] عنه أيضاً: بينما نحن مع رسول الله بمنى إذ انفلق القمر فلقتين فكانت فلقة وراء الجبل، وفلقة دونه. فقال لنا رسول الله ﷺ: اشهدوا.

وفي البخاري[5] عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ، أن يريهم آية، فأراهم القمر شقتين، حتى رأوا حراء بينهما.

= ـ نبع الماء من بين أصابع النبي ﷺ.
ـ تكثير الطعام القليل حتى أشبع العدد الكثير.
ـ حنين الجذع الذي كان يخطب إليه النبي ﷺ.
ـ ارتجاف جبل أُحد وإسكان الرسول ﷺ له.
ـ در اللبن من ثدي الجذعة التي لم يَنْزُ عليها الفحل.
[انظر: دلائل النبوة، لأبي نعيم، ج ٢/ ٣٢٥ ـ ٤٤٥، الفصل السابع عشر ـ إلى ـ الفصل الثالث والعشرين؛ الشفا، ج ١/ ٥٥٠ ـ ٦١٧، الفصل الثالث عشر ـ إلى ـ الفصل الحادي والعشرون].

(١) سورة القمر، آية (١).

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب المناقب ـ باب: سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية، ج ٣/ ١٣٣٠.

(٣) قال ابن حجر رحمه الله ومعنى «اشهدوا» أي اضبطوا هذا القدر بالمشاهدة، الفتح، ج ٧/ ٢٢٣.

(٤) صحيح مسلم ـ كتاب صفة القيامة والجنة والنار ـ باب: انشقاق القمر، ج ٤/ ٢٥١٨.

(٥) صحيح البخاري: كتاب فضائل الصحابة ـ باب انشقاق القمر، ج ٣/ ١٤٠٤.

والأحاديث الواردة في ذلك كثيرة جداً، حتى قال ابن كثير إنها بلغت حد التواتر. يقول رحمه الله: «وكان هذا [أي انشقاق القمر] في زمان رسول الله ﷺ، كما ورد في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة»(١).

ويدل إيراد المفسرين لتلك الأحاديث عند تفسيرهم لصدر سورة القمر، على اتفاقهم على وقوع الانشقاق(٢).

يقول ابن جرير رحمه الله: «وقوله «وانشق القمر» يقول جل ثناؤه وانفلق القمر، كان ذلك فيما ذكر على عهد رسول الله ﷺ وهو بمكة قبل هجرته إلى المدينة. وذلك أن كفار أهل مكة سألوه آية، فأراهم ﷺ انشقاق القمر آية حجة على صدق قوله وحقيقة نبوته، فلما أراهم أعرضوا وكذبوا وقالوا هذا سحر مستمر»(٣).

ويقول الرازي رحمه الله: «والمفسرون بأسرهم على أن المراد أن القمر انشق، وحصل فيه الانشقاق، ودلت الأخبار على حديث الانشقاق»(٤).

وسواءٌ أوقعت الحادثة بعد سؤال المشركين ـ كما تدل على ذلك رواية أنس ـ أم دون سؤال، فهي دليل واضح وبيّن على مكانة رسول الله ﷺ إذ شق من أجله هذا

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ج ٤/ ٢٨٠.

(٢) ذهب بعضهم إلى أن الانشقاق لم يقع بعد، وأنه سينشق بين يدي الساعة، وقد نسب الألوسي رحمه الله هذا القول إلى الحسن وعطاء رحمهم الله. (انظر روح المعاني، ج ٢٧/ ٧٦ ـ ٧٧) وقد رد ابن حجر رحمه الله هذا القول وانتصر لقول الجمهور، فقال: «والذي ذهب إليه الجمهور أصح كما جزم به ابن مسعود وحذيفة وغيرهما، ويؤيده قوله تعالى بعد ذلك ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ ﴾ فإن ذلك ظاهر في أن المراد بقوله «وانشق القمر» وقوع انشقاقه، لأن الكفار لا يقولون ذلك يوم القيامة، وإذا تبين أن قولهم ذلك إنما هو في الدنيا تبين وقوع الانشقاق». فتح الباري، ج ٧/ ٢٢٥، وقبله قال ابن الجوزي رحمه الله في رده على هذا القول: «وهذا القول الشاذ لا يقاوم الإجماع، لأن قوله «وانشق» لفظ ماض، وحَمْلُ لفظ الماضي على المستقبل يفتقر إلى قرينة تنقله ودليل، وليس ذلك موجوداً»، زاد المسير، ج ٨/ ٨٨.

(٣) جامع البيان، ج ٢٧/ ٥٠.

(٤) التفسير الكبير، ج ٢٩/ ٢٨.

الكوكب، وهو ما لم يعهد لأحد قبله كما يقول السفاريني[1] رحمه الله: «هذا الانشقاق الواقع للقمر من خصائص نبينا محمد ﷺ التي اختص بها عن سائر النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلم يشركه في ذلك غيره، ولم يقع لأحد سواه، وهو من أمهات معجزاته التي لا يكاد يعدلها بعد القرآن شيء ولا يعدلها آية من آيات الأنبياء عليهم السلام لظهور ذلك في ملكوت السموات..»[2].

ثانياً: الإسراء والمعراج[3]:

ورد ذكر حادثة الإسراء والمعراج في صدر سورتي «الإسراء» و «النجم» بقوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١ ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨ ﴾[6].

وجاء تفصيل الحادثة في الأحاديث الصحيحة[7].

ولشهرة الحادثة وطولها من جهة أخرى لن أسرد أحداثها، بل سأكتفي بإيراد الشواهد عند الحاجة.

---

(١) هو محمد بن أحمد السفاريني، عالم بالحديث والأصول والأدب، ولد في سفارين ـ من قرى نابلس عام ١١١٤ هـ، وتوفي بها عام ١١٨٨ هـ. من مؤلفاته: «كشف اللثام، شرح عمدة الأحكام»، «غذاء الألباب، شرح منظومة الآداب»، «التحقيق في بطلان التلفيق»، (انظر الأعلام، ج ٦/ ١٤).

(٢) لوامع الأنوار البهية، ج ٢/ ٢٩٣.

(٣) هي رحلة رسول الله ﷺ في صحبة جبريل عليه السلام من مكة إلى بيت المقدس ثم العروج به إلى السماء وعودته بعد ذلك إلى مكة في الليلة نفسها.

(٤) سورة الإسراء آية (١).

(٥) يعني جبريل عليه السلام.

(٦) سورة النجم، آية (١٣ ـ ١٨).

(٧) انظر: صحيح البخاري ـ كتاب فضائل الصحابة ـ باب المعراج، ج ٣/ ١٤١٠ وما بعدها.
صحيح مسلم ـ كتاب الإيمان ـ باب الإسراء برسول الله، ج ١/ ١٤٥ وما بعدها.

إن هذه الحادثة مع كونها من أعظم المعجزات الحسية القاهرة للبشر، لم يقع بها التحدي على صدق النبي ﷺ، بل على العكس، كانت فتنة عظيمة لبعض المسلمين[1] فضلاً عن الكفرة الجاحدين الذين لم تتحمل عقولهم المادية هذه الحادثة وراحوا يشككون في وقوعها، مما دعاهم الأمر إلى اختبار النبي ﷺ. فعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: لما كذبتني قريش قمت في الحِجْر، فَجَلا الله لي بيت المقدس. فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه[2].

ويؤيد هذا أن الآية عللت الإسراء بأنه لأجل أن يرى رسول الله ـ وليس الكفار ـ من آيات ربه، وأوضحت آيات المعراج في سورة النجم أنه فعلاً رأى هذه الآيات فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾[3].

ومهما كان موقف الناس ـ مؤمنهم وكافرهم ـ من الحادثة، وكيفما كان أثرها عليهم، فالمهم أن الحادثة جاءت لتثبيت النبي ﷺ على طريق الدعوة الطويل، ولتكريمه والحفاوة به في عالم الملكوت، وبيان منزلته عند ربه. ويمكن إيضاح ذلك في الفقرات التالية:

أولاً: مظاهر تثبيته في الحادثة:

إن الإسراء والمعراج وقع بعد حادثتين عظيمتين كان لهما أبلغ الأثر على رسول الله ﷺ.

الأولى: موت عضديه:

الأول: عضده القوي الحامي، عمه أبو طالب الذي حدب عليه وكان يحوطه

---

(١) يؤيد ذلك ما رواه أحمد في مسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أسري بالنبي ﷺ إلى بيت المقدس، ثم جاء من ليلته، فحدثهم بمسيره، وبعلامة بيت المقدس، وبعِيْرهم، فقال ناس: نحن نصدق محمداً بما يقول؟ فارتدوا كفاراً، فضرب الله أعناقهم مع أبي جهل، قال الشيخ أحمد شاكر في شرح المسند وإسناده صحيح، انظر: المسند/ شاكر، ج ٣/ ١٨٢، والحديث أورده الإمام ابن كثير في تفسيره (ج ٣/ ١٦) وقال: ورواه النسائي، وهو إسناد صحيح.

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب فضائل الصحابة، باب حديث الإسراء، ج ٣/ ١٤١٠.

(٣) سورة النجم، آية (١٨).

بالحماية ويدافع عنه حَمِيّة، فكان رسول الله ﷺ يستفيد من هذه التسهيلات لنشر دعوته ولذلك نالت قريش من رسول الله بموت أبي طالب ما لم تكن تطمع فيه في حياته.

والثاني: عضده الحاني، زوجته خديجة رضي الله عنها التي كانت تمسح عنه بحنانها ووفائها ومؤازرتها له آثار التعب عند عودته من جولاته.

وبموت هذين العضدين - في فترة متقاربة(١) - اجتمع على رسول الله من الهم والحزن ما لا يعلمه إلا الله. لذلك سمي ذلك العام بـ «عام الحزن»(٢). قال ابن إسحاق رحمه الله:

«ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا في عام واحد، فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب بهلك خديجة، وكانت له وزير صدق على الإسلام: يشكو إليها، وبهلك عمه أبي طالب، وكان له عضداً وحرزاً في أمره ومنعة وناصراً على قومه، وذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين، فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً»(٣).

الثانية: رد أهل الطائف له ومبالغتهم في إيذائه:

ذهب رسول الله ﷺ إلى أهل الطائف راجياً أن ينصروه بعد أن خذله قومه، لكن - للأسف - استقبلوه بالتجهم واغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويرجمونه

---

(١) وقع الاختلاف كبير بين المؤرخين في الفترة بين وفاتهما، فقيل ثلاثة أيام وقيل خمس وثلاثون ليلة، وقيل غير ذلك (انظر: دلائل النبوة للبيهقي، ج ٢/ ٣٥٢ - ٣٥٣).

(٢) تداولت كتب السيرة هذه التسمية، وذكر أبو زهرة في كتابه «خاتم النبيين» ج ١/ ٥٢٧، أنها من تسمية الرسول ﷺ، ولم أقف على أثر يؤيد ذلك [والله أعلم] وسواءٌ أكانت التسمية من قبل الرسول ﷺ أم لا، فإن حزن رسول الله ﷺ على وفاتهما لم يكن لمجرد أنه فقد بعض أقاربه فاستوحش لذلك، بل لأن التسهيلات التي كان يجدها لدعوته من خلال عمه سوف تتوقف، كما أن المؤازرة التي كان يلقاها من زوجته سوف تنتهي. فالذي أحزنه [والله أعلم] هو مصير الدعوة وليس مصلحته الخاصة - وإن كان لا يضيره الحزن على أقاربه، لأنه بشر.

(٣) سيرة ابن هشام، ج ٢/ ٢٥ - ٢٦.

بالحجارة[1] فاضطر إلى الرجوع إلى مكة ماشياً متأثراً من موقف اللؤم الذي قوبل به، وحزيناً على عدم قبولهم لدعوته.

جاءت رحلة الإسراء والمعراج بعد هاتين الحادثتين[2] الأليمتين لتسلية رسول الله ﷺ في مصابه، ولتخفف عنه ألم الحزن مما كان يلقاه من صدود الكفار، ولتقدم للجاحدين عامة وللؤماء الطائف خاصة الدليل الواضح على علو منزلة رسول الله ﷺ عند ربه. وكأن هذه المعجزة تقول بلسان حالها يا أهل الطائف إن كنتم أهدرتم مكانته ولم تقدروه حق قدره، بل لم تراعوا معه أدنى حقوق الضيافة والجيرة، فإن أهل السموات من ملائكة وأنبياء يحتفون بقدومه في صحبة جبريل عليهما السلام معززاً ومكرماً.

ثانياً: مظاهر تكريمه في الحادثة:

١ ـ توفيقه لاختيار الفطرة باختياره اللبن على الخمر، يقول رسول الله ﷺ: **«فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل عليه السلام اخترت الفطرة»**[3].

٢ ـ استقبال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام له بحفاوة، وترحيبهم به بقولهم: (مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح)[4] ودعاؤهم له بخير. وذلك في كل سماء.

٣ ـ رضا الأنبياء بإمامته لهم واعترافهم بتقدمه عليهم.

ففي رواية مسلم، قال رسول الله ﷺ: **«وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء فإذا**

---

(١) نفس المرجع السابق، ج ٢/ ٢٩.

(٢) هذا الذي ذهب إليه البيهقي والواقدي وابن الجوزي ومعظم كتاب السيرة من المعاصرين، خلافاً لابن إسحاق الذي قدَّم الإسراء والمعراج على الحادثتين (انظر: سيرة ابن هشام، ج ٢/ ٢، دلائل النبوة للبيهقي، ج ٢/ ٣٥٤، الوفاء بأحوال المصطفى لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، تحقيق: مصطفى عبد الواحد ـ دار الكتب الحديثة، مصر، الأولى ١٣٨٦ هـ، ج ١/ ٢١٨ ـ ٢١٩).

(٣) «اخترت الفطرة» فسروا الفطرة هنا بالإسلام والاستقامة، ومعناه [والله أعلم] اخترت علامة الإسلام والاستقامة (صحيح مسلم بشرح النووي، ج ٢/ ٢١٢).

(٤) انظر: صحيح البخاري ـ كتاب فضائل الصحابة ـ باب المعراج، ج ٣/ ١٤١٠ وما بعدها، صحيح مسلم، كتاب الإيمان ـ باب الإسراء برسول الله، ج ١/ ١٤٨.

موسى قائم يصلي... وإذا عيسى بن مريم قائم يصلي... وإذا إبراهيم عليه السلام قائم يصلي... فحانت الصلاة فأممتهم، فلما فرغت الصلاة قال قائل: يا محمد هذا مالِك صاحب النار فسلّم عليه، فالتفت إليه فبدأني بالسلام»[(١)].

٤ ـ بلوغه ﷺ أقرب مكان يمكن أن يصل إليه بشر.

ففي رواية مسلم، قال رسول الله ﷺ: **«ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام»**[(٢)].

٥ ـ إدخاله ﷺ الجنة.

ففي صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ: **«ثم أُدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ**[(٣)] **اللؤلؤ وإذا ترابُها المسك»**.

٦ ـ تخفيف الصلاة على أمته من خمسين إلى خمس مع حصولهم على أجر الخمسين، قال رسول الله: **«فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال: يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة. لكل صلاة عشرة. فذلك خمسون صلاة»**[(٤)].

المبحث الثاني

تحويل القبلة إلى المسجد الحرام

ظل رسول الله ﷺ ـ بعد قدومه إلى المدينة ـ يتجه في صلاته إلى بيت المقدس[(٥)]. ويبدو ـ والله أعلم ـ أن استمراره كان لتأليف قلوب اليهود وتحبيبهم

---

(١) صحيح مسلم ـ كتاب الإيمان ـ باب ذكر المسيح بن مريم، ج ١/ ١٥٧.

(٢) «ظهرت لمستوى» ظهرت: علوت، لمستوى: قال الخطابي: المراد به: المصعد، وقيل المكان المستوي.

«صريف الأقلام» قال الخطابي: هو صوت ما تكتبه الملائكة من أقضية الله تعالى ووحيه، وما ينسخونه من اللوح المحفوظ (صحيح مسلم بشرح النووي، ج ٢/ ٢٢١).

(٣) «جنابذ» هي القباب. واحدتها جُنبذة (صحيح مسلم بشرح النووي، ج ٢/ ٢٢٢).

(٤) صحيح مسلم ـ كتاب الإيمان ـ باب الإسراء برسول الله، ج ١/ ١٤٧.

(٥) لأنه منذ أن كان في مكة كان يستقبل بيت المقدس وبين يديه الكعبة، فعن ابن عباس رضي الله =

للدخول في الإسلام، ولكن هذا الأمر لم يثمر مع اليهود، بل على العكس من ذلك، اتخذوه ذريعة للطعن في الإسلام، فقد كانوا يقولون: «والله ما دَرَى محمد وأصحابه أين قبلتهم حتى هديناهم، فكره ذلك النبي ﷺ»[1] وكانوا يقولون كذلك: «يخالفنا محمد ويتبع قبلتنا»[2].

حزت تلك الكلمات في نفس النبي ﷺ فانبعث فيها أمنية التحول إلى الكعبة، لا سيما وقد ظهر من اليهود ما أيأسه من إسلامهم، فكان يقلّب وجهه في السماء كأنه ينتظر أمر ربه. وجاء في بعض الروايات أن النبي ﷺ صرح لجبريل بهذه الرغبة. فعن أبي العالية أن رسول الله ﷺ نظر نحو بيت المقدس، فقال لجبريل: وددت أن الله صرفني عن قبلة اليهود إلى غيرها ـ وكان يريد الكعبة لأنها قبلة إبراهيم ـ فقال له جبريل: إنما أنا عبد مثلك، ولا أملك لك شيئاً إلا ما أمرت، فادع ربك وسله، فجعل رسول الله ﷺ يديم النظر إلى السماء رجاء أن يأتيه جبريل بالذي سأل، فأنزل الله: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾[3]، وهكذا استجاب الله لرغبة[4] رسوله ﷺ

= عنهما أن النبي ﷺ كان يصلي وهو بمكة نحو بيت المقدس والكعبة بين يديه، وبعدما تحول إلى المدينة ستة عشر شهراً ثم صرفه الله إلى الكعبة (الدر المنثور، ج ١/ ٣٤٣).

(١) جامع البيان/ شاكر، ج ٢/ ٥٢٩.

(٢) نفس المرجع السابق، ج ٣/ ١٧٣.

(٣) سورة البقرة، آية (١٤٤) وانظر الدر المنثور، ج ١/ ٣٤٣، وأسباب نزول القرآن، ص ٣٩.

(٤) من نافلة القول أن أذكر أن هذا لا يعني أن الأحكام تشرع بناءً على رغبة الرسول الخاصة، ولو افترض ذلك فإن رغبات رسول الله ﷺ لم يكن منشؤها الهوى وحظوظ النفس بل كانت من أجل مصلحة هذا الدين. بينما قال عند ذكر رغبة اليهود أن يعود رسول الله ﷺ إلى قبلتهم: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ البقرة/ ١٤٥ لذلك ذكر العلماء أن حبه ﷺ أن يوجه إلى الكعبة كان من أجل ثلاثة أمور كلها لصالح الإسلام».

١ ـ لطعن اليهود في دينه بقولهم: «ما علم محمد دينه حتى اتبعنا» فكان اتجاهه إلى الكعبة دليلاً على استقلال دينه وعدم تبعيته لأهل الكتاب.

٢ ـ لأن الكعبة كانت قبلة إبراهيم عليه السلام، فتمنّى أن تكون هي قبلته لكونه أولى الناس بإبراهيم، وبُعث بالحنيفية التي بعث بها إبراهيم عليه السلام. =

وحوّله تجاه الكعبة بعد سبعة عشر شهراً، فعن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ صلى نحو بيت المقدس، ستة عشر أو سبعة عشر شهراً وكان رسول الله ﷺ يحب أن يوجه إلى الكعبة فأنزل الله: ﴿قد نرى تقلّب وجهك في السماء﴾ فتوجه نحو الكعبة[١].

وظاهر أن تحقيق الله لرغبة رسوله ﷺ يدل على مكانته عنده، كيف وقد صرحت الآية أن تحويل القبلة جاء لإرضاء رسول الله ﷺ، والملفت للنظر في سياق الآية أنه قبل أن يأمره الله بالتوجه إلى المسجد الحرام أكد له أنه سوف يوجهه إلى قبلة يرضاها، قال تعالى: ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ ﴾[٢]، يقول الطاهر بن عاشور رحمه الله: «فإن قلت ما فائدة قوله ﴿فلنولينك قبلة ترضاها﴾ قبل قوله: ﴿فول وجهك﴾ وهلا قال «قد نرى تقلب وجهك في السماء فول وجهك» الآية، قلت: فائدته إظهار الاهتمام برغبة رسول الله ﷺ وأنها بحيث يعتني بها، كما دل عليه وصف القبلة بجملة «ترضاها»[٣].

المبحث الثالث

إجابة دعاء النبي ﷺ

من دلائل إكرام الله لنبيه ﷺ إجابة دعواته التي كان يرفعها إليه، سواءٌ أكانت لصالح أوليائه أم ضد أعدائه. وحيث إن معظم هذه الدعوات ثبتت بالسنة[٤] فسأقتصر

= ٣ ـ ليستألف العرب لأنهم كانوا يعظّمون الكعبة، فربما كان اتجاهه إليها سبباً في استجابتهم له خاصة بعد موقف اليهود الرافض لأتّباعه. [انظر: المحرر الوجيز، ج ٢/ ١٤، التفسير الكبير، ج ٤/١٠٩].

(١) صحيح البخاري ـ كتاب القبلة ـ باب التوجه نحو القبلة حيث كان، ج ١/ ١٥٥، وصحيح مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة ـ باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة، ج ١/ ٣٧٤ وانظر: أسباب نزول القرآن، ص ٤٠.

(٢) سورة البقرة، آية (١٤٤).

(٣) تفسير التحرير والتنوير، ج ٢/ ٢٨.

(٤) من أمثلة دعواته لأوليائه واستجابة الله له:

ـ استسقاؤه للمسلمين عندما حبس عنهم المطر. =

على إيراد حادثة واحدة ذكرها القرآن، وهي تضرع النبي ﷺ إلى ربه يوم بدر وسؤاله النصر على أعدائه.

قال تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ ﴾[1].

وقد جاءت تفصيلات استغاثة النبي ﷺ يوم بدر في كتب السنة والسيرة.

روى مسلم[2] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لمّا كان يومُ بدر، نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً. فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: «اللهم! انجز لي ما وعدتني. اللهم! آت ما وعدتني. اللهم! إن تهلك هذه العصابة[3] من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»، فما زال يهتف بربه، ماداً يديه، مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤهُ عن منكبيه. فأتاه أبو بكر. فأخذ رداءهُ فألقاه على منكبيه. ثم التزمه من ورائه. وقال: يا نبي الله! كذاك[4] مناشدتك ربك. فإنه سيُنجزُ لك ما وعدك. فأنزل الله عز وجل: ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم[5]

= - دعاؤه لابن عباس رضي الله عنهما بالفقه في الدين وعلم التأويل.

- دعاؤه لأنس رضي الله عنه بكثرة المال والولد والبركة فيهما.

ومن أمثلة دعواته على أعدائه واستجابة الله له:

- دعاؤه على الملأ من قريش عندما وضعوا على ظهره سلاَ جزور وهو ساجد.

- دعاؤه على عتيبة بن أبي لهب أن يسلط الله عليه كلباً من كلابه.

- دعاؤه على كسرى أن يمزق الله ملكه.

ولمزيد تفصيل انظر: دلائل النبوة، لأبي نعيم - فصل: ذكر أخبار في أمور شتى دعا بها رسول الله ﷺ فاستجيب له، ج ٢/ ٤٤٧ وما بعدها؛ وانظر كذلك: الشفا. فصل إجابة دعائه ﷺ، ج ١/ ٦٢٥ وما بعدها.

(١) سورة الأنفال، آية (٩).

(٢) في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، ج ٣/ ١٣٨٣ وانظر: لباب النقول ص ١٠٧، ودلائل النبوة للبيهقي، ج ٣/ ٥١.

(٣) العصابة: الجماعة.

(٤) جاءت في بعض الروايات بلفظ «كفاك».

(٥) «أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين» أي: معينكم، والإمداد: الإغاثة، مردفين: متتابعين.

بألف من الملائكة مردفين﴾ فأمده الله بالملائكة. قال أبو زميل[1]: فحدثني ابن عباس قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه. إذ سمع ضربةً بالسوط فوقه. وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم[2]. فنظر إلى المشرك أمامه فخرَّ مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه[3]، وشق وجهه كضربة السوط فاخْضرَّ ذلك أجمع. فجاء الأنصاري فحدّث بذلك رسول الله ﷺ. فقال: «صدقت. ذلك من مدد السماء الثالثة» فقَتَلوا يومئذ سبعين. وأَسَروا سبعين.

المبحث الرابع

اللطف في عتاب[4] النبي ﷺ

العتاب هو أحد الأساليب البلاغية الرقيقة التي يُعبّر بها عن بقاء المودة والمحبة عند الملامة. يقول القرطبي رحمه الله: «إن المعاتبة لا تكون إلا من محب لحبيبه»[5] كما قال القائل[6]:

أعاتب ذا المودة من صديق ... إذا ما رابني منه اجتناب
إذا ذهب العتاب فليس ودٌّ ... ويبقى الود ما بقي العتاب

---

(١) هو سماك بن الوليد الحنفي، يكنى أبا زميل سكن الكوفة، روى عن ابن عباس وابن عمر وعنه ابنه زميل وسبطه عبد ربه بن بارق، قال ابن عبد البر اجمعوا على أنه ثقة (انظر تهذيب التهذيب، ج ٤/ ٢٣٥).

(٢) حَيْزُوم: اسم فرس الملك.

(٣) الخطم: الأثر على الأنف.
(انظر صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٢/ ٨٥).

(٤) العتب: الملامة، كالعتاب والمعاتبة. عاتبه معاتبة وعتاباً: أي لامه [تاج العروس، ج ٣/ ٣٠٩] يقول الخليل: وحقيقة العتاب مخاطبة الادلال ومذاكرة الموجدة [المصباح المنير، مادة «عتب»، ج ٢/ ٤٦٤] وبسّط الأزهري هذا التعريف فقال: والعتاب: مخاطبة الإدلال، وكلام المُدليّن أخلاءهم طالبين حُسنَ مراجعتهم، ومذاكرة بعضهم بعضاً ما كرِهوهُ مما كَسَبَهم الموجدة [تاج العروس، مادة «عتب»، ج ٣/ ٣١٠].

(٥) الجامع لأحكام القرآن، ج ١٨/ ٥٤.

(٦) لم يذكر القائل ولم أقف على اسمه.

وعتاب الله لرسوله ـ وإن سمي عتاباً ـ فهو ليس من جنس عتاب البشر بعضهم لبعض إذ لا شبه بين الخالق والمخلوق، ولأن الله قد يعاتب رسوله لا لتقصير أو خطأ بل لتنبيه أصحابه وتوجيههم من خلال رسول الله ﷺ فيوجه إليه الخطاب تشريفاً وتكريماً مع إنه يراد به غيره.

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة اتفق المفسرون على أنها جاءت بأسلوب العتاب لرسول الله ﷺ. والملاحظ أن العتاب الوارد في القرآن ليس من جنس واحد، بل هو أنواع: فمنه عتاب الاشفاق والمواساة، ومنه عتاب التنبيه على الكمال، ومنه عتاب الدفاع عن حقوق النبي ﷺ[1] وسأكتفي بإيراد مثال واحد لكل نوع.

أولاً: عتاب الإشفاق والمواساة:

والمراد عتاب الله لرسوله على مبالغته في التعرض للمكذبين واغتمامه لتكذيبهم حتى كاد أن يهلك نفسه أسفاً وحزناً على عدم إيمانهم، فيخاطبه الله مشفقاً عليه ومواسياً له. ومن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾[2][3].

وقوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣ ﴾[4].

ووجه العتاب في الآيتين ورود كلمة «لعل» الدالة على الإشفاق. وقد ذكر ابن حيان عدة معانٍ لـ «لعل» ورجح أنها للاشفاق في هذا الموطن فقال: والذي يظهر أنها للاشفاق على النبي ﷺ أن يبخع نفسه لعدم إيمانهم به[5].

---

(١) قسم الباحث عويد المطرفي العتاب ـ في رسالته لنيل الماجستير ـ إلى ثلاثة أقسام، هي: عتاب التوجيه، وعتاب التنبيه، وعتاب التحذير، وقد أفدت من تقسيماته لكني لم التزم بها. (انظر: آيات عتاب المصطفى في ضوء العصمة والاجتهاد، لعويد المطرفي ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة، ص ١٠٥).

(٢) قال الليث: بخع الرجل نفسه إذا قتلها غيظاً من شدة وجده بالشيء (التفسير الكبير، ج ٧٩/٢١) وقد تقدم الحديث عن أصل الكلمة في ص ٢٦٦ فارجع إليه.

(٣) سورة الكهف، آية (٦).

(٤) سورة الشعراء، آية (٣).

(٥) انظر: البحر المحيط، ج ٩٧/٦.

ثانياً: عتاب التنبيه على الكمال:

وهذا النوع من العتاب يصدر لتنبيه الرسول ﷺ في بعض اجتهاداته بأن الأولى كان ينبغي أن يفعل خلاف ما ذهب إليه، بالرغم أن ما ذهب إليه صحيح بالنظر إلى المقاييس المادية والبشرية، لذلك جاء أسلوب العتاب فيه رقيقاً هو أقرب إلى طلب الكمال له من اللوم. ومثال ذلك:

قوله تعالى: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾[(1)].

وعند التأمل في ملابسات صدور هذا العتاب وأسلوب العتاب ندرك أن العتاب لطلب الكمال له لا للومه على تقصير: فقد جاءت هذه الآية تعقيباً على إذن الرسول ﷺ للمنافقين في التخلف عن غزوة تبوك عندما استأذنوه. ولعل رسول الله ﷺ قد خَبَر حال المنافقين في غزواته السابقة، إذ لم يقع منهم إلا الخذلان كما في أُحد والخندق، فرأى أن المصلحة والخير في تخلفهم حتى لا يخذّلوا الجيش ويثبطوا الهمم، خاصة أن هذه الغزوة كانت من أشق غزوات رسول الله ﷺ على الإطلاق، إذ اجتمعت كل الشدائد فيها ـ شدة الحر وبعد المكان وشدة بأس العدو ـ لذلك أذن لهم غير آسف على تخلفهم، وقد أيدت الآية هذا التوقع، قال تعالى: ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ﴾[(2)] لكن لما كانت هذه الغزوة هي آخر غزوات الرسول ﷺ، أراد الله أن يهتك ستر المنافقين ويكشف أمرهم، إذ لم يكونوا مستعدين للقتال أصلاً، قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً ﴾[(3)] لكن لما أسرع الرسول ﷺ في الإذن لهم ظهروا كأنهم تخلفوا بسبب ذلك الإذن. لهذا فالصحيح هو ما ذهب إليه طائفة من المفسرين من أن العتاب كان على المسارعة في الإذن للمنافقين بالتخلف لا على نفس الإذن.

يقول الزمخشري رحمه الله: «معناه: ما لك أذنت لهم في القعود عن الغزو

---

(١) سورة التوبة، آية (٤٣).
(٢) سورة التوبة، آية (٤٧).
(٣) سورة التوبة، آية (٤٦).

حين استأذنوك واعتلوا لك بعللهم وهلا استأنيت بالإذن حتى يتبين لك مَن صدق في عذره ممن كذب فيه»[1].

ويقول أبو السعود رحمه الله والمعنى: «كأنه قيل لم سارعت إلى الإذن لهم وهلا تأنيت حتى ينجلي الأمر»[2].

ويقول صاحب المنار، والمعنى «أي لأي شيء أذنت لهم بالقعود والتخلف كما أرادوا، وهلا استأنيت وتريثت بالإذن»[3].

أما تصدير الآية بقوله تعالى: ﴿عفا الله عنك﴾ فليس دليلاً مسلماً لمن ذهب بأن هذا دليل على أن النبي ﷺ أخطأ، بحجة أن العفو لا يكون إلا عن خطأ، بل إن هذا من أساليب العرب المشهورة في الكلام، تصدير الكلام بالدعاء خاصة مع الأحباء والمقربين. يقول ابن الأنباري[4] رحمه الله: «لم يخاطب بهذا لجرم أجرمه، لكن الله وقَّره ورفع من شأنه حين افتتح الكلام بقوله: ﴿عفا الله عنك﴾ كما يقول الرجل لمخاطبه إذا كان كريماً عليه: عفا الله عنك، ما صنعت في حاجتي؟ ورضي الله عنك، هلا زرتني»[5].

وخلاصة القول أن الرسول ﷺ عوتب على عدم بلوغ الكمال في تصرفه الصحيح في أصله، إذ لو تلبث في الإذن لهم لكُشف المنافقون على حقيقتهم والله أعلم.

---

(١) الكشاف، ج ٢/ ١٥٣.
(٢) تفسير أبي السعود، ج ٤/ ٦٨.
(٣) تفسير المنار، ج ١٠/ ٤٦٤.
(٤) هو الإمام الحافظ اللغوي ذو الفنون، أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن الأنباري، المقرىء النحوي، ولد سنة اثنتين وسبعين ومئتين، كان صدوقاً ديناً من أهل السنة، وكان زاهداً ومتواضعاً. كان واسع الحفظ، قال عن نفسه: احفظ ثلاثة عشر صندوقاً. من مؤلفاته: «كتاب الوقف والابتداء» و «شرح السبع الطوال» و «اللامات» و «الأضداد»، مات سنة أربع وثلاث مئة (انظر: سير أعلام النبلاء، ج ١٥/ ٢٧٤ وما بعدها).
(٥) زاد المسير في علم التفسير، ج ٣/ ٤٤٥.

ثالثاً: عتاب الدفاع عن حقوق النبي ﷺ:

والمراد بهذا النوع أن النبي ﷺ قد يتنازل عن حق من حقوقه تأليفاً لقلوب أتباعه وإرضاءً لرغبتهم، فيعاتبه الله على ذلك الخلق النبيل، لا لكونه نبيلاً، بل لكونه هضماً لحقوقه ﷺ. وأوضح مثال على ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١ ﴾[1].

لنزول هذه الآية سببان مشهوران:

الأول: نزلت بسبب تحريم النبي ﷺ على نفسه العسل إرضاءً لأزواجه.

أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، ويمكث عندها، فواطيت أنا وحفصة على: أيتنا دخل عليها فلتقل له: أكلت مغافير، إني أجد منك ريح مغافير، قال: «**لا، ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، فلن أعود له، وقد حلفت، لا تخبري بذلك أحداً**»[2].

الثاني: نزلت بسبب تحريم النبي ﷺ على نفسه التسرية بأم ولده مارية القبطية.

أخرج النسائي عن أنس أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرّمها على نفسه، فأنزل الله عز وجل: **﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾** الآية[3].

---

(١) سورة التحريم، آية (١).

(٢) صحيح البخاري - كتاب التفسير - سورة التحريم، ج ٤/ ١٨٦٦، وصحيح مسلم في كتاب الطلاق - باب وجوب الكفارة على من حرّم امرأته ولم ينو الطلاق، ج ٢/ ١١٠٠ وللحديث روايات مطولة في البخاري ومسلم.

«واطيت»: اتفقت، «مغافير» جمع مغفور، وهو صمغ حلُو له رائحة كريهة (فتح الباري، ج ٩/ ٢٩٠).

(٣) سنن النسائي بشرح السيوطي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة (دار البشائر الإسلامية - بيروت - الطبعة الثانية - ١٤٠٦ هـ) - كتاب عشرة النساء - باب الغيرة، ج ٧/ ٧١ [وقد صحح الحديث =

وقد اختلف العلماء في ترجيح أحد السببين، لكن أكثرهم ذهب إلى القول الثاني كما يقول ابن الجوزي رحمه الله: «وإلى هذا ـ يعني القول الثاني ـ ذهب سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء والشعبي ومسروق ومقاتل والأكثرون»[1].

كما رجحه الجصاص[2] في أحكام القرآن بقوله: «.. والأظهر أنه حرم مارية، وأن الآية فيها نزلت لأنه قال: ﴿تبتغي مرضات أزواجك﴾ وليس في ترك شرب العسل رضا أزواجه وفي ترك قرب مارية رضاهن»[3].

وإلى هذا مال القاسمي فقال: «والذي يظهر لي هو ترجيح روايات تحريم الجارية في سبب نزولها وذلك لوجوه:

منها: أن مثله يبتغي به مرضاة الضرات، ويهتم به لهن.

ومنها: أن روايات شرب العسل لا تدل على أنه حرمه ابتغاء مرضاتهن، بل فيه أنه حلف لا يشربه أنفة من ريحه»[4].

وأيّاً كان سبب النزول فإن الآية جاءت بصيغة العتاب وبأسلوب رقيق يحمل في طياته دلائل تكريمه ﷺ والدفاع عن حقوقه.

هذه أهم أساليب القرآن ـ في نظري ـ التي أظهرت مكانة الرسول ﷺ في الدنيا والآخرة وكانت دليلاً على كرامته عند ربه، وكان لها أبلغ الأثر في تثبيته.

= ابن حجر] (فتح الباري، ٩/٢٨٨، وابن كثير في تفسيره، ج ٤/٤١٢) وللحديث روايات أخرى، انظر: جامع البيان، ج ٢٨/١٠٢، أسباب نزول القرآن، ص ٤٦٦، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٨/١٧٨.

(١) زاد المسير في علم التفسير، ج ٨/ ٣٠٣.

(٢) هو أحمد بن علي أبو بكر الرازي الحنفي، الإمام الكبير الشأن المعروف بالجصاص وهو لقب له، سكن بغداد وكان إمام أصحاب أبي حنيفة في عصره، وكان مشهوراً بالزهد، صنف «أحكام القرآن» و «شرح مختصر الطحاوي» و «شرح الجامع الكبير» توفي سنة ست وسبعين وثلاث مائة (انظر: طبقات المفسرين للداوودي، وهامشه، ج ١/ ٥٦).

(٣) أحكام القرآن للجصاص، ج ٣/ ٤٦٤.

(٤) محاسن التأويل، ج ١٦/ ٢١٥.

الخاتمة

في نهاية هذا البحث وقبل عرض النتائج، أحب أن أقرر أن قضية تثبيت النبي ﷺ ـ حتى أدى مهمته كاملة ـ أصبحت حقيقة تاريخية واقعية ثابتة لا تحتاج إلى جدال أو نقاش، إلا أن فائدة العلم بها تكمن في كيفية الإفادة من هذا المنهج لتثبيت المسلمين بصفة عامة ودعاة الإسلام بصفة خاصة في كل زمان ومكان، وخاصة عند غربة الإسلام وبداية مرحلة الخلافة الراشدة. مع ملاحظة أن بعض الأساليب كانت خاصة بالرسول ﷺ.

ومن هنا يمكن إجمال أهم نتائج البحث فيما يلي:

١ ـ إن البشرية في حاجة إلى هدي الإسلام مهما بلغ شأوها في التقدم المادي، لذلك كان البحث عن منهج رباني يساعد أهل الحق على الثبات على مبادئهم في عصر كثرت فيه الفتن أمراً ضرورياً.

٢ ـ إن الصراع بين الحق والباطل صراع قديم متجدد، فهو سنة ماضية جارية لا تتوقف حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وإلا باندحار الباطل أو مهادنة أهل الحق وسكوتهم ـ لا قدّر الله.

٣ ـ إن تدبر قصص النبيين والأمم السابقة ومحاولة استخلاص السنن من أهم الوسائل المعينة في الثبات على الحق، كيف لا وقد ذكر الله عز وجل صراحة أن من أهداف القصص التثبيت ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾[1].

---

(١) سورة هود، آية (١٢٠).

٤ ـ لما كانت دعوة الأنبياء تخرج من مشكاة واحدة وغايتها واحدة، تطابقت كذلك مواقف الأمم من الدعوات الربانية حتى أصبحت تلك المواقف سنناً في الدعوات الربانية. وأهم هذه السنن التي أبرزها القرآن الكريم ما يلي:

أ ـ إن الكبراء وكما يسميهم القرآن «الملأ» هم الطليعة الأولى من خصوم الدعوة، فهم أول من يكذبها ويعاديها ويحاربها، وعند عجزهم عن نيل مأربهم ـ وهم عاجزون ـ يسعون إلى أسلوب ماكر، وهو مساومة الدعاة في مبادئهم ولو بالاتفاق معهم على أنصاف حلول تمهيداً لنسف النصف الباقي. فلينْتبِه الدعاة من هذا المنعطف.

ب ـ إن المستضعفين في الغالب هم أتباع الرسل، وهم الطليعة الأولى في الاستجابة للرسل، وسبب ذلك سلامة فطرتهم في الجملة وعدم تأثرها بالجاه أو المال أو الرياسة المفسدة للفطرة في الغالب ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾[1] وهذه السنّة يتخذها المجرمون ذريعة لعدم الاستجابة ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾[2].

جـ ـ إن إحساس المجرمين بالهزيمة أمام الحق الأبلج يدفعهم إلى إثارة الشبهات الباطلة حول الحق والانتقاص منه والتشكيك في صلاحيته ـ خاصة في هذا القرن ـ كي يفقد الناس الثقة به وبدعاته. فلا ينبغي التأثر بجعجعة الباطل.

د ـ من أساليب المجرمين للتوهين من شأن الدعوة والدعاة الاستهزاء بالدعاة والطعن في عقولهم ونفوسهم باتهامهم بالسحر والجنون أو بما في حكمهما من المصطلحات الحديثة، كوصفهم بالجمود والتطرف والتشدد والإرهاب والخيانة وإثارة الفتن، أو بالطعن في عفتهم ونزاهتهم، أو بالتشكيك في وطنيتهم وولائهم لأمتهم المسلمة.

هـ ـ إن التهديد بالأذى تارة وإيقاع الأذى تارة أخرى هو من أساليب المجرمين لصرف الدعاة عن مبادئهم أو إعاقة الدعوة بالحيلولة بينهم وبين الناس، إما بحبسهم أو بإرعاب اتباعهم أو بتنفير الناس من حولهم.

---

(١) سورة العلق، آية (٦ ـ ٧).

(٢) سورة هود، آية (٢٧).

و ـ إن الطلبات التعجيزية هي إحدى أساليب المكذبين لإيقاع الدعاة في حرج وعنت، ولتبرير عدم استجابتهم لهم. وأعجب هذه الطلبات استعجالهم بالعذاب كدليل على صدق الرسل وأتباعهم، وهو أوضح دليل على سفاهة المكذبين وحماقتهم، إذ إن تحقق هذا الطلب يعني هلاكهم. ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلۡـَٔـٰنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴾[1].

ي ـ على الرغم من أن الصراع بين الحق والباطل سجال؛ تارة يدال للحق وأخرى يدال عليه، إلا أن العاقبة هي للحق مهما طال ليل الباطل ﴿ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾[3].

٥ ـ إن المجرمين لا يتورعون عن اغتيال دعاة الحق بطريق مباشر أو غير مباشر إذا رأوا ثباتهم على مبادئهم ورفضهم للمساومات والاغراءات المادية. فليتوقع الدعاة ذلك.

٦ ـ على دعاة الإسلام بذل جهدهم واستفراغ وسعهم في الدعوة واستخدام جميع الوسائل المشروعة لعرض الإسلام على الناس صافياً نقياً بأسلوب سهل وعبارة واضحة، فإن استجابوا فهو حظهم في الدنيا والآخرة، وإن رفضوا فما على الرسول إلا البلاغ المبين.

٧ ـ يجب أن لا يؤثر رَفْض الناس للدعوة على ثقة الداعية فيما يدعو إليه، فله أسوة حسنة في بعض الأنبياء الذين يأتون يوم القيامة ولم يستجب لهم أحد[4] وما ضرهم ذلك أبداً ولا أثّر في ثقتهم بدعوتهم.

---

(١) سورة يونس، آية (٥١ ـ ٥٢).
(٢) سورة القصص، آية (٨٣).
(٣) سورة الصافات، آية (١٧١ ـ ١٧٣).
(٤) إشارة إلى حديث: (عرضت عليَّ الأمم، فجعل يمر النبيُّ معه الرجل، والنبي معه الرجلان، والنبي معه الرهط، والنبي ليس معه أحد...) صحيح البخاري، كتاب الطب، باب من لم يرق، ج ٥/ ٢١٧٠.

٨ ـ إن الصبر سلاح الداعية الذي لا يستغني عنه إذا أراد الثبات على مبادئه إذ لا ثبات بدون صبر ومصابرة. أما الضجر والاستعجال فهو أول أسباب التذبذب والسقوط.

٩ ـ إن العبادة عموماً والصلاة والذكر والدعاء بصفة خاصة زاد هام يعين الداعية على الثبات (اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)[١].

١٠ ـ إن الوعود بالنصر والتمكين والفتح المبين التي نزلت على الرسول ﷺ وأصحابه وهم مستضعفون بمكة كانت إحدى صور التأييد لهم وهي من وسائل التثبيت المهمة. ولا خلاف أن بعض هذه الوعود كانت خاصة بالرسول ﷺ أو لحوادث بعينها، لكن كثيراً من هذه الوعود ـ خاصة ما جاء بصيغة العموم ـ يمكن أن تظل وعوداً لأهل الحق في كل زمان ومكان ـ إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ـ فضلاً عن تلك الوعود والبشائر التي وردت عن الرسول ﷺ بأن الدائرة ستكون للإسلام وأهله. ومن هذه البشائر ما يلي:

قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون. حتى يختبىء اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر يا مسلم، يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله إلا الغرقد[٢] فإنه من شجر اليهود»[٣].

وفي بشارة ثانية يقول رسول الله ﷺ: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام وذلاً يذل الله به الكفر»[٤].

---

(١) تقدم تخريجه صفحة (١٠).

(٢) الغرقد: ضرب من الشجر العِضاة وشجر الشوك (النهاية، ج ٣/ ٣٦٢).

(٣) رواه مسلم ـ كتاب الفتن وأشراط الساعة ـ باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت، من البلاء، ج ٤/ ٢٢٣٩.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ج ٤/ ١٠٣ وصححه الألباني. انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة، لمحمد ناصر الدين الألباني (المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ دمشق ـ الطبعة الرابعة ـ ١٤٠٥ هـ)، ج ١/ ٧.

وفي بشارة ثالثة يقول الرسول ﷺ عندما سئل أي المدينتين تفتح أولاً: القسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله ﷺ: مدينة هرقل تفتح أولاً، يعني قسطنطينية[1].

وفي بشارة رابعة يقول رسول الله ﷺ: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً عاضاً[2] فيكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكاً جبرياً فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، ثم سكت»[3].

نسأل الله أن يكون ذلك قريباً وما ذلك على الله بعزيز.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين
وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

---

(١) مسند أحمد/شاكر، ج ٥/ ٦٦٤٥، قال الشيخ أحمد شاكر وإسناده صحيح، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة، ج ١/ ٧.
فتح القسطنطينية السلطان العثماني محمد الثاني الفاتح سنة ٨٣٣ هـ فهذا الجزء الأول من البشارة قد تحقق ونحن ننتظر الجزء الآخر، وعسى أن يكون قريباً.
(انظر: تاريخ الدولة العثمانية، محمد فريد بك المحامي ـ تحقيق إحسان حقي ـ دار النفائس، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ هـ ـ ص ١٦٠).

(٢) جاء في رواية «ثم يكون ملك عَضُوض» وفي رواية «عُضُوض» وهذا من أبنية المبالغة وهو جمع «عِضّ» بالكسر، وهو الخبيثُ الشّرِسُ. والمعنى: أي يصيب الرعية فيه عسف وظلم، كأنهم يُعَضُّون فيه عضاً.
لسان العرب، ج ٧/ ١٩١، مادة «عضض»، النهاية، ج ٣/ ٢٥٣.

(٣) مسند أحمد، ج ٤/ ٢٧٣، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة، ج ١/ ٨.

الفهارس

- فهرس الآيات القرآنية
- فهرس الأحاديث والآثار
- فهرس الأعلام المترجم لهم
- فهرس المصادر والمراجع
- فهرس الموضوعات

فهرس الآيات القرآنية مرتبة في سورها

البقرة

رقم الصفحة		رقم الآيات
٢٨٣	صم بكم عمي فهم لا يرجعون	١٨
٣٥١	وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة	٣٥
١٩٧	وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به	٤١
١٩٧	ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون	٤٢
٢٨١	واستعينوا بالصبر والصلاة	٤٥
٢٣٠	وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة	٥٥
٨٧	وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض	٧٦
١٩٨	فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله	٧٩
٧٥و ٧٢	وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله	٨٣
٢٨٢	.. وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس	٨٧
٢٤٦ و ٢٤٥	وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم	٨٨
٨١	ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من يستفتحون على الذين كفروا	٨٩
٨٣	ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب	١٠١
١٨٤	... فيتعلمون منها ما يفرقون به بين المرء وزوجه	١٠٢
٢٠٠،٢٠١	ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها	١٠٦
٢٠١	ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض	١٠٧
٥٠	بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن	١١٢

١٤٤	ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم	١٢٠
٢٤٨،٦٠	... وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر	١٢٦
٣٥١	وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل	١٢٧
٨٩	ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك	١٢٩
٤٩	ووصى بها إبراهيم بنيه... ويعقوب	١٣٢
٤٩	... قالوا نعبد إلهك... وإله آبائك	١٣٣
٢٠٢	سيقول السفهاء من الناس ما ولّاهم عن قبلتهم	١٤٢
٢٠٣ و٣٦٠	وكذلك جعلناكم أمة وسطاً	١٤٣
٤٠٠و ٤٠١	قد نرى تقلب وجهك في السماء	١٤٤
٣٩٩	ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم	١٤٥
٨٢و٢٦٩	الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم	١٤٦
٢٦٩	الحق من ربك فلا تكونن من الممترين	١٤٧
٣٣٧	... وبشر الصابرين ـ إلى ـ وأولئك هم المهتدون	١٥٥ ـ ١٥٧
١٠٥	وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا	١٧٠
٢٨٥	ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع	١٧١
٧٣	يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام	١٨٣
٣٣	ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله	٢٠٧
٢٧٦	أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم	٢١٤
٤٢و١٤٤	ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم	٢١٧
١٠٣	وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً	٢٤٧
١٥٧	ولما برزوا لجالوت ـ إلى ـ ولكن الله ذو فضل على العالمين	٢٥٠ ـ ٢٥١
٩١	تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق	٢٥٢
٣٤٥	تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض	٢٥٣
٣٢	الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم	٢٥٥
٢٣٠	لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي	٢٥٦
١٦٨	.. فليكتب وليملل الذي عليه الحق	٢٨٢

آل عمران

١٥	ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا	٨
٢٦٨	... وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد	٢٠
٣٦٧و٣٦٨	قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله	٣١

٩٣	إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران	٣٣
٩٣	ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم	٤٤
٥٠	.. قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون	٥٢
٢٦٩	إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم - إلى الحق - من ربك فلا تكن من الممترين	٥٩ - ٦٠
٢٧٠	فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا	٦١
٩١	إن هذا لهو القصص الحق	٦٢
٥٨	قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم	٦٤
٥٦	ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً	٦٧
٦٨، ٣٥٢	إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي	٦٨
١٩٧	يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق	٧١
٢٠٣	وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل	٧٢
٢٠٤	ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم	٧٣
٨٣و٣٤٧	وإذ أخذ الله ميثاق النبيين	٨١
٨٣	فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون	٨٢
٦٤	قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم	٨٤
٥١	ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه	٨٥
٩و١٢	يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته	١٠٢
٣٠٣	ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة	١٢٣
٣٦٦، ٣٧٦	وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون	١٣٢
١٤٦، ١٥١	وتلك الأيام نداولها بين الناس	١٤٠
١٤٢	وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين	١٤١
٣٥١	وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل	١٤٤
٢٧٨	وكأين من نبي قاتل - إلى - والله يحب المحسنين	١٤٦ - ١٤٨
٢٣٩	ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه	١٥٢
١٤٢	... وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم	١٥٤
٣٢٥	لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً	١٦٤
٣٣	ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً	١٦٩
٢٦٥	ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر	١٧٦
١٤١	ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه	١٧٩
١٩٨	الذين قالوا إن الله عهد إلينا	١٨٣

النساء

٩	يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة	١
٣٧٦	... ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار	١٣
٣٧٧	ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً	١٤
٥٨	واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً	٣٦
٣٦٠	فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا	٤١
٣٧٧	يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض	٤٢
١٩٩	ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت	٥١
٢٠٠	أولئك الذين لعنهم الله	٥٢
٣٦٦، ٣٦٧	يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول	٥٩
٣٧٠	ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك	٦٠
٤٩	وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله	٦٤
٣٦٩	فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك	٦٥
٣٧٦	ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم	٦٩
٣٦٧	من يطع الرسول فقد أطاع الله	٨٠
٤٠	ولأضلنَّهم ولأمنيَّنهم ولأمرنَّهم	١١٩
٣٦٥	يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله	١٣٦
٣٤، ٣٣١	إن الذين يكفرون بالله ورسله .. ـ إلى قوله ـ أولئك هم الكافرون حقاً	١٥٠ ـ ١٥١
٦٥	والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم	١٥٢
٢٣٠	يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء	١٥٣
٤٣	فبظلم من الذين هادوا ـ إلى ـ وأخذهم الربا وقد نهوا عنه	١٦٠ ـ ١٦١
٣٤٩	إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده	١٦٣
٣٧	رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة	١٦٥
٣١٣	لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله	١٧٢

المائدة

٣٢٩ و ١٠ و ٥١،	.. اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي	٣
٢٥٦	يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمت الله عليكم إذ همّ قوم	١١
٧،٢	... وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة	١٢
٢٢٣	قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين	١٥

٣٢٤	يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام	١٦
٣٦٥	يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل	١٩
٩٢	لئن بسَطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك	٢٧
٧٥	من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس	٣٢
٣٥١	وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب	٤٨
٦٧، ٦٩	يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك	٦٧
٢٥٥، ٣٥٢		٦٧
٢٦٧	... فلا تأس على القوم الكافرين	٦٨
١٣٧	لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلاً	٧٠
٥٧و٦٢	... وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم	٧٢
٣٦٨	وأطيعوا الله والرسول واحذروا	٩٢
١٠٥	وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا	١٠٤
٣٥١	إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي	١١٠
٥٧	وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم - إلى - وأنت على كل شيء شهيد	١١٦ - ١١٧
٣١٩	إن تعذبهم فإنهم عبادك	١١٨

الأنعام

٢٣٠	وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين	٤
٢٤٠	ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم	٧
٢٢٠، ٢٢٤	وقالوا لولا أنزل عليك مَلَك	٨
٢٢٦	ولو جعلناه مَلَكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم	٩
١٢٢	ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم	١٠
١٦٥، ١٦٦	... حتى إذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين	٢٥
١٧٢	قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك	٣٣
١٣١، ١٥٣، ٢٧٩	ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا	٣٤
٢٨٤	إنما يستجيب الذين يسمعون	٣٦
٢١٩، ٢٢٢	وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه	٣٧
٢٨٣	والذين كذبوا بآيتنا صم وبكم في الظلمات	٣٩

١٨٤ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ٥٠
١١٠ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ٥٢
١٥٦ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر ـ إلى ـ إن ربك حكيم عليم ٧٤ـ٨٣
٢٨٣ ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ٨٨
٢٧٨ أولئك الذين هدى الله فبهداهم أقتده ٩٠
١١٨ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ٩١
٢١٩، ٢٢٢ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ١٠٩
٢٢٢ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى ١١١
٣٩، ٤١ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً ١١٢
٤٣ ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ١١٣
٣٢٩ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ١١٥
٢٨٤ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً ١٢٢
١٨٩، ٢٤٢ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى ١٢٤
٣٣٢ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ١٢٥
٨٥، ٧٥ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ١٥١
٧٥ ولا تقربوا مال اليتيم. . ـ إلى ـ . . لعلكم تتقون .... ١٥٢ ـ ١٥٣

الأعراف

٣٩ . . . قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ١٢
٤١، ٦٠ قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ٢٤
٦٠ قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ٢٥
٢٠١ . . . ألا له الخلق والأمر ٥٤
١٩٥ فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى ٥٧
٥٤و٣٥٢ لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ٥٩
٩٩و١٢٠ قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين ٦٠
٢٦١ قال يا قوم ليس بي ضلالة ٦١
١٥٧ فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك ٦٤
٣٥٢ وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ٦٥
٣٩ و ٥٥ قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة ٦٦
٢٦٢ قال يا قوم ليس بي سفاهة ٦٧
١٠٥و١٤٨ قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا . .
فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ٧٠

٣١٦ فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا ٧٢
٥٥و٣٥٢ وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ٧٣
١٠٦ قال الملأ الذين استكبروا ـ إلى ـ إنا بالذي آمنتم به كافرون .... ٧٥ ـ ٧٦
١٤٨و١٤٩ فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا ٧٧
١٢٥ وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم ٨٢
٥٥و٣٥٢ وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ٨٥
١٣٧ قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب ٨٨
٩٩،١٠١ وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون ٩٠
٤٧، ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا ـ إلى ـ فلا يأمن مكر الله .... ٩٦ ـ ٩٩
١٣٤ فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ـ إلى ـ قالوا آمنا برب العالمين، رب موسى وهارون .... ١١٨ ـ ١٢٢
١٣٥ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنَّكم ١٢٤
١٣٤ قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم ١٢٣
١٠٠ وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ١٢٧
٢٣٠ وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها ١٣٢
١٠٧ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ١٣٧
٣٥١ قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس ١٤٤
٨٤،١٦٩، ٢٣٧ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه ١٥٧
١٦٩، ٣٣٠، ٣٥٣، ٣٧٥، ٣٦٥ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ١٥٨
٢٨٥ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ... ١٧٩
٢١٨ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ١٨٧
١٨٣ قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ١٨٨
٣١٦ خذ العفو وأمر بالعُرف وأعرض عن الجاهلين ١٩٩

الأنفال

٣٦٥ ... فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله ١
٣٠٤،٤٠٢ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم ٩
٣٠٤ وما جعله الله إلا بشرى. . ـ إلى ـ . . واضربوا منهم كل بنان ١٠ ـ ١٢
٣٠٤ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ١٧

٣٦٦ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا وأنتم تسمعون ٢٠
٢٨٥ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ٢٢
٢٧٥، ٣٠٤ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض ....
.... ٢٦
٢٥٦ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك ٣٠
١٦٥ وإذا تتلى عليهم آيتنا قالوا قد سمعنا ٣١
١٤٧، ١٤٩ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ....
٢٥٠ .... ٣٢
٢٥٢ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم
وهم يستغفرون ٣٣
٢٥٣ وما لهم ألاّ يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام ٣٤
١٤١ ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض ٣٧
١٤٥ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ٣٩
٢٨٥ إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون ٥٥

التوبة

٢٣٩ لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ٢٥
٤٠٥ عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك ٤٣
٤٠٥ ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ٤٦
٤٠٥ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم ٤٧
٣٨٤ ... قل أبالله وآياته كنتم تستهزؤون. لا تعتذروا قد كفرتم ٦٥ ـ ٦٦
٢١١ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً ١٠٧
٢١١ لا تقم فيه أبداً ١٠٨
٣٤٣ ما كان لأهل المدينة أن يتخلفوا عن رسول الله ... ولا يرغبوا
بأنفسهم عن نفسه ١٢٠
٣١٦، ٣١٨ لقد جاءكم رسول من أنفسكم.. بالمؤمنين رؤوف رحيم ١٢٨

يونس

١٨٧ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم ٢
٢٤١، ٢٣٩ وإذ تتلى عليه آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا
ائت بقرآن غير هذا ١٥
٢٤١ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ١٦

٢٢٣،٢٢٠	ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه	٢٠
١٧٥،١٧٠	أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله	٣٨
٢٨٣	ومنهم من يستمعون إليك. . ـ إلى ـ . . . ولو كانوا لا يبصرون	٤٢ ـ ٤٣
٤١١،٢٥١	أثم إذا ما وقع آمنتم به الآن وقد كنتم به تستعجلون	٥١
٤١١	ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد	٥٢
٢٦٥	ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعاً	٦٥
٤٩	فإن توليتم فما سألتكم من أجر. . .	٧٢
١٠٠و١٠٥	قالوا اجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض	٧٨
٢٠	وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين	٨٤
٧٣	وأوحينا إلى موسى وأخيه	٨٧
٢٦٩	فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك	٩٤
٢٣١	إن الذين حقت عليهم. . ـ إلى ـ . . . حتى يروا العذاب الأليم	٩٦ ـ ٩٧
٢٦٨	. . . أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين	٩٩
٢٧١	قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني	١٠٤

هود

٢٥١،١٤٨	ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه	٨
٢٦٦	فلعلك تارك بعض ما يوحىٰ إليك وضائق به صدرك	١٢
١٧٤،١٧٠	أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات	١٣
١٧٤	فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله	١٤
٢٦٩،٢٩	. . . ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة. .	١٧
٥٥	ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين. . . أن لا تعبدوا إلا الله	٢٥ ـ ٢٦
١١٤،١٠١ ٤١٠	فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا	٢٧
١٠٩	ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا يعقلون	٣٠
١٤٨،١٤٧	قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا. . . فأتنا بما تعدنا	٣٢
١٥٣،١٥٠	قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين	٣٣
١٢٣	ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه	٣٨
٣٥١	. . . ونادى نوح ابنه وكان في معزل	٤٢
٣٥١	قيل يا نوح اهبط بسلام منا	٤٨
٩٥	تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك	٤٩

٥٥ وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ٥٠
١١٦و١٢١ قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك ٥٣
١٢٤ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ٥٤
١٥٧ ولمّا جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ٥٨
١٢١ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ٥٩
٥٥ وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ٦١
١٢٥ قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا ٦٢
١٥٨ فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً . . ـ إلى ـ . ألا بعداً لثمود .... ٦٦ ـ ٦٨
٣٥١ يا إبراهيم أعرض عن هذا ٧٦
١٥٨ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها ـ إلى ـ وما هي من الظالمين ببعيد .... ٨٢ ـ ٨٣
٥٥ وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ٨٤
١٠٥و١٢٦ قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ٨٧
١٣٢ قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول ٩١
١٥٨ ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً . . ـ إلى ـ ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود . ٩٤ ـ ٩٥
١٥١ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ١٠٢
٢٦٩ فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء ١٠٩
٤٧و٤٠٩ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ١٢٠

يوسف

٢٠٧ . . . فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ١٨
٦١ . . . إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ٣٧
٦١ . . . أنت وليّ في الدنيا والآخرة توفني مسلماً ١٠١
٩٥ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم ١٠٢
٢٦٤ وما أكثر الناس لو حرصت بمؤمنين ١٠٣

الرعد

٢٥١ ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت ٦
٢٢٠،٢٢٣ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ٧
٤٤ . . . فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض . . ١٧
٢٢٠،٢٢٣ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ٢٧
٢٣٢ ولو أن قرآناً سيّرت به الجبال أو قطعّت به الأرض ٣١

١٢٣	ولقد استهزىء برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا	٣٢
١٨٨	ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية	٣٨

إبراهيم

٢٩	وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم	٤
١١٤و١١٦	... قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا	١٠
١١٩و١٢٢	قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم	١١
١٨٩		
٢٧٩	وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرنَّ	١٢
١٣٥و١٣٦	وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا	
١٥٢		١٣
١٣٦و١٥٢	ولنسكننكم الأرض من بعدهم	١٤
٣١٩	رب إنهن أضللن كثيراً من الناس	٣٦
٦٠	ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب	٤١
٣٠	ليجزي الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب	٥١

الحجر

١٧٧	وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون	٦
٢٢١	لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين	٧
٢٢٥،٢٢٦	ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين	٨
٣٣٠	إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون	٩
٢٣٠	ولو فتحنا عليهم باباً من السماء ـ إلى قوله ـ بل نحن قوم مسحورون	١٤ ـ ١٥
١١٨	فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين	٢٩
٣٩	فاخرج منها فإنك رجيم، وأن عليك اللعنة إلى يوم الدين	٣٤ ـ ٣٥
٤٠	قال رب بما أغويتني لأزيّنن لهم في الأرض ولأغوينَّهم	٣٩
٣٣٩	لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون	٧٢
٣٣٢ و ٢٨١	ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون	٩٧
٢٨١	فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين	٩٨
١٢ و ٢٨١	واعبد ربك حتى يأتيك اليقين	٩٩

النحل

٥٣	... أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون	٢

١٦٥ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ٢٤
٥٣ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ٣٦
١٩٠ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ٣٨
١٨٧ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم ٤٣
٢٦٨ فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين ٨٢
٣٦ ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم ٨٩
٣١٦ إن الله يأمر بالعدل. . . ـ إلى ـ . . . وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتهم ٩٠ـ٩١
١٧٥، ١٧٦ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ١٠٣
٥٦ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يكن من المشركين ١٢٠
٢٦٥ واصبر وما صبرك إلا بالله ـ إلى قوله ـ إن الله مع الذين اتقوا......... ١٢٧ ـ ١٢٨

الإسراء

٣١٣و٣٩٥ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام ١
٣١٣ ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً ٣
٣٧ ... ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ١٥
٥٨ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ٢٣
٢٨٣ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ٤٤
٢٩٠ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون ٤٥
١٩٠، ١٩٢ وقالوا أإذا كنا عظاماً ورفاتاً أإنا لمبعوثون ٤٩
١٩٢ قل كونوا حجارة أو حديداً، أو خلقاً مما يكبر في صدوركم .... ٥٠ ـ ٥١
٣٤٥ ... ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ٥٥
٢٣١، ٢٣٤ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ٥٩
١١٨ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ٧٠
٢٨ ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى ٧٢
١٦٣ وإن كادوا ليفتنونك ـ إلى ـ ولولا أن ثبتناك لقد كدت .... ٧٣ ـ ٧٤
٣٥٥ ... عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ٧٩
١٩٥، ٢١٤، ويسألونك عن الروح ....
٢١٥ .... ٨٥
١٧٤ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ٨٨
٢٢١ وقالوا لن نؤمن لك ـ إلى ـ فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً .... ٩٠ ـ ٩١
٢٢١، ٢٥١ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ٩٢
٢٢٩ أو يكون لك بيت من زخرف............ ٩٣

١١٤و١١٥ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ....
١٨٧ .... ٩٤
١١٧و١١٩ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون ٩٥
١٦٧ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ١٠٥
١٦١، ٢٣٨ وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ١٠٦

الكهف

٩و٢٢٦ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا ....
٤٠٤ .... ٦
٩٢ نحن نقص عليك نبأهم بالحق ١٣
٩٢و٢١٦ سيقولون ثلاثة... رابعهم كلبهم.................. ٢٢
٧٥ واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك - إلى - واصبر نفسك .... ٢٧ - ٢٨
١١٢و١١٣ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شآء فليكفر ٢٩
٢١٥ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر ١٠٩
١٨٩ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد ١١٠

مريم

٢٩ ... ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً ٢١
٦٢، ٧٢ قال إني عبد الله.. - إلى - وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً .... ٣٠ - ٣١
٦٢ وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً. - إلى - ذلك عيسى ابن مريم قول الحق٣٢ - ٣٣
١٣٢ ... لئن لم تنته لأرجمنَّك واهجرني ملياً ٤٦
٧٢ واذكر في الكتاب اسماعيل.. - إلى - وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة . ٥٤ - ٥٥
٧٣ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة ٥٩
٢٢٥ وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا ٦٤
١٩١، ١٩٢ ويقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حياً ٦٦
١٩٢ أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ٦٧

طه

٥٦ وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى. إنني أنا الله لا إله إلا أنا .... ١٣ - ١٤
٦١و٢١٨ إن الساعة آتية.. - إلى -.. فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها .... ١٥ - ١٦
٣٣١ قال رب اشرح لي صدري ٢٥

١٨٩	. . . وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني	٣٩
٧٩	فأتياه فقولا إنا رسولا ربك	٤٧
١٢٩	قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم	٦٣
١٣٥و١٥٦	. . فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف	٧١
١٥٦	إنا آمنا بربنا ليغفر لنا . . ـ إلى ـ . . والله خير وأبقى	٧٢ ـ ٧٣
٦٢و١٥٦	إنه من يأت ربه مجرماً . . ـ إلى ـ . . وذلك جزاء من تزكى	٧٤ ـ ٧٦
٥٦	. . . وانظر إلى إلهك الذي ظلت . . ـ إلى ـ . . . إنما إلهكم الله	٩٧ ـ ٩٨
٣٥١	وعصى آدم ربه فغوى	١٢١
٢٨	قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو . . ـ إلى ـ وكذلك اليوم تنسى	١٢٣ ـ ١٢٦
٢٨٠	فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس	١٣٠
٢٢٠و٢٢٤	وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه	١٣٣
٣٨	ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا	١٣٤

الأنبياء

١٨٧	. . . وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم	٣
١٧٧	بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر	٥
١٨٨	وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً	٧
١٨٨	وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام	٨
٤٩و٥٣	وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه	٢٥
٣١٣	وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون	٢٦
٣١٣	لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون	٢٧
٢٢٥	. . . ولا يشفعون إلا لمن ارتضى	٢٨
١٠٤	إذ قال لأبيه وقومه . . ـ إلى ـ . . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين	٥٢ ـ ٥٣
١٠٤	قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين	٥٤
٥٦	فجعلهم جذاذاً	٥٨
١٣٨	قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين	٦٨
١٣٨	قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم	٦٩
٧٢	. . . وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة	٧٣
٥٩	. . . إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً	٩٠
٦٤	إن هذه أمتكم أمة واحدة	٩٢
٦٨	وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون	٩٣
١٠	وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين	١٠٧

الحج

٢٨٣	ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض .... والشمس والقمر	١٨
٧٤	وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً	٢٧
٥٩	.. فاجتنبوا الرجس.. ـ إلى ـ ... حنفاء لله غير مشركين به	٣٠ ـ ٣١
١٤٠	الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة	٤١
٨٩و٢٤٢، ٢٤٤	الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس	٧٥
٣٦٠	... وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس	٧٨

المؤمنون

٣١٧	قد أفلح المؤمنون.. ـ إلى ـ ... والذين هم على صلواتهم يحافظون	١ ـ ٩
٩٩و١١٦	فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم	٢٤
١٢٨	إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى يحين	٢٥
٦٠و١١٥	وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة	٣٣
٦٠و١١٦ و١٢٠	ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون	٣٤
٣٠	أيعدكم أنكم إذا متم.. ـ إلى ـ.. إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا	٣٥ ـ ٣٧
٣٥و٦٣	ثم أرسلنا رسلنا تترا	٤٤
١٠٧	ثم أرسلنا موسى وأخاه.. ـ إلى ـ .. وكانوا قوماً عالين	٤٥ ـ ٤٦
١٠٧و١١٥	فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون	٤٧
٦٤	وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون	٥٢
٦٩	فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون	٥٣
١٨٢	أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون	٦٩
٣٤	ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض	٧١
٢٧و١٩٦	أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون	١١٥

النور

٢٠٥و٢٠٧	إن الذين جاؤوا بالإفك.. ـ إلى ـ .. وأن الله رؤوف رحيم	١١ ـ ٢٠
٢١٠	لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً	١٢
٢١٠	لولا جاؤوا عليه بأربعة شهداء	١٣
٣٧٥	ومن يطع الله ورسوله ويخشى الله ويتقه فأولئك هم الفائزون	٥٢

١٢١و٣٧٥ ... وإن تطيعوه تهتدوا ٥٤
١٤٠و٣٠١ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ٥٥
٣٦٦و٣٧٦ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول ٥٦
٣٦٨و٣٧٧، لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً ....
٣٧٨ .... ٦٣

الفرقان

٣٥٢ تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ١
١٧٠و١٧٥ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ٤
١٦٥و١٦٧ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه ٥
١٦٧ قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض ٦
١٨٧و٢٢٠ وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ٧
١٧٧ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا ٩
١٨٩ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ٢٠
٢٢١ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة ٢١
٢٢٥و٢٢٧ يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ٢٢
٣٧٧ ويوم يعض الظالم على يديه ـ إلى ـ يا ويلتىٰ ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً . ٢٧ ـ ٢٨
١٦٢و٢٣٦ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ٣٢
٢٣٦ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ٣٣
١٢٠و٢٤١ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي بعث الله رسولاً ٤١
١٢٠ إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ٤٢

الشعراء

٢٦٦و٤٠٤ لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ٣
٢٣٠ إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية ٤
٦٦ فأتيا فرعون فقولا إنا رسولُ رب العالمين ١٦
١٢٩ قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ٢٧
١٣٤ قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين ٢٩
١٥٨ فأوحينا إلى موسى أن أضرب بعصاك. . ـ إلى ـ ثم أغرقنا الآخرين ... ٦٣ ـ ٦٦
٦٠ والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ٨٢
٦٠ ولا تخزني يوم يبعثون. . ـ إلى ـ إلا من أتى الله بقلب سليم .... ٨٧ ـ ٨٩

٦٥	كذبت قوم نوح المرسلين	١٠٥
١٠٩	قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون. . ـ إلى ـ وما أنا بطارد المؤمنين	١١١ ـ ١١٤
١٣٢	قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين	١١٦
٤٦	أتبنون بكل ريع آية. . ـ إلى ـ وإذا بطشتم بطشتم جبارين	١٢٨ ـ ١٣٠
١٢٩	قالوا إنما أنت من المسحَّرين	١٥٣
٤٦	أتأتون الذكران من العالمين. . ـ إلى ـ بل أنتم قوم عادون	١٦٥ ـ ١٦٦
١٥٨	قال إني لعملكم من القالين. . ـ إلى ـ إلا عجوزا في الغابرين	١٦٨ ـ ١٧١
٧٨	أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ـ إلى ـ ولا تعثوا في الأرض مفسدين	١٨١ ـ ١٨٣
١٢٩	قالوا إنما أنت من المسحَّرين	١٨٥
١١٥	وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين	١٨٦
١٤٨	فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين	١٨٧
٩٢	وإنه لتنزيل رب العالمين	١٩٢
٨٦و٩٣	وإنه لفي زبر الأولين	١٩٦
٨٦	أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل	١٩٧
٢٥١	أفبعذابنا يستعجلون	٢٠٤
١٨٥	وما تنزلت به الشياطين. . ـ إلى ـ إنهم عن السمع لمعزولون	٢١٠ ـ ٢١٢
١٧٢و٢٨٨	وأنذر عشيرتك الأقربين	٢١٤
١٨٤	هل أنبئكم على من تنزل الشياطين. . ـ إلى ـ وأكثرهم كاذبون	١٢١ ـ ٢٢٣
١٨٦	ألم تر أنهم في كل واد يهيمون. . ـ إلى ـ وأنهم يقولون ما لا يفعلون	٢٢٥ ـ ٢٢٦

النمل

٥٠	. . . وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين	٤٤
١٥٠	قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة	٤٦
١٣٧	فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم	٥٦

القصص

٩٩	إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً	٤
٣٥١	. . . فوكزه موسى فقضى عليه	١٥
٦٣	فأرسله معي ردءاً يصدقني. . ـ إلى ـ قال سنشد عضدك بأخيك	٣٤ ـ ٣٥
٩٩	وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري	٣٨
٩٦	وما كنت بجانب الغربي. . ـ إلى ـ لعلهم يتذكرون	٤٤ ـ ٤٦

٩٦ فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً ٤٧
٢٦٨ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ٥٦
٢٠٨و٢٤٨ وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ٥٧
٢٤٨ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ٥٨
٢٤٩ وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها ٦٠
٢٤٩ أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه ٦١
١٥٢و٤١١ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ٨٣
٣٠٦ إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ٨٥
٢٤٢ وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك ٨٦

العنكبوت

١٣٠ آلم. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا .... ١ ـ ٢
١٣٠و١٤١ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا ٣
١٣٨ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه ٢٤
١٤٨ ... فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله ٢٩
٦١ ... فقال يا قوم اعبدوا الله وارجو اليوم الآخر ٣٦
١٥٧ فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ٤٠
١٦٩ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ٤٨
٢٢٠ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ٥٠
٢٢٤ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ٥١
٢٥١و٢٥٤ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب ٥٣
٢٤٨ أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم ٦٧

الروم

١٩٣ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ٢٧
١٥٢و٢٧٧ ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاؤوهم بالبينات ٤٧
٢٥٤و٢٧٧ فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون ٦٠

لقمان

٢٦٦ ومن كفر فلا يحزنك كفره ـ إلى ـ نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب ٢٣ ـ ٢٤

الأحزاب

٣٤١و٣٩١ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ٦

٣٤٩ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح ٧
٣٠٤ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود ٩
١١، ٣٧٢ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ٢١
٣٠٤ وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ٢٥
٣٠٥ وأنزل الذين ظاهروهم. . - إلى - وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم . ٢٦ - ٢٧
٣٧٦ . . . ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً ٣٦
٣٥٢و٣٢٧ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ٤٠
٨٥و٣٢٣، يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . . . .
٣٥١و٣٦٠ . . . . ٤٥
٢٨٣ وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ٤٦
٣٨٨ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي - إلى - إن تبدوا شيئاً . . . . ٥٣ - ٥٤
٣٣٥ إن الله وملائكته يصلون على النبي ٥٦
٢١٨ يسألك الناس عن الساعة ٦٣
٣٧٧ يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا . . ٦٦
٩ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً ٧٠
٩، ١٢١، ٣٧٥ . . . من يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ٧١

سبأ

١٩٦ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة - إلى - لهم عذاب من رجز أليم . . . . ٣ - ٥
١٩٠ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل - إلى - افترى على الله كذباً . . . . ٧ - ٨
٣٥٢ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ٢٨
١٠٢ وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون . ٣٤
١٠٢ وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً ٣٥
١٠٢ قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ٣٦
٢٤٢ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى ٣٧
١٧٠ . . . وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى ٤٣
١٨١ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ٤٦

فاطر

٤٠ يا أيها الناس إن وعد الله حق. . - إلى - إن الشيطان لكم عدو . . . . ٥ - ٦
٢٦٧ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ٨

١٩٥	والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً	٩
٢٨٤	وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء	٢٢
٢٦٨	إن أنت إلا نذير	٢٣
٣٥و٦٣ و٢٦٨	إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً، وإن من أمة إلا خلا فيها نذير	٢٤

يس

٢٥٧و٣٤١	يس والقرآن الحكيم. . ـ إلى ـ . . تنزيل العزيز الرحيم	١ ـ ٥
٢٥٧	لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم. . ـ إلى ـ فأغشيناهم فهم لا يبصرون	٦ ـ ٩
٣٣	واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية. . ـ إلى ـ إذ أرسلنا إليهم اثنين	١٣ ـ ١٤
١١٥	قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا	١٥
١٣٣	قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم	١٨
١٨٥	وما علمناه الشعر وما ينبغي له	٦٩
٢٨٤	لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين	٧٠
١٩٣و١٩٠	وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه	٧٨
١٩٣	قل يحييها الذي أنشأها أول مرة	٧٩
١٩٤	أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم	٨١
١١٨و١٩١	إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون	٨٢

الصافات

١٧٧	ويقولون أإنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون	٣٦
٨٩و٩٠	بل جاء بالحق وصدّق المرسلين	٣٧
٥٦	فراغ عليهم ضرباً باليمين	٩٣
١٣٤و١٥٢، ٤١١	ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين. . ـ إلى ـ وإن جندنا لهم الغالبون	١٧١ ـ ١٧٣

ص

١٧٧	أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب	٤
٢٤١	أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكري	٨
٢٥١	وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب	١٦
٣١٣	اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود	١٧
١٩٦	وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً. ـ إلى ـ. أم نجعل المتقين كالفجار	٢٧ ـ ٢٨

٣١٣	وَوَهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب	٣٠
٣١٣	... إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب	٤٤
٣١٣	واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق.. ـ إلى ـ... لمن المصطَفَيْن الأخيار	٤٥ ـ ٤٧

الزمر

٢٧٣	لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء	٤
٢٥٥	أليس الله بكاف عبده	٣٦
٢٧٣	ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك	٦٥

غافر

٩٩و١٣٨	وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم	٢٦
٦١	ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد.. ـ إلى ـ.. فماله من هاد	٣٢ ـ ٣٣
٦١	... وأن الآخرة هي دار القرار.. ـ إلى ـ.. وتدعونني إلى النار	٣٩ ـ ٤١
٢٧٧و١٥٣، ٣٠٧	إنا للنصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا	٥١
٢٧٧	فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك	٥٥
١٩٤	لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس	٥٧
٢٧٧	فاصبر إن وعد الله حق فإما نرينّك بعض الذي نعدهم	٧٧
١٨٧	ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك	٧٨

فصلت

٢٤٤	وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه	٥
٢٤٦	قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد	٦
١١٦	إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم.. ألا تعبدوا إلا الله	١٤
١٩٥	ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء	٣٩

الشورى

٤٩	كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم	٣
٦٩و٣٤٩	شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك	١٣
٦٨	وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم	١٤
١٤٨و٢١٧	يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها	١٨
١٧١	أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك	٢٤

الزخرف

١٢٣ وكم أرسلنا من نبي في الأولين. وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزؤون ٦ ـ ٧
٣٧٤ . . . سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون ١٣ ـ ١٤
١٠٣ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها ٢٣
١٠٤ قال أوَ لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ٢٤
٢٤١ وقالوا لولا نُزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ٣١
٢٤٢و٢٤٣ أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم ٣٢
٣٢٦ وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ٤٤
٥٣ وسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة ٤٥
١٢٧ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا . . ـ إلى ـ فلما جاءهم بآياتنا إذا
هم منها يضحكون . . . . ٤٦ ـ ٤٧
١٢٧ . . . قال يا قوم أليس لي ملك مصر . . ـ إلى ـ أم أنا خير من هذا . . .
الذي هو مهين ولا يكاد يُبِيْن . . . . ٥١ ـ ٥٢
٩٩ فاستخف قومه فأطاعوه ٥٤
٢٧٣ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ٨١

الدخان

٢٢١ إن هؤلاء ليقولون . . ـ إلى ـ فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين . . . . ٣٤ ـ ٣٦
٢٩١ إن شجرت الزقوم طعام الأثيم . . . . ٤٣ ـ ٤٤
٢٩١ خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ٤٧
٢٩١ ذق إنك أنت العزيز الكريم ٤٩

الجاثية

٢٢١ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ٢٥
٢٢٧ قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة ٢٦

الأحقاف

١٧١ أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً ٨
٦٣و١٨٨ قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ٩
٨٨ قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد ١٠
١٠١ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه ١١

٦٨	ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة	١٢
١٤٨	قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا	٢٢
١٥٠	قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به	٢٣
١٩٤	أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهنّ بقادر على أن يحيّ الموتى	٣٣
٢٧٨	فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم	٣٥

محمد

٣٦٦	يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم	٣٣

الفتح

٣٠٥	إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً	١
٣٣٣	ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر	٢
٣٨٣	لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه	٩
٣٦٤	ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا اعتدنا للكافرين سعيراً	١٣
٣٠٢	لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام	٢٧
٣٥١	محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم	٢٩

الحجرات

٣٧٩	يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله	١
٣٨٢	يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي	٢
٣٨٥	إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك	٣
١٠٩و١١٣	يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى	١٣

ق

٢٨٠	فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس	٣٩
٢٨٠	ومن الليل فسبحه وأدبار السجود	٤٠

الذاريات

١٢٩	فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون	٣٩
١٢٨	كذلك ما أتى الذين من قبلهم. . - إلى - بل هم قوم طاغون	٥٢ ـ ٥٣
٢٨٣	وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون	٥٦

الطور

١٧٨ فذكر فما أنت بنعمت ربك بكاهن ولا مجنون ٢٩
١٧٤ أم يقولون تقوَّله بل لا يؤمنون، فليأتوا بحديث مثله .... ٣٣ ـ ٣٤

النجم

٣٤٠ والنجم إذا هوى. . ـ إلى ـ. . علمه شديد القوى .... ١ ـ ٥
٣١٤ فأوحى إلى عبده ما أوحى ١٠
٣٩٥ ولقد رآه نزلة أخرى. . ـ إلى ـ. . ما زاغ البصر وما طغى .... ١٢ ـ ١٧
٣٩٦ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ١٨

القمر

٣٩٣ اقتربت الساعة وانشق القمر ١
٣٩٣ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ٢
١١٤و١١٦ كذبت ثمود بالنذر، فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه .... ٢٣ ـ ٢٤
١١٥ أبقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر ٢٥
٤٠٠ سيهزم الجمع ويولون الدبر ٤٥

الحديد

٧٤ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ٢٥

المجادلة

١٥٨ . . . حَسْبهم جهنم يصلونها فبئس المصير ٨
٣٨٦ يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة . . ١٢
٣٨٧ أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقة ١٣
١٥٥ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ٢١

الحشر

٢٠٥ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لأخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب . ١١

الصف

٦٧و٨٨و٣٥١ . . . إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول ٦
١٣٤ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ٩

الجمعة

٢٣٧و٣٢٦ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ٢

التغابن

١١٤ ألم يأتكم نبأ الذين كفروا . . ـ إلى ـ ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم ... ٥ ـ ٦

الطلاق

١٣٣ ... إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا ٣

التحريم

٤٠٧ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك ١

الملك

٣٥ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ١٤

٢١٧ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ٢٥

القلم

٣٤٠ ن والقلم وما يسطرون ١

١٨٢و٣٤٠ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ٢

١٨٢و٣١٤ وإنك لعلى خلق عظيم ٤

٢٩٩ أن كان ذا مال وبنين ١٤

١٦٥و٢٢٩ إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ١٥

٢٩٩ سنسمه على الخرطوم ١٦

٢٧٨ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت ٤٨

الحاقة

١٥٧ فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . . ـ إلى ـ فهل ترى لهم من باقية .... ٥ ـ ٨

٦٧ فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ١٠

١٧٨ فلا أقسم بما تبصرون. وما لا تبصرون .... ٣٨ ـ ٣٩

١٧٨ إنه لقول رسول كريم . . ـ إلى ـ . تنزيل من رب العالمين .... ٤٠ ـ ٤٣

١٧١ ولو تقول علينا بعض الأقاويل . . ـ إلى ـ . فما منكم من أحد عنه
حاجزين .... ٤٤ ـ ٤٧

نوح

٢٥٤ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ١٠
٣٢٣ وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ١٦
٦٠ والله أنبتكم من الأرض نباتاً، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً . . . . ١٧ ـ ١٨

الجن

٣١٤ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ١٩
٣٧٧ . . . ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا ٢٣

المزمل

٢٨١ يا أيها المزمّل . . ـ إلى ـ . . إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً . . . . ١ ـ ٥
٢٧٥ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً ١٠

المدثر

٢٩٤ ذرني ومن خلقت وحيدا ١١
٢٩٢ وجعلت له مالاً ممدوداً ١٢
٢٩٣ وبنين شهودا ١٣
٢٩٣ ومهدت له تمهيداً ١٤
٢٩٣ كلا إنه كان لآياتنا عنيدا ١٦
٢٩٥ سأرهقه صعودا ١٧
٢٩٣ إنه فكر وقدّر . . ـ إلى ـ . . . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . . . . ١٨ ـ ٢٤
٢٩٣ إن هذا إلا قول البشر ٢٥
٢٩٥ سأصليه سقر ٢٦
٢٩١ عليها تسعة عشر ٣٠

النازعات

١٩١ يقولون أإنا لمردودون في الحافرة. أإذا كنا عظاماً نخرة . . . . ١٠ ـ ١١
٢١٨ يسألونك عن الساعة أيان مرساها فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها ٤٢ ـ ٤٤

التكوير

١٨١، ٢٦٢ وما صاحبكم بمجنون ٢٢

الأعلى

٦٨ إن هذا لفي الصحف الأولى، صحف إبراهيم وموسى .... ١٨ ـ ١٩

الغاشية

٢٦٨ فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمصيطر .... ٢١ ـ ٢٢

الضحى

٣٤٠ والضحى والليل إذا سجى .... ١ ـ ٢

٣٤٠ ما ودعك ربك وما قلى ٣

٣٤٠ ولسوف يعطيك ربك فترضى ٥

الشرح

٣٣٠ ألم نشرح لك صدرك ١

٣٣٢ ووضعنا عنك وزرك ٢

٣٣٤ الذي أنقض ظهرك ٣

٣٣٤ ورفعنا لك ذكرك ٤

العلق

٤١٠ كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى .... ٦ ـ ٧

٢٩٢ إن إلى ربك الرجعى. . ـ إلى ـ. . كلا لا تُطعه .... ٨ ـ ١٩

قريش

٢٤٨ لإيلاف قريش. . ـ إلى ـ. . وآمنهم من خوف .... ١ ـ ٤

الكوثر

٣٥٦ ـ٣٥٧ إنا أعطيناك الكوثر ١

الكافرون

٤٢ قل يا أيها الكافرون. . ـ إلى ـ. . لكم دينكم ولي دين .... ١ ـ ٦

المسد

١٨٣و٢٨٨، تبت يدا أبي لهب. . - إلى -. . في جيدها حبل من مسد . . . .
٢٨٩ ١ ـ ٥

الإخلاص

٢٧٣ لم يلد ولم يولد ٣

فهرس الأحاديث والآثار

(أ)

أتدرون أي يوم هذا؟	٣٨٢
أتريد أن تميتها موتات	٣٢١
إذا أراد الله بعبده خيراً عجل له العقوبة	١٤٣
إذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار	٣٨٥
أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن (عبد الله بن عمرو).	٣١٤
أخبركم بما سألتم عنه غداً	٢١٣
أخف عنا. . .	٢٦١
اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك	٣٧٠
أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي	٣٥٣
أكان وجه رسول الله مثل السيف. قال: بل مثل القمر (البراء بن عازب)	٣٢٥
ألا أخبركم بأهل النار؟	٢٩٨
الآن نغزوهم ولا يغزوننا	٣٠٥
أنا أولى الناس بعيسى بن مريم	٦٧
أنا سيد ولد آدم يوم القيامة. .	٣٤٥، ٣٥٥
أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية	٣٩٣
أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها	٣٩٣
انشق القمر على عهد رسول الله شقين	٣٩٣
إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن	٣٥٥
إن الشيطان قال وعزتك يا رب	٤١

إن عظم الجزاء مع عظم البلاء	١٤٣
إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن	١٤
إن الله كتب الإحسان على كل شيء	٣٢١، ٣٢٢
إن الله ليملي للظالم	١٥١
إن لي أسماءً: أنا محمد. . .	٣٢٨
إنما أنا لكم بمنزلة الوالد	٣١٨
إنما سمي القلب من تقلبه	١٣
إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي	٣٢٩
إني عبد الله وخاتم النبيين	٨٩، ٣٢٨
إني على جناح سفر	٢١٠
إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به. . .	٣٧٦، ٣٧٧
إني لأدخل الصلاة وأنا أريد إطالتها	٣٢٠
أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله.	٢٥٥
أي واد هذا؟	٤٢

(ب)

بعثت لأتمم مكارم الأخلاق	٣١٦
بعث رسول الله لأربعين سنة (ابن عباس)	١٦١
بقي كلها غير كتفها	٣٣
بينا أنا مع النبي ﷺ في حرث (ابن مسعود)	٢١٤
بينما أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر	٣٥٨
بينما نحن مع رسول الله بمنى إذ انفلق القمر. . . (ابن مسعود)	٣٩٣

(ت)

. . . تكون النبوة فيكم ما شاء الله	٤١٣

(ث)

ثلاث أقسم عليهن. . .	٣٢
ثم أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ.	٣٩٩
ثم عُرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام	٣٩٩
ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور (عائشة)	٢٥٧
ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون	١٩٥

(ج خ)

١١٠ جاء الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن، فوجدوا رسول الله.
١١٢ جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله..
٢٢٩ جاء ناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ، فقالوا.
١٨٠ خرجنا مع قومنا غفار (أبو ذر).

(ر)

٣٢٥ رأيت رسول الله ﷺ في ليلة اضحيان (جابر بن سمرة)
٢٨٨ رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز (طارق المحاربي)
٣٣ ربح البيع.

(س ش ص)

٢٣٣ سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً
١٨٣ سأل الناس رسول الله ﷺ عن الكهان.
٢٧٩ شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة (خباب بن الأرت).
٣١٩ صلى رسول الله ﷺ ليلة، فقرأ بآية (أبو ذر).

(ع ف ق)

٤٤١ ... عرضت عليَّ الأمم...
١٧٣ فإني سمعت محمداً ﷺ يزعم أنه قاتلك (سعد بن معاذ).
٣٩٨ فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإنا من لبن.
٣٩٩ فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام.
١٧٣ فهل كنتم تتهمونه بالكذب (حوار أبي سفيان مع هرقل).
٢١٥ قالت قريش لليهود علمونا شيئاً نسأل هذا الرجل. (ابن عباس).
١٤٤ قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاءً. قال الأنبياء.
٣٣٨ قولوا: اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد...
٣٠٢ قوموا فانحروا ثم احلقوا..

(ك)

١٨٥ كان أبغض الحديث إليه... (عائشة).
٦٣ كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء.

١٦٢	كان رسول الله أجود الناس.
٤٠١	كان رسول الله ﷺ صلى نحو بيت المقدس.
٤٠٧	كان رسول الله ﷺ يشرب عسلاً عند زينب.
٣٧٩	كانوا يقولون يا محمد، يا أبا القاسم فنهاهم الله (ابن عباس).
٢٧٩	كأني انظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً (ابن مسعود).
٣٧٦	كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى.
١٠٩	كنا مع النبي ستة نفر فقال المشركون. . . (سعد بن أبي وقاص).
٢٥٨	كنت مع النبي ﷺ في الغار، فرفعت رأسي (أبو بكر).
٣٥٨	الكوثر: هو الخير الذي أعطاه الله إياه (ابن عباس).
٣٨٠	كيف تقضي إذا عرض لك قضاءً

(ل)

١٣٩	لقد أخفت في الله وما يخاف أحد، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحا
٣١٧	لقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين (أنس).
١٣	لقلب ابن آدم أشد تقلباً.
٣١٩	لكل نبي دعوة مستجابة.
٣٩٠	لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم
٣٠١	لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة.
٤٠٢	لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين.
٣٩٦	لما كذبتني قريش قمت في الحجر.
٣٥٨	لما نزلت «إنا أعطيناك الكوثر» قال رسول الله. . .
٢٨٩	لما نزلت «تبت يدا أبي لهب» أقبلت العوراء. .
١٧٢	لما نزلت «وأنذر عشيرتك الأقربين».
٢٠٣	لمّا وجه النبي ﷺ إلى الكعبة قالوا. . . (ابن عباس).
٨٣، ٣٤٨	لم يبعث الله عز وجل نبياً ادم فمن بعده. . . (علي وابن عباس).
٣١٧	لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً
٣١٩	اللهم أمتي أمتي.
٢٦٤	اللهم اهد دوساً وأت بهم.
١٤	اللهم ثبت قلبي على دينك.
٤١٢	اللهم يا مقلب القلوب. . .
٢٩٢	لو دنا مني لأختطفته الملائكة عضوا عضوا.
١٢٣	لو رحم الله أحداً من قوم نوح لرحم أم الصبي.
١١٢	لو فعلت ذلك حتى تنظر ما الذي يريدون (عمر بن الخطاب).

٤١٢ . . . ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار.
٣٧ ليس أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل.

(م)

ما حملكم على إلقاء نعالكم.
٣٢٥ ما رأيت أحسن من رسول الله ﷺ (أبو هريرة).
٢١٨ ما المسؤول عنها بأعلم من السائل.
٣١٧ ما ضرب رسول الله بيده شيئاً (عائشة).
٣٢١ ما قطع من البهيمة وهي حية فهو ميت.
١٢١ ما من الأنبياء نبي إلا أعطى ما مثله . . .
٣٤٢ ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة.
٣١٥ ما هممت بما كان أهل الجاهلية يهمون به إلا مرتين.
١٤٢ ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة.
١٤٢ ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب.
١٤٥ مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم.
٢٦٤، ٣٤٢ مثلي كمثل رجل استوقد ناراً.
٦٣ مثلي ومثل الأنبياء من قبلي . . .
١١١ مر الملأ من قريش على النبي ﷺ وعنده صهيب
٢١٨ مفاتيح الغيب خمس.
١٨٤ من أتى عرافاً أو كاهناً.
٣٦٧ من أطاعني فقد أطاع الله.
٣٣ من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب.
١٤٦ من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً.
٣٢٢ من فجع هذه بولدها.

(ن هـ)

٣٢٢ نهى رسول الله أن يتخذ الروح غرضاً (ابن عباس).
٢٦٤ هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد (عائشة).
٣٥٨ هو نهر أعطيه نبيكم ﷺ (عائشة).

(و)

١٢ وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة.

ودِدت أن الله صرفني عن قبلة اليهود إلى غيرها. ٤٠٠
والذي نفس محمد بيده لو أن موسى كان حياً. ٣٤٨
والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة. ٥٢
والذي نفسي بيده إنه لفتح. ٣٠٥
والذي نفسي بيده ما على الأرض مسلم يصيبه أخرى. ١٤٣
وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم (حوار أبي سفيان وهرقل). ١٠٦
وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء. ٣٩٨
والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله (ابن عباس). ٢٩٢
وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً. ١٩٣
الويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر. . . ٢٩٥

(لا)

لا تخيروا بين الأنبياء. ٣٤٥
لا تخيروني على موسى. ٣٤٦
لا تفضلوا بين أنبياء الله. ٣٤٥
لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه. ٣٤٢
لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى. ٣٤٦

(ي)

يا أم سلمة ليس أدمي إلا وقلبه. ١٤
يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة. ٣١٨
يا رسول الله ما أشدها عليك (أبو سعيد الخدري). ١٤٤
يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل. ٢٠٦
يا مقلب القلوب ثبت قلبي. ١٠
يا يهودي أنشدك الله. ٨٥
يدعى نوح يوم القيامة فيقول لبيك. ٣٦١
يرحم الله موسى، فقد أوذي. . . ٢٨٠

فهرس الأعلام المترجم لهم
مرتبة على حروف المعجم

أ

الصفحة	الاسم
٣٢٣	ابراهيم بن محمد السري الزجاج (الزجاج)
٣٥	أحمد عبد الحليم بن عبد السلام (ابن تيمية)
٣٤٨	أحمد عبد الله بن أحمد الأصبهاني
١٨٢	أحمد بن علي حجر العسقلاني (ابن حجر)
٤٠٨	أحمد علي الرازي الحنفي (الجصاص)
٢٧٢	أحمد مصطفى المراغي
٢٨٩	أسماء بنت أبي بكر الصديق
٤١	إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة (السدي)
٨٦	إسماعيل بن عمر بن كثير (ابن كثير)
٢٠٦	أسيد بن حضير بن سماك
١١٠	الأقرع بن حابس
١٤	أنس بن مالك
١٨٠	أنيس بن جنادة الغفاري

ب ث

الصفحة	الاسم
٣٢٥	البراء بن عازب
٨١	بشر بن البراء معرور
١٠٧	بلال بن رباح الحبشي

٣٨٥ ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري

ج ح خ

٣٢٥ جابر بن سمرة جنادة
٣٢٦ جعفر بن أبي طالب
٣٥٨ جعفر بن أبي وحشية إياس اليشكري (أبو بشر)
٥٧ جمال الدين محمد بن سعيد بن قاسم (القاسمي)
١١٢ جندب بن جنادة الغفاري (أبو ذر)
٣٢١ الحارث بن مالك (أبو واقد الليثي)
٢٠٨ حسان بن ثابت بن المنذر
٢٠٣ الحسن البصري بن أبي الحسن
١٦٥ الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني (الراغب)
٢٠٨ حمنة بنت جحش الأسدية
١١٠ خباب بن الأرت
٤٨ الخنساء بنت عمرو

ز س ش

٥٠ زيد بن عمرو بن نفيل
٨٦ سلمان الفارسي
٢٦٠ سراقة بن مالك بن جعشم
٢٠٦ سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي
٨٨ سعد بن مالك بن أهيب (سعد بن أبي وقاص)
١٤٤ سعد بن مالك بن سنان (أبو سعيد الخدري)
٢٠٦ سعد بن معاذ
٣٣١ سهل بن عبد الله التستري
٤٠ سيد قطب
٣٢١ شداد بن أوس بن ثابت (أبو يعلى)
١٤ شهر بن حوشب

ص ض ط

١٠٦ صخر بن حرب بن أمية (أبو سفيان)
٢٠٥ صفوان بن المعطل بن ربيعة

٨٧ صفية بنت حيي بن أخطب (أم المؤمنين)
٣٣ صهيب بن سنان الرومي
١٣٣ الضحاك بن مزاحم الهلالي (الضحاك)
٢٨٨ طارق بن عبد الله المحاربي

ع

٨٢ عاصم بن عمر بن قتادة
١٨٨ عبد الحق بن غالب بن عطية الغرناطي (ابن عطية)
١٩٨ عبد الرحمن بن أبي حاتم التميمي (ابن أبي حاتم)
١٦٢ عبد الرحمن إسماعيل بن عثمان المقدسي (أبو شامة)
٢٩٨ عبد الرحمن بن غنم الأشعري
٣٣٩ عبد العزيز بن عبد السلام الدمشقي (العز بن عبد السلام)
١٣٢ عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الرومي (ابن جريج)
١٧٩ عبد الملك بن هشام الذهلي السدوس (ابن هشام)
٣٧٤ عبد الله بن سرجس المُزني
٨٢ عبد الله بن سلام بن الحارث
١٨٠ عبد الله بن الصامت الغفاري
٢٩ عبد الله بن العباس بن عبد المطلب (ابن عباس)
٣٨٤ عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة (ابن أبي مليكة)
١٠٤ عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي (البيضاوي)
١٣ عبد الله بن قيس (أبو موسى الأشعري)
١٢ عبد الله بن مسعود
٨٥ عطاء بن يسار الهلالي
١١١ عكرمة بن عبد الله البربري
٣٧٣ علي بن أبي علي التغلبي الحنبلي
١٦٦ علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (الواحدي)
٣٧٤ علي بن ربيعة الوالبي الكوفي
١٠٧ عمار بن ياسر بن عامر
١١٠ عيينة بن حصن الغزاري

ق ك

٧١ قتادة بن دعامة السدوسي

٧٦ كعب بن ماتع الحميري (كعب الأحبار)

م

٧٣ مجاهد بن جبر
٣٠٥ مجمع بن جارية الأنصاري
٢١٧ محمد بن أحمد أبو زهرة
١٢٧ محمد بن أحمد بن أبي الأنصاري المالكي (القرطبي)
٢٤٣ محمد بن أحمد بن جُزي الكلبي (ابن جزي)
٣٩٥ محمد بن أحمد السفاريني
٨٢ محمد بن إسحاق بن يسار (ابن إسحاق)
٩٥ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي
٢٣٧ محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي
٣٠ محمد بن جرير الطبري (ابن جرير)
٣٤١ محمد بن الحسن الموصلي البغدادي النقاش
٥٤ محمد الطاهر بن عاشور
٣٣٧ محمد بن عبد الرحمن السخاوي (السخاوي)
٢٣٥ محمد بن عبد العظيم الزرقاني
٧٧ محمد بن عبد الله بن أحمد بن العربي (ابن العربي)
٧٤ محمد بن عبد الله النيسابوري (الحاكم)
٧٦ محمد بن علي الشوكاني
٦٦ محمد بن عمر بن حسين (الفخر الرازي)
١٤ محمد بن عيسى بن سورة (الترمذي)
٤٠٦ محمد بن القاسم بن بشار بن الأنباري (ابن الأنباري)
٢٢٩ محمد بن كعب القرظي
١٢٠ محمد بن محمد بن مصطفى العمادي (أبو السعود)
٣٠٦ محمد بن مسلم بن شهاب الزهري
١١٠ محمد بن يزيد الربعي (ابن ماجه)
١٦٥ محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي (المبرد)
٢٢٤ محمد بن يوسف بن علي الأندلسي (أبو حيان)
٩٢ محمود أفندي الآلوسي (الآلوسي)
٦٦ محمود بن عمر بن محمد الزمخشري (الزمخشري)
٢٠٨ مسطح بن أثاثة بن عباد

١٤٣ مصعب بن سعد بن أبي وقاص
١٥ معاذ بن جبل
٣٣٣ معمر بن المثنى اللغوي البصري (أبو عبيدة)
٢٩٧ مقاتل بن سليمان الأزدي
١٣ المقداد بن الأسود

ن ي

٣٥٠ نصر بن محمد السمرقندي
٣٨٢ نفيع بن الحارث (أبو بكرة)
٢٨٩ يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور (الفراء)
٢٧٩ يحيى بن شرف بن مري بن حسن (النووي)

الكنى

٣٥٥ ابن جدعان
٣٢ أبو كبشة الأنماري
١٤ أم سلمة بنت أبي أمية (أم المؤمنين)

فهرس المصادر والمراجع
مرتبة على حروف المعجم

القرآن الكريم

(أ)

١ ـ الإبتلاء والمحن في الدعوات. محمد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان، عمان، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ.

٢ ـ الإتقان في علوم القرآن. جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. مكتبة دار التراث: القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥ هـ.

٣ ـ الإحكام في أصول الأحكام. علي بن محمد الآمدي، تعليق: عبد الرزاق عفيفي. المكتب الإسلامي: بيروت، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٢ هـ.

٤ ـ أحكام القرآن. أبي بكر ابن العربي، تحقيق: علي محمد البيجاوي. دار المعرفة: بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٩٢ هـ.

* ٤ ـ أساس البلاغة. محمود عمر الزمخشري. دار بيروت، الطبعة (بدون)، ١٤٠٤ هـ.

٥ ـ الأساس في التفسير. سعيد حوى. دار السلام: القاهرة، حلب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ.

٦ ـ أسباب نزول القرآن. أبي الحسن علي بن الواحدي، تحقيق: أحمد صقر. دار القبلة للثقافة الإسلامية: المكان (بدون)، الطبعة الثانية، ١٤٠٤ هـ.

٧ ـ الإصابة في تمييز الصحابة. ابن حجر العسقلاني. دار الكتب العلمية: بيروت، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون).

٨ ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي. المطابع الأهلية للأوفست: الرياض، الطبعة (بدون)، ١٤٠٣ هـ.

٩ ـ الأعلام ـ قاموس تراجم ـ خير الدين الزركلي. دار العلم للملايين: بيروت، الطبعة السادسة، ١٩٨٤ م.

١٠ ـ أعلام الموقعين عن رب العالمين. ابن قيم الجوزية، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد. دار الجيل: بيروت، الطبعة (بدون)، ١٩٧٣ م.

١١ ـ أعلام النبوة، أبي الحسن علي بن محمد الماوردي الشافعي. دار الكتب العلمية: بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ.

١٢ ـ أعلام النساء. عمر رضا كحالة. مؤسسة الرسالة: بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠٤ هـ.

١٣ ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المعروف بتفسير البيضاوي. ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي. وبهامشه: حاشية أبي الفضل القرشي، المشهور بالكازروني. مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع: بيروت، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون).

(ب)

١٤ ـ بداية السُؤْل في تفضيل الرسول ﷺ. العز عبد العزيز بن عبد السلام السلمي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي: دمشق، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٦ هـ.

١٥ ـ البداية والنهاية. أبو الفداء إسماعيل بن عمرو بن كثير. مكتبة المعارف: بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٢ هـ.

١٦ ـ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع. محمد بن علي الشوكاني. مكتبة ابن تيمية: القاهرة، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون).

١٧ ـ البرهان في علوم القرآن. بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة: بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩١ هـ.

(ت)

١٨ ـ تاج العروس من جواهر القاموس. محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق: عبد العليم الطحاوي، راجعه: مصطفى حجازي. دار الجيل، مطبعة حكومة الكويت: الكويت، الطبعة (بدون)، ١٤٠٤ هـ.

١٩ ـ تاريخ الثقات. أحمد بن عبد الله العجلي، بترتيب: نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي،

تحقيق: عبد المعطي قلعجي. دار الكتب العلمية: بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ.

* ١٩ - تاريخ الدولة العثمانية. محمد فريد بك المحامي، تحقيق: إحسان حقي. دار النفائس: بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ هـ.

٢٠ - التبيان في أقسام القرآن. ابن قيم الجوزية، تحقيق: طه يوسف شاهين. مكتبة ابن تيمية: المكان (بدون)، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون).

٢١ - تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي. محمد بن عبد الرحمن المباركفوري، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان. دار الفكر: المكان (بدون)، الطبعة الثالثة، ١٣٩٩ هـ.

٢٢ - تذكرة الحفاظ. شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي. دار الفكر العربي: المكان (بدون)، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون).

٢٣ - التسهيل لعلوم التنزيل. محمد بن أحمد بن جزي الكلبي. دار الكتاب العربي: بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٣ هـ.

٢٤ - التشريع والفقه في الإسلام - تاريخاً ومنهجاً. مناع خليل القطان. مؤسسة الرسالة: بيروت، الطبعة السابعة، ١٤٠٧ هـ.

٢٥ - تفسير أبي السعود، المسمى: «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم». أبي السعود محمد بن محمد العمادي. دار إحياء التراث العربي: بيروت، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون).

٢٦ - تفسير البحر المحيط. محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، وبهامشه: تفسير النهر الماد من البحر لأبي حيان، وكتاب «الدر اللقيط من البحر المحيط». دار الفكر: المكان (بدون)، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ هـ.

٢٧ - تفسير البغوي، المسمى: معالم التنزيل. أبي محمد الحسين البغوي، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك، ومروان سوار. دار المعرفة: بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ.

٢٨ - تفسير التحرير والتنوير. الطاهر بن عاشور. الدار التونسية للنشر: تونس، الطبعة (بدون)، ١٩٨٤ م.

٢٩ - تفسير الخازن المسمى: «لباب التأويل في معاني التنزيل». علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الصوفي، المعروف بالخازن، دار المعرفة: بيروت، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون).

٣٠ - تفسير الطبري المسمى «جامع البيان عن وجوه تأويل آي القرآن» أبي جعفر محمد بن جرير

الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ومحمود محمد شاكر. دار المعارف: القاهرة، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون).

٣١ ـ تفسير القاسمي، المسمى: «محاسن التأويل». محمد جمال الدين القاسمي، تعليق وتصحيح: محمد فؤاد عبد الباقي. دار الفكر: بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٨ هـ.

٣٢ ـ تفسير القرآن الحكيم، الشهير «بتفسير المنار». محمد رشيد رضا. دار المعرفة: بيروت، الطبعة الثانية، التاريخ (بدون).

٣٣ ـ تفسير القرآن العظيم. أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تقديم يوسف عبد الرحمن المرعشلي. دار المعرفة: بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧ هـ.

٣٤ ـ التفسير الكبير، المسمى «مفاتيح الغيب». الفخر الرازي. دار إحياء التراث العربي: بيروت، الطبعة الثالثة، التاريخ (بدون).

٣٥ ـ تفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. دار إحياء التراث العربي: بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٥ م.

٣٦ ـ التفسير والمفسرون. محمد حسين الذهبي. دار الكتب الحديثة: مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٦ هـ.

(ج)

٣٧ ـ جامع البيان في تفسير القرآن. أبي جعفر محمد بن جرير الطبري. دار المعرفة: بيروت، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون).

٣٨ ـ الجامع لأحكام القرآن. أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. دار الكتاب العربي: بيروت، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون).

٣٩ ـ جلاء الأفهام في الصلاة على خير الأنام. ابن قيم الجوزية، تحقيق: طه يوسف شاهين. وكالة المطبوعات، دار القلم: الكويت، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨١ م.

٤٠ ـ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح. ابن تيمية، إشراف: علي السيد صبح المدني. دار المدني: القاهرة، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون).

(ح)

٤١ ـ حاشية الصاوي على تفسير الجلالين. أحمد الصاوي المالكي. دار الفكر: المكان (بدون)، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون).

٤٢ ـ حاشية كتاب التوحيد. عبد الرحمن محمد قاسم. الناشر (بدون): المكان (بدون)، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨ هـ.

٤٣ ـ الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا. يوسف القرضاوي. مؤسسة الرسالة: بيروت، الطبة (بدون)، ١٤٠٠ هـ.

(خ)

٤٤ ـ خاتم النبيين ﷺ. محمد أبو زهرة، تحقيق: عبد الله إبراهيم الأنصاري. المكتبة العصرية: صيدا، بيروت، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون).

(د)

٤٥ ـ دراسات قرآنية. محمد قطب. دار الشروق: بيروت، القاهرة، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون).

٤٦ ـ الدر المنثور في التفيسر بالمأثور. عبد الرحمن جلال الدين السيوطي. دار الفكر: بيروت، الطبعة الأولى، التاريخ (بدون).

٤٧ ـ الدعوة إلى الله ـ الرسالة ـ الوسيلة ـ الهدف. توفيق الواعي. مكتبة الفلاح: الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ.

٤٨ ـ دعوة الرسل إلى الله تعالى. محمد أحمد العدوي. مكتبة العلوم والحكم: المدينة المنورة، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون).

٤٩ ـ دلائل التوحيد. محمد جمال الدين القاسمي. دار الكتب العلمية: بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ.

٥٠ ـ دلائل النبوة. أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: عبد المعطي قلعجي. دار الكتب العلمية: بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ.

٥١ ـ دلائل النبوة. أبي نعيم الأصبهاني. تحقيق: محمد رواس قلعه جي، وعبد البر عباس. دار النفائس: بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ هـ.

٥٢ ـ دلائل النبوة. إسماعيل بن محمد الأصبهاني، تحقيق: محمد بن محمد الحداد. دار طيبة: الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ.

٥٣ ـ الدين ـ بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان. محمد عبد الله دراز. دار القلم: الكويت، الطبعة (بدون)، ١٤٠٠ هـ.

(ر)

٥٤ ـ الرسالة. محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق: أحمد شاكر. دار الكتب العلمية: بيروت، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون).

٥٥ ـ الرسالة التدمرية ـ مجمل اعتقاد السلف ـ ابن تيمية، تحقيق زهير الشاويش. المكتب الأسلامي: دمشق، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠ هـ.

٥٦ ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. محمود الآلوسي. دار إحياء التراث العربي: بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥ هـ.

٥٧ ـ الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام. أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي السهيلي، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار المعرفة، المكان (بدون)، الطبعة (بدون)، ١٣٩٨ هـ.

(ز)

٥٨ ـ زاد المسير في علم التفسير. أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي. المكتب الإسلامي: دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٤ هـ.

٥٩ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد. ابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار الإسلامية: بيروت، الكويت، الطبعة الثانية، ١٤٠١ هـ.

* ٥٩ ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة. محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي: بيروت، دمشق، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥ هـ.

(س)

٦٠ ـ سنن أبي داود. أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، تعليق: عزت عبيد الدعاس. دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع: بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٨ هـ.

٦١ ـ سنن الترمذي. أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة، تحقيق: أحمد شاكر. دار إحياء التراث العربي: بيروت، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون).

٦٢ ـ سنن النسائي. للإمام النسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة. دار البشائر الإسلامية: بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ هـ.

٦٣ ـ السنة النبوية ومكانتها في ضوء القرآن الكريم. محمد حبيب الله مختار. المكتبة النبوية: كراتشي، الطبعة (بدون)، ١٤٠٧ هـ.

٦٤ ـ سير أعلام النبلاء. شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة: بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣ هـ.

٦٥ ـ سيرة الرسول، صور مقتبسة من القرآن الكريم. محمد عزة دروزة، عناية: عبد الله إبراهيم الأنصاري. طبعة إدارة إحياء التراث الإسلامي بقطر: قطر، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون).

٦٦ ـ السيرة النبوية في ضوء القرآن الكريم والسنة. محمد بن محمد أبو شهبة. دار القلم: دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ.

٦٧ ـ السيرة النبوية. أبي الحسن الندوي، المطبعة العصرية للطباعة والنشر: صيدا، الطبعة (بدون)، ١٣٩٩ هـ.

٦٨ ـ سيرة النبي ﷺ، المشهورة بـ «سيرة ابن هشام». أبي محمد عبد الملك بن هشام، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. دار الفكر: المكان (بدون)، الطبعة (بدون)، ١٤٠١ هـ.

(ش)

٦٩ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب. أبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، دار الفكر: المكان (بدون)، الطبعة الأولى، ١٣٩٩ هـ.

٧٠ ـ شرح العقيدة الطحاوية. علي بن علي بن محمد بن أبي العز، تحقيق: شعيب الأرنؤوط. مكتبة دار البيان: دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠١ هـ.

٧١ ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى. عياض بن موسى اليحصبي الأندلسي، تحقيق: أسامة الرفاعي، وجمال السيروان. دار الفيحاء: عمان، الطبعة الثانية، ١٤٠٧ هـ.

٧٢ ـ شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام. أبي الطيب تقي الدين الفاسي، تحقيق: عمر عبد السلام تدمُري. دار الكتاب العربي: بيروت. الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ.

٧٣ ـ شمائل الرسول ﷺ. أبي الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق: مصطفى عبد الواحد. دار المعرفة: بيروت، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون).

٧٤ ـ الشمائل المحمدية، أبي عيسى محمد بن سورة الترمذي، تحقيق: محمد عفيف الزعبي. دار العلم للطباعة والنشر: جدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٣ هـ.

٧٥ ـ الصحوة الإسلامية ـ إلى أين؟. عدنان علي رضا النحوي. دار النحوي للنشر والتوزيع: الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ.

٧٦ ـ صحيح البخاري. محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البُغا. دار اليمامة: دمشق، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ هـ.

٧٧ ـ صحيح الجامع الصغير وزيادته. محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي: دمشق، بيروت، الطبعة الثاني، ١٤٠٦ هـ.

٧٨ ـ صحيح سنن ابن ماجه. محمد ناصر الدين الألباني. مكتب التربية العربي لدول الخليج، إشراف المكتب الإسلامي: بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨ هـ.

٧٩ ـ صحيح سنن أبي داود. محمد ناصر الدين الألباني. مكتب التربية العربي لدول الخليج، إشراف المكتب الإسلامي: بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ.

٨٠ ـ صحيح سنن الترمذي. محمد ناصر الدين الألباني. مكتب التربية العربي لدول الخليج، إشراف المكتب الإسلامي: بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨ هـ.

٨١ ـ صحيح مسلم. أبي الحسين مسلم بن حجاج القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي: المكان (بدون)، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون).

(ط)

٨٢ ـ طبقات المفسرين. شمس الدين محمد بن علي الداوودي. دار الكتب العلمية: بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣ هـ.

٨٣ ـ طريق الدعوة في ظلال القرآن، جمع وإعداد: أحمد فائز. الشركة المتحدة للتوزيع: بيروت، الطبعة السادسة، ١٩٧٨ م.

(ع)

٨٤ ـ العبودية. ابن تيمية. المكتب الإسلامي: بيروت، الطبعة الخامسة، ١٣٩٩ هـ.

٨٥ ـ عداء اليهود للحركة الإسلامية. زياد محمود علي. دار الفرقان: عمان، الطبعة الأولى، ١٤٠٢ هـ.

٨٦ ـ عظيم قدره ﷺ ورفعة مكانته عند ربه عز وجل. خليل إبراهيم ملا خاطر. دار القبلة الإسلامية: جدة، الطبعة الخامسة، ١٤٠٤ هـ.

٨٧ ـ العقيدة في الله. عمر سليمان الأشقر. مكتبة الفلاح: الكويت، الطبعة الثانية، ١٩٧٩ م.

٨٨ ـ العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم. محمد بن إبراهيم بن الوزير اليماني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط. دار البشير: عمان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ.

(ف)

٨٩ ـ الفائق في غريب الحديث. جار الله محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: محمد أبو الفضل

إبراهيم، وعلي محمد البيجاوي. دار المعرفة: بيروت، الطبعة الثانية، التاريخ (بدون).

٩٠ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري. ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب. المكتبة السلفية: القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ هـ.

٩١ ـ فتح البيان في مقاصد القرآن. صديق حسن خان. دار الفكر العربي: المكان (بدون)، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون).

٩٢ ـ الفتح الرباني لترتيب مسند أحمد مع شرحه بلوغ الأماني. أحمد عبد الرحمن البنا. دار الشهاب: القاهرة، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون).

٩٣ ـ فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير. محمد بن علي الشوكاني. دار الفكر: المكان (بدون)، الطبعة (بدون)، ١٤٠١ هـ.

٩٤ ـ الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية. سليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل، بهامشه تفسير الجلالين، وإملاء ما منّ به الرحمن من وجوه الأعراب والقراءات في جميع القرآن للعكبري. دار إحياء التراث العربي: بيروت، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون).

٩٥ ـ فقه السيرة. محمد سعيد رمضان البوطي. دار الفكر: المكان (بدون)، الطبعة الثامنة، ١٤٠٠ هـ.

٩٦ ـ الفوائد. ابن القيم الجوزية، تحقيق: أحمد راتب عرموش. دار النفائس: بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٩ هـ.

٩٧ ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير. عبد الرؤوف المناوي. دار الفكر: المكان (بدون)، الطبعة الثانية، ١٣٩١ هـ.

٩٨ ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. دار الشروق: بيروت، الطبعة (بدون)، ١٣٩٣ هـ.

(ق)

٩٩ ـ القصص القرآني ـ إيحاؤه ونفحاته ـ فضل حسن عباس. دار الفرقان: عمان ـ الأردن ـ الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ.

١٠٠ ـ قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل. عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني. دار القلم: دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٩ هـ.

١٠١ ـ قواعد الدعوة إلى الله. همام عبد الرحمن سعيد. دار العدوي: عمان ـ الأردن ـ الطبعة الأولى، ١٤٠٣ هـ.

١٠٢ ـ القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع. شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي. دار الكتب العلمية: بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ.

(ك)

١٠٣ ـ كتاب الأمثال. أبي عبيد القاسم بن سلام، تحقيق وتعليق: عبد المجيد قطامش. دار المأمون للتراث: دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٠ هـ.

١٠٤ ـ كتاب التعريفات. الشريف علي بن محمد الجرجاني. دار الكتب العلمية: بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣ هـ.

١٠٥ ـ كتاب الثقات. محمد بن حبان التميمي البستي. مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية: حيدر آباد الدكن ـ الهند، الطبعة الأولى، ١٣٩٨ هـ.

١٠٦ ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي. دار المعرفة: بيروت، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون).

١٠٧ ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال. علاء الدين علي المتقي بن حسام الهندي. مؤسسة الرسالة: بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥ هـ.

(ل)

١٠٨ ـ لباب النقول في أسباب النزول. جلال الدين السيوطي. دار إحياء العلوم: بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠ هـ.

١٠٩ ـ لسان العرب. أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور. دار صادر: بيروت، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون).

١١٠ ـ لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية، شرح الدرة المضيّة في عقيدة الفرقة المرضيّة. محمد أحمد السفاريني، تعليق: عبد الرحمن أبابطين، وسليمان بن سُحمان. المكتب الإسلامي، مكتبة أسامة: بيروت، الرياض، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون).

(م)

١١١ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين. أبي الحسن علي الندوي. دار القلم: الكويت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢ هـ.

١١٢ ـ ما هي القاديانية. أبي الأعلى المودودي. دار القلم: الكويت، الطبعة (بدون)، ١٤٠١ هـ.

١١٣ ـ مباحث في التفسير الموضوعي. مصطفى مسلم. دار القلم: دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠ هـ.

١١٤ ـ مباحث في علوم القرآن. مناع خليل القطان. مؤسسة الرسالة: المكان (بدون)، الطبعة السابعة، ١٤٠٢ هـ.

١١٥ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. نور الدين الهيثمي ـ دار الكتاب العربي: بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢ هـ.

١١٦ ـ مجموعة التوحيد، رسائل الشيخ أحمد بن تيمية، والشيخ محمد بن عبد الوهاب. دار الفكر: المكان (بدون)، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون).

١١٧ ـ مجموع فتاوي شيخ الإسلام أحمد بن تيمية. جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي، إشراف الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين. تنفيذ: مكتبة النهضة الحديثة، مكة، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون).

١١٨ ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. أبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، والرّحالي الفاروق، والسيد عبد العال السيد إبراهيم، ومحمد الشافعي صادق العنابي. رئاسة المحاكم الشرعية بقطر: الدوحة، الطبعة الأولى، ١٣٩٨ هـ.

١١٩ ـ محمد رسول الله. محمد الصادق عرجون. دار القلم: دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ.

١٢٠ ـ محمد رسول الله ـ هكذا بشرت به الأناجيل. بشرى زخاري ميخائيل. عالم الكتب: القاهرة، الطبعة الثانية، التاريخ (بدون).

١٢١ ـ مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي ـ مكتبة لبنان ـ بيروت، الطبعة (بدون)، ١٩٨٦ م.

١٢٢ ـ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين. ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي. دار الكتاب العربي: بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٣ م.

١٢٣ ـ المدخل لدراسة القرآن الكريم. محمد محمد أبو شبهة. دار اللواء: الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ هـ.

١٢٤ ـ مرآة الإسلام. طه حسين. دار المعارف: مصر، الطبعة (بدون)، ١٩٦٦ م.

١٢٥ ـ المستدرك على الصحيحين في الحديث. أبي عبد الله المعروف بالحاكم، وفي ذيلة تلخيص المستدرك. لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي. دار الكتب العلمية: المكان (بدون)، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون).

١٢٦ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل وبهامشه كنز العمال، للهندي. دار الباز: مكة المكرمة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨ هـ.

١٢٧ ـ مشكاة المصابيح. محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي: بيروت، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥ هـ.

١٢٨ ـ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي. أحمد بن محمد الفيومي. دار الكتب العلمية: بيروت، الطبعة (بدون)، ١٣٩٨ هـ.

١٢٩ ـ معالم الدعوة في القصص القرآني (رسالة دكتوراه). عبد الوهاب بن لطفي الديلمي. دار المجتمع: جدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ.

١٣٠ ـ معاني القرآن. أبي زكريا يحيى بن زياد الفراء. عالم الكتب: بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣ م.

١٣١ ـ معجم البلدان. ياقوت بن عبد الله الحموي ـ دار إحياء التراث العربي: بيروت، الطبعة (بدون)، ١٣٩٩ هـ.

١٣٢ ـ المعجم الكبير. أبي القاسم سليمان أحمد الطبراني، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي. مكتبة ابن تيمية: المكان (بدون)، الطبعة الثانية، التاريخ (بدون).

١٣٣ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن. محمد فؤاد عبد الباقي. دار القلم: بيروت، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون).

١٣٤ ـ معركة النبوة مع المشركين. إبراهيم زيد الكيلاني. مكتبة الأقصى: عمان ـ الأردن ـ الطبعة (الأولى)، ١٤٠١ هـ.

١٣٥ ـ مع قصص السابقين في القرآن (٣). صلاح عبد الفتاح الخالدي. دار القلم: دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ.

١٣٦ ـ المغيث في غريبي القرآن والحديث. محمد أبي بكر الأصفهاني، تحقيق: عبد الكريم العزباوي. جامعة أم القرى ـ مركز إحياء التراث الإسلامي: مكة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ.

١٣٧ ـ مفتاح دار السعادة. ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية: بيروت، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون).

١٣٨ ـ المفردات في غريب القرآن. أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق وضبط: محمد سيد كيلاني. دار المعرفة: بيروت، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون).

١٣٩ ـ مقارنة الأديان (٣). أحمد شلبي. مكتبة النهضة: القاهرة، الطبعة السادسة، ١٩٧٩ م.

١٤٠ ـ مقاييس اللغة، أبي الحسين أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون. دار الفكر: المكان (بدون)، الطبعة (بدون)، ١٣٩٩ هـ.

١٤١ ـ الملل والنحل. محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني. دار المعرفة: بيروت، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون).

١٤٢ ـ من أجل خطوة إلى الأمام على طريق الجهاد المبارك. سعيد حوى. دار الباز: مكة المكرمة، الطبعة الثانية، ١٣٩٩ هـ.

١٤٣ ـ مناهل العرفان في علوم القرآن. محمد بن عبد العظيم الزرقاني. دار إحياء الكتب العلمية: المكان (بدون)، الطبعة الثالثة، التاريخ (بدون).

(ن)

١٤٤ ـ النبوات. ابن تيمية. دار الكتب العلمية: بيروت، الطبعة (بدون)، ١٤٠٥ هـ.

١٤٥ ـ النبوة والأنبياء. محمد علي الصابوني. دار القلم: دمشق، الطبعة الرابعة، ١٤٠٩ هـ.

١٤٦ ـ النهاية في غريب الحديث. أبي السعادات المبارك محمد بن الجزري ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي. المكتبة العلمية: بيروت، الطبعة (بدون)، التاريخ (بدون).

(هـ)

١٤٧ ـ هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى. ابن قيم الجوزية. دار الكتب العلمية: بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ.

١٤٨ ـ الهدي النبوي في الرقائق. شرف القضاة. دار الفرقان: عمان ـ الأردن ـ الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ.

(و)

١٤٩ ـ الوفاء بأحوال المصطفى. أبي الفرج عبد الرحمن الجوزي، تحقيق: مصطفى عبد الواحد. دار الكتب الحديثة: مصر، الطبعة الأولى، ١٣٨٦ هـ.

١٥٠ ـ اليوم الآخر في ظلال القرآن. جمع وإعداد: أحمد فائز. مؤسسة الرسالة: بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠١ هـ.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٩
ـ أهمية الموضوع	١١
ـ سبب اختياري للموضوع	١٢
ـ منهج البحث	١٦
ـ خطة البحث	١٩
التمهيد	
المبحث الأول: حكمة الله في إرسال الأنبياء والرسل ـ عليهم السلام	٢٧
المطلب الأول: رحمة الله بالعالمين	٢٧
المطلب الثاني: حاجة البشر الشديدة إلى هُدى الرسل ـ عليهم السلام	٣٠
المطلب الثالث: إقامة الحجة على الناس	٣٧
المبحث الثاني: سنة الله في الصراع بين الحق والباطل	٣٩
الباب الأول	
تثبيت الرسول ﷺ من خلال قصص النبيين والأمم السابقة	
الفصل الأول	
وحدة الرسالات السماوية في العقيدة وأصول التشريع	٤٩
المبحث الأول: اتفاق الرسل في العقيدة	٥٢
المطلب الأول: اتفاقهم في الدعوة إلى توحيد الله عز وجل	٥٢
المطلب الثاني: اتفاقهم في تقرير اليوم الآخر	٥٩

المطلب الثالث: وحدة الرسل وترابطهم ٦٢
المبحث الثاني: اتفاق الرسل في أصول التشريع ٦٩
المطلب الأول: الاتفاق في أصول العبادات ٧١
المطلب الثاني: الاتفاق في أصول المعاملات ٧٤

الفصل الثاني

إثبات نبوة محمد ﷺ ٨٠
المبحث الأول: بشارة الأنبياء ببعثة الرسول ﷺ ٨٠
المبحث الثاني: إخباره ﷺ عن قصص وأحداث وقعت في الزمان الغابر ٩٠

الفصل الثالث

سنة الله في مواقف الأمم من دعوة الرسل عليهم السلام ٩٧
المبحث الأول: تكذيب الملأ للرسل ومعاداتهم للدعوة ٩٧
المبحث الثاني: استجابة المستضعفين للرسل ١٠٥
المبحث الثالث: اعتراض المكذبين على الرسل في بشريتهم ١١٣
المبحث الرابع: استهزاء المكذبين بالرسل واتهامهم بالسحر والجنون ١٢٢
المبحث الخامس: تهديد المكذبين للرسل بالأذى ١٢٩
المبحث السادس: استعجال المكذبين نزول العذاب ١٤٧
المبحث السابع: انتصار الرسل وهزيمة أعدائهم ١٥١

الباب الثاني

إنزال القرآن الكريم على الرسول ﷺ منجماً وأثر ذلك في تثبيته

الفصل الأول

دفاع الله عن رسوله ﷺ ١٦٣
المبحث الأول: الرد على الشبهات والاتهامات وكشف المؤامرات ضد الرسالة والرسول ... ١٦٤
المطلب الأول: زعم الكفار أن القرآن الكريم أساطير الأولين ١٦٤
المطلب الثاني: اتهامهم الرسول ﷺ بالافتراء والكذب ١٦٩
المطلب الثالث: اتهامهم الرسول ﷺ بالسحر والجنون والشعر والكهانة ١٧٦
المطلب الرابع: شبهة بشرية الرسول ﷺ ١٨٦
المطلب الخامس: شبهة إنكارهم للبعث بعد الموت ١٩٠
المطلب السادس: مؤامرات اليهود في التشكيك بالإسلام ١٩٦

المطلب السابع: مؤامرات المنافقين للطعن في الإسلام ٢٠٤

المبحث الثاني: الإجابة عن تساؤلات المكذبين وتفنيد دعَاوَاهم ٢١٢
المطلب الأول: سؤالهم عن الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين والساعة ٢١٣
المطلب الثاني: طلبهم المعجزات الحسية تعنتاً ٢١٩
المطلب الثالث: اقتراحاتهم المتعلقة بالقرآن الكريم على سبيل التعجيز ٢٣٥
المطلب الرابع: ادعاؤهم وجود حواجز نفسية بينهم وبين الرسول ﷺ ٢٤٤
المطلب الخامس: ادعاؤهم أن اتّباعهم للرسول ﷺ يسلب عنهم الأمن والاستقرار ٢٤٦
المطلب السادس: استعجالهم نزول العذاب ٢٥٠
المبحث الثالث: إحباط المكائد التي تُحاك لقتله ﷺ ٢٥٥

الفصل الثاني

توجيه الله لرسوله ﷺ في مواجهة المكذبين

المبحث الأول: نهيه عن الحزن على المكذبين وقصر مهمته على التبليغ ٢٦٣
المبحث الثاني: نهيه ﷺ عن الشك ٢٦٨
المبحث الثالث: أمره ﷺ بالصبر والإعراض عن المكذبين ٢٧٥

الفصل الثالث

تأييد الله لرسوله ﷺ في مواجهة المكذبين

المبحث الأول: إهانة المكذبين بالنبي ﷺ ٢٨٣
المبحث الثاني: توعّد الله المؤذين للرسول ﷺ بالعذاب ٢٨٧
المبحث الثالث: وعد الله لرسوله ﷺ بالنصر والتمكن والفتح المبين وتحقق ذلك ٣٠٠

الباب الثالث

إظهار القرآن الكريم لمكانة النبي ﷺ وأثر ذلك في تثبيته وتكريمه

الفصل الأول

إبراز القرآن الكريم لصفات الرسول ﷺ وخصائصه والثناء عليه ٣١٢

المبحث الأول: وصفه ﷺ بالعبودية ٣١٢
المبحث الثاني: وصفه ﷺ بالخلق العظيم ٣١٤
المبحث الثالث: وصفه ﷺ بالرأفة والرحمة ٣١٧

المبحث الرابع: وصفه ﷺ بالسراج المنير ٣٢٢
المبحث الخامس: كون بعثته ﷺ منّة على المؤمنين ٣٢٥
المبحث السادس: كونه ﷺ خاتم النبيين ٣٢٧
المبحث السابع: شرح صدره ووضع وزره ورفع ذكره ﷺ ٣٣٠
المبحث الثامن: صلاة الله وملائكته عليه ٣٣٥
المبحث التاسع: ورود القسم مقترناً بذكره ﷺ ٣٣٨
المبحث العاشر: بيان أن النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم ٣٤١

الفصل الثاني

تفضيل النبي محمد ﷺ على سائر
الأنبياء السابقين عليهم الصلاة والسلام ٣٤٤
المبحث الأول: أخذ الميثاق على الأنبياء بتصديقه ٣٤٧
المبحث الثاني: تقديمه في الذكر على من تقدمه بالرسالة ٣٤٨
المبحث الثالث: مخاطبة الأنبياء عليهم السلام بأسمائهم وتلقيبه بالرسالة والنبوة ٣٤٩
المبحث الرابع: عموم رسالته ﷺ وخصوص رسالة الأنبياء السابقين ٣٥١
المبحث الخامس: مقامات انفرد بها ﷺ على سائر الأنبياء في الآخرة ٣٥٣
المطلب الأول: إعطاؤه مقاماً محموداً ٣٥٤
المطلب الثاني: إعطاؤه الكوثر ٣٥٦
المطلب الثالث: شهادته على الأمم يوم القيامة ٣٥٩

الفصل الثالث

أمر المؤمنين بطاعة النبي ﷺ ٣٦٢
المبحث الأول: الدعوة إلى الإيمان بالرسول ﷺ ٣٦٢
المبحث الثاني: الدعوة إلى طاعة رسول الله ﷺ وامتثال أمره، والتحذير
عن معصيته ومخالفة أمره ٣٦٤
المبحث الثالث: إيجاب الاقتداء والتأسي برسول الله ﷺ ٣٧١
المبحث الرابع: بيان ثمار اتّباع النبي ﷺ وعواقب مخالفته ٣٧٤

الفصل الرابع

أمر المؤمنين بالأدب مع النبي ﷺ ٣٧٧
المبحث الأول: نهي المؤمنين عن مناداته باسمه المجرد ٣٧٧
المبحث الثاني: نهي المؤمنين عن التقدم بين يدي الله ورسوله ٣٧٨

المبحث الثالث: نهي المؤمنين عن رفع أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ ٣٨١
المبحث الرابع: نهي المؤمنين عن مضايقة النبي ﷺ بكثرة مناجاته ٣٨٥
المبحث الخامس: توجيه المؤمنين لآداب النبي ﷺ والتعامل مع زوجاته ٣٨٧

الفصل الخامس

تأييده بالمعجزات وتلبية رغباته وإجابة دعائه واللطف في عتابه ﷺ ٣٩١
المبحث الأول: تأييد النبي ﷺ بالمعجزات ٣٩١
المبحث الثاني: تحويل القبلة إلى المسجد الحرام ٣٩٨
المبحث الثالث: إجابة دعاء النبي ﷺ ٤٠٠
المبحث الرابع: اللطف في عتاب النبي ﷺ ٤٠٢
الخاتمة ٤٠٨

الفهارس

- فهرس الآيات القرآنية ٤١٥
- فهرس الأحاديث والآثار ٤٤٣
- فهرس الأعلام المترجم لهم ٤٤٩
- فهرس المراجع والمصادر ٤٥٤
- فهرس الموضوعات ٤٦٧